سلسلة التراث الحضاري
٤٨

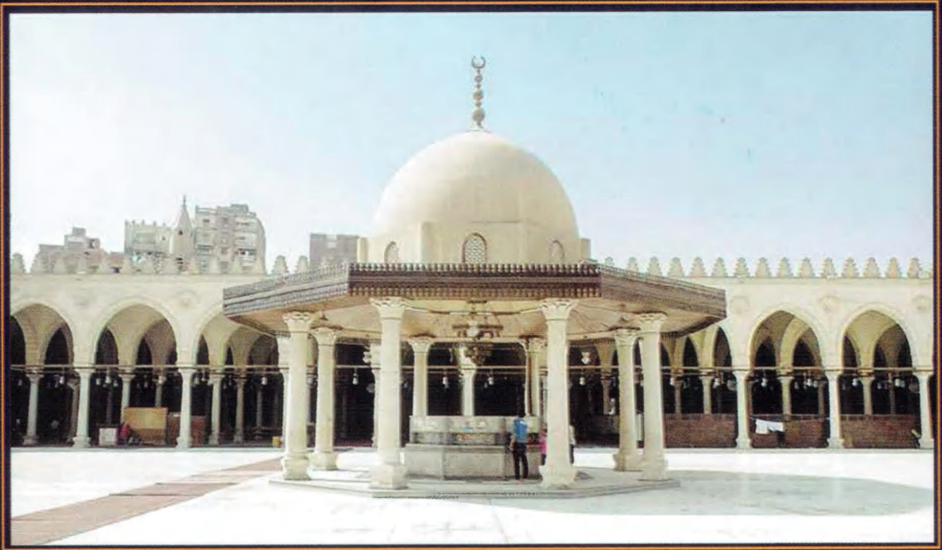
زُبدة كَشْفِ المَمَالِك

وبَيَانِ الطُّرُقِ وَالْمَسَالِك

تأليف الأمير

غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري الحنفي

(ت: ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م)



الجزء الأول

دراسة وتحقيق

د. محمد جمال حامد الشوربجي



زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك

زُبدة كَشْفِ الممَالِك

وبَيَانِ الطُّرُقِ وَالْمَسَالِك

الجزء الأول



زُبدة كَشْفِ الممَالِك وبيَانِ الطُّرُقِ وَالْمَسَالِك

تأليف الأمير

غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري الحنفي

(ت: ٨٧٣ هـ - ١٤٦٨م)

الجزء الأول

دراسة وتحقيق

د. محمد جمال حامد الشوربجي

الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للكتاب 2022

ص. ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C.: 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة التراث الحضاري

رقم الإيداع ٢٠٢٢/٢٢١٠٨
ISBN: 978 -977 -91 -3956 -2

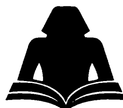
الإشراف الفني	تصحيح لغوي	تصميم الغلاف
محمد محمود سيد	أحمد محمد حسن	أحمد الجنايني

زُبدة كَشْفِ الممَالِك
وبَيَانِ الطُّرُقِ وَالْمَسَالِك

تأليف الأمير
غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري الحنفي
(ت: ٨٧٣هـ/١٤٦٨م)

الجزء الأول

دراسة وتحقيق
د. محمد جمال حامد الشوربجي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٢٣

هذا الكتاب

ردًا على جملة من التساؤلات المعرفية الشائعة في زمانه، تتبدى دوافع الأمير غرس الدين ابن شاهين الظاهري الحنفي، في تصنيف كتابه "كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك"، بقوله "أردت أن أوضح لكل ما أُشكل عليه وأُبين له طرقًا توصله إليه، فصنفت كتابًا وسميته كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، يشتمل على تعظيم مُلك مصر وسلطانها، وتفصيل جهاتها وأركانها، لأنها أعظم المدن، وسلطانها أعظم السلاطين، لأن وجوده ظل ظليل على العالمين، وذكرت أيضًا ما يشتمل حدود ملك مصر، وما به من الممالك ولم أطول الكلام واخترت الاختصار في ذلك".

لقد رتب ابن شاهين الذي عاش خلال العصر المملوكي كتابه المشار إليه هذا، أربعين بابا في مجلدين ضخمين، لكنه انتخب مما ورد بالكتاب، جملة من أساسيات مادته وضمنها كتابًا أسماه "زبدة كشف الممالك" رتبها في اثني عشر بابًا وهو ما نضعه بين يدي القارئ الكريم الآن، لأن الهدف من ذلك التيسير وكما يقول المؤلف هو "أن لا يحصل للمتأمل الملل، بل يسهل له الوصول لكل مقصد وأمل".

لقد أكد مصنف ابن شاهين هذا، وهو المكثف المختار من كتابه الموسع الأصلي، أن العصر المملوكي هو عصر الموسوعات بحق، فهو الزمن الذي وضع فيه ابن خلدون مقدمته وتاريخه المؤسسي لعلم الاجتماع، وكتب القلقشندي عمله الفذ "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" وكذا كانت أعمال المقريزي وابن إياس والعديد غيرهما من أعمدة هذا العصر، وكأن الحضارة

العربية الإسلامية، قد اتخذت من القاهرة متراسًا لها بعد سقوط بغداد، وضياع الأندلس، فسعت إلى مزيد من التوهج الفكري البحثي قبل أن تترزى بمصيبة الاحتلال العثماني وظلماته بعد ذلك في العام ١٥١٦ ميلادية.

لقد عكف على كتاب زبدة الممالك دراسة وبحثًا واحد من أهم الباحثين والمحققين الشباب، وهو الدكتور محمد الشوربجى، فنقب عن المؤلف وتاريخه، وضَمن قيمته في سياق عصره، كما أبرز أهمية مخطوط ابن شاهين هذا؛ ليستبين من خلاله جانب من زمن المماليك، والباحث بهذا الجهد القيم، أجاد، فأفاد، فليجازيه الله بكل خير، وليمنحه ما يستحق من ثواب على كل ذلك العلم المنير النافع لكل من اطلع عليه ودقق النظر فيه.

سلوى بكر

مُقدِّمة

شهد أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري تطورات خطيرة وسريعة على الساحة السياسية المصرية، فاستهلت سنة ٦٤٧هـ بحملة لويس التاسع مَلِك فرنسا على دمياط، ثم موت المَلِك الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب(٦٣٧-٦٤٧هـ) بمدينة المنصورة سنة ٦٤٧هـ، ثم معركة المنصورة وهزيمة لويس التاسع وأسره، ثم مجيء توران شاه من حصن كيفا، وتوليته المُلك في أول سنة ٦٤٨هـ ثم قتله، وتولية شجر الدر ثم عز الدين أيبك التركماني(٦٤٨-٦٥٤هـ) المُلك في السنة نفسها؛ وذلك إيذانًا بنهاية دولة بني أيوب في مصر وقيام دولة المماليك.

ثم لم تلبث الدولة الجديدة أن انشغلت بخطر التتار، فكسرتهم في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، وضمَّت البلاد الشامية حتى أطراف العراق تحت سُلطانها، عدا بعض مُدُن الساحل التي كانت تخضع للسيطرة الصليبية، والتي قام سلاطين المماليك بالاستيلاء عليها الواحدة تلو الأخرى حتى كان آخرها مدينة عكَّا التي سقطت على يد السُّلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة٦٩٠هـ، كما دخلت بلاد الحجاز والنوبة وبرقة وغيرها تحت السيادة المملوكية.

وهذه المساحة الشاسعة من الأراضي احتاجت إلى نظام إداري مُحكم للسيطرة عليها، وحمايتها، والاستفادة من خيراتها، وقد ورث المماليك أصول إدارتهم عن الفاطميين والأيوبيين.

وهذا النظام الإداري المُعقَّد احتاج إلى كُتب عامة وخاصة تُيسِّر فهم نظامه الداخلي وسير العمل فيه، فضلًا عن الكُتب الجغرافية التي تصف الممالك التابعة للسلطنة، وظهر هذا النوع بوضوح مع مطلع القرن الثامن الهجري، فألَّف

محمود بن سُليمان الحلبي(ت:٧٢٥هـ) كتابه "التوسل إلى صناعة الترسل"[١]، وصنَّف ابن فضل الله العُمري(ت:٧٤٩هـ) "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"[٢]، و"التعريف بالمُصطلح الشريف"[٣]، و"عُرف التعريف"[٤]، وكانت كُتبه رائدة لمن جاء بعده، فنقلوا منها، واحتجوا بها، ووضع ابن ناظر الجيش(ت:٧٨٦هـ) كتاب "تثقيف التعريف بالمُصطلح الشريف"[٥].

ثم جاء شهاب الدين القلقشندي(ت:٨٢١هـ) فألَّف موسوعته الضخمة المُسمَّاة "صُبح الأعشى في صناعة الإنشا"[٦]، وألَّف شمس الدين السحماوي(ت:٨٦٨هـ) كتاب "الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم"[٧]، واختصره في كتاب سمَّاه "العُرف الناسم من الثغر الباسم"[٨]، أمَّا ابن شاهين الظاهري(ت:٨٧٣هـ) فألَّف عِدَّة كُتب، عُرِفَ منها: "كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك" ومُختصَراته، و"كوكب المُلك وموكب التُّرك"[٩]، و"المنيف في الإنشاء الشريف"[١٠].

هذا فضلًا عن الكتب التي حوت عددًا من رسائل ديوان الإنشاء، كالرسائل المُتبادلة بين سلاطين المماليك وغيرهم من الملوك والأمراء، والمراسيم المُتعلِّقة بالوظائف ونحو ذلك، ومن أمثلة هذا النوع كتاب "قهوة الإنشاء"[١١] لابن حِجَّة الحموي(ت:٨٣٧هـ)، ومجموعة إنشاءات جمعها مؤلِّف مجهول[١٢]، وهي مُهمة جدًّا في دراسة العلاقات الخارجية المصرية زمن المماليك.

---

[١] حققه أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠م، ٤١٦ص.

[٢] له عدة نشرات كاملة وجزئية.

[٣] حققه سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، الأردن، ١٩٩٢م، ٤٢٥ص.

[٤] حققه سمير الدروبي، وزارة الثقافة، عمَّان- الأردن، ٢٠٠٨م، ٣٣٩ص.

[٥] حققه رودولف فيسلي، المعهد العملي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٧م، ٢٨٠ص.

[٦] طبعته الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة سنة٢٠٠٤م في ١٦جزءًا، مصورًا عن نشرة دار الكتب المصرية التي تقع في ١٤ج، مع إضافة جزء للمُصطلحات، وجزء للفهارس.

[٧] حققه أشرف محمد أنس، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٩م، ٢مج.

[٨] ما يزال مخطوطًا، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم١٣١٥٨ز، وثانية بمكتبة رئيس الكتاب بتركيا برقم٨٦٠.

[٩] له عدة نسخ سيأتي ذكرها عند الحديث عن الكتاب في مؤلفات ابن شاهين.

[١٠] لم يُعثر له حتى اليوم على نسخ خطية.

[١١] حققه رودولف فيسلي، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ٢٠٠٥م، ٥٧٢ص.

[١٢] منها نسخة خطية في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم٤٤٤٠، ٢١١ق.

أمَّا "كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" لابن شاهين الظاهري فهو كتاب جعله مؤلِّفه في مُجلَّدين ضخمين، ورتَّبه على أربعين بابًا، ثم اختصره في اثني عشر بابًا، وسمَّاه "زبدة كشف الممالك...".

وكان يُظن حتى وقت قريب أنَّ النشرة التي نشرها بول رافيس هي "زبدة كشف الممالك" المُختصرة عن الأصل حتى نبَّه الدكتور علي محمد عمر إلى وجود مُختصَر أكبر لـ"كشف الممالك"، تحتفظ به مكتبة أحمد الثالث بتركيا، وسيأتي تفصيل الحديث عن هذا كله في القسم الخاصة بدراسة الكتاب، فدفعني هذا إلى جمع ما أمكن من نُسخ الزُّبدة ودراستها، للتفرقة بين نُسخ المختصَرين، ثم نشر النص والاعتناء به.

وتكمن أهمية هذا الكتاب في أنه يقدِّم صورة شبه مُتكاملة عن النظام الإداري والوصف الجُغرافي لدولة المماليك في مُنتصَف القرن التاسع الهجري، كما أنَّ مؤلِّفه تنقَّل كثيرًا في وظائف الدولة كالوزارة ونظر الخاص ونظر دار الضرب وإمرة الحاج المصري ثم الشامي، وفي ولايات الدولة كنيابة الإسكندرية والكَرَك ومَلَطْيَة، وارتبط بصلات صُحبة وصداقة مع كثير من أعيان الديار المصرية والشامية والحجازية، فاكتسب من ذلك كله خبرة ناتجة عن المُشاهدة والمُشافهة والمُمارسة، وضع خُلاصتها في هذا الكتاب، ولهذا تفرَّد بكثير من المعلومات الجغرافية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها لا توجد عند غيره ممَّن وصلتنا مؤلفاتهم، ونقل من بعض الكتب التي لم تصلنا إلى اليوم، كما ترجَم في الزُّبدة لعددٍ من مُعاصريه، وتفرَّد ببعضهم، فضلًا عن القصائد والمقطوعات الشعرية له ولغيره.

يقول ابن شاهين: "وقد أطلعتُ على أحوال مُلك مصر وسُلطانه، وضبطتُ أمورًا وأشياء شتى ما لم أُسبق إليها، وقد أوضحتُ بعض ذلك بهذه "الزُّبدة"، وأتيتُ بالأشياء الغريبة ما لم أُسبق على تنبيهها، ممَّا اقتُبِسَ من السُّنَّة النبوية والكتاب، وقرَّرهُ العُلماء والعارفون ذوو التجارب والألباب، ممَّن أبلى مُدَّته، وأبذل مُهجته في خدمة المُلوك ومُناصحتهم، وأطنب فيها غاية الإطناب"[1].

(1) زبدة كشف الممالك، ق٦٥ب-٦٦أ.

ولمَّا كان هدف المؤلِّف كشف الممالك الخاضعة لدولة المماليك جُغرافيًّا وإداريًّا، وإبراز فضل الأماكن المقدسة بذكر الوارد فيها من الآيات والأحاديث والآثار، وبخاصة القدس التي أفاض في فضائلها وأخبارها القديمة إفاضة خارجة عن الحد، ثم أضاف إليه ما يتعلق بالنصائح الملوكية؛ لأنه أهدى هذا المُختصَر إلى السُّلطان الظاهر جَقْمَق(٨٤٢-٨٥٧هـ)، ثم ختمه بباب عن أخبار الدهر، وبعض الفوائد الشرعية والطبية وغير ذلك، فخرج في صورة دائرة معارف أكثر منه تخصُّصي في شئون الحُكم والإدارة.

(الدراسة[1])

تشتمل هذه الدراسة على ثلاثة فصول، هي:

- الفصل الأول: ابن شاهين "سيرة حياة".
- الفصل الثاني: مؤلفاته وشِعْره.
- الفصل الثالث: كتاب زُبدة كشف الممالك.

---

[1] **(تنبيه)**: لم أُترجم في الدراسة لمن وردت تراجمهم في متن الكتاب، فإذا احتجتَ إلى ترجمة العلم فارجع إليه في موضع ورقة المخطوط المذكورة في المتن تجده، أمَّا ما ذكره عبد الباسط فقد ورد في تراجم هؤلاء المذكورين في مؤلفاته.

الفصل الأول

ابن شاهين "سيرة حياة"

مُقدِّمة:

إنَّ الناظر في مصادر ترجمة ابن شاهين يجد أنَّ حياته الحافلة قد نالت عناية جماعة من مُعاصريه، فصنَّف شمس الدين محمد بن عبد المُحسن السكندري المالكي (ت:بعد ٨٤٠هـ) كتابًا ضخمًا في سيرته، قال عنه المؤلِّف في ق١١٤ب:

"... وقد ألَّفَ لي كتابًا يشتمل على: مولدي، ومَرباي، ومنشأي، وما وُلِّيتُ من الوظائف، وما اتفق لي من الوقائع، وما نظمتهُ لي الشُّعراء، وذكر أبائي وأجدادي، وسمَّاهُ "الدُّرر السَّنِيَّة في المحاسن الغَرسِيَّة"، وضمنه عِدَّة قصائد من نظمِهِ، تشتمل على ما ينيف عن ألف بيت، ورتَّبه ترتيبًا عجيبًا على الستة عشر بحرًا...".

وألَّفَ آخر ترجمة له سمَّاها "الرياض القُدسِيَّة في المحاسن الغَرسِيَّة"، وجمع الشيخ إبراهيم بن عبد الرزاق الحلبي الشافعي(ت: بعد ٨٤٠هـ)[١] كتابًا في ترجمته، ذكر فيه ما امتُدِحَ بهِ من القصائد[٢]، وشرع بعض طلبته في ذكر سيرته في عشرة مُجلَّدات[٣]، وللأسف لم تصلنا حتى اليوم شيئًا منها.

كما ترجَم له ولده عبد الباسط(ت:٩٢٠هـ) ترجمة مُطوَّلة في كتابه "الروض الباسم في حوادث العُمر والتراجِم"[٤]، عند ذكر وفيات سنة ٨٧٣هـ، وترجَم له

[١] عن ترجمته. انظر: عبد الباسط: المجمع المفنن، ص٧٤.
[٢] عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص١٠٣.
[٣] الشعيبي: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩ب.
[٤] ج٤، ص٩١-١٠٤.

في كتابه "المجمع المُفنَّن"، لكن نص الترجمة مفقود مع غيره من الكتاب، وفي اعتقادي أنه لم يأتِ فيه بجديد، لأنَّ تراجِم "المجمع المُفنَّن" ما هي إلا تجريد لتراجِم "الروض الباسم"، مع زيادات قليلة[١]، وترجَم له في كتابهِ "نيل الأمل"[٢]، وهي ترجمة مُلخَّصة عن نص "الروض الباسم"، كما نثر كثيرًا من أخباره في حوادث كتابيه "الروض الباسم" و"نيل الأمل".

ويلي ذلك من حيثُ الأهمية ترجمة ابن تغري بردي(ت:٨٧٤هـ) له في "المنهل الصافي"[٣]، لأن أكثرها نتاج مُشاهدة ومُعاشرة ومُشافهة، يقول ابن تغري بردي:

"... ثم قَدِمَ القاهرة ثانيًا سنة أربع وخمسين وثمانمائة، واجتمع بي في منزلي، وطال جلوسه عندي، فوجدتُ له مُذاكرة بالشِّعر والتاريخ بحسب الحال، وذكر لي أنَّ له عِدَّة مُصنَّفات في عِدَّة علوم، وأسماها لي، وذكر لي أيضًا أنه له نظمًا كثيرًا، وأنشدني منه قصيدة..."[٤].

كما ترجَم له الشمس السخاوي(ت:٩٠٢هـ) في "الضوء اللامع"[٥]، واعتمد فيها على الترجمة التي كتبها له ولده عبد الباسط بخطِّه، وكذا ترجمة ابن تغري بردي له، وأضاف إليها بعض ما كان من خبر علاقته بشيخه ابن حجر، وترجَم له مُختصرًا في كتابهِ "وجيز الكلام"[٦].

أمَّا ابن الصيرفي(ت:٩٠٠هـ) فلم يُترجِم له في كتابه "إنباء الهصر"!، وجاءت ترجمة ابن إياس الحنفي(ت: بعد٩٣٠هـ) في كتابه "بدائع الزهور"[٧] مُقتضبة، اعتمد فيها على كلام شيخه عبد الباسط، ولم يأت فيها بجديد.

---

(١) المجمع المفنن، ج١، ص٢٨.
(٢) ج٦، ص٣٥٥-٣٥٦.
(٣) ج٥، ص٢٥٨-٢٦١.
(٤) المنهل الصافي، ج٥، ص٢٦٠.
(٥) ج٣، ص١٩٥-١٩٧.
(٦) ج٢، ص٨٠٨.
(٧) ج٣، ص٢٥.

ولم أقف فيما يتعلَّق بالمصادر الشامية المُعاصرة سوى على ترجمةٍ له عند سبط ابن العجمي الحلبي(ت:٨٨٤هـ) في كتابه "كنوز الذهب في تاريخ حلب"[١]، وهي ترجمة مُهِمَّة، إلا أنه كان شديد التحامل عليه فيها.

وترجَم له من مُتأخري أهل مصر محمد بن شُعيب الحجازي الشُّعيبي(ت: بعد١٠٣٠هـ) في رسالته عمَّن دُفِنَ بمصر القاهرة من المُحدِّثين وغيرهم، حيثُ اعتبره من أهل الحديث لتتلمذه على يد ابن حجر العسقلاني، وممَّن دُفِنَ بالقاهرة؛ لنقله عن المُتأخرين أنه دُفِنَ بتربة خُشقَدم، ثم أورد الاختلاف في مكان دفنه، ووهم في تاريخ وفاته فجعله في سنة٨٧٥هـ، واعتمد في الأساس على ما كتبه عبد الباسط في "الروض الباسم"، الذي سمَّاه "الثغر الباسم"، ثم على كلام السيوطي، دون أن يُحدِّد اسم الكتاب، ولم أهتد لمصدره، فقال:

"وترجمه الجلال السيوطي في "مَن يُستجاب عند قبره"، قال: "خليل بن شاهين الشيخي الصفوي، الأمير الوزير الصاحب، غرس الدين أبو الصفا، [المقدسي][٢] المولد، القاهري المنشأ والوفاة، الحنفي، المعروف بنائب الإسكندرية[٣]، والد صاحب المجمع والثغر الباسم، له ولأولاده المؤلفات الحسنة". انتهى ما قاله الجلال، وأنه بتربة خُشقدم"[٤].

هذا وإن كانت ترجمة عبد الباسط لوالده في "الروض" هي أساس الترجمة له في هذه الدراسة، إلا أنَّ المؤلِّف ذاته أورد كثيرًا من أخباره في كتابه "زُبدة كشف الممالك"، وهي أخبار مُتنوعة، شملت: علاقاته بأهل العلم ورجال الدولة، وشيوخه، وأعماله التي قام بها في وظائفه التي أُسندتُ إليه بالديار المصرية والشامية والحجازية، وهي معلومات في غاية الأهمية.

وبناءً على ما سبق فقد اعتمدتُ ترجمة عبد الباسط لوالده في "الروض الباسم"، فنظَّمتُ مادتها، واختصرتُ لفظها، وأضفتُ لها ما جاء منثورًا في كتابيه الآخرين، وما ذكرهُ المؤلِّف عن نفسهِ في "الزُّبدة"، ثم كلام ابن تغري بردي في "المنهل"، والسخاوي في "الضوء اللامع".

---

[١] ج٢، ص١٧٥-١٧٩.

[٢] إضافة من نيل الأمل لضبط السياق.

[٣] إلى هنا مطلع ترجمته في نيل الأمل لعبد الباسط.

[٤] ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩ب.

ولمَّا كانت أعمال المؤلِّف ووظائفه لها صدى في مؤلفات مُعاصريه التاريخية كالمقريزي وابن حجر والعيني وابن تغري بردي، فقد راجعتها، واستأنستُ بها في توثيق الأخبار.

١ ـ اسمه ونسبه ومولده:

هو الأمير غرس الدين أبو الصفاء خليل ابن الأمير شُجاع الدين شاهين الشيخي الصفوي الظاهري برقوق، المقدسي القاهري الحنفي.

وُلِدَ في المدرسة الخاتونية[١] بالقُدس الشريف في نصف شعبان سنة ٨١٣هـ[٢]، وكان والده[٣] إذ ذاك حاجبًا بالقُدس[٤]، وشاد على كنيسة القيامة قبل

---

[١] نسبة لواقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين القازانية البغدادية سنة٧٥٥هـ. انظر: العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٨٠.

[٢] قال عبد الباسط في الروض: "وُلِدَ بالقُدس الشريف بالمدرسة الخاتونية في يوم الجمعة حادي أو ثالث عشر شعبان سنة إحدى أو ثلاث عشرة وثمانمائة"، والوارد في المتن كلام المؤلف في الزُّبدة، ق٣١أ.

[٣] ترجم عبد الباسط لجده شاهين في ثنايا مقدمة ترجمة والده، فقال: "وكان والده شاهين من مماليك الظاهر برقوق، ملكه عن شيخ الصفوي- أمير مجلس- لمَّا أُخرِج إلى القُدس بطَّالًا، ويُقال إنه تتري الأصل، مسلم، من مدينة سراي، وإنما سُمِّيَ شاهينًا لأنَّ التتر كانت في أول دولة الظاهر في مَقتٍ وإبعاد.

وولي شاهين هذا بعد مدة من موت الظاهر شادية القمامة بالقُدس، ثم حجوبيتها، ثم ترقى إلى نيابتها في أواخر دولة الناصر فرج، ثم لمَّا مات الناصر فرج، وكانت تلك الفتن انجمع شاهين هذا عن الدولة، وقطن بالقُدس مُدَّة فارًّا من الفتن، فإنه كان ممَّن له شُهرة بالشجاعة والقوة، ويُحكى عنه في ذلك ما يُشبه الكذب، ولم يزل إلى سلطنة الأشرف بَرسْبَاي فحضر إلى القاهرة بعد أن كان قدمها قبل ذلك في أول سلطنة الظاهر ططر، ثم عاد لأمرٍ ما، وبقي بها مُدَّة حتى قدم هذه القدمة الثانية في سنة سبع أو ثمان وعشرين، فرتَّب له الأشرف ثلاثة آلاف درهم في الشهر يأكلها طرخانًا، مع لحم وعليق وغير ذلك، ووعده بالجميل، ودام بداره مُنجمعًا عن الناس، لا يتردد إلى سوى الأتابك بيبُغا المظفري، وربما خرج معه إلى الصيد في بعض الأحيان، وكان يبعث إليه بالمركوب من عنده، لأجل أن يسايره في الصيد، لمعرفته بالجوارح وأحوال الشكرخاناة.

وكان الأتابك المذكور قد رَتَّبَ له شيئًا على ديوانه، ومن هُنا وهم من قال: "إنه خدم عند الأتابك"، ولم يكن ذلك كما قال، ثم بغته أجله بالقاهرة في سنة أربع وثلاثين وثمانمائة، ودفن بالقرافة، بتربة والد زوجته أسندمر الشيخي، والدة الوالد الست عائشة، الماضية ترجمتها في سنة سبع وخمسين".

انظر: الروض الباسم، ج٤، ص٩١-٩٢. وأيضًا: ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ق٣٢أ؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٢٥٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٢٩٥.

[٤] قال المؤلِّف في الزُّبدة، ق٣١أ: "ومولدي بالقُدس...، ووالدي حينئذ نائب بها".

أن يلي النيابة بها، ومرضت والدته، فأرضعته أُم قاضي القُضاة الشيخ بُرهان الدين الديري[1]، وعليه فهو أخوه في الرضاع.

ومن غريب ما وقع في أمر حمل والدته السيدة عائشة(ت:٨٥٧هـ)[2] بنت أسندمر الشيخي به أنها كانت تلد الإناث، وما ولدت ذكرًا قبله، فصارت تتمنى الذَّكَر، فاتفق أن حملت به، فخرجت من القُدس إلى مدينة حَبْرون، حيثُ مدفن سيدنا الخليل إبراهيم عليه السلام، فدخلت إلى حرمه ليلًا، ثم كشفت عن بطنها، ولمسته سردابه، ونذرت شيئًا وافرًا من المال أن يكون صدقة لفُقراء حرمهِ إن ولدت ما في بطنها ذكرًا، وأن تُسمِّيهِ "الخليل".

فلمَّا وضعتهُ ذَكَرًا بإذن الله تعالى، سمَّتُهُ "الخليل"، ثم وفَّت بنذرها، ثم ألبسته في أُذُنِه خرصًا من ذهب بلؤلؤة، ذكرت أنها اشترتها بخمسين دينارًا ذهبًا، ونذرت لله إن أكمل ولدها سبع سنين أن تُلقها في صندوق النذر لسيدنا الخليل إبراهيم عليه السلام.

٢- نشأته وطلبه للعلم:

نشأ ابن شاهين وترعرع في القُدس، وحفظ به القرآن العظيم، ثم أخذ في الاشتغال بالعلم، فبحث كتاب "القدوري" في فقه الحنفية على بعض أهل العلم بالقُدس، وحُبِّبَ إليه طلب العلم.

ثم قَدِمَ مع والده إلى القاهرة سنة سبع أو ثمان وعشرين وثمانمائة، وأقام معه بالقاهرة حتى مات سنة ٨٣٤هـ، وفي القاهرة داوم على الاشتغال بالعلم والمُطالعة، وأخذ عن جماعة من أهل العلم بها، وفي كل مكان كان يُعيَّن فيه يأخذ عن شيوخه ويُجالسهم، وممَّن أخذ عنه[3]:

---

[1] توفي سنة ٨٧٦هـ، وأكد عبد الباسط في ترجمته أنه كان أخى والده من الرضاع. انظر: المجمع المفنن، ج١، ص١٠٦-١٠٧.

[2] ترجم لها عبد الباسط في الروض الباسم في وفيات سنة٨٥٧هـ، لكنها فُقِدَت مع ما فُقِدَ من المخطوط.

[3] الأسماء المُجرَّدة للشيوخ من الروض الباسم لعبد الباسط، والباقي من كلام ابن شاهين.

٢/١- بُرهان الدين إبراهيم بن أحمد بن ناصر بن خليفة المقدسي الناصري الشافعي، المعروف بالباعوني(ت: ٨٧٠هـ)[١].

٢/٢- تقي الدين أبو بكر بن إبراهيم بن يوسف البعلي ثم الصالحي الدمشقي الحنبلي، المعروف بابن القُنْدُس(ت: ٨٦١هـ)[٢].

٢/٣- شهاب الدين أحمد بن أزدمر الخليلي القاهري الحنفي(ت:بعد ٨٩٠هـ):

قرأ عليه القرآن الكريم، ثم لمَّا تولى نيابة الإسكندرية اختص به، وقرَّبه واستشاره، وجعله إمامه، وسافر معه إلى الحج، ثم إلى الكَرَك لمَّا ولي نيابتها، ثم إلى مَلَطْيَة[٣].

٢/٤- شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي(ت:٨٥٢هـ):

لازم مجالسه في سماع الحديث رواية ودراية، وسمع عليه بعض تصانيفه كـ"مناقب الشافعي"، وأجازه بالإفتاء والتدريس، وأثنى عليه في إجازته وعلى ما صنَّفه، فمن جُملة قوله في إجازته: "بحيثُ يشهد له كل من سمعه بأنه فاق كل من سبقه في كل ما جمعه".

ولمَّا عاد من الحج سنة ٨٤٠هـ لازم مجالس شيخ الإسلام ابن حجر في سماع الحديث، وسمع عليه الكثير وعلى غيره من العلماء[٤].

قال عند ذكره في ق١٠٩ب-١١٠أ: "ولي إليهِ ميل كُلِّي، ومحبته عندي مؤكدة، لقول النبيﷺ: {جُبِلَت القلوب على حُب من أحسن إليها}، وله عليَّ أفضال، وأجازني فيما يجوز له وعنه نقلًا، وفي علم العروض وتصانيف الكتب وغير ذلك، وبيني وبينه مُذاكرات في العلم الشريف، وحفظت عنه أحاديث جمَّة، ورويتها عنه بإسناد صحيح، وكلما قدمتُ من سفر يتفضل بالزيارة وجبر

---

[١] انظر ترجمته عند: السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص٢٦-٢٩.
[٢] انظر ترجمته عند: السخاوي: الضوء اللامع، ج١١، ص١٤-١٥.
[٣] انظر: عبد الباسط الحنفي: المجمع المفنن، ج١، ص٢٤٧.
[٤] انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٩٧؛ عبد الباسط الحنفي: المجمع المفنن، ج١، ص٣٥٩-٣٦١؛ نيل الأمل، ٦، ص٣٥٥.

الخاطر، ممتثلًا بقوله ﷺ: {القادم يُزار}، وقال بعضهم: "إن زارني فبفضله، ولئن أزر فلفضله، فالفضل في الحالين له".

وظلت الصُّحبة مُتصِلة بينهما حتى وفاة ابن حجر، وجرت بينهما كثير من المُطارحات الشعرية[١]، ولمَّا مات ابن حجر سنة٨٥٢هـ رثاهُ المؤلِّف بقصيدة طويلة، ذكر عبد الباسط ثلاثة أبياتٍ منها[٢].

٢/٥- تقي الدين أحمد بن محمد بن محمد الشمني الحنفي(ت:٨٨٢هـ)[٣]: "لازمه بأخره مُدَّة".

٢/٦- مُحب الدين أحمد بن نصر الله البغدادي الحنبلي(ت:٨٤٤هـ):

قال عنه في ق١١٠ب: "ولي فيه اعتقاد حسن، وجرى بيننا مذاكرات، وقرأت عليه شيئًا من أصول الدين، وكاشفني في أمور صح وقوعها".

٢/٧- بدر الدين حسن بن أبي بكر القُدسي الحنفي، شيخ الشيخونية(ت:٨٣٣هـ):

قال في ق١١٢ب: "سَمِعْتُ منه "البُرهانية"[٤] مُختصر الإرشاد في الأصول".

٢/٨-أبي الفرج سرور بن عبد الله المالكي المغربي(ت:٨٤٥هـ):

قال في ق١١٥أ: "هوأحد مشايخي في العلم والحديث، نفع الله بعلومه".

٢/٩-سعد الدين سعد بن محمد عبد الله القُدسي الديري الحنفي(ت:٨٦٧هـ)[٥].

---

[١] السخاوي: الجواهر والدرر، ص٧٨٨-٧٨٩؛ والضوء اللامع، ج٣، ص١٩٦-١٩٧؛ عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص١٠١-١٠٢.

[٢] المجمع المفنن، ص٣٦١.

[٣] كان مالكي المذهب ثم أصبح حنفيًا، وكان بارعًا في علوم المذهب ومعرفة علوم اللغة والحديث وغير ذلك. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص١٧٤-١٧٨.

[٤] تُسمى بـ"العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية" لأبي عمرو عثمان بن عبد الله القيسي المعروف بالسلالجي المغربي(ت:٥٧٤هـ)، في عقيدة أهل السنة، وهي منشورة، وعليها عِدَّة شروح مطبوعة ومخطوطة.

[٥] كان رأسًا في المذهب الحنفي، ولي مشيخة المؤيدية بعد أبيه، وتولى قضاء الحنفية. انظر: السيوطي: نظم العقيان، ص١١٥-١١٦.

٢/١٠-علم الدين صالح بن عمر بن رسلان البُلقيني الشافعي(ت:٨٦٨هـ)[١].

٢/١١- زين الدين عبد الرحمن بن علي التفهني الحنفي(ت:٨٣٥هـ)[٢].

٢/١٢-عز الدين عبد السلام بن أحمد بن عبد المنعم البغدادي الحنفي(ت:٨٥٩هـ)[٣].

٢/١٣- نور الدين علي، قاضي مَلَطْيَة ومدرسها(ت:بعد ٨٤٠هـ):

قال في ق١٨١أ: "والمولى علي أُمَّة في اللُّغة والصرف والنحو وغير ذلك من العلوم الشرعية والآداب الحكمية، وهو شيخي في علم العَروض".

٢/١٤- سراج الدين عمر بن علي بن فارس الحنفي، قارئ الهداية (ت:٨٢٩هـ)[٤].

٢/١٥- سراج الدين عمر بن موسى بن الحسن المخزومي الحمصي (ت:٨٦١هـ):

قال عنه في ق١٧٢ب: "إنه أحد مشايخي، وقد أجازني في جميع ما يجوز له وعنه بصحة إسناد، وله الأشعار الرائقة، وقد نظم لي أبياتًا مُطوَّلة، من جُملتها هذا البيت وهو:...".

٢/١٦- شمس الدين محمد بن أحمد بن عُثمان البساطي المالكي(ت:٨٤٢هـ)[٥].

٢/١٧- بدر الدين محمد بن أحمد بن محمد القرشي الزبيري المالكي، المعروف ابن التنسي (ت:٨٥٣هـ)[٦].

---

[١] انظر ترجمته عند: السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٣١٢-٣١٤.

[٢] انظر ترجمته عند: السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص٩٨-١٠٠.

[٣] برع في فقه الحنفية والشافعية والحنابلة ومعرفة علم الأصول والكلام والعربية وغيرها، عرف عنه الزهد، ولم يعتني بالتصنيف. انظر: السيوطي: نظم العقيان، ص١٢٨-١٢٩.

[٤] يعرف بقارئ الهداية لكثرة قراءته لها، وقد انتهت إليه رئاسة الحنفية وكثر تلاميذه. انظر: ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص١٠٧.

[٥] انظر ترجمته عند: السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٥-٨.

[٦] انظر ترجمته عند: السخاوي: الذيل على رفع الإصر، ص٢٣٩-٢٤٥.

٢/١٨- شمس الدين محمد بن إسماعيل بن محمد الونائي الشافعي (ت: ٨٤٩هـ)[١].

٢/١٩- مُحيي الدين محمد بن سليمان بن سعيد الكافيجي الحنفي (ت: ٨٧٩هـ)[٢]**:** قال عبد الباسط: "وكان شيخنا المذكور يعظمه جداً ويُجله".

٢/٢٠- شمس الدين محمد بن عبد الله الديري المقدسي الحنفي (ت: ٨٢٧هـ):

قال عنه في ق١١٠ب: "ولي فيه اعتقاد، وكُنْتُ صغير السن بالقُدس الشريف أجتمع عليه، وأتبرَّك به، فيمدني بدعائه، ويلمح فيَّ أمورًا، فيقول لوالدي عليها، وقد جرى ذلك، رحمه الله تعالى".

٢/٢١- كمال الدين محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد السيواسي القاهري، المعروف بابن الهمام الحنفي(ت: ٨٦١هـ)[٣].

٢/٢٢- شمس الدين محمد بن علي بن محمد القاياتي الشافعي(ت: ٨٥٠هـ)[٤].

٢/٢٣- علاء الدين محمد بن محمد السادس البُخاري الحنفي(ت: ٨٤١هـ)[٥]. قال عبد الباسط: "جالسه، وحضر دروسه".

٢/٢٤- محمد الإخميمي الرَّمَّال(ت:بعد ٨٣٩هـ).

قال عنه في ق١١٦ب: "أُمَّة في علم الرمل، وقد تكلَّم بأمور صح وقوعها، لكنني لم أعتقد ذلك، ولم أذكرهُ إلا لفضيلة في أشياء يطول وصفها.

وقد اشتغلتُ عليه في علم الرمل، وحفظت منه الأشكال الستة عشر، فالأصل منها اثني عشر شكلًا، والزوائد أربعة، وهي: اللحيان، قبض الداخل، قبض

---

(١) انظر ترجمته عند: السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص١٤٠-١٤١.

(٢) سُمي بالكافيجي لكثرة قراءته "الكافية" ابن الحاجب، من مشاهير علماء الحنفية في ق٩هـ، له كثير من المؤلفات. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٣) كان إمامًا عالمًا بالأصول والتفسير والفقه والفرائض وعلوم اللغة وغيرها. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٨، ص١٢٧-١٣٢.

(٤) انظر ترجمته عند: السخاوي: الضوء اللامع، ج٨، ص٢١٢-٢١٤.

(٥) من مشاهير فقهاء الأحناف في عصره، توفي في المزة بالشام. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص٢٩١-٢٩٥.

الخارج، جماعة، فرح، عقلة، انكيس، حمرة، بياض، نصرة الخارج، نصرة الداخل، عتبة الخارج، نفي الخد، عتبة الداخل، اجتماع، طريق، وترتيب هذه الأشكال على هذا الوضع لحُكماء الهند على قول طمطم الهندي.

وقد ورد في الصِّحاح ما يدل على أنَّ هذا العلم من علم دانيال(عليه السلام)، وأنه كان مُعجزة له، ولا يجوز مُعجزة نبي في شخص غير نبي، فلأجل ذلك لم أعتقد صحة قول الرَّمَّالين وإن وافق الصواب، وإنما تعلَّمتُ هذا العلم لئلا أكون عاريًا منه، واطلع على حقيقته.

وقد ضربتُ الرمل، واستخرجتُ منها هذه الأشكال فدلَّتني على الضمير، وبيَّنتُ ما قد وقع من الأمور، والله سُبحانه وتعالى أعلم بالصواب".

٢/٢٥- بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني الحنفي(ت:٨٥٥هـ).

٢/٢٦- المعلِّم مؤمن السكندري(ت: بعد٨٣٥هـ):

قال عنه ق٢١٧ب: "ولي فيه اعتقاد، وهو مُعلِّمي في فن رمي النُّشاب، وتعلَّمتُ منه ندبًا في مناولة القوس، وظهرت ثمرة ذلك وفائدته".

٢/٢٧- أمين الدين يحيى بن محمد بن إبراهيم الأقصرائي الحنفي (ت:٨٨٠هـ)[١].

٢/٢٨- نظام الدين يحيى بن يوسف بن محمد السيرامي الحنفي(ت:٨٣٣هـ)[٢].

٢/٢٩- يونس بن أسندمُر(ت: بعد٨٣٩هـ):

قال عنه في ق١٢٨ب: "فإنه من عباد الله الصالحين، وكفه الأيمن مطبوق لا يُفتح، ويدهُ اليُسرى بها تعطيل، ومع ذلك التعطيل يكتب بها ما ذُكِرَ من الأقلام، حتى إنه يُقارب خطّه خط الشيخ، وهذا من أعجب العجائب، وقد كتبتُ عليه مُدَّة، ولي فيه اعتقاد، نفع الله به".

---

[١] كان رأسًا في المذهب الحنفي والتصوف وغيره. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٤٠-٢٤٣.

[٢] انظر ترجمته عند: السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٢٥٩-٢٦١.

- مشايخ آخرين:

قال في ق١١٢ب: وبالديار المصرية عُلماء جَمَّة، ولهم فضائل شتى على المذاهب الأربع ما لا يوجد في غيرها قط، وقد حصل الاجتماع بجماعة منهم، وقرأتُ عليهم علومًا شتى، وسَمِعْتُ منهم، وأذنوا لي بالرواية عنهم، فمنهم من هو باقي الآن، ومنهم من اندرج بالوفاة إلى دار الكرامة، نفعنا الله بهم في الدُّنيا والآخرة، فمنهم:

٣٠- الشيخ الصالح الورع الزاهد شمس الدين محمد بن حسن الحنفي، أمتع الله تعالى ببقائه.

٣١- الشيخ عز الدين الحنبلي رحمه الله.

٣٢- الإخنائي المالكي رحمه الله، فإنه ودَّعني حين توجُّهي إلى الحجاز الشريف سنة أربعين وثمانمائة، وأنا إذ ذاك أمير الحاج الشريف، وروى لي حديثًا عن النبيﷺ أنَّ الله يغفر للحاج، ولمن استغفر له الحاج بقية ذي الحجة والمُحرَّم وصفر وعشرة ليالي من ربيع الأول، وأذن لي أن أرويهِ عنه.

٣٣- الشيخ تقي الدين المالكي، نفع الله به.

٣٤-٣٦: الشيخ الصالح أوحد الدين عبد اللطيف الدِّمْياطي، والشيخ محمد الفرعوني، والشيخ يوسف الكريوني.

قال عنهم في ق١١٦ب: "فإنهم أَمَّة في علم التعبير، وقد قرأته عليهم، واكتسبتُ منهم مسائل جمَّة"، ثم قال بعد أن ذكر مقدمة كتابه الإشارات ق١١٧ب: "قال مشايخنا المذكورين أنه منذ مائة وستين سنة لم يؤلَّف كتاب في هذا المعنى على هذا النمط، فلأجل ذلك ذكرتُ مُقدمته هذه، وأُجِزتُ على ذلك".

كما ذكر ولده عبد الباسط شيوخ آخرين، لم أهتد لتتمة أسمائهم لأقف على تراجمهم، وهُم:

٣٧-٤١: بدر الدين بن عبد المنعم، وعلاء الدين الرُّومي، ومجد الدين بن نصر الله، ونجم الدين القرمي، وأخذ بدمشق عن جماعة منهم: قاضي القضاة القوام الحنفي.

وختم قوله في شيوخ والده بقوله: "وجماعة يطول الشرح في تعدادهم من غالب بلاد الإسلام شرقًا وغربًا، ما بين هند وعجم وروم، وغير ذلك من عُلماء الإسلام، ومشايخ مصر والشام، ممَّن أخذ عنهم، وأذن له بعض أعيانهم الأكابر بالفُتيا والتدريس".

٣ـ عائلته وأُسرته:

لا نعرف الكثير عن عائلة ابن شاهين، لكن من خلال بعض الشذرات يُمكن القول أنَّ والده شاهين(ت:٨٣٤هـ)[١] تزوج بالسيدة عائشة بنت أسندمر الشيخي، وأنه كان له من الأبناء خلاف المؤلِّف: صفيَّة[٢]، وصفر ملك التي تزوجها الخواجا إبراهيم بن قرمش(ت:٨٥٦هـ)[٣]، وتوفيت في شعبان سنة٨٦١هـ[٤]، ولعلَّ الجميع من أولاد السيدة عائشة.

أمَّا ابن شاهين فإنه لمَّا ولَّاهُ السُّلطان الأشرف بَرسْبَاي نيابة الإسكندرية ونظرها وحجوبيتها، وأظهر كفاءة في ذلك زوَّجهُ في شهر جمادى الآخرة سنة٨٣٨هـ بالست أصيل بنت يَشْبَك طَطَر الجركسية، أخت زوجته خوند جُلبان، وأمهرها ألف دينار، وزُفَّت إليه بالإسكندرية، وسمح له السُّلطان أن يُجدِّد الدار السُّلطانية بالمدينة، ويسكن فيها مع زوجته أصيل[٥].

وقد رافقته في أكثر أسفاره وتنقلاته كالكَرَك ومَلَطْيَة ودمشق، وظلَّت معه حتى ماتت في ذي الحِجَّة سنة٨٦٩هـ، فاستولى السُّلطان خُشْقَدم على تركتها، وصالح المؤلِّف على ألف دينار دفعها إليه، وكانت خيِّرة ديِّنة، وهي التي اعتنت بتربية ولده المؤرِّخ عبد الباسط[٦]، ويبدو أنها لم تُنجِب، أو مات أولادها وهُم صغار السن.

---

[١] سبق إيراد ترجمته في الحواشي، وهي الترجمة التي كتبها له حفيده عبد الباسط في مقدمة ترجمة والده.

[٢] انظر: عبد الباسط الحنفي: المجمع المفنن، ج١، ص٥٦.

[٣] عن ترجمته. انظر: عبد الباسط الحنفي: المجمع المفنن، ج١، ص١٠٠-١٠١.

[٤] عن ترجمتها. انظر: عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٦، ص٢٠، ولها خبر في ترجمة زوجها الخواجا إبراهيم فانظره.

[٥] عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٤، ص٣٦٩-٣٧٠، ٣٧٣.

[٦] عبد الباسط الحنفي: المحمع المفنن، ج٢، ص٥٦٤-٥٦٥؛ نيل الأمل، ج٦، ص٢٢٢.

كما تسرَّى ابن شاهين خلال حياته بعِدَّة جواري، أكثرهُنَّ من التُّرك، وأعتق بعضهن وتزوج بهن، وممَّن عُرِفَ مِنْهُنَّ:

٣/١- بُلْبُل:

كانت تركية الجنس، خيِّرة ديِّنة، استولدها المؤلِّف عِدَّة أولاد، آخرهم ولده إبراهيم، المولود بطرابلس سنة٨٦٣هـ، كان عزيزًا جدًّا عند المؤلِّف، ولهذا صحبه معه إلى الحجاز سنة ٨٧٠هـ، ومنها إلى العراق، وفي طريق العودة في أواخر شعبان سنة ٨٧٢هـ مات قُرب الرُّها، فحمله في تابوت، ودفنه بتُربته في طرابلس[١].

٣/٢- زاهرة:

وقيل "زهرة"، وهي من أقدم نسائه، تزوجها أو تسرَّى بها- وكان عُمره عشرين سنة أو أقل قليلًا- عِدَّة سنين، ثم زوَّجها بعد ذلك لدواداره أينال الغرسي(ت:٨٤٧هـ)[٢]، ووُصِفَت بأنها "كانت من خيار نساء عصرها دينًا وخيرًا وبِرًّا، مواظبة على الصلوات الخمس"[٣].

وأنجبت للمؤلِّف عِدَّة أولاد، منهم: زين الدين أمير حاج، وشهاب الدين أحمد.

أمَّا أمير حاج، فوُلِدَ في القاهرة سنة ٨٣٣هـ، ونشأ نشأة حسنة، ثم نزل في ديوان الجُند السُّلطاني، ولمَّا تولى أبوه الوزارة عُيِّنَ عوضه في نظر دار الضرب بالقاهرة، وتنقلت به الأحوال بعد ذلك إلى أن مات والده، وقد تزوج، وأنجب بنتًا سمَّاها عائشة، وزوَّجها لإسحاق التاجر الرُّومي[٤]، ووصفه عبد الباسط بأنه مُتكالب على الدُّنيا وجمع المال بشتى الوسائل، وتوفي في صفر سنة ٨٩٥هـ[٥].

---

(١) عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٣، ص٢٨٤؛ المجمع المفنن، ج١، ص٥٢.
(٢) عن ترجمته. انظر: عبد الباسط الحنفي: المجمع المفنن، ج٢، ص٦٣٣.
(٣) عبد الباسط الحنفي: المجمع المفنن، ج١، ص٢٩٨.
(٤) عبد الباسط الحنفي: المجمع المفنن، ج٢، ص٥٣٧.
(٥) المجمع المفنن، ج٢، ص٥٩٦.

وأمَّا أحمد فوُلِدَ سنة ٨٣٩هـ بحصن الكَرَك ونشأ به، وصحب والده في عِدَّة بلاد، وتعلم الفُروسية والقتال، ودخل بعد وفاة والده في خدمة نواب الشام، وهم يعتنون به؛ رعاية لوالده، وحسن مُحاضرته، ونزاهته وأدبه، وتوفي بعد سنة ٨٩٠هـ[1].

٣/٣- شكربَاي الأولى:

كانت سرية للمؤلِّف، تزوج بها بعد أن أعتقها، وأنجب منها ولده عبد الباسط في ليلة الأحد حادي عشر رجب سنة ٨٤٤هـ بمدينة مَلَطْيَة، وماتت في نفاسها بدمشق سنة ٨٥٢هـ، ومات بعدها وليدها، وصفها ولدها عبد الباسط بأنها كانت من خيار نساء عصرها[2].

٣/٤- شكربَاي الثانية:

كانت في الأصل من جواري الست مريم[3] أخت الخليفة العبَّاسي المُعتضد بالله داود(٨١٥-٨٤٥هـ)، وتسرَّى بها المؤلِّف أثناء إقامته بمدينة الخليل عليه السلام، فأنجبت له ولده إسحاق سنة ٨٤٨هـ، فنشأ نشأة حسنة، وحفظ القرآن، واشتغل بالعلم، لكنه لم يلبث أن بغته الأجل وهو مع والده بطرابلس في شعبان سنة ٨٦١هـ، فحزنت عليه والدته حُزنًا شديدًا، وترادفت عليها الهموم والأحزان حتى مرضت وماتت، وكانت من خيار النساء دينًا وعقلًا[4].

٣/٥- شُوربَاي:

أعتقها المؤلِّف، واستولدها عِدَّة أولاد، منهم: إبراهيم(٨٤٨-٨٥٠هـ)، ويوسف(٨٤٣-٨٤٨هـ)، وهي التي أرضعت عبد الباسط مع ولدها يوسف.

قال عنها عبد الباسط: "وهي موجودة الآن، أكثر إقامتها بمنزلي، لمحبتي إياها، لكونها قائمة مقام الوالده عندي، وكانت الوالدة تحبها، وكانت هي تنتمي

---

(١) عبد الباسط الحنفي: المجمع المفنن، ج١، ص٢٩٨.
(٢) الروض الباسم، ج١، ص٢٨٩.
(٣) ترجم لها السخاوي، لكنه لم يذكر تاريخ وفاتها. انظر: الضوء اللامع، ج١٢، ص١٢٥.
(٤) عبد الباسط الحنفي: المجمع المفنن، ج٢، ص٥٣٥-٥٣٦؛ نيل الأمل، ج٦، ص٢٠.

إلى الوالدة، وهي خيِّرة، ديِّنة، صالحة، كثيرة الصيام والقيام، والذِّكر والأوراد، قاربت التسعين"[1].

٣/٦- فاختة بنت شمس الدين محمد بن حسن الحنفي:

تُعرف بأُم الهُدى، تزوجها المؤلِّف بعد سنة ٨٧٠هـ، ومات عنها، ووصفها عبد الباسط بـ"الواعظة المَسلكة الخيِّرة"[2].

وقد لَخَّصَ عبد الباسط حياة والده الزوجية بقوله:

"وُلِدَ لصاحب الترجمة من الأولاد زيادة على الأربعين، وتزوَّج من النساء زيادة على العشرين، وتسرى من الإماء زيادة على الثلاثين، وملك من المماليك نحو المائتين، وكان يُعتق البعض من مماليكه فيزوجه لبعض من سراريهِ وأمهات أولاده بعد عتقهن[3]، بحيث صار الكثير من أولاد مماليكه إخوة لأولادهِ من الأمهات".

وقد فُجِعَ المؤلِّف في طاعون سنة ٨٤١هـ بوفاة كثير من أهل بيته. يقول في ق٢٠٩ب:

"وأمَّا الطاعون النازل في سنة أحد وأربعين وثمانمائة، فإنه كان عامًّا...، وقد مات من بيتي من رجال ونساء وبنين وبنات ومماليك وجوارٍ وطواشية وعبيد وخدم نحو مائة وخمسين نفرًا، حتى إنني آيستُ عن نفسي، واحتفرتُ لي قبرًا...".

ولمَّا مات ابن شاهين ترك من الورثة: ستة ذكور، منهم عبد الباسط، وابنة، وثلاث زوجات، منهُنَّ الست فاختة[4].

---

[1] المجمع المفنن، ج١، ص٥٢، وانظر: الروض الباسم، ج١، ص٣٩٥.
[2] السخاوي: الضوء اللامع، ج١٢، ص٨٦.
[3] منهُنَّ أم ولد له زوَّجها المؤلِّف لدواداره تغري بردي التركماني(ت:٨٦١هـ)، وأنجبت منه بنتًا. انظر: عبد الباسط الحنفي: المجمع المفنن، ج٢، ص٥٣٨-٥٣٩.
[4] عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص١٠٤.

٤ ـ وظائفه:

لمَّا مات الأمير شاهين سنة ٨٣٤هـ كان عُمْر المؤلِّف إحدى وعشرين سنة، فاتصل بخدمة الأمير أُزبك الأشقر الدوادار الكبير، وكان عندهُ في مقام الولد لا الخُدَّام، لكونه ولد خشداشه، وجعله شادًّا على الأحواش السُّلطانية، ومُتكلِّمًا على الصيَّادين، وقرَّبهُ واختص به؛ لحذقهِ وذكائه وكماله، ودام إلى أن أُخرِجَ أُزبك المذكور إلى القُدس بطَّالًا، فانجمع المؤلِّف عن الناس.

٤/١ ـ نيابة الإسكندرية ونظرها وحجوبيتها:

كان الخواجا إبراهيم زوج أخته صفر مُلك على علاقة طيِّبة بالسُّلطان الأشرف بَرسْبَاي(٨٢٥-٨٤١هـ) فشكى السُّلطان له مُعاناته من ناظر الإسكندرية، وسأله إن كان عنده من يصلُح لتولِّي النظر، فذكر له المؤلِّف وأثنى عليه، فأمره بإحضاره إليه، فلمَّا قابله أُعجِبَ به، فولَّاهُ النظر على ديوان الخاص بالإسكندرية في عاشر[١] ربيع الآخر سنة٨٣٧هـ، فباشرهُ بحُرمة وافرة، وعِفَّة زائدة.

فلمَّا رأى السُّلطان بَرسْبَاي[٢] منه علو الهِمَّة والكفاءة أضاف إليه نظر الذخيرة وبيع البهار بها بالإسكندرية، ثم بعث إليه باستقراره في الحجوبية بها[٣].

ثم ولَّاهُ نيابتها يوم الأربعاء رابع عشرين شوال من السنة نفسها[٤]، مُضافًا لما بيدهِ من الوظائف، وعُدَّ ذلك من النوادر[٥]، وعيَّن من يتكلم عنه في النظارة

---

[١] عند ابن حجر: ثالث عشري. انظر: إنباء الغمر، ج٣، ص٥١٣.

[٢] ضبطه ابن إياس بخطه في أكثر من موضع من كتابه "عقود الجمان في وقائع الأزمان" بضم الباء. انظر: مخطوط آيا صوفيا رقم ٣٣١١، ج٢، ق١٩٢، ١٩٥، ١٩٦.

[٣] ذكر المقريزي أن ابن شاهين عزل بعد ذلك من النظر، واستقر في الحجوبية، فسعى في النظر بمال حتى وليه مع الحجوبية. انظر: السلوك، ج٤، ص٩٠٧.

[٤] المقريزي: السلوك، ج٤، ص٩١٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٤٤؛ العيني: عقد الجمان، ص٤٤٣.

[٥] قال المقريزي: "وكان قد بعث بثلاثة آلاف دينار، ووعد بحمل مثلها، وسأل في ذلك فأجيب، ولم ندرك مثل ذلك، وهو أن يكون النائب حاجبًا، فإن موضوع الحاجب الوقوف بين يدي النائب والتصرف بأمره، هي الأيام كلها قد صرن عجائب حتى ليس فيها عجائب". انظر: السلوك، ج٤، ص٩١٧.

والحجوبية، وحُمِدَت سيرته في مُباشرة هذه الوظائف، وشُكرت أحكامه، وأحبَّهُ أهل الثغر(١).

ثم حضر إلى القاهرة في جمادى الآخرة سنة٨٣٨هـ، ومعه تقدمة للسُّلطان، فتلاقاهُ الأشرف، واحتفى به، وشكرهُ في الملأ العام من العسكر وأعيان الدولة، وزوَّجهُ بالست أصيل.

ثم عاد إلى الإسكندرية، وانكبَّ على الاشتغال بأموره، مع مُجالسته لأهل العلم، ومُذاكرته معهم، وسماع الحديث، ثم بعث يستعفي ممَّا بيدهِ من الوظائف أكثر من مرَّة، ويلتمس حضوره إلى القاهرة، حتى أُجيب إلى ذلك، فعزله السُّلطان في سادس عشر جمادى الآخرة سنة٨٣٩هـ.

وقَدِمَ إلى القاهرة على إمرة طبلخاناة(٢) كانت بيده(٣)، وزيادة عليها قرية البسلقون(٤)، وطيَّب السَّلطان خاطره(٥)، ووعدهُ بأن يُرقِّيه، وكان يحضر الخدمة الخدمة السُّلطانية مع مُقدَّمي الألوف(٦).

وقد تحدَّث ابن شاهين عن أعماله وعمائره التي أحدثها في الثغر في "الزُّبدة"، فقال في ق٤٣أ-٤٤أ:

"وأقمتُ مدفعًا، ونقشتُ اسمي عليه، ووضعتُه ببرج الدرغام، وجدَّدتُ إصلاح ما بها من المناجيق وملأتها من الرَّصاص، وأبطلتُ ما كان يؤخذ للحسبة من أهل المعاش، ويُحمل لديوان النيابة الشريفة في السنة نحو ألف دينار بما فيهِ من الرسوم، وكتبتُ بذلك رُخامات، وجعلتُ على باب رشيد واحدة،

---

(١) عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٤، ص٣٤٥-٣٤٦، ٣٥٧.
(٢) ذكر في ق١٤٨ب أنَّ هذه الإمرة انتقلت منه للأمير يلخجا الساقي المُتوفى سنة٨٥٠هـ.
(٣) عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٦، ص٣٥٦.
(٤) من قرى مركز كفر الدوار بالبحيرة. انظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي، مج٣، ص٣١٨.
(٥) ذكر المقريزي أنَّ المؤلِّف قدم من الإسكندرية بهدية للسلطان في حادي عشره جمادى الآخرة، فخلع عليه السلطان في اليوم الثاني، وأنه لمَّا نزل من القلعة أدركه من خلع عنه الخلعة وأعادها لناظر الخاص، وذلك لأن السلطان بلغه أنه أفرج عن عدة أحمال فلفل باعوها للتجار مقابل مال أخذه منهم، وكان السلطان قد أمر بمنع التجار من بيع الفلفل، وأن الفرنج لا يشترينه إلا من الديوان السلطاني. انظر: السلوك، ج٤، ص٩٦٧.
(٦) عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٤، ص٣٦٩، ٣٩٧، ٣٩٨.

وعلى باب السدرة واحدة، وعلى باب البحر واحدة، وعلى باب دار السعادة واحدة احتسابًا لوجه الله تعالى.

وبالثغر المذكور من الجهة الشمالية وبعض الجهة الغربية دار السُّلطان، وهي دار عظيمة الهيئة، عالية البناء، كبيرة جدًا...، ولمَّا وُلِّيت كفالة الثغر ونظرها جدَّدت عمارته أيضًا، وسكنتُ به مُدَّة بإذن السُّلطان المَلِك الأشرف حين زوَّجني كريمة خوند الكبرى صاحبة القاعة، وأتت إلى الدار المذكورة بالحُليِّ والحُلل، ونصبتُ بها سبع بشاخين ملونة عجيبة، ومن الأمتعة الفضة البلُّور، والتخوت المُفضضة، والأقمشة المذهَّبة، والأمتعة العجيبة، والحَشم، والخدم، والطواشية ما يطول وصفُه إلى أن صارت هذه الدار مُزخرفة، وبها سبع قاعات مفروشة بالرُّخام الملون والسقوف المُذهَّبة...

وبها "دار السعادة" محل النائب... أنشأتُ بها إصطبلًا، ومقعدًا مُتسعًا...، وقد كُنْتُ عمَّرتُ مقعدًا بأعلى دار السعادة أيضًا، وحمَّامًا، وعمَّرتُ قاعة برسم الحريم...".

ولمَّا التقى بشيخه ابن حجر حدَّثه ببعضها، فدوَّنه في تاريخه، واستهل كلامه بقوله: "ذكر لنا خليل بن شاهين المذكور"، وذكر بعض الأعمال سالفة الذكر، وأضاف على لسان المؤلِّف أنه "وجد ابن الصُّغَيِّر الناظر على الثغر أخذ ما بالمجانيق التي بقاعة السلاح من الرَّصاص، فعمَّر به حمَّامًا له، فطالع بذلك السُّلطان، فأمر بانتزاعه منه فانتُزِع، وعمَّر المجانيق كما كانت"(١).

وذكر عند حديثه عن تخت الدهيشاة بقلعة الجبل في ق٣٤ب-٣٥أ أنه عمل وهو نائب بالإسكندرية على قدرِه مقعدًا من مخمل منقوش مُذهَّب، وعُمِلَ بهِ رنوك من زركش وريش باسم المَلِك الأشرف، وعمل أيضًا زوج مقاعد أنطاع غدامسي بحواش كمخا برنوك مُطرَّزة برسم إيوان الدهيشاة المذكور، فجاؤوا على قانون عجيب، لم يُر لهم نظير.

---

(١) إنباء الغُمر، ج٤، ص١٧.

٤/٢- نظر دار الضرب وإمرة الحاج:

لم يلبث السُّلطان بَرسْبَاي بعد استقرار المؤلّف في القاهرة أن عيَّنهُ في سابع رجب سنة٨٣٩هـ في نظر دار الضرب بالقاهرة وإمرة الحاج المصري[١]، لكنه لم يلبث أن عُزِلَ منها ليتولى الوزارة، فأمَّا دار الضرب فخلف فيها ابنه زين الدين حاجي(ت:٨٩٥هـ)[٢]، وأمَّا إمرة الحاج فقد عُيِّنَ فيها الأمير طوخ مازي(ت:٨٤٣هـ)[٣].

٤/٣- الوزارة:

لمَّا قرَّرهُ السُّلطان بَرسْبَاي في سابع رمضان من السنة نفسها في الوزارة رفض تولِّيها، فألحَّ عليه، فاشترط عليه شروطًا فوافق، وباشرها شهرًا، فلمَّا رأى بها ما لا يليق به من الأمور استعفى منها، وقيل بل استعفى لعجزه عن سد حاجة المماليك، فأُجيب إلى ذلك في يوم الخميس ثامن شوال منها، وبقي على ما بيدهِ من إمرة طبلخاناة[٤].

وعن بعض أعماله التي قام بها في فترة وزارته يقول في ق١٧٠ب: "ورأيتُ ولاية قَطْيَا استقر بها الأشرف في وقت رسم لمُتولِّي قَطْيَا أنه لا يُمكِّن أحدًا إلا بمرسوم شريف، خصوصًا الجُند، ثم بطل ذلك بعد مُدَّة، وأُعيد الأمر على ما كان عليه، وفي الحقيقة هذه الأمور من الاحتفاظ وغيره مطلوب به الصاحب الوزير،وكُنْتُ قرَّرتُ في ولاية قَطْيَا الأمير أسنبُغا، وقرَّرتُ عليه كل شهر ألف دينار يحملها للدولة الشريفة".

وقُبيل الوزارة أو بعدها بقليل أرسله السُّلطان بَرسْبَاي لحفظ جسور الغربية. يقول في ق١٦٨ب: "وقد توجَّهتُ في عام تسعٍ وثلاثين إلى بلاد الغربية لحفظ الجسور ومقطع شوبر، فألزمتُ ما حولها من البلاد بذلك، ولم أُمكِّن أحدًا من الأعيان أن يحمي بلدًا لأجل مصالح المُسلمين، وكان المَلِك الأشرف رسم لي

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٩٧٠؛ عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٤، ص٣٩٩.

(٢) عبد الباسط الحنفي: المجمع المفنن، ج٢، ص٥٩٦.

(٣) العيني: عقد الجمان، حوداث ٨٢٤-٨٥٠هـ، ص٤٧٤.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤، ص٩٧٤؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ص٢٢-٢٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٧٦، ٧٧؛ عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٤، ص٤٠٤.

بذلك، وقال لي: "انهض فيه"، وأنه حفظه في سنة من السنين حين كان أميرًا، وقد فعلتُ ما أمرني به، ويَسَّرَ الله بالسلامة".

ولم يكن في هذه المُهِمَّة مُعيَّن ككاشف للجسور، وإنما لرغبة السُّلطان في إتقان عمل الجسور، يقول ق١٦٩ب: وأمَّا المقاطع التي تُقطع بإذن كاشف التُّراب، فتستمر المياه جارية فتتسع اتساعًا زائدًا...، وربما إذا علم السُّلطان أنَّ ذلك ضروري لا يتكل في أمرهِ على كاشف التُّراب بل يُجهِّز أميرًا من الأعيان لحفظه، فيضرب وطاقه هُناك، ويستمر إلى نهاية ذلك،وفعلتُ ذلك كما تقدم".

٤/٤- إمرة الحاج المصري:

وفي ثالث رجب سنة٨٤٠هـ تولَّى إمرة الحاج المصري، فدار بالمحمل في القاهرة كما هو المُعتاد، وعن هذا يقول ق١٦٥ب: "وقد ركبتُ وأنا أمير الحاج هذه الليالي بمائة وعشرين مِشْعلًا، ولم أُسبق إلى ذلك، وكانت من الليالي العجيبة"، وخرج من القاهرة في تاسع عشر شوال منها إلى الحج بالمحمل، ورحل من بِرْكة الحاج في ثالث عشرين الشهر[١].

وعمَّا فعله هُناك يقول في ق١١ب-١٢أ: "... صَعدتُ إلى سطح الكعبة الشريفة- شرَّفها الله- يوم عيد النحر، وألبستُها كسوتها الجديدة المُعتادة في كل عام...، وأبطلتُ ما كان يُستأدى بدرب الحجاز من المظالم، ورتَّبتُ الحاج على أسلوب وقوانين، استمر غالبها إلى الآن...".

وكانت ثاني حَجَّةٍ له، فإنه ذكر في ق١٤ب أنه حَجَّ قبل ذلك مع والده سنة٨٣١هـ.

٤/٥- نيابة الكَرَك والشَّوْبَك:

ثم ولَّاهُ الأشرف في صفر سنة٨٤١هـ نيابة الكَرَك، والشَّوْبَك من توابع الكَرَك، لاستئمان السُّلطان إياه، فخرج إليها في خامس ربيع الأول منها[٢].

---

[١] المقريزي: السلوك، ج٤، ص١٠٠٦، ١٠١٠؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ص٤٦، ٥١؛ العيني: عقد الجمان، ص٤٨٨؛ عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٤، ص٤٢١، ٤٢٧.

[٢] المقريزي: السلوك، ج٤، ص١٠٢٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٨٥؛ عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص١١-١٢.

وكانت الكَرَك إذ ذاك من أجلِّ النيابات، وكانت قلعتها مشحونة بالأموال، والحواصل بالغلال، وكان غرضه أنه إذا مات ولم يستقر ولده العزيز يوسف في المُلك أن يجد مكانًا يأوي إليه، وبخاصة أنَّ خالته أصيل هُناك مع المؤلِّف[1].

ولهذا لمَّا هرب العزيز يوسف من الدُّور السُّلطانية بالقلعة، وكثرت الأقاويل في شأنه كان من جُملة ما قيل: "إنه ذهب إلى زوج خالته بالكَرَك"، وكان هذا القول سببًا لصرف الظاهر جَقْمَق(٨٤٢-٨٥٧هـ) للمؤلِّف عن الكَرَك، بعد أن أقام بها نحو السنتين.

ومن أعماله التي أجراها في نيابته لها قوله في ق٤٦ب-٤٧أ: "وقد أنشأتُ بها حمَّامًا وإيوانًا مُعظَّمًا، وقد نظم الشعراء في ذلك الإيوان أشعارًا...، وكان يؤخذ بالمدينة المكوس فأبطلتُها ونقشتُ بذلك رخامة، ووضعتُها على الباب الغربي، وأبطلتُ ما يؤخذ من أرباب المعاش برسم الحسبة، وعوَّضتُ المُحتسب خراج الكروم المُختصة بالنيابة الشريفة، وجدَّدتُ عمارة مأذنة الجرس بالقلعة المنصورة، وأقمتُ بها ستة مؤذنين، وأوقفتُ لهم حمَّامًا بالمدينة مُختصة بالنيابة الشريفة، وأبطلتُ ما يؤخذ من الحُجَّاج بالركب الكركي وبمنزلة الحسا برسم أمير الحاج الكركي، وعوضتُه من ديوان النيابة غِلَالًا وجِمَالًا، كل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى".

وذكر عند حديثه عن الدهيشاة بقلعة الجبل في ق٣٥أ أنه عمل وهو نائب بالكرك بُسُطًا شوبكية لدور الفسقية التي بها، وذكر في ق٤٧ب أنه عَمل في الشَّوْبَك "بُسطًا كبارًا ثلاث شقَّات برسم المُخيَّم الشريف".

٤/٦- أتابكية صَفَد:

بعد عزله من نيابة الكَرَك بآقبُغا التركماني في جمادى الآخرة سنة٨٤٢هـ عيَّنهُ في أتابكية صَفَد يأكلها طرخانًا[2]، مُعفى عن الكُلف السُّلطانية والخدمة، وكان الظاهر بلغه أنه لمَّا خرج من الكَرَك سلَّمها لأقبُغا على أجمل وجه

---

[1] عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص١١-١٢.

[2] المقريزي: السلوك، ج٤، ص١١٠٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٢٧٩؛ عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٦، ص٣٥٦.

وأكمله، مع إظهار حشمة، وكلمات فيها تعظيم السُّلطان الظاهر، فعرف له ذلك، وكان هذا سببًا لوفور حُرمته في دولته، واعتنائه بشأنه.

باشر ابن شاهين أتابكية صَفَد، وصاحبَ نائبها حينئذ الأمير أينال العلائي، فكان أينال يركب ويحضر إليه في كل قليل بمنزله، وكان بينهُما صُحبة أكيدة، لكن ما ظهر لهذا فائدة بعد تولِّي أينال السلطنة.

لم يلبث ابن شاهين بصَفَد يسيرًا، حتى تمرَّد الأميران أينال الجكمي وتغري برمش نائبي الشام وحلب، فتوجَّهت العساكر إليه، وخرج المؤلِّف صُحبة العسكر الصَفَدي[1]، رغم أنه معفي عن الخَدم والأسفار، لأنَّ خِدْمَة السُّلطان تُحتِّم عليه ذلك، وكان له ومماليكه دور مُهم في كسر المُتمردين، فلمَّا بلغ السُّلطان ذلك شكرهُ في الملأ العام.

٤/٧- نيابة مَلَطْيَة:

بعد وقعة الأمير أينال الجكمي عَلِمَ السُّلطان جَقْمَق مدى طاعة ابن شاهين له، فلم يلبث أن عَيَّنَهُ في ذي القعدة سنة٨٤٢هـ بنيابة مَلَطْيَة، وبعث إليه بتقليدها، وأمر أن يُصرف له قدر كبير من المال[2]، وأعتذر إليه بأنها الوظيفة المُتاحة الآن، ولو شغر ما هو فوق ذلك لاستقر به فيه، فتوجَّه الوالد إلى مَلَطْيَة، وباشرها مُدَّة.

ثم استعفى من نيابتها في ربيع الآخر سنة٨٤٣هـ، فأعفاهُ السُّلطان، وقرَّرهُ في جُملة مُقدَّمي الألوف بدمشق[3]، ثم أبطل السُّلطان الاستعفاء، وأعاده إلى مَلَطْيَة على حاله الأول.

وقد ذكر أثناء حديثه عن قلعة الجبل في ق٣٤ب، ق٥٥أ أنه تولَّى أثناء نيابته لمَلَطْيَة فرش القصر الثالث ببُسُط عجيبة ظلَّت سنين مفروشة به، وكان دهليز القصر الكبير هُدِمَ فعمَّره من ماله الخاص خِدمَة للسُّلطان.

---

[1] المقريزي: السلوك، ج٤، ص١١٣٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣١٨.
[2] عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص٨٥.
[3] المقريزي: السلوك، ج٤، ص١١٧٢.

ثم قَدِمَ في أثناء ذلك إلى القاهرة ومعه هدية للسُّلطان، فاحتفل بقدومه عليه وعظَّمه، ثم طلب الاستعفاء من مَلَطْيَة، فلم يُجِبه إلى ذلك، ووعدهُ بالخير، وأعاده إليها.

ثم أرسل إليه في جمادى الأولى سنة٨٤٧هـ يسأل الإعفاء فرفض، ودام بها إلى أن استأذن في حضوره إلى القاهرة، فقَدِمَ في يوم الإثنين عشرين جمادى الآخرة من السنة نفسها، فلمَّا حضر قدَّم هديته، واستعفى من مَلَطْيَة فأُجيب إلى ذلك[١].

وكان له بمَلَطْيَة درسًا يحضره جماعة من أعيان أهل العلم بها، وصنَّف بها عِدَّة كُتب، ووُلِدَ له بها ولده عبد الباسط سنة٨٤٤هـ.

٤/٨- أتابكية حلب:

لمَّا أعفاهُ السُّلطان من مَلَطْيَة ظلَّ في القاهرة إلى يوم الإثنين رابع رجب من السنة نفسها، فقرَّرهُ في أتابكية حلب عوضًا عن قِيزطُوغان العلائي، الذي نقله إلى مَلَطْيَة[٢]، فدخلها في شهر شعبان بأُبَّهة عظيمة.

ثم جرى بينه وبين نائبها قانباي الحمزاوي خلاف في جمادى الآخرة سنة٨٤٨هـ، وبعث يشكوه للسُّلطان، فأمر السُّلطان بسجنه في قلعة حلب، فبقي بها قليلًا، حتى شفع فيه جماعة من الأعيان، منهم الحافظ ابن حجر العسقلاني، وظهر للظاهر غرض نائب حلب فأطلقه، وأقطعه مدينة قاقون[٣]، يأكلها وهو مُقيم ببيت المَقْدِس، فطلب منه أن يُقيم في مدينة الخليلعليه السلام، فأذن له بذلك، وأضاف إليه عِدَّة جهات ومُرتَّبات بجانب قاقون[٤].

---

[١] ابن تغري بردي: النحوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٥٨.

[٢] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٥٨.

[٣] كانت من أعمال فلسطين التابعة للصفقة الساحلية التابعة نيابة دمشق، كانت مركزًا للبريد بأنواعه، أعاد تعميرها الظاهر بيبرس سنة٦٦٥هـ، وهي تتبع اليوم محافظة نابلس. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٠٠؛ ج١٦، ص٣٧٩، ٣٩٣، ٣٩٧، ٣٩٩؛ مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص٣٣٦.

[٤] عن تفصيل هذه الحادثة. انظر: عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج١، ص٣٥٤-٣٥٥؛ عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص١٨٠، ١٩٠.

ثم بعث يستأذن السُّلطان في الحج، فأذن له فيه، وبعث إليه بنفقة جيِّدة، فحج من الخليل مُجرَّدًا مع بعض جماعة من مماليكه، وهي الحِجَّة الثالثة.

٤/٩- نيابة القُدس الشريف:

ثم طلبه السُّلطان إلى القاهرة، وحين قَدِمَها احتفى به، ثم قرَّرهُ في نيابة القُدس، وذلك في مُحرَّم سنة ٨٥٠هـ، وأضاف إليه تقدمة ألف بدمشق[1]، وبعث إليه بأشياء كثيرة، ومبلغ ألف دينار، فخرج إليها[2]، وباشرها فوق السنة، ثم بعث بالاستعفاء منها فأُعفي.

٤/١٠- أمير ميسرة بدمشق مع ما معه من الإمرة:

ولمَّا أعفاهُ السُّلطان أمرهُ بالتوجه إلى دمشق على ما بيده من التقدمة، وكتب له بأن يكون أمير ميسرة بدمشق، فأقام بها مُدَّة والصُّفَّارات تُضرب على بابه، وهي من نوادره بدمشق، إذا لم تجرِ العادة الحديثة بذلك سوى لنائب الشام والأتابك وحاجب الحجاب، وأمَّا بقية مُقدَّمي الألوف فكانوا بالطبلين والزمرين.

ثم لمَّا خرج العسكر إلى حلب لحفظها من جهان شاه[3] خرج معهم في أُبَّهة وعظمة، فلمَّا زال خطره قَدِمَ إلى القاهرة، فأكرمه الظاهر وأنزله بقصر تمرباي بالكبش، وأنس به في خلواته، وكان يسأله في كثير من الأمور الدينية والدنيوية وأحوال قواعد المملكة.

ثم زادهُ في مُحرَّم سنة٨٥٤هـ على ما بيده بدمشق إمرة عشرين، بعد أن شغرت الوظيفة بحُكم موت صاحبها[4]، وبعث إليه بمبلغ ألف دينار، غير ما

---

[1] ذكر ابن تغري بردي أنه قُرِّر في تقدمة ألف بدمشق في ربيع الآخر سنة٨٤٣هـ عوضًا عن الأمير ألطنبُغا الشريفي المُستقر في أتابكية حلب. انظر: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٣٥. وعن ملابسات تولية المؤلِّف لنيابة القدس. انظر: عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج١، ص٤٣٣-٤٣٤.

[2] ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ص٢٤٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٧١، ٣٧٣؛ عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص٢١٦.

[3] حاكم العراق وتبريز، قتله حسن الطويل سنة٨٧٢هـ. انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٢٦-٢٧.

[4] عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص٣٠١.

كان قد رتَّبهُ باسمه وهو مُقيم بالقاهرة، وغير ما رتَّبهُ لأولاده على الذخيرة بالقُدس، وعاد إلى دمشق.

٤/١١- إمرة الحاج الشامي:

لمَّا عاد لدمشق بعث يستأذن السُّلطان في الحج، فلم يأذن له، وقال له: "إنه لا يليق به أن يتوجَّه بمُفرده، وإن توجَّه بجماعتهِ يحتاج إلى مصرف كبير".

ثم بعث إليه في العام الثاني بإمرة الحاج بالمحمل الشامي، وبعث إليه خلعة هائلة، ومركوبًا خاصًّا بالسرج الذهب والكنبوش الزركش، وبعث بأن يُعطى خمسة آلف دينار من قلعة دمشق ليتجهَّز بها، فأخذها، وأضاف إليها من ماله نحوها أو زيادة على ذلك، وخرج إلى الحج في أُبَّهة زائدة، وصحب بعض أهله معه، ومنهم ولده المؤرِّخ عبد الباسط[١].

ولمَّا عاد كان قدم مات الظاهر جَقْمَق، وتسلطن بعدهُ الأشرف أينال العلائي سنة٨٥٨هـ، فبعث إليه باستقراره في إمرة الحاج على عادته ثانيًا، وأضاف إليه الركوب الثلاث: الشامي، والحلبي، والكَرَكي، وبعث إليه بألفي دينار، فكانت الحَجَّة الرابعة.

٤/١٢- إمرة عشرين بطرابلس:

لمَّا عاد ابن شاهين من الحج بأشهر قليلة توجَّه إلى القاهرة، لعهود كانت بينه وبين السُّلطان أينال بأنه إن أتاهُ الله المُلك أن يحضر إليه بغير إذن، فبعث إليه الأشرف بعوده من قطيا، واعتذر إليه في مُكاتبته له، ووعدهُ بالجميل، وبعث إليه بأشياء، فعاد إلى دمشق.

وأخذ في كل قليل يبعث بالاستعفاء من التقدمة التي بيده بدمشق، ولا زال حتى أُجيب إلى ذلك، وأُعطي إمرة عشرين بطرابلس في جمادى الأولى سنة ٨٥٩هـ[٢] ليأكلها طرخانًا، فتوجَّه إليها.

---

[١] ذكر عبد الباسط أن في ربيع الآخر سنة٨٥٥هـ قرره السلطان في إمرة الحاج الشامي، ثم أبطل ذلك. انظر: نيل الأمل، ج٥، ص٣٣٧.

[٢] ذكر عبد الباسط أنه شعبان. انظر: نيل الأمل، ج٦، ص١٠٨.

وأقام على ذلك مُدَّة بطرابلس، وهو مُعفى من الخدمة وسائر الكُلف السُلطانية، مُعتكِفًا على مُطالعة الكُتب، وإسماع الحديث، وإلقاء الدروس، وصنَّف بها عِدَّة كتب، وأنشأ بها دارًا وزاوية، ومدفنًا أعدَّهُ ليُدفن به كما سيأتي، وكان وهو بطرابلس في غاية الراحة والحُرمة، وجميع أعيانها يُعظِّمونه ويترددون إليه.

٤/١٣- إمرة طبلخانة بدمشق:

وخلال هذه الفترة شغرت إمرة طبلخاناة بدمشق بحُكم انتقال صاحبها إلى تقدمة ألف، فعيَّنهُ السُلطان فيها في شعبان سنة٨٦٤هـ، وكتب إليه بأن يأكلها طرخانًا حتى يجد له ما يليق به، فتوجه المؤلِّف إلى دمشق، ودخلها في ذي الحِجَّة منها[١]، وسكن بمنطقة الصوة بالقُرب من المنجكية التي بالقُرب من مدرسة قانباي[٢].

٥- قدومه إلى القاهرة بطلب من السُلطان المؤيَّد أحمد بن أينال:

واتفق أن مات الأشرف أينال بعد قليل من ذلك، وتسلطن ولده المؤيَّد أحمد، فبعث إليه يطلُبه إلى القاهرة، فقَدِمَها في أوائل شهر رمضانسنة٨٦٥هـ، ونزل بدار الأشرف بَرسْبَاي، ثم اجتمع بالسُلطان فاحتفى به، ووعدهُ بخير[٣]، لكن لم يلبث المؤيَّد أن خُلِع بعد أربعة أشهر من سلطنته في تاسع عشر رمضان سنة٨٦٥هـ.

وما أن استقر بدار زوجته الخوند أصيل في القاهرة حتى قَدِمَ عليه الأعيان وأهل العلم للسلام عليه، وكان ممَّن زاره قاضي القُضاة علم الدين البُلقيني الشافعي(ت:٨٦٨هـ)، وذهب هو لزيارة قاضي القُضاة سعد الدين الديري الحنفي(ت:٨٦٧هـ)، والشيخ مُحيي الدين الكافيجي الحنفي(ت:٨٧٩هـ)، وكان بصُحبته ولده عبد الباسط ليُزكِّيه عند هؤلاء الشيوخ للأخذ عنهم[٤].

---

[١] عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٦، ص٨٥، ٩٠.

[٢] عبد الباسط الحنفي: المجمع المفنن، ص٤٠١.

[٣] عن هذه الزيارة. انظر: عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٢، ص٢٦، ٢٨، ٣٢، ٣٣؛ نيل الأمل، ج٦، ص٨٥، ٩٠.

[٤] عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٢، ص٣٠، ٣٣.

٦- أفول نجمه في عهد السُّلطان الظاهر خُشقدم:

لم يلبث ابن شاهين بعد قدومه إلى القاهرة سوى عِدَّة أيام حتى خُلِعَ المؤيد أحمد في تاسع عشر رمضان، وتولى الظاهر خُشقَدم السلطنة، وكان ابن شاهين يعرفه قبل السلطنة فصعد القلعة في حادي عشرين الشهر، واجتمع به لتهنئته بالسلطنة، فأنس به وقرَّبه واختص به، وأذن له بناءً على طلبه أن يُقيم بالقاهرة على ما بيدِهِ من إمرته بدمشق طرخانًا كما كان، وأن يجتمع به في الأسبوع مرَّتين في يومي الجُمعة والثلاثاء، ويُبلغه حوائج من له عنده حاجة، وطلب من السُّلطان أنه متى ندبه إلى مُهم يفعله ثم يعود إلى حاله، وأنه لا غرض له في شيء سوى الإقامة في القاهرة بعيدًا عن الوظائف وأمور الدُّنيا فوافق، كما أعاد إليه بعض مُرتَّبات كانت باسمه وأُخرجت عنه، ورتَّب له لحمًا وعليقًا وغير ذلك، وجالسهُ وساررهُ، وشاورهُ في كثير من أموره، وقَبل شفاعاته، وتكلَّم في أيامهِ في كثير من القضايا المُهمَّة وأنهاها[1].

ولمَّا رأى الناس مكانته قُصدوه وازدحموا على بابه، مع عدم التفاتهِ إلى شيء ممَّا في أيديهم، وكُوتِبَ من أقاصي المملكة في كثير من المُهمَّات وأنهاها.

ودام على ذلك في حُرمة ووجاهة إلى أن طلب منه الخليفة المُستنجد بالله[2] في شوال سنة ٨٧١هـ أن يُكلِّم له السُّلطان في أن يأذن له بالنزول إلى محل سكن الخلفاء قبله، فاجتمع به وكلَّمهُ في ذلك من غير أن يحسب عاقبة ذلك، فغضب منه وتوهم[3]، فعزله عن إمرة دمشق، وأخرج عنه إقطاعه الذي بالشام، وكان تنازل عنه لأولاده، وقطع عن أولاده مُرتَّبهُم بديوان الذخيرة ببيت المَقْدِس[4]، فأرسل أحد أولاده برسالة إلى السُّلطان يطلب منه أن يأذن له بالتوجُّه إلى بيت

---

[1] عن طلوع المؤلِّف إلى القلعة للاجتماع بالسلطان، وما كان يدور بينهما من القضايا والمسائل الدينية والإدارية ونحو ذلك. انظر: عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٢، ص٥٧، ٧٢، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٥، ١٤٧، ١٨٢، ٢٤٧-٢٤٨؛ ج٣، ص٦، ١٩، ٦٨.

[2] هو يوسف بن المتوكل على الله، تولى الخلافة سنة ٨٥٩هـ حتى وفاته سنة٨٨٤هـ. انظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٧٧٦-٧٧٧.

[3] انظر: عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٣، ص١٣٢-١٣٣.

[4] عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٣، ص١٩، ١٣٣.

المَقْدِس أو إلى طرابلس فيُقيم بمنزله الذي أنشأهُ وينقطع إلى الله تعالى، فقال له: "مكة خير من القُدس، فليتوجَّه إليها".

عندها أعدَّ ابن شاهين نفسه بما يلزم من الميرة والجِمَال ونحو ذلك، وصحب معه أهله وخدمه، وسافر إلى الحجاز للحَجَّة الخامسة، وقال واصفًا هذه الحَجَّة: "فحججتُ حَجَّة هنيَّة ما حججتُ مثلها قط، مع ما تقدَّم لي من الحج غير ما مرَّة".

وبعد أداء الفريضة توجَّه إلى العراق صُحبة الحاج العراقي مع الأمير عبد الحق بن الجنيد أمير الركب في هذه السنة، وزار بغداد والحِلَّة وغيرهما، وكان قصده الاجتماع بجهان شاه مَلِك العراق وتبريز، لكنه قُتل على يد حسن الطويل[١].

ظل المؤلِّف في العراق حتى توفِّيَ الظاهر خُشقدم في ربيع الأول سنة٨٧٢هـ، فعاد إلى الشام من على طريق حلب، فدخل مدينة طرابلس في أواخر سنة٨٧٢هـ ونزل بداره، وبعد عِدَّة شهور أرسل مُكاتبة وهدية إلى ولده عبد الباسط في القاهرة ليُعطي المُكاتبة للأمير تمراز الشمسي[٢]، والهدية برسم السُّلطان قايتباي، فلمَّا وصلت المُكاتبة إلى تمراز فرح بعود المؤلِّف إلى طرابلس، ووعدهُ أن يُكلِّم السُّلطان في شأنه، لكن بعد أن يتفرَّغ ممَّا هو فيه من الهُموم والمشاغل[٣].

أقام ابن شاهين في داره، مُنجمعًا عن الناس، مُتوجِّهًا إلى الله تعالى، مُعتكفًا على العبادة والخير وتلاوة القرآن، مُقبلًا على شأنه، من غير أن يتناول شيئًا من معلوم السلطنة من سنة إحدى وسبعين إلى هذه السنة، وفعل الكثير من البر والخير، واشترى عِدَّة أماكن ووقفها، وتصدَّق بصدقات كثيرة.

---

(١) عن تفاصيل حجه، وسفره مع ركب الحاج العراقي، وما جرى بعد ذلك. انظر: عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٣، ص١٣٤-١٣٥، ١٣٦؛ نيل الأمل، ج٦، ص٢٦٣-٢٦٤.

(٢) هو ابن أخت السلطان قايتباي، تولى إمرة سلاح، توفي سنة٨٩٤. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٣٦-٣٨.

(٣) عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٣، ص٢٧٠.

٧- علاقاته بأعيان عصره:

استطاع ابن شاهين خلال حياته تكوين كثير من علاقات الصداقة والمحبة مع أغلب طبقات وشرائح المجتمع المصري والشامي على اختلاف انتمائتهم وتوجُّهاتهم، وكاتب ملوك الدول الإسلامية وكاتبوه، فكاتبه السُّلطان العُثماني مُراد بن محمد، والأمير إبراهيم أمير بني قرمان، والكامل خليل صاحب حصن كيفا[١].

وأورد المؤلِّف في كتابه كثير من علاقاته وصداقاته بأعيان عصره بما في ذلك مشايخه وهؤلاء ساعدوه في كثير من المناصب والمرتبات وأمدوه بكثير من المعلومات، ظهر صداها في هذا الكتاب، وذكر ولده المؤرِّخ عبد الباسط كثير من هؤلاء، خلاف ما أوردهُ المؤلِّف في الزُّبدة، وممَّن وقفتُ عليه منهم:

٧/١- سعد الدين إبراهيم بن عبد الكريم بن كاتب جكم، ناظر الخاص بمصر(ت: ٨٤١هـ):

قال في ق١٤٣أ: "كان من ألطف الناس وأحسنهم، رطب القلم، وكان من أعزِّ أصحابي، وله خط وعبارة حسنة، وتُوفِّيَ سنة إحدى وأربعين وثمان مائة، رحمه الله تعالى، وعفى عنه، وأسكنه فسيح الجنان"

٧/٢- أبو بكر بن سُليمان بن إسماعيل الحلبي، المعروف بسبط ابن العجمي، نائب كاتب السر(ت: ٨٤٤هـ).

كان بينه وبين المؤلِّف صُحبة قديمة ومحبَّة أكيدة، ثم صار بعده ولده مع المؤلِّف كما كان والده (المجمع ص١٧٤).

٧/٣- ولي الدين أحمد بن أحمد بن عبد الخالق الأسيوطي(ت: ٨٩١هـ).

كان بينه وبين المؤلِّف صُحبة قديمة ومحبَّة أكيدة (المجمع ص٢٤٢).

٧/٤- أحمد بن حسن بن علي الأذرعي الدمشقي الشافعي(ت: ٨٥١هـ).

كان بينه وبين المؤلِّف صُحبة قديمة ومحبَّة أكيدة (المجمع ص٢٨٧).

---

[١] عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص١٠٣.

٧/٥- أحمد بن سعيد بن محمد السنوسي المالكي، قاضي قُضاة المالكية بدمشق (ت: بعد ٨٧٠هـ).

كان بينه وبين المؤلِّف صُحبة قديمة ومحبَّة أكيدة (المجمع ص٣٠٣).

٧/٦- شهاب الدين أحمد بن محمد بن فُهيد المُغيربي(ت: ٨٤٦هـ):

قال عنه في ق١١٦أ: "نفع الله ببركته، فإنه من ذرية الصالحين، وهو أحد جُلساء الحضرة الشريفة ولي فيه اعتقاد، وأخذ العهد عَلَيَّ، وبيني وبينهُ صُحبة أكيدة".

٧/٧- أحمد بن محمد بن محمد الشمني المالكي(ت: بعد٨٧٢هـ).

كان بينه وبين المؤلِّف صُحبة قديمة ومحبَّة أكيدة، وكان يجتمع به في كل جُمعة، وكان الشيخ يُعظِّم ابن شاهين ويُجلُّه ويأنس به وإليه (المجمع ص٤٠١).

٧/٨-الأمير أينال الششماني، أتابك بالشام(ت: ٨٥١هـ).

قال في ق١٧٣أ: "وهو من أعزِّ أصحابي، أعزَّ الله أنصاره".

٧/٩-الأمير أينال العلائي، السُّلطان الأشرف فيما بعد(ت: ٨٦٥هـ).

ذكر في ق١٤٨أ أنه من أعزِّ أصحابه.

٧/١٠- أينال اليشبكي المعروف بالحاج أينال، نائب حلب(ت: ٨٦٦هـ).

كان بينه وبين المؤلِّف صُحبة ومحبَّة أكيدة، وكان يُجلّه ويُعظِّمه" (المجمع ص٦٤١).

٧/١١- بردبك القُبْرُسي الأشرفي المعروف بفرنج، الدوادار الثاني (ت:٨٦٨هـ).

كان بينه وبين المؤلِّف صُحبة ومحبَّة أكيدة، وصُحبة قديمة (المجمع ص٦٦٤).

٧/١٢- بَرسْبَاي النجاشي نائب الشام(ت: ٨٧١هـ).

كان من أعز أصحابه وأحبابه، كثير التعظيم للمؤلِّف والتأدُّب معه (المجمع ص٦٧٥).

٧/١٣- بَرسْبَاي المحمدي الظاهري أمير مجلس(ت:٨٩٤هـ).

كـان السبب فـي راتـب العليق للمؤلِّـف فـي أيـام شـاديته للشون زمـن الظـاهر خُشقدم، وكان يعتبر ابن شاهين كوالده، ويتردد إليـه، ويقوم فـي قضـاء حوائجـه (المجمع ص٦٨٢).

٧/١٤- بيبرس بن يشبك ططر الأشرفي المعروف بخال العزيز (ت:٨٧٣هـ).

كان بينه وبين المؤلِّف مُصاهرة، لأنه كان مُتزوِّجًا بأخته أصيل، وكان يُعين المؤلِّف على أخته... (المجمع ص٧١٧).

٧/١٥- تغري برمش الجلالي الناصري المؤيدي الحنفي، المعروف بالفقيه (ت:٨٥٢هـ).

كان بينه وبين المؤلِّف صُحبة ومحبَّة، وكان يتأدب معه غاية التأدب، مع ما كان عليه من التعاظُم (المجمع ص٧٥٨).

٧/١٦- تمُربَاي السيفي تمُربُغا المشطوب رأس نوبة النوب(ت:٨٥٢هـ).

قال في ق١٤٧ب: "ولي به صُحبة أكيدة".

٧/١٧- تمربُغـا الظـاهري جَقْمَـق الرومـي الحنفـي، السـلطان الظـاهر (ت:٨٩٩هـ).

كان بينه وبين المؤلِّف صُحبة ومحبَّة من أيام إمرته (المجمع ص٧٩٧).

٧/١٨- تنبك البردبكي الظاهري، أتابك العسكر(ت:٨٦٢هـ).

كان بينه وبين المؤلِّف صُحبة قديمة ومحبَّة أكيدة، وكـان فـي كل قليل يبعث إليه وهو بدمشق بالملابس الفاخرة والهدايا (المجمع ص٨٠٣).

٧/١٩- تـنم مـن عبـد الـرزاق المؤيَّـدي، المعـروف بالمُحتسـب، نـائـب الشـام (ت:٨٦٨هـ).

كان بينه وبين المؤلِّف محبَّة أكيدة، وصُحبة زائدة (المجمع ص٨٢٢).

٧/٢٠- جانبك من أمير الأشرفي، المعروف بالظُّرَيِّف، أحد مقدمي الألوف، والدوادار الثاني بمصر(ت:٨٦٨هـ).

قال عبد الباسط: "كان بينه وبين الوالد صُحبة أكيدة، وكان إذا حضر الوالد عنده في بعض الأحيان أجلّه وعظّمه، ورفع من محلّه وقام له، مع ما كان فيه من التعاظم، حتى كان يستحي الوالد منه، ممَّا يفعله معه من تعظيمه، بل يقول له: "نحن نراك بعين أستاذنا"، يُشير بذلك إلى الأشرف بَرسْبَاي، وكان غالب من يراه يفعل ذلك مع الوالد يتعجب منه غاية التعجُّب، لما كان شُهِرَ به جانبك هذا من غاية التعاظم والتكبر على الخاص والعام" (المجمع ص٨٣٧).

٧/٢١- جانبك الأينالي الأشرفي، المعروف بقلقسيز، أتابك العساكر ثم نائب الشام (ت:٨٨٣هـ).

كان من أعظم أصحاب المؤلِّف (المجمع ص٨٤١).

٧/٢٢- الأمير جلبان المؤيدي، نائب الشام(ت:٨٥٩هـ).

قال في ق١٧٢أ: "ولي به صُحبة أكيدة، وله عليَّ أفضال وحنو".

٧/٢٣- الأمير دولات باي المؤيدي الدوادار(ت:٨٥٧هـ).

قال في ق١٤٨أ: "ولي بهِ صُحبة قديمة".

٧/٢٤- الأمير سودون النوروزي، حاجب الحُجَّاب بالشام(ت:٨٤٧هـ تقريبًا).

ذكر في ق١٧٣ب أنه من أعزِّ أصحابه.

٧/٢٥- الأمير شادبك قصقة(ت:بعد٨٤٠هـ).

ذكر في ق١٤٨أ أنه من أعزِّ أصحابه.

٧/٢٦- الأمير طوخ من تمراز الناصري(ت: ٨٦٢هـ).

ذكر في ق١٤٨أ أنه من أعزِّ أصحابه.

٧/٢٧- مُعين الدين عبد اللطيف بن أبي بكر العجمي، نائب كاتب السر (ت:٨٦٣هـ):

قال في ق١٣٧أ: "فإنه صاحبي وابن صاحبي، ولهُما عَلَيَّ أفضال. كان والده- رحمه الله- أُمَّة في علمِ الإنشاء، وقد اكتسبتُ منه مسائل جَمَّة".

٧/٢٨- زين الدين عمر بن أحمد ابن السَّفَّاح، ناظر الجيش بحلب (ت:٨٦٦هـ):

قال في ق١٧٦ب: "وكان بيننا صُحبة"، ثم اتبعها ببعض ما جرى بينهُما من الحوادث.

٧/٢٩- الأمير قانبك الأشرفي، الخازندار الثاني(ت: بعد٨٤٠هـ).

ذكر في ق١٤٨ب أنه من أعزِّ أصحابه.

٧/٣٠- قاني باي الجركسي، شاد الشراب خاناه(ت:٨٦٦هـ).

قال في ق١٤٨أ: "ولي بهِ صُحبة أكيدة".

٧/٣١- قاني باي الحمزاوي، نائب حلب(ت:٨٦٣هـ).

قال في ق١٧٥ب: "له عليَّ أفضال وأنعام، وبيننا صُحبة أكيدة مُثمرة مُفيدة".

٧/٣٢- قراقجا الحسني، أمير آخور كبير(ت:٨٥٣هـ).

قال في ق١٤٧ب: "ولي بهِ صُحبة، وكذلك والدي".

٧/٣٣- بدر الدين محمد بن بن أحمد بن محمد الزبيري السكندري، ويُعرف بابن التنسي (ت:٨٥٣هـ).

قال في ق١١٠ب: "ولي به صُحبة أكيدة من مُدَّة مديدة، وجرى بيننا مُذاكرات في العلم الشريف، وله عليَّ أفضال، وكان أخوه القاضي شمس الدين- رحمه الله تعالى- أكبر أصحابي، وكان يتردد إليَّ بثغر الإسكندرية بالتُّحف والهدايا".

٧/٣٤- شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد المُحسن السكندري المالكي (ت: بعد٨٤٥هـ):

قال عنه في ق١١٥ب: "وهو من ألطف الناس، وله عليَّ حقوق خدم من سالف القِدَم، وجرى بيننا مذاكرات في علوم شتى".

٧/٣٥- مُحب الدين محمد بن عُثمان، المعروف بابن الأشقر الحنفي (ت:٨٦٣هـ):

قال في ق١٤٠ب: "ولي بي صُحبة أكيدة من قديم الزمان، وله علي حنو ومحبَّة، ولي فيه اعتقاد، وجرت بيننا مُذاكرات في العلم الشريف...، وله عليَّ أفضال وإنعام أعجز عن وصف عُشر معشارها، سَلَّمَهُ الله هو وأخوه وأولاده".

٧/٣٦- كمال الدين محمد بن محمد بن عُثمان البارزي(ت:٨٥٦هـ):

قال في ق١٣٧أ: "ولي به- عَظَّمَ الله شأنه- صُحبة أكيدة، وله عَلَيَّ حنو بالغ، وقلمه أخضر، فما سألته قط في شيء إلا وأجابني، وله عَلَيَّ الأفضال والأنعام من أنواع مُتعدِّدة، وتمكنه في المُلك أعظم مُكنة".

ولمَّا عَدَّدَ أعيان الموقِّعين بديوان الإنشاء الشريف في ق١٣٧أ-ب قال:

"القاضي ناصر الدين البُرُلُّسي، والقاضي شرف الدين بن الشاز، والقاضي نور الدين الإنبابي، والقاضي ناصر الدين الفاقوسي، والقاضي زين الدين بن الخرَّاط، والقاضي جمال الدين بن أبي غالب، والقاضي شرف الدين بن التاج، والقاضي برهان الدين الرَّقي، والقاضي شمس الدين ابن مُرضعة، والسيد الشريف والقاضي مُحب الدين بن الفاقوسي، والقاضي علم الدين جانم، والقاضي شهاب الدين الحجاوي.

فهؤلاء فُضلاء ، وكل منهم أُمَّة في علم الإنشاء، وجميع هؤلاء أصحابي، ولهُم عَلَيَّ حقوق خدم وتلاقيح وتباجيل فيما كُتِبَ لي من ديوان الإنشاء الشريف من التقاليد والمناشير والمُكاتبات ما لم يكُن كُتِبَتْ في عصرنا لأحد".

٨- مرضه ووفاته:

لم يلبث بعد عودته لطرابلس إلا بضعة شهور ومرض بالبطن، فلمَّا أحسَّ بأنه مرض الموت، جمع ما معه من المال، وقسّمه على أولاده وورثته، وفرَّق من ثُلثه على جماعة من ذويه وسراريه وغيرهم، ثم أحضر الغاسل وأعطاهُ دينارًا ذهبًا، وأوصاه أنه إذا مات يُغسِّله، ووصف له كيفية يُغسِّلَهُ عليها، وقال له: "خُذ سلبي وما عليَّ من الثياب".

ثم لزم تلاوة القرآن إلى أن توفي بعد أيام يسيرة، في ليلة الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة مبطونًا، وجُهِّزَ وكُفِّن، وصُلِّي عليه بداره في صبيحة يوم الخميس، ثم دُفِنَ بالمدفن الذي كان أعدَّهُ لنفسه[1].

٩- ثناء ولده عليه:

قال عبد الباسط: "وكان- رحمه الله تعالى- مشكور السيرة في جميع ولاياته، ذا عدل وإنصاف فيما وليه من أمور المُسلمين، كثير الشفقة على خلق الله تعالى، بحيثُ لمَّا عُزل عن نيابة الإسكندرية أغلق أهلها بابها واستغاثوا، وأرادوا منعه من خروجها حتى تلطَّف بهم، وكذا وقع له بمدينة الكَرَك، بل قام أهل الكَرَك معه، وقالوا: "إن شئت نمنعك بهذا الحصن، ونصير أتباعًا لك، ولا علينا من السُلطان"، وكذا فعل أهل مَلَطْيَة حين صُرِفَ عنهم، وكان مُحبَّبًا للناس، كثير التواضع لأهل التواضع، لا يُحب سفك الدماء، وما أقدم في جميع ولاياته على سفك دم، لا بحق ولا بغيره، فإنه لم يتفق له ذلك، حتى عُدَّ ذلك من نوادره، سوى شنق حسن قجا، بحُكم خروجه عن طاعة الظاهر، وشق العصا مع أخيه تغري برمش، وكان شنقه بأمر الظاهر وحُكمه.

وكان شهمًا، فخمًا، ضخمًا، رئيسًا، وجيهًا في الدول، سيوسًا، مُدبِّرًا، عاقلًا، حازمًا، ذا رأي وتدبير، وخبرة بالأمور، ومعرفة تامة، قائمًا في أنواع الخير والبر والمعروف بقلبه وقالبه، خيِّرًا، ديِّنًا، حسن السمت والمُلتقى، كثير الأدب والحِشْمَة، ذا تؤدة وسكون، فكه المُحاضرة، حلو المُذاكرة، جيِّد المُعاشرة، ضويّ الهيئة، حسن الشكالة، نيِّر الوجه، حسن الصورة، واللحية وافرها، عارفًا

---

[1] عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٦، ص٣٥٦.

بأيـام النـاس، ذا حنكـة وتجـارب ودهـاء، ومعرفـة بطرائـق المُلـك والمُلـوك والمملكة، بحيثُ لا يعجبه في ذلك العجب، مُتأنِّقًا في سائر أحواله، مُتجِّملاً في جميع شؤونه، قائمًا بناموس ما وليه على قواعد قُدماء المُلوك والأُمراء.

وكان يُضرب بسِمَاطِهِ المثل بالقاهرة، فضـلًا عن غيرها، حتى كان الكثير من النـاس تُقرِّع جماعة من الأُمراء بمصر بذكر سماطِهِ لهُم، وكذا بعض المماليك أُستاذيهِم، وكان يحضر سِمَاطُه الكثير من الرُّؤساء والأعيان وغيرهم، خُصوصًا في أيام المواكب وهو بالقاهرة لرؤية ذلك.

وكان كريم النفس جدًّا، سخيًّا، معطـاءً، بـارًّا لأصـحابه، كثير التودُّد إليهم والقيام معهم ولمن قصده لمُهم كائنًا من كان، مُحِبًّا في العلم والعُلماء والطلبة وأربـاب الفضـائل والكمـالات، مُعظِّمًـا لهُـم، مُحِبًّـا فـي الفُقـراء والصـالحين والمجاذيب، ذا مهابة وحُرمة وأُبَّهة، حتى كان بعض المُعتقدين يقول عنه: "إنه سُلطان أولاد الناس"، وترشَّح مرَّة لنيابة الشام في دولة الأشرف بَرسْبَاي قبل نيابة الكرك، وأظنُّه أخر من كتب في الورق الأحمر كنائب الشام إلى السُّلطان، وهو نائب الكرك.

وكـان مـع ذلـك كلـه شُـجاعًا، مقدامًا، عارفًـا بـأنواع الفروسـية والأنـداب والتعاليم، بسائر فنون ذلك، فكان يخرج على أكابر مُدَّعي هذه الفنون، ويُظهر لهم عيوبهم في ذلك، وله في ذلك حكايات لو سردناها لطال المجال، وكان عفيفًا عن المُنكرات والفروج والمُسكِرات،ولقد حلف مرَّة يمينًا بأنه لم يُدخِل المُسكِر باطنه قط ، وهو بار في يمينه، صادق في ذلك.

وكان مُعظمًّا عند المُلوك مُوقَّرًا، حتى كان الظاهر[جَقْمَق] يُخاطبه بـ"يا سيدي"، ويرفع من مَحَلِّهِ، وقام له غير ما مرَّة وأجلسه، وأمَّا الظاهر خُشقدم فناهيك بما كان يُعظِّمه به، وكان إذا حضر عندهُ تحرَّك له، وربما قام له في بعض الأحيان وأجلسه، وكان إذا حضر مجلسه أقبل عليه، فلا يتكلم مع غيره إجلالًا له، إلا على وجه يتضمن بسؤال أحد ممَّن حضر ذلك المجلس في شيء يتعلق بالوالد.

وكان له التوجُّه التام للعالم الملكوتي، والإقبال على الله تعالى، مواظبًا على نوافل الطاعات والعبادات، من صيام كثير من الأيام، وصيام الثلاث شهور والمُحرَّم، كل ذلك في أيام إمرته، فما بالك في غيرها، مع المواظبة على صلاة الضُّحى، وصلاة الغفلة، وقيام الليل في بعض الأحيان، ومُلازمة التلاوة والأذكار والأوراد، ومُطالعة الكتب، والاشتغال والتصنيف والتأليف"[1].

١٠- بعض ما امتُدِحَ به:

مدحه عدد من أكابر العلماء والأعيان من أهل النظم في ذلك الزمان، منهم: الحافظ ابن حجر على ما وقفت على ما قاله، ومما قاله:

يا مليك الأمراء العالمين بعلوم شُهرت في العالمين
مرحبًا إذ جئتَ مصرًا مرحبًا أدخلوها بسلامٍ آمنين

وقد قدَّمنا ذكر هذين البيتين في مُتجددات سنة سبع وأربعين، وما وقع حين بعثهما.

ومنهم القاضي كمال الدين ابن البارزي كاتب السر، فممَّا قاله فيه:

بالسيف والقلم افتخرت على الورى يا سيد الأمراء والوزراء
لازلت في درج العُلا متنقلاً حتى لقد جاوزت للجوزاء
فلأنت حقًا ما خطبت لرُتبة إلا وكنت لها من الأكفاء
إني على حُسن المودة باقٍ ما حل بالإبعاد عقد ولاء
وعُهودكم في خاطري محفوظة مترقب وقت يُجيب نداء
أرجو تمام الخير في الدنيا لكم والله ربي لا يُخيب الرجاء

وممَّا قاله فيه قاضي القضاة مُحب الدين بن الشحنة الحنفي:

أتانا من الغرس الزكيّ يانع الثمر وجاد علينا البحرُ في البرّ بالقَطَر
أبي الفضل إلا أن يكون لأهله وأفضل حتى قلّ وصله شكري

---

[1] الروض الباسم، ج٤، ص٩٧-٩٩.

وقد أصبح العبدُ المحِبُّ مقصرًا   وأرجو تمام الفضل أن تبسطوا عُذري

لأنكم فقتوا الملوك بأسرها   وزدتم على الجموع بالنظم والنثر

وقصده أيضًا الكثير من شعراء عصره، وامتدحوه بمدائح كثيرة، وقصائد طنانة، فممَّن مدحه: ابن شرف الماردينى، والشهاب الحجازي، وابن الزيرباج، والأديب زين الدين تغري بردي الطرابلسي الحنفي(ت: بعد٨٦٤هـ) الذي امتدحه بقصيدة في سنة ٨٦٤هـ تقريبًا[١].

ومدحه زين الدين عبد الرحمن بن الخرَّاط بأبيات كثيرة، من جُملتها هذان البيتان ق١١٤ب:

خليل الصَّفا أمَّا مقامكَ في الورى   عليٌّ وأمَّا الفضلُ منك جزيل

مقامكَ بيتٍ فيه أقصى تعبُّدِ   فلا تُقصني منه وأنت خليل

ولمَّا تولى الوزارة مدحه بقصيدة مُطوَّلة، من جُملتها[٢]:

يا وزيرًا اختارهُ الله كفوًا   وهو للمنصب الجليلِ خليل

أنت للأشرف المليك عديل   ووزير وصاحب وخليل

ولمَّا جمع بين نيابة الإسكندرية ونظرها وحجوبيتها مدحه شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد المُحسن السكندري المالكي بأبيات مُطوَّلة، من جُملتها هذان البيتان، وهي ق١١٥أ:

نائب السُّلطان كُن لي ناظرًا   حاجبًا عن كل سُوءٍ فيهِ غيّ

فعيون السعد إذ هي أحرست   نم سعيدًا آمنًا من كل شيء

---

[١] المجمع المفنن، ص٧٣٢-٧٣٣.

[٢] الزبدة، ص٩٦.

الفصل الثاني
مؤلفاته وشعره

كان لنشأة ابن شاهين العلمية أثرها في انصرافه إلى التأليف في علوم مُتعدِّدة، رغم انشغاله الوظيفي، وكان للوظائف الكثيرة التي تولَّاها أثرها على مؤلفاته، فشحنها بسماعاته ومُشافهاته ومُشاهداته ومُمارساته، وكانت أوقات انصرافه للتأليف أكثرها أثناء نيابته على مَلَطْيَة، وإقامته طرخانًا بطرابلس.

ولمَّا استقر به المقام في طرابلس، وبنى بها داره أنشأ فيها مكتبة حوت كثيرًا من الكتب الدينية والأدبية والإدارية وغير ذلك، ومنها ديوان المَلِك الكامل خليل بن أحمد الأيوبي(ت:٨٥٦هـ) صاحب حصن كيفا[١].

واستخدم المؤلِّف عِدَّة نُسَّاخ لنَسخ ما يحتاج من مؤلفات غيره، وتبييض ما يُريد من مؤلفاته، وممَّن عُرِفَ من هؤلاء:

١- إبراهيم بن عبد الرحمن الطرابلسي الناسخ(ت:٨٨٦هـ تقريبًا): ظل ينسخ له مُدَّة طويلة بطرابلس، مع مُلازمته له[٢].

٢- إبراهيم بن عبد الرزاق الحلبي الشافعي(ت: بعد٨٤٠هـ). قال عبد الباسط: كان يتراسل في النظم مع الوالد، ويكتب الخط الحسن الجيِّد، كتب للوالد كثيرًا، وكان من أهل العلم[٣].

---

[١] انظر: زبدة كشف الممالك، ق١٢٠أ.

[٢] المجمع المفنن، ص٧٤.

[٣] المجمع المفنن، ص٧٤.

٣- زين الدين تغري بردي الطرابلسي الحنفي(ت: بعد٨٦٤هـ): كتب له عِدَّة كتب أثناء إقامته في طرابلس، وامتدح المؤلِّف بقصيدة في سنة ٨٦٤هـ تقريبًا[١].

أولًا- مؤلفاته:

ذكر عبد الباسط أنَّ تصانيف والده زادت على الثلاثين، وأنَّ أكابر العُلماء وقفوا على بعضها، وقرَّظوها له[٢]، وذكر بعضها عددًا ممَّن ترجموا له، وممَّا وقفتُ عليه منها:

١- إجماع الجمهور على مَذمَّة شُرب الخُمور[٣].

٢- الإشارات في علم العبارات[٤].

هو في تعبير الرؤيا، ذكر عبد الباسط أنه أَلَّفهُ في "مجلَّدين ضخمين"، وذكر المؤلِّف في مُقدمته أنَّ الدَّاعي لتأليفهِ ما رآهُ من لجوء الناس في تفسير العلوم الغيبية إلى أمور غير جائزة في الشرع كتسخير الجن ونحوه، فأراد أن يجمع كتابًا يشتمل على علم يُظهر به المُغيَّبات، وله أصل في الشريعة، وهو علم التأويل والتعبير، وأَلَّفه بعد سنة٨٤٢هـ، لأنه ذكر منامات وقعت في آخر تلك السنة[٥]، وذكر اسمه وجُل مُقدِّمته في كتابه "زُبدة كشف الممالك"[٦].

ورتَّبهُ على ثمانين بابًا[٧]، واعتمد فيه على كثير من الكتب التي اعتنت بهذا العلم، وذكر أسمائها في المُقدِّمة، فضلًا عن تجاربه الخاصة، وسماعاته من

---

(١) المجمع المفنن، ص٧٣٢-٧٣٣.

(٢) الروض الباسم، ج٤، ص٩٩.

(٣) عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص٩٩؛ الشعيبي: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩أ؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص١٨١.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٢٦١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٩٧؛ عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص١٣٠؛ الشعيبي: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩ب؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص٩٧؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص٣٥٣.

(٥) الإشارات، ص٦٣٤.

(٦) ق١١٧أ- ب.

(٧) الإشارات، ص٢٩-٣٤.

المشايخ المُعبِّرين أو من عُبِّرَ لهم، وهو يذكر نفسه بصيغة الغائب كقوله: "رأى بعض المُعبِّرين وهو نائب السلطنة الشريفة بالكَرَك..."[1].

ولهذا الكتاب نُسَخ خَطِّيَّة كثيرة[2]، ونُشر عِدَّة مرَّات منذ سنة١٨٩٨م[3]، وآخر ما وقفتُ عليه من نشراته نشرة سيد حسن كسروي في دار الكتب العلمية ببيروت سنة١٩٩٣م، واعتمد على نُسخة دار الكتب المصرية رقم ٢٥٠معارف عامة فقط.

٣- الإنشاء الشريف وما به من كل تليد وظريف[4].

لعلَّهُ الكتاب المسمَّى بـ"المنيف في الإنشاء الشريف"[5]، ولم أعثر عليه.

٤- البدر والاتقاد[6].

٥- البُرهان المُستقيم في تفسير القرآن العظيم[7].

٦- التحرير في أنواع التعزير[8].

٧- "التُّحفة المنيفة في الأحاديث الشريفة" وشرحها[9].

قال سبط ابن العجمي(ت:٨٨٣هـ): "وقفتُ له على مؤلَّف سمَّاه "التُّحفة المنيفة في جميع الأحاديث الشريفة"، جمع فيه أحاديث شريفة، كل حديث لا

---

[1] الإشارات، ص٦٣٢.
[2] عن نسخ الكتاب. انظر: علي الرضا قرا بلوط: معجم التاريخ التراث الإسلامي، ص١٠٩١.
[3] عن نشراته. انظر: محمد عيسى صالحية: المعجم الشامل للتراث العربي، ج٣، ص٣٥٥.
[4] عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص٩٩؛ الشعيبي: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩ب؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص١٨١.
[5] ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٢٦٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٩٧؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص٣٥٤.
[6] الشعيبي: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩ب.
[7] عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص٩٩؛ الشعيبي: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩أ.
[8] عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص٩٩. وذكره الشعيبي: "التحرير في أنواع التقرير". انظر: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩أ.
[9] عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص٩٩؛ الشعيبي: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩أ.

يتعلَّق بما قبله، وقال في أوله: "وشرحتُه إلهامًا"، وهذا دليل قلة عقله ونظرته، فرأيتُه أخذ كلام العُلماء وتصرَّف فيه تصرُّفًا عجيبًا: المبتدأ لا خبر له، والشرط لا جزاء له..."، ثم أورد بعد ذلك بعض ما أوردهُ بالتُّحفة من نظم شيخه ابن حجر، وما قاله في حق ابن حجر[1].

٨- تخميس بانت سعاد[2].

٩- تخميس البُردة[3].

١٠- الدُّرَّة المُضيَّة في السِّيرة المرضيَّة[4]. ألَّفها قبل سنة٨٥٤هـ.

١١- ديوان خُطب[5].

١٢- "ديوان شِعْر" في ثلاثة مُجلَّدات[6].

١٣- الذخيرة لوقت الخيرة[7].

ذكر سبط ابن العجمي أنه "يشتمل على فضل لا إله إلا الله"[8].

١٤- الغاية في الطب[9].

١٥- "كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك" ومُختصراته[10].

---

(1) كنوز الذهب، ج٢، ص١٧٧، ١٧٨.

(2) انظر: سبط ابن العجمي: كنوز الذهب، ج٢، ص١٧٧؛ عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص١٠٠.

(3) السخاوي: وجيز الكلام، ج٢، ص٨٠٨؛ عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص١٠٠.

(4) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٢٦١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٩٧؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص٣٥٣.

(5) عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص١٠٠؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص١٨١.

(6) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٢٦١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٩٧؛ عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص١٣١؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص٣٥٣.

(7) عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص٩٩؛ الشعيبي: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩ب؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص١٨١.

(8) كنوز الذهب، ج٢، ص١٧٧.

(9) عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص٩٩؛ الشعيبي: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩ب؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص١٨١.

(10) البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص٣٥٣-٣٥٤.

قال عبد الباسط: "في مُجلَّدين أيضًا، واختصرهُ في نحو نصف حجمِه، وسمَّاه "زُبدة كشف الممالك"، ثم اختصر الزُّبدة في مُجلَّد لطيف سمَّاه "زُبدة الزُّبدة"[(١)]، وسيأتي تفصيل القول عنه في الفصل المعقود له.

١٦ـ كوكب المُلك وموكب التُّرك[(٢)].

هذا الكتاب من أهم كتب ابن شاهين، أورد فيه كثيرًا ممَّا لم يورده في "زُبدة كشف الممالك"، وهو في النصائح المُلوكية والتراتيب الإدارية، ألَّفه وأهداه للسُّلطان الظاهر جَقْمَق، ورتَّبه على ستة عشر قسمًا:

الأول حوى ثلاثين بابًا في النصائح المُلوكية من العدل والعفو والحلم والشجاعة وغيره، وما يجب على الرعايا تجاه السُّلطان ونحو ذلك.

والثاني فيما يختص به السُّلطان دون غيره من المُلوك والسلاطين من شعار هذه المملكة، وما ينظر فيه من مهماتها وهيأته في أوقات مخصوصة، وولاية أرباب الوظائف بالديار المصرية من أرباب السيوف وأرباب الوظائف الدينية والديوانية، والأنظار على جهات معروفة، ووظائف الأطباء والكحَّالين والجرائحية والمُجبِّرين والمحفدارية، ورئيس الحرَّاقة الذهبية، ومهاترة البيوتات، وهو على خمسة مقاصد.

والثالث في ذكر أرباب الوظائف بالديار المصرية وغيرها، ورتبه على سبعة أبواب، والأبواب مُرتبة إلى مقاصد، والكتاب غاية في الأهمية لمعرفة نظم ورسوم الدولة المملوكية.

والرابع في مملكة الديار المصرية وحدودها وأقاليمها، وهي تشتمل على ثلاثة أبواب، والقسم الخامس في ذكر الممالك الشامية وما كانت تشتمل عليه قديمًا وما هي عليه الآن، وهي سبعة ممالك، والقسم السادس في قواعد الأقطار

---

(١) الروض الباسم، ج٤، ص٩٩؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص٩٥٣، ١٤٩٦، وسمَّى البغدادي هذا المختصر "الصفوة في تلخيص الزُّبدة"، وهو خلط بين اختصار الزبدة المُسمَّى "الصفوة في وصف المملكة المصرية" لأبي الفتح الصوفي، وبين اختصار المؤلِّف للكتاب. انظر: هدية العارفين، ج١، ص٣٥٣-٣٥٤.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون، ص١٥٢٣.

الحجازية وما صار فيها والطريق الموصلة إليها من الديار المصرية، وولاية أُمراء الأشراف فيها، وهو مرتب على ثلاثة أبواب.

والسابع في معرفة المُلوك والممالك وأصحاب الأقاليم في بلاد الشرق من المُسلمين على اختلاف أجناسهم، والثامن في معرفة ممالك أهل الكفر في الجهات الأربعة، والتاسع في ذكر نبذ من سيرة النبي، والعاشر في ذكر ولاية الخُلفاء الراشدين، والحادي عشر في ذكر الخُلفاء الأمويين، والثاني عشر في الخُلفاء العباسيين إلى زمن المؤلِّف، والثالث عشر في الخُلفاء الفاطميين، الرابع عشر في ذكر الدولة الأيوبية الكردية، الخامس عشر في ذكر الدولة التركية إلى أيام الجراكسة، السادس عشر في ذكر من تولى السلطنة[(١)].

ومنه هذا الكتاب نُسخة خطِّيَّة في مكتبة شهيد علي بإسطنبول ضمن مجموع رقم٢٧٠، ق٤٥أ-٧٠أ، وهي قطعة من أول الكتاب إلى أثناء الباب الخامس عشر من القسم الأول، وعنوانها "نصيحة المُلوك لمولانا نوح أفندي"، وهو خطأ، وثانية في مكتبة جوتا بألمانيا تحت رقم١٨٨٥، كتبها حسن بن محمد السَّرَّاج في شعبان سنة ١٠٩٢هـ، ١٩٤ق، وثالثة في مكتبة جامعة كامبردج برقم٩٥٤(Qq.64)، ٢١٠ق، غير مؤرَّخة، والغالب أنها النُّسخة التي نشر عليها الدكتور سهيل زكار الكتاب في جزأين بدار الكتاب العربي ببيروت سنة١٩٩٨م[(٢)]، ونشر الدكتور زكار قطعة من الكتاب تتعلَّق بصَفَد كمُلحق بكتاب "تاريخ صَفَد" لقاضيها محمد بن عبد الرحمن العُثماني(ت:٧٨٠هـ)[(٣)].

ولعله هو الكتاب الذي نقل منه أحمد بن يوسف القرماني(ت:١٠١٩هـ) في كتابه "أخبار الدول وآثار الأُول"، وسمَّاه في موضع بـ"كوكب المُلك في دولة التُّرك"[(٤)]، ونقل منه ابن كُنَّان الصالحي (ت:١١٥٣هـ) جُل مادة كتابه "حدائق

---

(١) كوكب الملك، ق٤٦ب-٥٣ب.

(٢) كان المطبوع منها قليل؛ لهذا فهي عزيزة الوجود، واجتهدتُ كثيرًا وتواصلت مع بعض تلامذته المقربين فلم نصل لشيء من المطبوع أو المخطوط.

(٣) ص٢٥٨-٢٦١.

(٤) ج٢، ص٥٣، ١١٧، ٢٩١.

الياسمين في ذكر قوانين الخُلفاء والسلاطين" كما نَصَّ على ذلك في المُقدِّمة[1]، ونقل منه في كتابه "المواكب الإسلامية في الممالك الشامية"[2].

١٧- الكوكب المُنير في أصول التعبير[3].

قال ابن شاهين في آخر الإشارات: "وقد اعتذرتُ أنه لو اعتمد المُعبِّرون على كتب التعبير خاصة لعجزوا عن أشياء كثيرة، ولكن يحتاج المُعبِّر أن يكون عالمًا بأصول التعبير، ويُعبِّر بما يظهر له من المعاني، وقد ألَّفتُ كتابًا في ذلك، وسميته "الكوكب المُنير في أصول التعبير"[4]، ونصَّ المؤلِّف على اسمه في "زُبدة كشف الممالك"، وذكر بعض مُحتواه[5].

ألَّفه قبل سنة٨٥٤هـ، ومن هذا الكتاب نُسخة خطِّيَّة منها الجزء الثاني بمكتبة جامعة الإسكندرية تحت رقم٤٨٤ جعفر ولي، كُتبت سنة١١٨٨هـ، ٣٣٠ق[6].

١٨- المُحتمل في الغلط المُستعمل[7].

١٩- "المواهب في اختلاف المذاهب"[8]: ألَّفهُ قبل سنة٨٥٤هـ، وهو مُرتَّب على أبواب الفقه، وما هو جائز في كل مذهب.

---

(١) ص٤٩.

(٢) ق١، ص١٨١، ٢٧٥، ٢٧٩؛ ق٢، ص٥، ١٠، ١١٣.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٢٦٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٩٧؛ عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص٩٩؛ الشعيبي: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩ب؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، ص١٥٢٣؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص٣٥٤.

(٤) ص٦٤٧.

(٥) ق١١٧ب-١١٨أ.

(٦) يوسف زيدان: فهرس مخطوطات جامعة الإسكندرية، ج٢، ص٢٣٥.

(٧) عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص٩٩؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص١٨١. وسمَّاه الشعيبي: "بلوغ الأمل في الغلط المُحتمل" أو لعله غيره. انظر: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩ب.

(٨) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٢٦٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٩٧؛ عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص٩٩؛ الشعيبي: ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩أ؛ البغدادي: هدية العارفين، ج١، ص٣٥٤.

ثانيًا- شِعْرُه:

أحب المؤلِّف الأدب والشِّعْر، وله نظم غالبه الوسط، وفيه الجيِّد، وله كثير من القصائد التي مدح بها بعض الملوك والسلاطين والأمراء والأعيان، من ذلك: قصيدة أنشدها للسُّلطان الظاهر جَقْمَق، يشرح فيها حاله عندما عُزِلَ عن أتابكية حلب[1]، وقصيدة أخرى في مدحه[2].

وأبيات في مدح: ناظر الإنشاء بمصر كمال الدين البارزي، ونائب كاتب السر معين الدين ابن العجمي(ق١٣٧أ)، والأمير محمد ابن السُّلطان جَقْمَق (ق١٤٥ب)، وقاضي حلب الحنفي محب الدين ابن الشُّحنة، وقاضي حلب الحنبلي مجد الدين سالم بن سلامة (ق١٧٦أ)، ناظر الجيش بحلب زين الدين عمر ابن السَّفَّاح (ق١٧٦ب)، (ق١٨١أ)، وقاضي مَلَطْيَة القاضي قاسم (ق١٨١أ)، وأخرى في هجو جليس كان يُقرِّبه ويُكرمه فيُنكر فضله (٢٢٤أ).

هذا غير المُطارحات الشعرية التي كانت بينه وبين أعيان عصره، وعلى رأسهم شيخه ابن حجر العسقلاني (ق١١٠أ)، وقصائد مدح بها النبيﷺ، وأورد بعضًا منها في الزُّبدة[3]، وله أبيات يشكو في حاله أيام نيابته لمَلَطْيَة (١٨١أ)، وله كثير من التخاميس[4]، فبجانب تخميس البُردة:

خمَّس بانت سعاد بين المصراعين، فمن ذلك المطلع من تخميسه إياها قوله:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ وفيه شوقٌ إلى الأحباب موصول
ومن وجْدهم بي طوى الأحشاء مغلول قد زاد حباً فلا يذهبه تحويل
مُتيَّم إثرها لم يعد مكبول

وخمَّس "يا مَن يرى مَدَّ البعوض جناحها"، قال في ترجمة شمس الدين الكاتب أحد جُلساء السُّلطان(ت: بعد ٨٤٤هـ):

---

[1] ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٢٦٠.
[2] ق١٤ب-١٥أ؛ الزبدة، ص٦٨.
[3] التخميس هو أن يُضيف شاعر ما ثلاثة أشطُر من كلامه إلى بيتٍ لشاعر آخر، فيكون مجموع أشطُر البيت خمسة.
[4] أوردها في ق١١١أ-ب.

"وقد جرى بيننا مُذاكرات، ورأيتُه في وقت يكتب الأبيات التي هي منسوبة للزمخشري صاحب الكشّاف، وهي:

يا مَن يرى مدَّ البعوض جناحها ... في ظُلمة الليل البهيمِ الأليلِ
ويَرى عروق نياطها في نحرها ... والمُخ في تلك العِظَام النّحَّلِ
اغفر لعبدٍ تاب عن فرطاتهِ ... ما كان منه في الزمان الأولِ

فقال لي: "كتبتُ هذه الأبيات للسُّلطان، لأنه طلبها مني ليقرأها في خلواته".

قُلْتُ له: "إن أشار سيدي الشيخ خمَّستُها"، فأشار بذلك، فقُلْتُ:

يا مَن يرى مدَّ البعوض جناحها ... وعدوها من وكرها ورواحها
وهدوئها بمقيلها ومراحها ... وطنينها وأنينها وصياحها
في ظَلمة الليل البهيم الأليلِ
ويَرى عروق نبضاها في نحرها ... في هام غرود وغاية نكرها
وهو العليم بحمدها وبشُكرها ... ويَرى المفاصل والعظام بأسرها
والمُخ في تلك العِظَام النُّحَّلِ
إغفر لعبدٍ تابَ عن فرطاتهِ ... وأسَالَ دمعًا جالَ في وجناتهِ
وتذكر الأهوال بعد وفاتهِ ... يرجو الرِّضى والعفو عن عثراتهِ
ما كان منهُ في الزمان الأوَّلِ

وخمَّس أبيات السُّهيلي[1] التي أولها[2]:

يا مَن يَرى ما في الضمير ويسمعُ ... أنت المُعدُّ لكل ما يُتوقعُ

وخمس بيتي الطغرائي[3] اللذين أولهما:

إذا ما لم تكُن مَلِكًا مُطاعًا ... فكُن عبدًا لمالكهِ مُطِيعًا

---

(1) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي الأندلسي، توفي سنة ٥٨١هـ. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٣.
(2) أوردها في ق١١١أ-ب.
(3) هو الحسين بن علي بن محمد الأصبهاني، المعروف بالطغرائي، توفي سنة ٥١٤هـ. انظر: وفيات الأعيان، ج٢، ص١٨٥-١٩٠.

الفصل الثالث

كتاب زُبدة كشف الممالك[1]

١- **عنوانه:** نصَّ على عنوانه في مُقدِّمة الكتاب، فقال: "وسمَّيتُه "زُبدة كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك"، ولا يُعتد بما جاء على صفحة عنوان نُسخة أحمد الثالث من أنها "كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك"، لأنه نَصَّ في خاتمة النُّسخة على أنه "زبدة كشف الممالك"، وسيأتي تفصيل ذلك.

٢- **الغاية من التأليف:** انتخبه من أصله "كي لا يحصُل للمُتأمِّل منه الملل، بل يسهُل له الوصول لكل مَقصدٍ وأمل".

٣- **تاريخ تأليفه:** لا نعرف حتى اليوم التاريخ الدقيق الذي بدأ فيه ابن شاهين بتأليف كتابه الأصلي "كشف الممالك"، ولا تاريخ الفراغ منه، أمَّا عن تاريخ الفراغ من اختصاره فيقول عبد الباسط في حوادث المُحرَّم سنة٨٤٦هـ:

"وفيه في يوم الثلاثاء رابعه بمَلَطْيَة فرغ الوالد من تصنيفه للكتاب الذي سمَّاهُ "زُبدة كشف الممالك"، اختصار من كتابه الكبير "كشف الممالك"، وكتبه قاضي مَلَطْيَة القاضي محمد الحنفي، وكان عالمًا فاضلًا، ذا خط حسن، وذُهِّب،

---

[1] **(تنبيه):** بعد أن فرغت من تحقيق الكتاب وكتابة هذه الدراسة بشهرين وقفتُ على دراسة لأستاذي الدكتور محمد كمال الدين عز الدين علي عن كتاب "زبدة كشف الممالك"، نشرها في كتابه "دراسات نقدية في المصادر التاريخية" بعالم الكتب بيروت سنة١٩٩٣م، ص٦٣٣-٦٥١، وكانت في الأصل جزءًا من رسالته في الدكتوراه المُسمَّاة "الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة دراسة في التاريخ والمؤرخين"، بكلية البنات بجامعة عين شمس سنة ١٩٨٩م، فوجدتها دراسة طيبة مُختصرة عن الكتاب، لكن لم أنقل منها حرفًا في دراستي، وهذا للعلم.

وبعث به إلى الظاهر فأعجبه غاية، وهو كتاب جليل في فنِّه، في بيان ترتيب مُلك مصر وأحواله وما يتعلَّق به"[1].

هذا الكلام في غاية الأهمية، لأنه حدَّد لنا مكان الاختصار وهو مدينة مَلَطْيَة، التي كان المؤلِّف نائبًا عليها، وناسخ النُّسخة المُهداة للظاهر جَقْمَق وهو قاضي مَلَطْيَة القاضي محمد الحنفي، وقد نصَّ المؤلِّف في "الزُّبدة" ق١٨١أ أنَّ هذا القاضي اسمه محمد بن عيسى، ووصفه بقوله: "نادرة عصره، مُتضلِّع من العلوم، خطَّاط"، ولعلَّ مُذَهِّب النُّسخة هو الشيخ حُسين، القاضي بمَلَطْيَة، فقد قال عنه: "أُمَّة في التذهيب والتجليد، وله الفضائل الجَمَّة".

ولكن هُناك إشكال في كلام عبد الباسط، فقد ذكر أنَّ والده فرغ من الاختصار في رابع مُحرَّم سنة٨٤٦هـ، والنُّسخة الخطية التي اعتمدتُ عليها في نشر النص كُتِبَت في تاسع عشرين رمضان سنة٨٤٥هـ، والغالب عندي أنها النُّسخة التي كتبها القاضي الحنفي، لأنَّ على صفحة عنوانها وقف للظاهر جَقْمَق، وعليه فيُحتمل أنَّ عبد الباسط وهم في التاريخ، وأنَّ الفراغ من الاختصار كان في محرم سنة٨٤٥هـ، وفرغ القاضي الحنفي من نَسخِه في تاسع عشرين رمضان من السنة نفسها، ثم أُرسل إلى السُّلطان.

لكن هذا الاحتمال أضعفه قوله المؤلِّف عن نيابة مَلَطْيَة في ق١٨٠ب-١٨١أ:

"وقد تولَّيتُ نيابة السلطنة الشريفة بها، وأقمتُ إلى حين تأليف هذا الكتاب نيف عن ثلاث سنين".

وقوله "نيف" أي زيادة من سنة إلى ثلاث، ومعروف أنَّ ابن شاهين تولَّى مَلَطْيَة في ذي القعدة سنة٨٤٢هـ، فعليه يكون الكتاب أُلِّفَ بعد ذي القعدة سنة٨٤٥هـ، وهو ما يُقوِّي كلام عبد الباسط القائل بأنَّ الفراغ كان في مُحرَّم سنة٨٤٦هـ، وعليه فلم يبق إلا أنَّ الوهم وقع لناسخ المخطوط فبدل أن يكتبها سنة ستة وأربعين" كتبها " سنة خمسة وأربعين"، والله أعلم.

---

[1] الروض الباسم، ج١، ص٣٥٤.

٤- علاقته بالأصل والمُختصَر الصغير: ألَّفَ الأمير خليل بن شاهين- رحمه الله- كتابه المُسمَّى "كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك"، ورتَّبهُ على أربعين بابًا في مُجلَّدين ضخمين، ثم اختصرهُ مرَّتين.

وكان أول من نبَّه- على حد علمي- إلى مسألة وجود مُختصرين لكتاب "كشف الممالك" الدكتور علي محمد عمر في مُقدِّمة بحثِهِ "صفحات كاملة لم تُنشر من زُبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهري"[(١)]، لكنه لم يُفصِّل المسألة، واكتفى بعد ذكرهِ لنص مُقدِّمة "الزُّبدة" طبعة رافيس بقوله:

"ويُفهم إذن أنَّ كتاب "زُبدة كشف الممالك" الذي قام بنشره رافيس بباريس سنة١٨٩٤م يُمثِّل المرحلة الثالثة من كتابات ابن شاهين في هذا الموضوع، وأنه عبارة عن مُنتخبات من الأصل، وأنَّ المخطوط الذي اعتمدتُ عليه هُنا يُمثِّل المرحلة الثانية التي قام المؤلِّف بتلخيصها عن الأصل مُباشرة، كما صرَّح هو بذلك في مُقدِّمة كتابه المطبوع، حيثُ قال: "وصَنَّفتُ كتابًا سَمَّيتُه "كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك"...، ثم رأيتُ ذلك الكتاب المُصنَّف مُطوَّلًا، فانتخبتُ من مُلخَّصِهِ هذا المُجلَّد".

ثم اتبعه بترجمة مُقتضبة لابن شاهين، ثم نشر جُزء من النص يتعلَّق بقلعة الجبل، وذكر في الحاشية أنه أوشك على الانتهاء من تحقيق المخطوط، لكنه عاش طويلًا بعد ذلك ولم يُخرجه، رحمه الله تعالى.

أقول: قال ولده عبد الباسط الحنفي في ترجمته عند ذكر مؤلفاته:

"... و"كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك" في مُجلَّدين أيضًا، واختصرهُ في نحو نصف حجمه، وسمَّاه "زُبدة كشف الممالك"، ثم اختصر "الزُّبدة" في مُجلَّد لطيف سمَّاه "زُبدة الزُّبدة""[(٢)].

---

(١) مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ع٧، ١٩٨٣م، ص٤٥٧-٤٧١، وهي كالآتي: المقدمة ص٤٥٧-٤٥٩، النص ص٤٦٠-٤٦٥، الملاحق وهي صور ومخططات للقلعة ص٤٦٦-٤٧١.

(٢) عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص٩٩. وعنه نقل الشعيبي في كتابه ذكر من دفن بمصر القاهرة، ق٢٦٩ب.

أمَّا "كشف الممالك" فلم أقف له على نُسخة خطِّيَّة حتى اليوم، وما جاء على صفحة عنوان نُسخة أحمد الثالث خطأ، واستدرك هذا الخطأ شخص طالع النُّسخة، فأضاف إلى العنوان كلمة "زُبدة"، لأنَّ العنوان الصحيح نصَّ عليه الناسخ في تقييد الفراغ من كتابة النُّسخة.

ويبدو أنَّ حاجي خليفة اطلع على الجُزء الثاني منه، ويُفهم هذا من قوله: "وقال في المُجلَّد الثاني من كشف الممالك هو تأليف خليل بن شاهين الظاهري ومُختصره المُسمَّى بالزُّبدة"[1].

وأمَّا المُختصَر الأول الذي ذكرهُ عبد الباسط، والمُسمَّى "زُبدة كشف الممالك"، فهو الذي بين يدي القارئ الكريم الآن، وممَّا يؤكِّد ذلك:

قوله عن الإسكندرية في ق٤٤ب: "وأمَّا الأقمشة التي تُعمل بها من أنواع المُذهَّب والحرير ما يطول شرحُه، وقد ذكرتُه في مُصَنَّفِي الأصلي، ... والمستفيض على ألسنة الناس أنَّ هذا الثغر متحصله في كل يوم ألف دينار، وله جِهَات عديدة اختصرتها في هذا المُختصَر".

وقوله في ق٩٨أ في فصل المواكب من الباب الثاني: "... وأمَّا بقية الأجناد على ما فصّلناهم في الباب التاسع عشر في فصل الملبوس"، وهُنا يقصد على ترتيبه في "كشف الممالك"، لأنه ذكر فصل الملبوس في الباب الثاني قبل فصل المواكب.

وقوله في ق١٣٤أ: "وقد وضعتُ في مُصنَّفي الأصلي كل جهة ومُتحصِّلها على حِدَه، واختصرتها هُنا لكوني جعلتُ هذا الكتاب زُبدة".

وقوله في ق١٣٤ب: "وقد وضعتُ تفصيل ذلك ومصروف كل جهة على التحرير بمُصنَّفي الأصلي، ولم أُطل الكلام هُنا لكوني جعلته زُبدة".

وقوله في ق١٣٩أ: "وقد أتيتُ بنُبذة منها بمُصنَّفي الأصلي، واختصرتُه هُنا، وقد تقدَّم الاعتذار أنَّ هذا الكتاب "زُبدة" مُلخَّص جدًا، وليس وضعناه لأجل هذا العلم خاصة لنشرح بعض ما ذكرناه".

---

[1] كشف الظنون، ج١، ص٣٠٥.

وقوله في ق١٤١أ: "وقد أتيتُ ببيان ذلك وغيره ممَّا يتعلَّق بديوان الجيوش المنصورة بمُصنَّفي الأصلي".

وقوله في ق١٤١ب: "وما يتحصَّل له وما يُصرف عديدة، ذكرتها أيضًا في مُصنَّفي الأصلي على التفصيل".

وقوله في ق١٤٢ب: "وقد ذكرتُ أيضًا في مُصنَّفي الأصلي ألوان الخِلَع وهيئاتها وأثمانها، وكل أحد وما يليق به على انفراده من الخاص والعام، على التفصيل والتحرير، واختصرتُ ذكرها هُنا لكوني جعلته "زُبدة".

وقوله في الباب الخامس ق١٤٨ب: "وقد بيَّنتُها بكشف الممالك".

وقوله في ق٢٠٥أ-ب: "فلكل من هؤلاء تراتيب وطرائق، ويحتاج المباشر لها إلى السياسة والمعقول، وقد أتيتُ بمُصنَّفي الأصلي بمن يندب إلى ذلك وبيان الطُّرُق والمسالك، واختصرتُ الكلام هُنا لكون غالب هذه الأمور والعمل بها مشهور".

وأمَّا المُختصَر الثاني الذي ذكرهُ عبد الباسط، والمُسمَّى "زُبدة الزُّبدة"، فهو الذي نشرهُ المُستشرق بول رافيس[1] سنة١٨٢٦م تحت اسم "زُبدة كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك"[2]، وممَّا يؤكِّد ذلك: حجم مادته، وقوله في المُقدِّمة:

---

(١) أستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس، وعضو المعهد الفرنسي بالقاهرة، وله عدة مؤلفات، توفي سنة١٩٢٩م. انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، ج١، ص٢٢٨.

(٢) نشره رافيس أول مرة في مطبعة الجمهورية بباريس سنة١٨٢٦م في ٥٦ص، ونُشر قطعة منه ضمن كتاب "الأنيس المفيد للطالب المُستفيد" الذي جمعه سلفستر دي ساسي(ت:١٨٣٨م)، ثم نُشر على نفقة آرنست كوريكس بمطبعة الجمهورية بباريس سنة١٨٩٤م، ١٦٢ص، وصدرت عدة مصورات عن نشرة رافيس، منها مصورة مكتبة دار العرب البستاني ببيروت سنة١٩٨٨-١٩٨٩م، ومصورة مكتبة المثنى ببغداد، د.ت، كما نشرهُ (Ambros Barvwil) في ليبزيج بألمانيا سنة١٨٢٨م في ٦٦ص.
ثم نشرهُ خليل المنصور في دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٩٩٨م، ١٣٣ص، ومؤخرًا نشرهُ الدكتور عمر عبد السلام تدمري في المكتبة العصرية ببيروت سنة٢٠١١م، ٣٢٨ص، ورغم أنه لم يُراجع النص على مخطوطات الكتاب، واكتف بتصحيح القلم تبقى نشرته أفضل نشرات الكتاب التي خرجت له حتى اليوم. انظر: إليان سركيس: مُعجم المطبوعات العربية والمعربة، ج١، ص١٣٣؛ محمد عيسى صالحية: المعجم الشامل، ج٣، ص٣٥٦.

"إنني صَنَّفتُ كتابًا وسَمَّيتُه "كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك"، ويشتمل على مُجلَّدين ضخمين، يشتملان أربعين بابًا، جُملة ذلك ستين كراسة في قطع الكامل...، ثم رأيتُ ذلك الكتاب المُصنَّف مُطوَّلًا، فانتخبتُ من مُلخَّصِهِ هذا المُجلَّد، وسمَّيتُه "زُبدة كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك"، وجعلتُه اثني عشر بابًا، واخصرتُ الكلام فيه، لكون اشتغالي بغيرهِ من المُصنَّفات".

وقوله المذكور في نص المُقدِّمة عاليه فيه إشكاليتين:

الأولى: ذكر عبد الباسط أنَّ المُختصَر الثاني اسمه "زُبدةِ الزُّبدة"، والعنوان الوارد في النص المذكور عاليه فيه "زُبدة كشف الممالك"، وهو نفس عنوان المُختصَر الأول.

وكُنْتُ أعتقد أنه خطأ من بول رافيس، لكن بمُراجعة النُّسَخ الخَطِّيَّة[1] التي وقفتُ عليها تبيَّن صحة العنوان، وعليه فقد يكون المؤلِّف ترك العنوان واحدًا في المُختصَرين، فأصبح هُناك "زُبدة" مُطوَّلة، و"زُبدة" مُختصَرة، وأنَّ ما ورد عند عبد الباسط غير دقيق، أو قصد أنَّ اسمه "زُبدة زُبدة كشف الممالك".

الثاني: ذكر عبد الباسط أنَّ "زُبدة الزُّبدة" مُختصَر من المُختصَر الأول، ودعَّمهُ ما ورد في مُقدِّمة المطبوع، وهو قوله: "فانتخبتُ من مُلخَّصِهِ هذا المُجلَّد"، لكن بمُقارنة المُختصَر الثاني بالمُختصَر الأول تبين وجود فروق كثيرة في النسقين الترتيبي والتعبيري كحديثه عن النيابات الشامية، مع بعض زيادات.

وعليه فإمَّا أنَّ المُختصر الثاني اختُصِرَ بصورة موجزة من "كشف الممالك"، وإن كُنْتُ لا أعتقد ذلك، أو أنَّ المؤلِّف لمَّا جاء ليختصِر المُختصَر الثاني غيَّر في نسقهِ الترتيبي والتعبيري، وأضاف إليه بعض إضافات.

---

[1] **منها:** نُسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم٢٢٥٨، كُتِبَت قبل سنة٨٧٦هـ، ٦٦ق، ونُسخة مكتبة أحمد الثالث بإسطنبول رقم٣٠٠٨، كتبها إبراهيم بن عبد اللطيف السمرقندي المكي الشافعي في رجب سنة٨٨٦هـ، ١٤٢ق، ونُسخة مكتبة البودليان بجامعة اكسفورد رقمMs.Marsh.240، كتبها أحمد بن حسين العبَّاسي في رمضان سنة٨٩٢هـ،٤٥ق، ونُسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم١٧٢٤، غير مؤرخة، وهي نُسخة خزائنية كُتبت للسُّلطان قايتباي، ووُقِفَتْ على جامعهِ سنة٨٩٥هـ، ٣٠٤ق، ونسخة مكتبة برنستون بأمريكا رقم263H، شوال سنة٩١٧هـ، ١٢٠ق. انظر: محمد عايش: فهرس المخطوطات العربية في جامعة برنستون، ج١، ص٢٤٨؛ عبد الله يوسف الغنيم: فهرس المخطوطات الجغرافية العربية في مكتبة البودليان، ص١٠١-١٠٢.

٥- منهجه وترتيب مادته: اختصر من كل بابٍ وفصل بالأصل جُملة من الأخبار، ورتَّبهُ على اثني عشر بابًا، وتحت كل باب عِدَّة فصول، ولم أوردها لطولها، فانظُرها في آخر مُقدِّمة نَص الكتاب.

وتميَّز المؤلِّف بكثرة الإحالة إلى المواطن المُفصِّلة للموضوع أو فيها تتمة، حتى لا يُكرِّر الكلام، ومثاله:

قوله عن الباش الذي يُرسله السُّلطان على رأس الجيش في ق٦٤ب: "وسيأتي إن شاء الله تعالى كيفية تجهيزه وتجهيز الجيش في فصل التجاريد".

وقوله في ق٦٥أ: "ويتعيَّن أن لا يكون مماليكه طائفة واحدة، بل يكونون طوائف مُختلفة، وأجناسًا مُتنوعة، وسيأتي بيان معنى ذلك إن الله تعالى في فصل أجناس المماليك".

٦- مصادره: اعتمد ابن شاهين في تدوين مادة هذا المُختصَر على النصوص الشفهية والمكتوبة، سواء وثائق أو مؤلفات، بجانب مُشاهداته، يقول في المُقدِّمة: "... واعتمدتُ في ذلك على ما شاهدهُ العَيان، أو تحققتُه من نقل الثِّقاة الأعيان، الذين يُركن إليهم غاية الإركان، وما اطلعتُ عليه من كُتب المُتقدِّمين، وما وجدتُه منقولًا عن المشايخ المُعتبَرين..."، وفيما يأتي تبيان لهذا.

٦/١- المُشافهة والسماع: كقوله في ق١١ب: و"سَمِعْتُ من لفظ السُّلطان المَلِك الأشرف"، وقوله ق١٢أ: "وسَمِعْتُ من جماعة أنَّ تلك المياه مُستمر فيضها إلى الآن...، وحكى جماعة من المشايخ المُطعنين في السن من جُملتهم الحاج عيسى الدليل أنهم...".

وقوله ق١٥١أ: "حكى لي سعد الدين بن المرأة أنه كان صاحب ديوان النيابة في أيام أركماس الجُلباني، فحصل من موجب القُطن خاصة في السنة أحد وثلاثون ألف دينار".

وقوله ق١٤١ب: "ورأيتُ من له خبرة بديوان المُفرد الشريف يقول: "وقفتُ على ما يدل على مُتحصِّله قديمًا في كل سنة أربعمائة ألف دينار وألف ألف، وستمائة ألف إردب من الغِلَال المُتنوعة"، وأمَّا الآن فلا أعلم من حاله شيئًا، ولم أُحرِّر ذلك".

ويقول في ق١٦٦أ عن الاحتفال بدوران المحمل سنة ٨٤٠هـ: "حكى لي الشيخ محمد الفرعوني- وهو من الثِّقاة- أنه أكرى كل دار في تلك الليالي بدينار للتفرُّج، وهذا أمر مشهور بالديار المصرية شوهد بالعيان".

وقال عن ديوان ناب الشام الأمير نوروز الحافظي(ت:٨١٧هـ) في ق١٧٢أ: "قال لي مجد الدين كاتب المماليك السُّلطانية: إنه كان مُباشرًا بديوانه، فكان يشتمل مصروفه في كل شهر على ثلاثين ألف دينار، وكانت أصمطته عجيبة...".

وأحيانًا يُبهم مصدر السماع كقوله في ق١٨٢ب: "وقد سَمِعْتُ من بعضهم فائدة شرعية أحببتُ ختم هذا الفصل بها".

٦/٢- المُشاهدة[1] والمُمارسة: أمَّا المُشاهدة كقوله في ق١٤أ-ب: "وأمَّا أنوار النبيﷺ وقد رأيتُها وعاينتُها تظهر في كل ليلة على المآذن، والمُتعيَّن على كل أحد أن لا يُنكر ذلك، وأرض الحجاز مُتسعة جِدًّا، ووادي الصفراء من أحسن الأودية وأعجبها، بهِ مياه وبساتين وعنب وبطيخ كثير، ورأيتُ هذه الأماكن جميعها...".

وقوله عن البيمارستان النوري بدمشق في ق٤٩أ: "واتفق لشخص أعجمي من أهل الفضل لمَّا رأى ما بهِ من المآكل والتُّحف واللطائف تضاعف وليس به ضعف، وأقام به ثلاثة أيام ورئيس الطب يتردد إليه، فلمَّا عَلِمَ حاله وصف له ما يُناسبه من المآكل اللطيفة، ثم كتب له من معناها إنَّ من عادة الضيف ثلاثة أيام، وهذا من غاية لطافة الرئيس".

وهذا الخبر جاء نتيجة مُشاهدة، فقد قال في الزبدة ص٤٥: "واتفقت نكتة أحببتُ ذكرها، وهي أني دخلتُ دمشق في سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة، وكان بصُحبتي شخص عجمي من أهل الفضل والذوق واللطافة، وكان قاصد الحج في تلك السنة، وألَّف مناسك الحج على أربعة مذاهب، فلمَّا دخل البيمارستان المذكور ونظر ما فيه من المآكل والتُّحف...".

---

[1] انظر خلاف ما ورد في المتن: ق٩٧ب، ١٧٢أ.

وقولـه فـي ق٥٦ب: "ورأيتُ أيضًـا اسم سُلطانين: أحدهما المَلِك الناصـر صلاح الدين داوود اسمُه مكتوب بدار السلطنة بقلعة الكرك، ورأيتُ اسم الآخر وهو المَلِك الناصر أيضًا صلاح الدين يوسف مكتوب على دار السلطنة بثغر الإسكندرية المحروس".

وقوله عند ذكر ما يلبسه الخليفة والقُضاة في موكب استقرار السُّلطان على العرش في ق٩٧ب: "... وإنِّي رأيتهُم تارة بعَذَبات بغير طيالسة، وتارة بالطيالسين بغير عَذَب، والظاهر أنَّ الأمر في ذلك راجع إلى اختيارهم".

ويُتابع كلامه على موكب الاستقرار ق٩٩أ: "... وما ذكرنا الخاصكي إلا لِمَا رأيناهُ في هذا الزمان، وبقية المذكورين أعلاه يُرسل لهُم صُحبة كل خاصكي يتوجَّه إلى مملكة. هذا ما شاهدناه الآن".

وقولـه فـي ق١٥٤ب: "ورأيتُ بعض الزمندارية توفِّي فوُجِدَ له موجود يعجز الكاتب عن ضبطه".

وقوله عن كُشَّاف التراب ق١٦٩أ: "ورأيتُ في بعض السنين قُطِعَ بجسر بالغربية مَقطع من قوة النيل، فاجتمع غالب أهل الإقليم على سدِّه فلم يقدروا على ذلك، فصار كلما يرمون به من أخشاب وأقصاب وتبن وما أشبه ذلك تأخذهُ المياه وتنصرف به، فابتاع كاشف التُّراب مركبًا كبيرًا بمائتي دينار...".

وقوله عن رياح الخماسين ق٢٠٩أ: "ومن حوادث الدَّهر العجيبة ما وقع في عصرنا، وشاهدتُه بالعيان في سنة أربعة وعشرين وثمانمائة هَبَّ ريح عاصف من جهة الغرب".

ويقول في نفس الورقة عن طاعون سنة٨٣٣هـ: "وقد صَلَّيْتُ في إقامة واحدة على مائتين وخمسين تابوتًا، في البعض منهم ميتين، ورأيتُ في ذلك هولًا عظيمًا".

ويقول في ق٢١٧ب: "ورأيتُ بعض الرُّماة يلبس هو وفرسه لبسًا كاملًا، ويجعل على كتفه ترسًا، ويجعل بفمِهِ سيفًا مسحوبًا...، ورأيتُ بعض المُعلِّمين بثغر الإسكندرية المحروس اسمه مؤمن- عُمره تسعون سنة، وهو من الدين والتقوى والصلاح على جانب وافر- يعوم بالبحر، وبيده كانون من فخار...، ورأيتُه يجعل خاتمًا بمكان بعيد، ويجعل به ورقة مبلولة...".

وقال في ق٢١٨ب: ورأيتُ مُصارعًا بالديار المصرية يُسمَّى أبو بكر أحد المماليك السُّلطانية يصرع غالب أعيان المُصارعين بها، ورأيتُه صرع في مجلس بالإصطبلات الشريفة في يوم الجمعة تاسع عشر شهر رجب الفرد سنة تسعة وعشرين وثمانمائة قُدَّام السُّلطان عشرة من أعيان المُصارعين، وكان التزم بذلك ووفَّى به.

وأمَّا المُمارسة كقوله عن لباس الوزير في ق٩٤أ قال: "...ولمَّا كُنْتُ وزيرًا كُنْتُ ألبس على هذه الهيئة"، وقوله عن قصور القلعة في ق٣٤ب: "وقد استعملتُ برسم القصر الثالث المذكور بُسُطًا عجيبة، وأنا نائب السلطنة الشريفة بمَلَطْيَة المحروسة في الأيام الظاهرية".

وقوله عن الدهيشة في ق٣٤ب-٣٥أ: "وقد استعملتُ على قدرهِ مقعدًا من مخمل منقوش مُذهَّب، وعُمِلَ بهِ رنوك من زركش وريش باسم المَلِك الأشرف، واستعملتُ أيضًا زوج مقاعد أنطاع غدامسي بحواشٍ كمخا برنوك مُطرَّزة، برسم إيوان الدهيشاة المذكور، فجاؤوا على قانون عجيب، لم يُر لهم نظير، وكُنْتُ إذ ذاك نائب السلطنة الشريفة وناظر الخواص الشريفة بثغر الإسكندرية المحروسة، واستعملتُ أيضًا بُسُطًا شوبكية برسم دور الفسقية وأنا إذ ذاك نائب السلطنة الشريفة بالكرك المحروس".

وقد تكون المعلومة نتيجة المُشاهدة والمُمارسة معًا، كقوله في ق١٢١أ عند ذكره للشيخ عبد الرحمن الفرَّا: "ثم إنني رأيتُ عندهُ قُرعة جعفرية، وقد جرَّبتُها مِرارًا، فأردتُ إيرادها في هذا الكتاب ليحصل للمُتفائلين منها الفائدة".

٦/٣- الوثائق: كقوله عن الشَّوْبَك في ق٤٧ب: "وقد رأيتُ في مخزومة[1] تاريخها سنة خمس وسبعين وستمائة بمُتحصِّل جهاتها التي كانت تُحمل إلى خزانة الكَرَك في كل شهر عشرة آلاف دينار".

وقوله في ق١٤٦ب: "وقد رأيتُ بحُسْبَانات تتعلَّق بنظام المُلك الشريف ممَّا عُيِّنَ أعلاه ما يُقارب في السنة ستين ألف دينار، خارجًا عن الخدم والرسوم".

وقوله في ق١٧٥أ: "ورأيتُ بضرائب قديمة أنَّ مُتحصَّل نيابة السلطنة الشريفة بالكرك كانت كل شهر عشرة آلاف مثقال ذهب".

---

[1] الجمع مخازيم، وهي دفاتر أو أوراق فيها حساب. انظر: النويري: نهاية الأرب، ج٨، ص٢٧٤.

ولمَّا تحدث عن زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ الخطَّاط (ت:٨٤٥هـ) في ق١٢٨ب استشهد بما عنده من نماذج لخطه بالأقلام الخطية المعروفة، سواء رسائل وأقوال كتبها أو شعر امتدحه به.

٦/٤- **المؤلفات المُتنوعة:** اعتمد المؤلِّف على عددٍ من المؤلفات المُتنوعة، ورغم كبر حجم الكتاب إلا أنَّ ابن شاهين اعتمد على عددٍ قليل من المؤلفات، لأنه كان ينقل منها كثير من نصوصها، وهذه المؤلفات منها ما نصَّ على عنوانه والنقل منه، ومنها ما لم يذكره، وإنما هداني الله إليها من خلال تتبُّع كلامه في المصادر.

١/٦/٤- **مصادر نصَّ عليها:** اعتمد على عِدَّة مصادر، بعضها وصلنا، والباقي ما يزال مجهولًا في خبايا زوايا خزائن المخطوطات، وهذه المصادر هي:

١- **الأدوار في الموسيقى لصفي الدين الأرموي(ت:٦٩٣هـ):** نقل منه ما يتعلق بالمقامات الموسيقية[١].

٢- **الإشارات إلى معرفة الزيارات لعلي بن أبي بكر الهروي(ت:٦١١هـ).**

يبدو أنه لا ينقل عنه مباشرة، فقد قال في ق٤٤أ: "رأيتُ في كتاب الهروي منقولًا عنه"، ثم يُفصح العبارة ويُزيل الوهم فيقول في الزُّبدة ص٤٠: "وحكى بعض الثقاة أنه اطلع على تاريخ الهروي فرأى فيه"، ويقول في موضع آخر في ق٤٥ب: "ورأيتُ منقولًا عن علي بن أبي بكر الهروي".

٣- **تاج المداخل لمجهول**[٢].

٤- **تعاليق الأزهري**[٣].

٥- **الجوهرة الفاخرة فيما بينهما من المُفاخرة لسراج الدين البسلقوني السكندري(ت:٨٤٢هـ):** هي المعروفة بمقامة السيف والقلم، نقل نصها كاملًا[٤].

---

(١) انظر: ق١٥٩أ.

(٢) انظر: ق١٥٣ب.

(٣) انظر: ق٣٦أ، ٣٧أ.

(٤) انظر: ق٨٢ب-٩١ب.

٦- دُرَّة الأسلاك في دولة الأتراك لابن حبيب الحلبي(ت:٧٧٩هـ)[١].

٧- سكردان السُّلطان لابن أبي حجلة التلمساني(ت:٧٧٦هـ)[٢]: الذي نقل منه ما يتعلَّق بأخبار الحاكم الفاطمي، وما أورده من أخبار الزلازل والطواعين والغرائب.

٨- شرعة الإسلام لإمام زاده البُخاري(ت:٥٧٣هـ): نقل منه ما يتعلَّق بالعبد الرُّومي والزنجي[٣].

٩- العاقبة في ذكر الموت والآخرة لعبد الحق الإشبيلي(ت:٥٨١هـ): نقل منه ما كُتِبَ على القبور من الأشعار في حال الدَّهر والدُّنيا في الباب الثاني عشر.

١٠- العقيدة البُرهانية لأبي عمرو السلالجي(ت:٥٧٤هـ): نقل نصها كاملًا[٤].

١١- "الغزوات الأشرفيَّة في فتح الجزيرة القُبْرُصيَّة" لشخص قال عنه "لبعض مشايخنا"، والغالب أنه سراج الدين البسلقوني.

١٢- كليلة ودمنة لبيدبا الهندي، ترجمة: عبد الله بن المقفع(ت:١٤٢هـ)[٥].

١٣- المهاد في أسماء البلاد لمجهول[٦].

١٤- نغمة الشحرور وأسماء الطيور" لمجهول[٧].

١٥- وفيات الأعيان لابن خلكان(ت:٦٨١هـ)[٨].

هذا فضلًا عن كتب الصِّحاح كالبُخاري ومُسلِم، وكُتب السُّنن كالترمذي والنَّسائي، وكتاب لم يستحضر اسمه، نقل منه في أول الباب الثاني عشر حكاية قصر الذهب وحكاية المَلِك جونيس وابنة عمِّه.

---

(١) انظر: ق٥٧ب.
(٢) انظر: ق٣٦ب، ق٥٦ب، ٥٧أ، ١٠٤أ، ١٦٠ب، ٢٠٧ب.
(٣) انظر: ق٢٢٠أ.
(٤) انظر: ق١١٢ب-١١٤أ.
(٥) انظر: ق٢٢٤ب، ٢٢٦ب.
(٦) انظر: ق٣٦ب، ٥٥أ، ١٤١ب.
(٧) انظر: ق١٦٢أ.
(٨) انظر: ق٣٦ب، ٥٦أ.

٢/٦/٤ـ مصادر نَصَّ عليها في مواضع دون بعض: نصَّ المؤلِّف في مواضع قليلة على النقل من بعض المصادر، لكنه اعتمد عليها في كامل الكتاب دون النص على النقل منها، فمنها:

١ـ "الإشارات" لأبي بكر الهروي.

٢ـ "سكردان السُّلطان" لابن أبي حجلة.

٣ـ "العقد الفريد للمَلِك السعيد" لأبي سالم محمد بن طلحة النصيبي (ت:٦٥٢هـ)، فنقل منه أكثر مادته، وإن شئتَ فقُل: "اختصر مادته"، ثم وزَّعها على ترتيب مواد كتابه، ولم يذكره سوى مرَّة واحدة مُختصَرًا باسم "العقد الفريد"، دون ذكر مؤلِّفه[1].

والجدير بالذكر أنَّ المؤلِّف كان على معرفة بعددٍ من كتب ابن طلحة النصيبي، فقد اعتمد على كتابه "الدر المنظم في السر الأعظم" في كتابه "الإشارات في علم العبارات"، ونصَّ على ذلك في مقدمته.

٣/٦/٤ـ مصادر لم ينصّ عليها: نقل ابن شاهين كثيرًا من نصوص عددٍ من المصادر، دون ذكرها أو الإشارة إليها، فممَّا هُدِيتُ إليه منها:

كتاب "الإيضاح في المناسك" للإمام النووي (ت:٦٧٦هـ) الذي نقل منه أكثر ما أورده عن فضائل مكة المُشرَّفة والمدينة المنوَّرة وأخبارهما، واعتمد على **"الجامع لأحكام القرآن" القُرطبي(ت:٦٧١هـ)** في ذكر خبر مدينة الطائف.

كما اعتمد على **كتاب "مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام" لابن تميم المقدسي(ت:٧٦٥هـ)** في ذكر الآيات والأحاديث والآثار الوارده في فضائل الشام وبيت المَقْدِس، وأخبار القدس والمسجد الأقصى وقُبَّة الصخرة وغيرها، ومن نزلهم من الأنبياء والصحابة والتابعين والصالحين.

ونقل خبر الأهرام من كتاب **"تحفة الألباب" للغرناطي(ت:٥٦٥هـ)**، واعتمد على كتاب **"التعريف بالمصطلح الشريف" لابن فضل الله العُمري**

---

[1] انظر: ق١٢٥أ.

(ت:٧٤٩هـ) فيما يتعلَّق بالبريد ومراكز الثلج وغير ذلك، ونقل أكثر الأمثال من كتاب **"خاص الخاص" لأبي منصور الثعالبي(ت:٤٢٩هـ)**.

أمَّا الفوائد الطبية التي ذكرها في الباب الثاني عشر، وكذا ما يتعلق بالفراسة فنقلها من كتاب **"المنصوري" في الطب لأبي بكر الرازي(ت:٣١١هـ)**.

٥/٦- طريقة النقل من المصدر والإسناد إليه والإحالة عليه:

٥/٦/١- طريقة النقل من المصدر: كان ابن شاهين يميل إلى النقل الحرفي في أغلب نقوله من الكتب التي اعتمد عليها، أي يُحافظ على النسق التعبيري، وسيأتي فيما يتعلق بالإحالة على المصدر البعيد دون المُباشر نص نقله المؤلِّف بصورة حرفية من كتاب "سكردان السُّلطان" لابن أبي حجلة.

أمَّا النسق الترتيبي فلم يلتزم به في كثير من نقوله المُتعلِّقة بالنصوص الحُرَّة كالآيات القرآنية والأحاديث والآثار في فضائل البلدان ونحو ذلك، فقد يُقدِّم نصًّا على آخر، أو يُهمل نصًّا.

٥/٦/٢- طريقة الإسناد للمصدر: اختلفت طريقة المؤلِّف في الإسناد إلى المصدر على طول الكتاب، فقد ينص على اسم المؤلِّف والكتاب معًا، كقوله في ق٥٢أ: "نقل المقدسي في كتاب "فضائل الشام"..."، وقوله ق٩١ب: "وقال الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجلة المصري صاحب كتاب سكردان السُّلطان".

أو يذكر المؤلِّف دون كتابه، كقوله في ق٥٢أ: "وفي مؤلَّف الشيخ سراج الدين الحمصي ما نقله من الحديث...".

وفي أكثر الأحيان ينص على اسم الكتاب دون مؤلِّفه، كقوله: "رأيتُ في تاريخ ابن خلكان"، و"ورأيتُ في كتاب المهاد في أسماء البلاد"، "ورأيتُ بكتاب سكردان السُّلطان"، وقوله: "ورأيتُ بنُسخة منقولة من كتاب دُرَّة الأسلاك في دولة الأتراك".

٥/٦/٣- طريقة الإحالة للمصدر: اعتاد المؤلِّف أن ينقل نصوص مُطوَّلة من بعض المصادر، والتي بدورها نُقلت من عِدَّة مصادر، وهو في هذا على

حالتين، إمَّا أن يذكر المصدر المُباشر في أول النقل ثم يُتبعه بنصوص من مصادر أخرى نقلها هذا المصدر، ومثال ذلك قوله في ق٩١ب-٩٢أ:

"وقال الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجلة المصري صاحب كتاب "سكردان السُّلطان" رواية عن صاحب كتاب "البُستان الجامع لتاريخ الزمان" في وصف ملوك الدُّنيا: إنه كان للتُّرك مُلوك يُقال لهم "الخاقانية"، وللديلم مُلوك يُقال لهم "الكاشانية"، وللفُرس مُلوك يُقال لهم "الأكاسرة"، وللرُّوم مُلوك يُقال لهُم "القياصرة"، وللأنباط مُلوك يُقال لهم "النماردة"، وللعرب مُلوك يُقال لهُم "التبابعة"، وللقبط مُلوك يُقال لهُم "الفراعنة"، هُم أعظم ممَّن ذُكر من المُلوك جميعًا، وهُم أصحاب الديار المصرية.

قال صاعد في "طبقات الأُمم": أهل مصر كانوا أهل ملك عظيم في الدهور الخالية والأزمنة الماضية"[1]، فالناقل هنا عن صاعد ابن أبي حجلة صاحب السكردان لا المؤلِّف.

وأحيانًا لا يذكر المصدر المُباشر الذي ينقل منه، فيتوهم القارئ أنَّ المؤلِّف ينقل منه مُباشرة، كقوله:

"ومن الأشياء المُفردة العجيبة، التي لم نَسمع بمثلها ممَّن له دين لأنها غريبة، ما وقع في سيرة الحَاكِم من أموره الشنيعة، وأحكامِهِ المُخالفة للشريعة.

قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تاريخه "البداية والنهاية": كان- يعني الحَاكِم- جبَّارًا عنيدًا، وشيطانًا مريدًا، ولنذكر شيئًا من صفاتِهِ القبيحة، وسيرته الملعونة، أخزاهُ الله تعالى ولا وقاه شَرًّا: كان- قَبَّحَهُ الله تعالى- كثير التلُّون في أفعالِهِ وأقوالِه، وكان يروم أن يدَّعي الإلهية كما ادعاه[ـا] فرعون في زمن موسى، وكان قد أمر الرَّعِيَّة إذ ذكرهُ الخطيب على المنبر أن يقوم الناس على أقدامهم صُفوفًا؛ إعظامًا لذكره واحترامًا لاسمه، وكان يفعل هذا في سائر مملكته، حتى في الحرمين الشريفين، فكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خرُّوا سُجَّدًا، حتى إنه يسجد لسجودهم مَن في الأسواق من الرِّعاع وغيرهم". انتهى كلامه.

---

[1] سكردان السلطان، ص١٥١.

وقال الإمام الحافظ شمس الدين الذهبي في "تاريخ الإسلام": ثم زاد ظُلم الحَاكِم، وعَنَّ له أن يدَّعي الرُّبوبية كما فعل فرعون، فصار قوم من الجُهَّال إذا رأوهُ يقولون: "يا واحد يا أحد، يا مُحيي يا مُميت"، وادَّعى علم الغيب في وقت، وكان يقول: "فُلان قال في بيته كذا وكذا، وفعل كذا وكذا، وأكل كذا وكذا"، وكان ذلك باتفاق اعتمدهُ مع العجائز اللواتي يدخُلنَ بيوت الأُمراء وغيرهم، ويُعرِّفنَهُ بذلك، فرُفعت إليه في أثناء ذلك رُقعة فيها: ...

وكان هو وأسلافه من الخُلفاء بمصر يدَّعون الشرف، ويقولون: "نحنُ من ولد فاطمة"، يُريدون بذلك الافتخار على بني العبَّاس خُلفاء بغداد، فيقولون: "أبونا علي، وأُمنا فاطمة بنت النبيﷺ"، وكان الحَاكِم منهم في كل سبعة أيام يقول ذلك على المنبر، وكانت الرقاع تُرفع إليه وهو على المنبر في أشغال الناس، فرُفِعَت إليه رُقعة فيها: ...

وحكى سبط بن الجوزي في "مرآة الزمان" أنَّ المحضر الذي برز من ديوان القادر بالقدح في الحَاكِم، وفي إنشائهِ كان منه: يشهد من أثبت اسمه ونسبه في هذا الكتاب من الأشراف، والقُضاة، والعُلماء، والعدول، والأكابر، والأماثل بما يعرفونه من نسب الديصانية الكُفَّار، نُطف الشياطين، المنسوبين إلى ديصان بن سعد الخرمي، شهادة يتقرَّبون بها إلى الله تعالى، مُعتقدِين ما أوجب الله تعالى على العُلماء أن يُبيِّنوا للناس ولا يكتمونه، شهدوا جميعًا أنَّ الناجم بمصر وهو منصور بن نزَّار المُلقَّب بالحَاكِم- حكم الله تعالى عليه بالبوار والدمار والخزى والنكال والاستئصال- بن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد، لا أسعدهُ الله تعالى، وأنه لمَّا صار إلى الغرب تسمَّى بعُبيدالله، ولقَّب نفسهُ"المَهدي"، ومن تقدَّم من سلفهِ الأنجاس الأرجاس- عليه وعليهم لعنة الله تعالى ولعنة اللاعنين- أدعياء خوارج، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب كَرَّمَ الله وجهه، ولا يتعلَّقون منه بنسب، أنهم كُفَّار فُجَّار مُلحدون، زنادقة مُعطِّلون، وللإسلام جاحدون".

وهذا النص منقول بتمامه من كتاب "سكردان السُّلطان" لابن أبي حجلة في الفصل الذي عقده عن أخبار الحاكم.

٧- عناية المُتأخرين بالكتاب ونقولهم منه: نظرًا لأهمية الكتاب ومكانة مؤلِّفه أشار أحد الأعيان لعله السُّلطان الظاهر أبو سعيد قانصوه الأشرفي(٩٠٤-٩٠٥هـ) على أبي الفتح محمد بن عيسى بن أحمد الصُّوفي الشافعي[١] (ت: بعد ٩٤٣هـ) في سنة٩٠٤هـ باختصار كتاب "زُبدة كشف الممالك"، فاختصرهُ في كتاب سمَّاه "الصفوة في وصف المملكة المصرية"[٢]، وأضاف إليه إضافات قليلة، ورتَّبه على ترتيب الأصل، وفرغ منه في مُنتصف جمادى الآخرة من السنة نفسها.

وبعد مُراجعة نص "الصفوة" على "الزُّبدة" تبيَّن لي أنَّ النص المُختصَر هو "زُبدة الزُّبدة"، لاتفاقهما في الترتيب والمُحتوى.

أمَّا نقول المُتأخرين من الكتاب، فقد ذكر المؤرِّخ الرُّوسي كراتشكوفسكي (ت:١٩٥١م) أنَّ الرحَّالة الفرنسي قُسطنطين فرانسوا فولني(ت:١٨٢٠م) الذي زار مصر والشام سنوات(١٧٨٣-١٨٧٥م) اعتمد على نُسخة من "الزَّبدة" في تدوين رحلته[٣].

كما اعتمد عليه علي باشا مُبارك (ت:١٨٩٣م) في كتابه "الخطط التوفيقية"[٤]، والغالب أنه ينقل من القطعة التي نُشرها سلفستر دي ساسي (ت:١٨٣٨م) ضمن كتابه "الأنيس المُفيد للطالب المُستفيد"، لأنه لمَّا ذكر ترجمة خليل قال: "وأمَّا ترجمة خليل الظاهري فعلى ما وجدتُه في كتاب الأنيس المُفيد لدساسي: هو ابن شاهين صاحب كشف الممالك..."[٥].

---

(١) هو رياضي وفلكي مصري، وله رسائل كثيرة، منها: "نزهة الناظر في وضع خطوط وضع الدوائر"، ألفها سنة٨٧٨هـ، والإعلام بشد البنكام"، ألفه سنة ٩٤٣هـ. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص١٢٧؛ البغدادي: هدية العارفين، ج٢، ص٢٣٨.

(٢) حققته هبة محمد ياسين حجة في رسالتها للماجستير في التاريخ من كلية الدراسات العليا بجامعة النجاح بنابلس- فلسطين سنة٢٠١٤م، ٢٠١ص، واعتمدت على نُسختَي: المتحف البريطاني بلندن، وغازي خسرو بسراييفو، واعتمدت نُسخة المتحف أصل، لأنها بخط المؤلف كما جاء في تقييد ختامها، وهي نشرة تحتاج لنقد وتصحيح كثير.

(٣) تاريخ الأدب الجغرافي، ص٤٧٥.

(٤) ج٩، ص٩٩.

(٥) الخطط التوفيقية، ج٨، ص٢٨٠-٢٨١.

٨- **النشرات السابقة:** لم أقف على أيِّ نشرة صدرت لهذا الكتاب حتى وقت نشره، سِوى القطعة الصغيرة التي نشرها الدكتور علي محمد عمر رحمه الله تعالى، وهي فصل من الباب الأول، يحمل عنوان "فصل في صِفَة دار المُلك الشريف، وهي قلعة الديار المصرية، تُسمَّى قلعة الجبل، وما بها من القصور والعمائر"، ونشرها على مُصوَّرة نُسخة مكتبة أحمد الثالث بتركيا.

٩- **النُّسَخ الخَطِّيَّة:** لم أعثُر لهذا لكتاب سِوى على نُسختين، هُما:

٩/١- نُسخة مكتبة أحمد الثالث بإسطنبول رقم٢٩٩٠: وهي نُسخة كاملة، جاء على صفحة عنوانها "كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك"، وهو خطأ، وورد العنوان الصحيح في أخر الكتاب، ولهذا كُتِبَ بجانب العنوان بخط مُغاير "زُبدة".

كُتِبَت هذه النُّسخة بخط نسخ في ٢٩ رمضان سنة٨٤٥هـ، أي في حياة المؤلِّف، وبعد انتهائهِ من تأليف "كشف الممالك" بفترة وجيزة، وعدد أوراقها ٢٣٢ق، ومسطرتها ٢٢س، وبها تعقيبة، ومنها مُصوَّرة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم٦٩٢ تاريخ.

وجاء على صفحة العنوان:

"كتاب [زُبدة] كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك"، ممَّا جمعه المقر الكريمي الغرسي الأمير خليل بن شاهين الملكي الأشرفي، وجمع ذلك من عِدَّة مُصنَّفات، مع ما نظمه لي مُصنِّفه، وأجاد في جميع ذلك، أثابه الله، وغفر له ولنا ولجميع المُسلمين آمين.

ثم حُجَّة وقف للسُّلطان الظاهر جَقْمَق[1]، نصها:

"الحمدُ لله وحده. وقف مولانا المَقام الشريف السلطاني الكريمي الملكي الظاهر أبو سعيد جَقْمَق أعزه الله تعالى...، وشرط لمن يكون بعده ...".

---

[1] كان السلطان جَقْمَقْ له اشتغال بطلب العلم قبل سلطنته، وكان يُجيد التركية، ويعرف العربية، ويُناظر الفُقهاء والعُلماء ويُحاورهم، وعُرِفَ عنه اقتناءه للكُتب النفيسة، ويُعطي فيها أضعاف الثمن. انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٤، ص٢٩٩.

(فائدة): كاتب هذه النُسخة الغالب عندي أنه هو نفسه كاتب نُسخة "الزُّبدة" الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم٢٢٥٨، وذلك للتشابُه الكبير بينهُما في الخط، وهي نُسخة غير مؤرَّخة، لكن عليها خبر يتعلق بقراءة الكتاب في الحرمين الشريفين سنة٨٧٦هـ.

٩/٢- **نُسخة مكتبة الدولة ببرلين رقم ٤٧٦:** وهي مُقتطفات من الكتاب، وعدد أوراقها ٣٧ق، ومسطرتها ٢٢-٢٣س، غير مُؤرَّخة، لكنها كُتِبَت قبل سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٩م، وهي السنة التي تملَّك فيها المُلَّا أويس بن المرحوم المُلَّا محمد جواد القدوري أصلًا، [...] مولدًا ومسكنًا، الحنفي مذهبًا هذا الكتاب هِبَة صحيحة من مُلَّا أحمد أبو توقيه، وتحته ختمه، وعلى النُسخة تملُّك آخر غير مُؤرَّخ لمُحمد بن عُمر البُخاري المعروف بقرا باش المصري[1]، وتحته ختمه، وختم لمُتملِّك آخر.

وهذه النُسخة منقولة من نُسخة إسطنبول أو من نُسخة نُقِلت عنها، لأنه كان على هامش نُسخة إسطنبول ق٤٣أ حاشية، فأدرجتها هذه النُسخة في المتن.

١٠- **طريقة نشر النص:** اعتمدتُ مصورة المعهد عن نُسخة أحمد الثالث أصل؛ لكمالها وقِدَمِها، ورمزتُ لها بـ(ث)، وقابلتُ عليها قطعة برلين المرموز لها بـ(ب).

- كتبتُ الأعداد والأسماء ونحوها على الرسم الإملائي الحديث، فجعلتُ: ثلث = ثلاث، وثلثين= ثلاثين، لقمن= لقمان، وملئكة= ملائكة، والقيمة= القيامة، وصلوة= صلاة، إسمعيل= إسماعيل، معوية= معاوية، المواذن= المآذن، والتورية= التوراة، مِنَا= مِنَى، غايت= غاية، الطاعت= الطاعة، وبُخارا= بُخارى، أسبهان= أصبهان، التي يكتبها أحيانًا على المشهور.
- وضعتُ النُّقط على الحروف المُهملة، التي كان كثيرًا ما يُهملها الناسخ مثل: توخذ = توخد، الشاش = الشاس، معذوقة = معدوقة، أذرعات = أدرعات... إلخ، وساعدني على ذلك وقوفي على مصادر نقوله.

---

[1] لم أهتد لترجمة أحد من هؤلاء.

- أصلحتُ ما في النص من تصحيفٍ وتحريف في الأسماء والأماكن ونحوها بقدر الوسع والإمكان، مُعتمدًا في ذلك على المصادر التي نقل منها المؤلِّف، ونُسخ "زُبدة الزُّبدة" المطبوعة والمخطوطة وغير ذلك، وأشرتُ إلى ذلك في الحاشية.

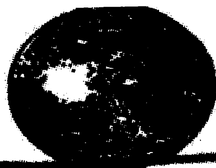
- وضعتُ عناوين المؤلِّف أو ما جعلتُه عناوين من كلام المؤلِّف بين قوسين (...)، ليتنبه إليه القارئ، وجعلتُ العناوين التي وضعتُها من عندي بين معقوفتين [...].

- راجعتُ نص "الزُّبدة" المنشور على النص، وأثبتُ زيادته التي فيها فوائد في الحاشية، وإذا كانت النصوص مُطوَّلة أحلت في الحاشية إلى مواضعها ليُرجع إليها، وهذا لتمام الفائدة.

- وثَّقتُ النصوص التي نقلها ابن شاهين في الكتاب من مصادرها الأصلية، وترجمتُ للأعلام، وعرَّفت المُصطلحات بقدر الوسع والإمكان.

- صنعتُ للنص كشافات متنوعة.

صور النسخ الخطية المُعتمدة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رافع بعض خلقه فوق بعض درجات ومفضل من اختاره بالافهام
الذكية لبلوغ الكمالات واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة ترقى
احسن الحسنات واشهد ان محمدا عبده ورسوله المبعوث بالمعجزات صلوات الله
عليه وعلى آله واصحابه الكرام وازواجه الطاهرات صلوة دائمة ما دامت الارض
والسموات وبعد فان قلم القدرة لما جرى للعبد بالتوفيق والارشاد ونفق
في حركاته بالتاييد والاسعاد وبصره استعمال ما يجب عليه فينال مما
يومله اقصى المراد ويوقظ عزمه ويذكي فهمه فلم يزل من فضل الله كل يوم في زيادة
مما انعم عليه من العقل الوافر والفناء العالم والذكاء الوقاد حتى برز من اقرانه
من غير مناظرة وان كان انسانا كالجماد فيستحق بالاحسان رتبة الاعتنا
[illegible] بجانب العباد فهو زين احوال الملوك وسيرهم اكمل البراعات
وسالك من سبل الآداب في خدمهم اعلى المقامات فيخصونه بالمراتب العلية
وينظرون اليه بعين العناية الرضية فيطلع في ما يختص بهم سرا وجهرا
ويطلع على امور المملكة برا وبحرا فاذا امتحنوه وتميز عندهم بالاختبار وتحققوا
طويته فيصير عندهم من المصطفين الاخيار فيتحقق بعض احوال الممالك وما يتعلق
وما يحصل من الاحوال وما يليها وما يحتاج اليه الملك والملوك وما يليق به
المناصب من الحكم والسلوك من اعلى المراتب وادناها واعلمها للناس
واخفاها وما شاكل كل احد في السكون والحركات وما يحدث من النقلة
والتنقلات فان كثيرا من الناس يعجز عن ادراك ذلك ويقصر عن ضبط
ما اتفق له في يومه وامسه فلذلك [illegible] العبد [illegible] الى الله تعالى [illegible]
[illegible] وذلك ان كثيرا من الناس يسالون عن اشياء [illegible]
ويقصرون عن فهمها لكونه [illegible] عن غيرهم لقوله تعالى هل يستوي الذين يعلمون

والذين

أول نسخة أحمد الثالث

وقال ايضا الا ينبغي لمن تمسك بالعدل ان يجاوز احدا ان تعديك الى الضلال لا
يجاوز امرا لا خوف عليهم اذا ابتغوا ارضاه واتبعوا الى امره وقال ايضا ان الايمان
لسد فالايمان مع الحمد وقال شيرويه من لم يامن مما يخاف لم يخلص من بعض ذلك
ومن لم يامن من لم ينل من خيرك وقال ارسطاطاليس مع ما اتى كتب الفضائل
فليحصل فضيلة اجتناب الرذائل وقال انا لا اطلب من ذلك بنفسه فيلها
ادرك بيان النحو قال ابترلما التسجح ويرشه بسيطة روحانية
تحرك بحركتها ادويه علامه بالقوه دلالة بالحس تزين بالعلم وتزدان بالجهل
وتلطف بالرياضة وتكثف بالتفكر وتضع العبادة وقال بعضهم ان احسن الاسود
الاعتدال فان الزيادة عيب والنقصان عيب وقال منزلتها من زيف نفس اعطاه
الناس عليه وقال لقمان لابنه يا بني ينبغي ان يكون حفظ المؤمن منك ثلاث
خصال الله ان لم تتبعه فلا تتعرضه وان لم تمدحه فلا تذمه وان لم تزره فلا تمنعه ولقمان
من الحكم البالغة ما يعجز الا دمان عنه وبالعقول عن نعته وقد ذكره الله تعالى في كتابه
العزيز فقال تعالى ولقد آتينا لقمان الحكمة ان اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن
كفر فان الله غني حميد واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم
عظيم وقال الله تعالى في كلامه القديم مخبرا عن ما قاله لقمان الحكيم يا بني انها ان تك
مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة او في السموات او في الارض يأت بها الله ان الله لطيف
خبير يا بني اقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من
عزم الامور ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور

تم الكتاب بعون الله [illegible]
بتاريخ تاسع عشرين شهر الله المبارك رمضان المعظم قدره
و[illegible] صلى الله على سيدنا محمد
وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل

آخر نسخة أحمد الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

الحمد لله رافع بعض خلقه فوق بعض درجات . ومفضل من اختاره
بالالهام الذكي لبلوغ المكرمات . واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك
له شهادة تهدي الى احسن الحسنات . واشهد ان محمدا عبده ورسوله المبعوث
بالمعجزات . صلى الله عليه وعلى اله واصحابه الكرام ذوي الاوجه الطاهرات
صلوة دائمة ما دامت الارض والسموات وبعد فان الله اذا اجرى
للعبد بالتوفيق والارشاد . وفتح له حركاته بالتأييد والاسعاد . ويكرمه
الله تعالى بعطايا من بها عليه فنال بها ما اقتضى المراد . [illegible] عزمه
ويرقي همته فلم يزل من فضل الله تعالى كل يوم في ازدياد . فمما انعم عليه
من الفضل الوافر والثناء العاطر والذكاء الوقاد . حتى يرى من اقرانه من
يتوهم انه وان كان انسانا كالجماد . فيسعد رقيبه بالمراد
بحيث يخصهم بها رب العباد ويعجزون من احوال الملوك ويميزهم اكمل البراعات
ويسلكون سبيل الاداب فيحمدهم اهل الكمالات . فيعطيهم المراتب
العليه . وينظرون اليه بعين العالم الرضيه . فيكون فيما يخفى عنهم سرا
وجهرا . ويطلع على امور المملكة برا وبحرا . فاذا اتخذوه في تصرفاتهم الاختبار
ويعرفوا طويته فيصير عندهم من المصطفين الاخيار . ويحمد بعلم احوال
الممالك وترتيبها . وما يحصل من الاموال ومصارفها . وما يحتاج اليه
الملك والملوك . وما يقرب به الناس من الخدم والسلوك من اعلى المراتب
وادناها . واظهرها للناس واخفاها . وما شان كل واحد في
السلوك والحركات . وما يحدث من الفعل والحرمات . فان كثيرا من الناس
يعجز عن ادراك نفسه . ويعجز عن ضبط ما اتفق له في يومه وامسه
فلذلك يقول العبد الفقير الى الله تعالى خليل بن شاهين الظاهري
اني لما رايت كثيرا من الناس يسألون عن اشياء كثيرة ويقصدون

أول نسخة برلين

الثامنة
ثانيه وخمسه . الخمسه تغلب . الخمسه
ثامنه واربعه . الاربعه تغلب . الثانيه
ثامنه وثلثه . الثامنه تغلب . الثلثه
ثامنه واثنان . الاثنين تغلب . الثانيه
ثانيه وواحده . الثانيه تغلب . الواحده

التسعه

تسعه وتسعه . الطالب يغلب . المطلوب
تسعه وثانيه . التسعه يغلب . الثانيه
تسعه وسبعه . السبعه تغلب . التسعه
تسعه وسته . التسعه تغلب . السته
تسعه وخمسه . الخمسه تغلب . التسعه
تسعه واربعه . التسعه تغلب . الاربعه
تسعه وثلثه . الثلثه تغلب . التسعه
تسعه واثنين . التسعه تغلب . الاثنين
تسعه وواحد . الواحد يغلب . التسعه



اعلم ان الفاعل في علم الغالب والمغلوب ان كل عدد يغلب ما فوقه من جنسه وما تحته من غير جنسه مثال ذلك في الافراد الواحد يغلب الثلثه والخمسه والسبعه والتسعه ولا يغلب من الازواج شيئا و الازواج الاثنين تغلب الاربعه والسته والثانيه والواحد خامسه واذا استوى العددان وكانا افرادا ان الطالب يغلب المطلوب وان كانا ازواجا فالمطلوب يغلب الطالب تم انتهت عشر ترجمه جعفر وقد جربناه مرارا فاردت ايرادها في هذا الكتاب

آخر نسخة برلين

الـنـص

[مُقَدِّمة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ رافع بعض خلقهِ فوق بعضٍ درجات، ومُفضِّل من اختارهُ بالأفهام الزكيَّة لبلوغ المكرُمات، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له شهادة هي أحسن الحسنات، وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عبدهُ ورسوله المبعوث بالمعجزات، صلَّى الله عليه وعلى آلهِ وأصحابهِ الكرام وأزواجهِ الطاهرات، صلاةً دائمةً ما دامت الأرض والسموات.

وبعد، فإنَّ قلم القدر إذا جرى للعبد بالتوفيق والإرشاد، وقضى له في حركاتهِ بالتأييد والإسعاد فيُكرمهُ الله تعالى بسجايا يَمُنُّ بها عليه، فينال ممَّا يؤمله أقصى المُراد، ويوقظ عزمه، ويُزكي فهمه، فلم يزل من فضل الله كل يوم في ازدياد ممَّا أنعم عليه من العقل الوافر، والثناء العاطر، والذكاء الوقَّاد، حتى يرى من أقرانهِ من يروم مُناظرته وإن كان إنسانًا كالجماد، فيستَعبِد بالإحسان رقاب الأحرار منحة يخُصُّه بها رب العِبَاد، فيحوز من أحوال المُلوك وسيرهم أكمل البراعات، ويسلُك من سُبل الآداب في خَدمهم أعلى المقامات، فيخصُّونه بالمراتب العليَّة، وينظرون إليه بعين العناية المرضيَّة، فيُخلص في مُناصحتهِم سِرًّا وجهرًا، ويطلع على أمور المملكة برًّا وبحرًا.

فإذا امتحنوهُ في تصرُّفاتهم بالاختبار، وتحققوا طويته فيصير عندهم من المُصطفين الأخيار، فحينئذ يعلم أحوال الممالك ووظائفها، وما يتحصَّل من الأموال ومصارفها، وما يحتاج إليه المُلك والمُلوك، وما يتم بهِ المناصب من الخَدم والسلوك، من أعلى المراتب وأدناها، وأظهرها لسائر الناس وأخفاها، وما شأن كل أحد في السُّكون والحركات، وما يحدث من النقلة والتصرُّفات، فإنَّ

كثيرًا من الناس يعجز عن إدراك نفسه، ويقصر عن ضبط ما اتفق له في يومهِ وأمسِه.

فلذلك يقول العبد الفقير إلى الله تعالى خليل بن شاهين الظاهري لطف الله به[1]: إنني لمَّا رأيتُ كثيرًا من الناس يسألون عن أشياء كثيرة، ويقصدون معرفتها، ليكونوا بذلك مُميَّزين عن غيرهم، لقولهِ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2][٢أ]، ويُحصل بذلك أيضًا زيادة الأُبَّهة والمعقول، والتوصُّل إلى المقاصد والمأمول، ونيل المراتب العليَّة، والتلذُّذ بالأشياء السنيَّة، فإنه مَن لم يفهم الآداب والأصول، وما يتفرَّع منها من أشياء تطُول، فهو في غالب أمرهِ مُتحيِّر جَهول، ويَقصِر عن إدراك كل مقصدٍ مأمول.

فمنهم من سأل عن الدُّنيا ومسيرتها، وعن حوادثها وسيرتها، والعامر منها والخراب، وهيئة أهلها داخل السد وخارج الباب، ومنهم من سأل عن أشرف الأماكن والمزارات، وأعجب المُدن والعِمَارات، ومنهم من سأل عن الخلافة وأعظم السلاطين، وما يتحلَّى بهِ كل منهم ويستبين، وما يُكتب لكل إنسان من ديوان الإنشاء الشريف، ومعرفة المراتب وما يستحقه مُتولِّيها من التشاريف، ومنهم من سأل عن الآداب والأنداب والتعليم، وأشياء مُنفردة لا يجوز المُطاعنة فيها بل يستوجب التسليم.

ومنهم من سأل عن الوظائف وتراتيبها، وكيفية أحوالها وتجاريبها، ومنهم من سأل عن هيئة الأحوال وتصريحها، وكيفية الأمور وترجيحها، ومنهم من سأل عن خواص أشياء خُفيت عن كثير من الناس، لكثرة الالتباس والاشتباه في سائر الأجناس، ومنهم من سأل عن أشياء سيأتي ذكرها وبيانها في بابِه ومحلِّه، وإثبات ما اتضح من صحيحهِ ومُعتلِّه.

فأردتُ أن أوضِّح لكلٍّ ما أُشكِلَ عليه، وأُبيِّن له طُرُقًا توصِّلَهُ إليه، فصنفَّتُ كتابًا وسمَّيتُه "كشف الممالك وبيان الطُّرُق والمسالك"، يشتمل على تعظيم مُلك مصر وسُلطانها، وتفصيل جهاتها وأركانها، لأنها أعظم المُدُن وسُلطانها أعظم

---

(1) كذا يبدأ كلامه في مؤلفاته. انظر مقدمة الإشارات، ص٢٤.

(2) سورة الزمر، الآية ٩.

السلاطين، لأنَّ وجوده ظِلٌّ ظليل على العالمين، وذكرتُ أيضًا ما يشتمل حدود مُلك مِصْر، وما بهِ من الممالك، ولم أُطوِّل الكلام واخترتُ الاختصار في ذلك.

ورتَّبتُه أربعين بابًا، مُجلَّدين ضخمين[1]، يشتمل على فصول، بإيضاحٍ ومَعانٍ وفُروعٍ وأُصول، واعتمدتُ في ذلك على ما شاهدهُ العَيان[٢ب]، أو تحققتُه من نقل الثِّقاة الأعيان، الذين يُركن إليهم غاية الإركان، وما اطلعتُ عليه من كُتب المُتقدِّمين، وما وجدتُه منقولًا عن المشايخ المُعتبَرين.

ثم إنني انتخبتُ هذا الكتاب من ذلك، وسمَّيتُه "زُبدة كشف الممالك"، كي لا يحصُل للمُتأمِّل منه الملل، بل يسهُل له الوصول لكل مَقصدٍ وأمل، واختصرتُ جُملة عن الأصل، من كل بابٍ وفصل؛ لكون اشتغالي بغيرهِ من المُصنَّفات، فمن نظر فيهِ فليعتبر بغيرهِ ولا يحزن على ما فات، وجعلتُه للناظرين أولي الألباب مُرتَّبًا على اثني عشر بابًا[2].

الباب الأول: "في تشريف مُلك مِصْر على سائر الممالك، وما فُضِّلَ بهِ على غيره بالمعابد والمزارات، وما به من العجائب والعمارات، وترتيب مُدُنِه، وقِلَاعِهِ، ومُعاملاتهِ، وحُدوده، وما يحتوي عليه".

الباب الثاني: "في وصف السلطنة الشريفة، وما يتحلَّى بهِ السُّلطان من الصِّفات، وما يعتمدهُ لإقامة لوازمها الموظَّفات، ووصف المواكب الشريفة، والملبوس لكل من يُنسب إلى المُلك من الخاص والعام".

الباب الثالث: "في وصف أمير المؤمنين، وبيان أحوالِه، وكان حقّه أن يُقدَّم، لكن مُرادنا تضخيم المُلك، حيثُ صار بالمُبايعة منه إلى السُّلطان، ووصف قُضاة القُضاة أهل الحَلِّ والعَقْد، والعُلماء أئمة الدين، والقُضاة".

الباب الرابع: "في وصف الصاحب الوزير، والدولة الشريفة، والسادة المُباشرين أركانها، وما يتعلَّق بكل ديوان وكُتَّابِه مثل: الإنشاء، والجيش، والمُفرد، والخاص، وبقية الدواوين والمُوقِّعين على ما يأتي تفصيله".

الباب الخامس: "في وصف أولاد المُلوك، ونظام المُلك الشريف، ونائب السلطنة الشريفة، وأتَابِك العساكر المنصورة، والأُمراء مُقدَّمي الألوف، والطبلخانات، والعشرينات، والعشروات، والخمسوات بالديار المصرية".

---

[1] في الزُّبدة ص٤: وجُملة ذلك ستين كراسة في قطع الكامل.

[2] ث: باب.

الباب السادس: "في وصف أرباب وظائف مُجملة ووظائف مُفردة يأتي تفصيلها، والأجناد القرانيص، والخاصكية، وبقية المماليك الشريفة السُّلطانية، وأجناد الحلقة المنصورة والبحرية ومراكزهم، ومراكز البطائق والثلج والبريد"[٣أ].

الباب السابع: "في وصف الآدر الشريفة، وزمامها، والطواشية، وخُدَّام السِّتارة، ووصف الخزانة، والسلاح خاناه، والحواصل الشريفة، وما بهم من الأشياء العجيبة، والشُّون والأهراء، وجهات ذلك ومصروفه".

الباب الثامن: "في وصف البيوتات، والمطبخ، والإصطبلات الشريفة، وما بهم على الاختصار، ووصف الشكرخاناه، والسرحات، والصيد، والأحواش[١]، وكسر النيل، وركوب الميادين، ودوران المحمل وما يُناسبه، ومراحل الحجاز الشريف".

الباب التاسع: "في وصف كُشَّاف التُّراب، وعمارة الجسور والحَفير والجرافة، وما تحتاج إليه البلاد عند فيض النيل وهبوطِه، ووصف الكُشَّاف، والولاة،وأرباب الوظائف بأقاليم الديار المصرية، وما يتعلَّق بذلك من الترتيب".

الباب العاشر: "في وصف الممالك الشريفة الإسلامية، ووصف المُدُن بالبلاد الشمالية،ومَن بذلك مِن الكُفَّال والنُّوَّاب، والسادة القُضاة، والأُمراء والمُباشرين، وأرباب الوظائف، والجُند، ووصف أُمراء العُربان ومشايخهِم، وأُمراء التُّركمان والأكراد، ومُقدَّمي العشران وعشائرهم".

الباب الحادي عشر: "في وصف الغزوات، وذكر بعض أُجورها على حسب الاختصار، ووصف التجاريد والمُهِمَّات الشريفة، ونوادر اتفقت بالمملكة اليمنية،والديار البكرية، والجزائر القُبْرُصيَّة التي فُتِحَت في الأيام الأشرفيَّة"[٢].

---

[١] بعدها في الزُّبدة: "على ما يأتي تفصيل ذلك"، دون بقية الوارد في المتن.

[٢] في الزُّبدة: "الباب العاشر" في وصف الممالك الشريفة الإسلامية، وهي ثمان على ما يأتي تفصيله على الترتيب، ووصف المُدُن بالبلاد الشمالية،ومَن بذلك مِن الكُفَّال والنُّوَّاب، والسادة القُضاة،والأُمراء والمُباشرين، وأرباب الوظائف، والجُند". الباب الحادي عشر "في وصف أُمراء

الباب الثاني عشر: "في حوادث الدَّهر التي مَن أهملها وقع في الضنك والقهر، والآداب والأنداب والتعليم، وأشياء مُفردة لا يجوز المُطاعنة فيها بل يستوجب التسليم، وفوائد جمَّة فيما يَصلُح لهذه الأُمَّة".

العُربان ومشايخهم، وأُمراء التُّركمان والأكراد، ووصف التجاريد والمُهمَّات الشريفة، ونوادر اتفقت بالمملكة اليمنية،والديار البكرية، والجزائر القُبْرُصيَّة التي فُتِحَت في الأيام الأشرفيَّة". الباب الثاني عشر: "في حوادث الدَّهر التي مَن أهملها وقع في الضنك والقهر، وما ورد في ذلك من الحكايات والنوادر، ليكون كل ذي لب عليه محافظًا وإليه مُبادرًا".

الباب الأول

في تشريف مُلك مِصْر على سائر الممالك
وما فُضِّلَ بِهِ على غيرِهِ بالمعابد والمزارات،
وما بِهِ من العجائب والعمارات،
وترتيب مُدنِهِ وقلاعِهِ ومُعاملاتِهِ، وحدودِهِ،
وما يحتوي عليه

[٣ب]

[ذكر حدود الأرض بالطول والعرض]

اِعلم أنه يُقال: إنَّ العامر من الدُّنيا مسيرة مائة عام، من ذلك مسيرة ثمانين عامًا مع يأجوج ومأجوج، وهُم ولد يافث بن نوح ، وأرضهم من آخر بلاد الشمال، مُتصلة ببحر الظُّلمات، كل ذلك من وراء السدِّ.

قال سَلَّام[1] التُّرْجُمَان: إنَّ الواثق بالله[2] لمَّا رأى في المنام كأنَّ السدَّ المذكور مفتوح أرسل سلَّام[3] المذكور، ومعه خمسون رجُلاً يكشفون عن ذلك، فلمَّا وصلوا رأوا سدًّا عجيبًا- الذي بناهُ ذو القرنين- بجبلٍ مقطوعٍ بوادٍ عرضُه مائة وخمسون ذراعًا، مبني باللَّبِن الحديد، مُغيَّب في النحاس، وبوسطهِ الباب طولُه خمسون ذراعًا، ومبني عليه أيضًا باللَّبِن الحديد المُغيَّب في النحاس إلى رؤوس الجبال، وبهِ مصراعان مُغلقان بقفل حديد، طولُه سبعة أذرُع في غِلْظ ذراع، وعرض المصراعين مُختلف فيه، وبالضرورة أنَّ العَرض أقل من الطول، وأمَّا الثُّخن فخمسة أذرُع".

ويأجوج ومأجوج على ثلاثةِ أصناف: صنف طولُه وعرضه سواء مائة وعشرون ذراعًا، وصنف كأمثال الأرز، وهو شجر بالشام، وصنف طولُه شبر، يفترش أحد أذنيه ويلتف بالأُخرى، وقال قتادة: "هُم اثنان وعشرون قبيلة، لا يموت أحدهم حتى يرى ألف ولد من صُلبِه".

ومسيرة أربعة عشر عامًا ساكنها السودان ممَّا يلي المغرب الأعلى، مُمتد على بحر الظُّلمات، فيبقى من المائة عام ستة أعوام هي: بلاد المغرب، ومصر، والشام، والحجاز، واليمن، والعراق، والعجم، والهند، والسِّند، والصين، والتُّرك، والخَزَر،

---

[1] ث: السلام التُّرْجُمَان.

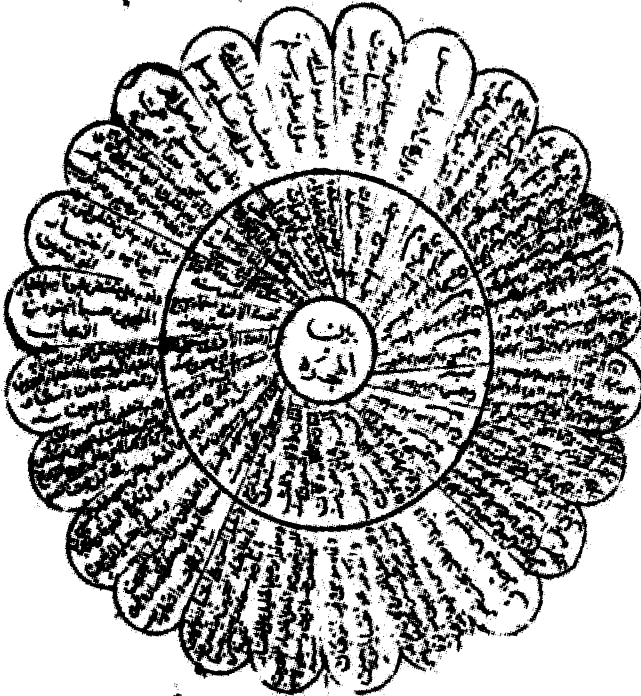
[2] هو هارون بن المُعتصم، بويع له في ١٩ربيع الأول سنة٢٢٧هـ، عُرِفَ عنه شِدّة مناصرته للاعتزال والقول بخلق القرآن، وانتهت الفتنة في أواخر عهده، وكان أديبًا شاعرًا. مات بسامراء في ذي الحجة سنة٢٣٢هـ. انظر: السيوطي: تاريخ الخُلفاء، ص٥٢٩-٥٣٤.

[3] ث: السلام التُّرْجُمَان.

والفُرس، والططر، والصقالبة، والرُّوم إلى روميَّة الكُبرى، والألان، والآمان، والبُلغار، والأرمن، وغير ذلك، وسائر بلاد الكُفَّار، والمُسلمون بينهم جُزء من ألف جُزء.

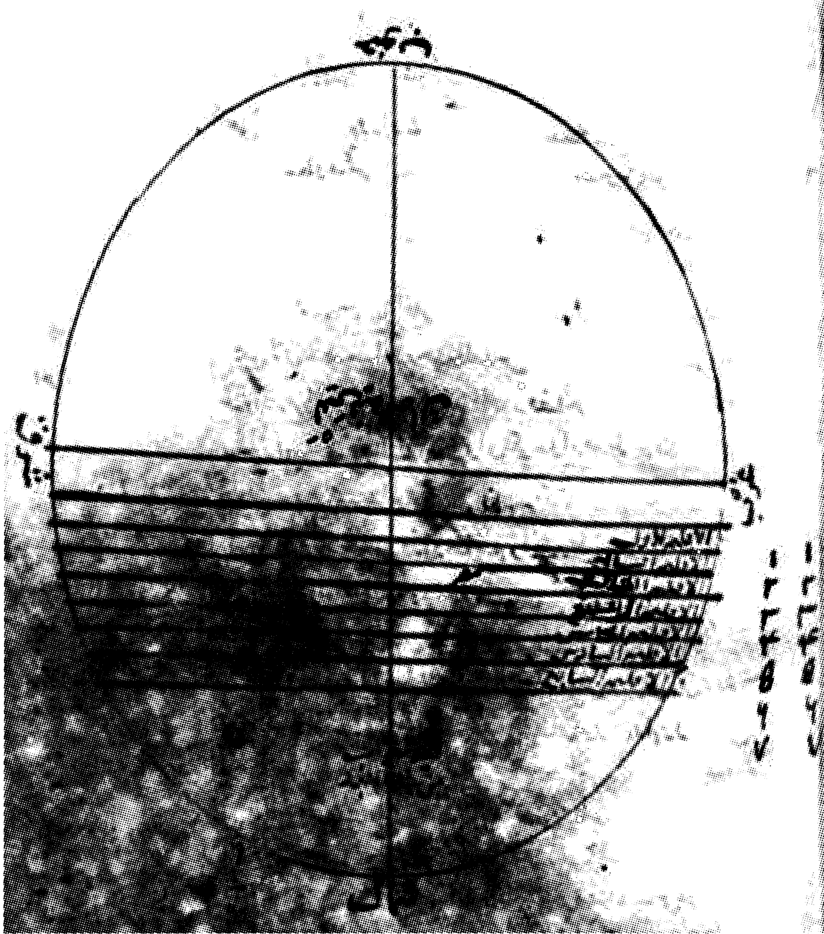
فالإقليم الثالث الذي من جُملتِه إقليم مصر، مبدأهُ من الشرق، فيمر على بلاد الصين ثم الهند ثم السِّند والعجم والعراقين والشام إلى الإسكندرية إلى سَبْتَة من بلاد المغرب إلى البحر المُحيط، وقيل إنها[1] من الإقليم الرابع، وطول وسطه من المشرق إلى المغرب ثمانمائة ألف وسبعمائة ألف وأربعة وسبعون ميلًا وثلاث وعشرون دقيقة، وعرضه ثلاثمائة وثمانية وأربعون ميلًا وخمس وأربعون دقيقة، وهو في قول الفُرس للمريخ، وفي قول الرُّوم[٤أ] لعطارد، وله من البروج: الحمل، والعقرب.

وكذلك لكل إقليم من الأقاليم كوكب من الكواكب السبعة، وقد أثبتَ المُنجِّمون والفلكية والمؤرِّخون بالزيجات ما استخرجوه بالرصد والرياضيات وصح، وأتوا بذكر أشياء كثيرة ممَّا يتعلَّق بمبدأ الدُّنيا، وزُبدة ما ذكره من هبوط آدم إلى الهجرة مُختصرة بهذه الدائرة.



(1) أي مصر.

وما أثبتوه أيضًا كُرة الأرض، والمعمور منها من جميع ما تقدَّم ذكره: الرُّبع المسكون، الذي بهِ الأقاليم السبع، وكل إقليم بهِ عشرة أجزاء، ومسيرة مائة عام المُقدَّم ذكرها، وهي مُختصَّة بالرُّبع المسكون، والنصف والرُّبع من بقيَّة الأرض ليس فيه عُمران، ولا يُسلك على هذه الصفة[٤ب].



فأفضل جميع الأرض المُفصَّلة هذا التفصيل المذكور والتقسيم المحرَّر المأثور ما احتوى عليه مُلك مصر، المُصرَّح باسمها في كريم القرآن دون غيرها من البلدان، فإنَّ المُلك المُشار إليه قد حاز فضائل تُملى وتُذكر، ويُذعن لها فيؤمن بها ولا يُنكر، لأنَّ مالكها- أدام الله تأبيده، وأعز أحكامه ونفوذه

وتأييده- حاكم على أرفع بقاع الدُّنيا في الشَّرف والجلال، وهي الثلاثة التي لا تُشدُّ إلا إليها الرِّحال: وهي مَكَّة زادها الله شرفًا، والمدينة مدينة النبيﷺ، والقُدس الشريف.

[فصل]
[في ذكر مَكَّة المُشرَّفة]

فأولها في الشَّرف وأولاها، وأرفعها رُتبة وأعلاها، مَكَّة التي هي أفضل جميع الأرض في طولها والعَرض، سمَّاها الله تعالى حَرمًا لِمَا اختصَّها بهِ من التحريم، وباين حُكمها حُكم جميع الأرض في الإجلال والتعظيم، وبها أول بيتٍ وُضِعَ للناس، وطُهِّر من سائر النقائص والأدناس.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[1].

رُوِيَ عن ابن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: "سألتُ رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع في الأرض؟ قال: "المسجد الحرام" قُلْتُ: ثم أيّ؟ قال: "المسجد الأقصى". قُلْتُ: كم بينهُما؟ قال: "أربعون عامًا".

ورُوِيَ عن مُجاهد أنه قال: "لقد خلق الله عز وجل موضع هذا البيت قبل أن يَخلق شيئًا من الأرض[٥أ] بألفي سنة، وإنَّ قواعدهُ لفي الأرض السابعة والسُّفلى".

وعنهُ أيضًا: "إنَّ هذا البيت أحد أربعة عشر بيتًا في كل سماءٍ بيت، وفي كل أرضٍ بيت، بعضها مُقابل بعض".

ورُوِيَ عن علي بن الحُسين بن علي بن أبي طالب-كَرَّمَ الله وجهه- أنه قال: "إنَّ الله تعالى بعث ملائكة، فقال: "ابنوا في الأرض بيتًا مثال البيت المعمور وقدره"، وأمر الله تعالى مَن في الأرض مِن خلقِهِ أن يطوفوا بهِ كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور". قال: "وكان هذا قبل خلق آدم".

---

[1] سورة آل عمران، الآيات٩٦- ٩٧.

ورُوِيَ أنه أول بيت ظهر على وجه الماء قبل خلق السموات والأرض، خلقهُ قبل الأرض بألفي عام، وكان زُبدة بيضاء على الماء فدُحيت الأرض تحته.

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: "هو أول بيت بناهُ آدم في الأرض".

وقيل: لمَّا اهبط اللهُ آدم قالت له الملائكة: "طُف حول هذا البيت، فلقد طُفنا قبلك بألفي عام".

وقيل: أول من بناهُ سام بن نوح.

وقيل: أول من بناهُ إبراهيم الخليل ﷺ، وكانت الكعبة بعدهُ مع العمالقة، ثم من بعدهِم مع جُرهم، ثم خلفهم قُريش بعد استيلائهِم على الحرم، لكثرتهِم بعد القِلَّة وعِزِّهِم بعد الذِلَّة.

[ذكر بناء الكعبة]

وقيل: بُنيت الكعبة خمس مرَّات:إحداهُنَّ[١] بناء الملائكة وآدم، الثانية بناء إبراهيم ﷺ، الثالثة بناء قُريش في الجاهلية؛ وحضر النبيﷺ هذا البناء، وكان ينقل معهُم الحجارة، الرابعة بناء ابن الزُّبير، الخامسة بناء الحجَّاج بن يوسف،وهو هذا البناء الموجود اليوم.

وقيل: إنه بُني مرَّتين دون الخمس: إحداهُ[ما][٢] بناء العمالقة بعد إبراهيم ﷺ، [و] الثانية بناء[٣] جُرهم بعد العمالقة.

وقيل: كان الذي حدَّد بناءها بعد إبراهيم ﷺ قُصَيّ بن كِلَاب، وسقَّفها بخشب الدُّوم وجريد النخل، ثم بنتها قُريش بعده ورسول الله ﷺ ابن خمس وعشرين سنة، وقيل: "ابن خمسة وثلاثين سنة"، فقال أبو حُذيفة بن المُغيرة: "يا قوم ارفعوا باب الكعبة حتى لا تُدخل إلا بسُلَّم، فإنه لا يدخلها حينئذٍ إلا مَن أردتُم، فإن جاء أحد ممَّن تكرهونه رميتم بهِ فسقط، وصار نكالًا لمن رآه"، ففعلت قُريش ما قال.

---

(١) ث: "احديهن"، وما ورد في المتن من متن الإيضاح.
(٢) الإضافة من متن الإيضاح.
(٣) ث: "بناه"، وما ورد في المتن من متن الإيضاح.

وكـان سـبب بنائهـا أنَّ الكعبـة استُهدِمَت، وكانـت فـوق القامـة [٥ب] فـأرادوا تعليتها، وكان سبب استهدامها أنَّ امرأة جاءت بمجمرة تُجمِّر الكعبة، فسقطت منها شرارة، فتعلَّقت بكسوة الكعبة فاحترقت، وكان باب الكعبة لاصِقًا بـالأرض في عهد إبراهيم ﵇، وفي عهد جُرهم، ومَن بعدهم إلى أن بنته قُريش، فرفعت بابه، وجعلت لها[١]سقفًا، ولم يكن لها سقف، وزادت في ارتفاعها، وتنافسوا فيمن يضع الحجر الأسود موضعه، ثم رضوا بأن يضعهُ النبي ﷺ.

ورُوِيَ عن ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- أنه قال: "قال رسول الله ﷺ: {نزل الحجر الأسود من الجَنَّة وهو أشدّ بياضًا من اللبن، فسودته خطايا بني آدم}.

وقيل: بنى إبراهيم ﵇ الكعبة في السماء تسعة أذرُع، وطولها في الأرض ثلاثـون ذراعًـا، وعرضـها فـي الأرض اثنـان وعشـرون ذراعًـا، وكانـت غيـر مُسقَّفة، ثم بنتها قُريش في الجاهلية، فزادت في طولها في السماء تسعة أذرُع، فصـار طولهـا ثمانيـة عشر ذراعًا، ونقصوا في طولها في الأرض ستة أذرع وشبرًا تركوها في الحِجْر، فلم تزل على ذلك حتى كان زمن عبد الله بن الزُّبير، فهدَّها وبناها على قواعد إبراهيم، وزاد في طولها في السماء تسعة أذرُع أُخرى، فصار طولها في السماء سبعًا وعشرين.

ثم بناها الحجَّاج فلم يُغيِّر من طولها في السماء، فالكعبة اليوم طولها سبعة وعشرون ذراعًا، وأمَّا عرضها فبين الرُّكن الأسود والشامي خمسة وعشرون ذراعًا، وبين اليماني والغربي كذلك، وبين اليماني والأسود عشرون، وبين الشامي والغربي أحد وعشرون، والله أعلم[٢].

[ذكر خبر الحجر الأسود]

وأمَّا الحجر الأسود، فقد رُوِيَ عن علي بن أبي طالب-كَرَّمَ الله وجهه-أنه قال: "كُنْتُ طائفًا مع النبي ﷺ بالبيت الحرام، فقُلْتُ: "فداك أبي وأُمِّي يا رسول الله: ما هذا البيت؟ فقال: يا علي أَسَّسَ الله تعالى هذا البيت في الدُّنيا كفَّارة لذنوب أُمتي"، فقُلْتُ: "فداك أبي وأُمِّي يا رسول الله: ما هذا الحجر الأسود؟ قال: "تلك

---

(١) ث، ب: "له"، وما ورد في المتن من متن الإيضاح.

(٢) من أول "قوله تعالى: إن أول بيتٍ وضع للناس" نقله المؤلِّف من متن الإيضاح في المناسك للنووي، ص١٤٥-١٤٨.

جوهرة كانت في الجنَّة، أهبطها الله تعالى[٦أ] إلى الدُّنيا، لها شُعاع كشُعاع الشمس، فاشتدَّ سوادها، وتغيَّر لونها مُذ مسَّتها أيدي المُشركين".

وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ﷺ قال: "حَججنا مع عمر بن الخطاب ﷺ في أول خلافتِهِ، فدخل المسجد الحرام حتى وقف على الحجر، فقال: "إنك حجر لا تضُر ولا تنفع، ولولا أنِّي رأيتُ رسول الله ﷺ قبَّلك ما قبّلتُك"، فقال له علي: "لا تقُل هذا، فإنه يضر وينفع بإذن الله، ولو أنكَ قرأتَ القرآن وعلمتَ ما فيهِ ما أنكرت".

فقال له عمر: وما تأويله في كتاب الله ﷻ؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾[1]، فلمَّا أقرُّوا بالعبودية كتب إقرارهم في رَقٍّ، ثم دعا هذا الحجر وألقمهُ إيَّاه، وهو أمين الله على هذا الكتاب. يشهد لمن وافاهُ يوم القيامة".

قال[2] له عمر: "يا أبا الحسن لقد جعل الله بين ظهرانيك من العلم ما ليس بقليل".

وبوسط الحجر الأسود الآن نُقطة بيضاء قدر حبَّة العدس، وارتفاع الحجر الأسود من الأرض ثلاثة أذرع إلا خمس أصابع.

[ذكر عمارة المسجد الحرام]

وكان المسجد الحرام فضاء حول الكعبة وفضاء للطائفين، ولم يكن له على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر ﷺ جدار مُحيط به، فكانت الدُّور مُحدقة به، وبين الدُّور أبواب يدخل الناس من كل ناحية.

فلمَّا استُخلِفَ عمر ﷺ وكَثُرَ الناس وسَّعَ المسجد، واشترى دُورًا وهدمها، فزادها فيه، واتخذ للمسجد جدارًا قصيرًا دون القامة، وكانت المصابيح توضع عليه، فكان عمر ﷺ أول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام.

فلمَّا استُخلِفَ عُثمان ﷺ ابتاع منازل، ووسَّعه بها أيضًا، وبنى المسجد والأروقة، فكان عُثمان ﷺ أول من اتخذ الأروقة للمسجد.

---

(1) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

(2) ث: وقال.

ثم إنَّ ابن الزُّبير زاد في المسجد زيادة كثيرة، واشترى دُورًا من جُملتها بعض دار الأزرق، اشترى ذلك البعض ببضعة عشر ألف دينار.

ثم عَمَّرَهُ عبد المَلِك بن مروان، ولم يزد فيه، لكن رفع جداره، وسقَّفه بالساج، وعَمَّرَهُ عمارة حسنة، ثم إنَّ الوليد بن [٦ب] عبد المَلِك وسَّع المسجد، وحمل إليه أعمدة الحجارة والرُّخام.

ثم إنَّ المنصور زاد في المسجد وبناه، وجعل فيه أعمدة الرُّخام، وزاد فيهِ المهدي مرَّتين، إحداهما بعد [سنة ستين ومائة، والثانية بعد سنة سبع وستين ومائة إلى سنة](١) سنة تسعٍ وستين، وفيها توفي المهدي، واستقر على ذلك بناؤها إلى وقتنا هذا.

ويُقال: "المسجد الحرام"، ويُراد بهِ هذا المسجد. هذا هو الغالب، وقد يُراد بهِ الحرام(٢)، وقد يُراد بهِ مَكَّة، وعلى الحرم علامات من جوانبهِ كلها، ومنصوب عليها أنصاب عملها إبراهيم الخليل عليه السلام، وجبريل يُريهِ مواضعها، ثم أمر النبي ﷺ بتجديدها، ثم عُمر، ثم عُثمان، ثم مُعاوية رضي الله عنهم، وهي الآن مبنيَّة(٣).

[ذكر حدود الحرم]

وللحرم حدود، فحدّه من طريق المدينة دون التنعيم عند بيوت [بني](٤) نِفَار- بكسر النون وبالفاء- على ثلاثة أميال من مَكَّة، وحدّه من طريق اليمن طرف "أضاة لِبْن"- بفتح الهمزة وبالضاد المُعجمة على وزن "قناة"، وهي مُستنقع الماء، ولِبْن- بكسر اللام وإسكان الباء الموحدة- على سبعة أميال من مَكَّة، وحدّه من طريق العراق على ثنيَّة جبل بالمقطع على سبعة أميال من مَكَّة، وحدّه من طريق الجِعْرانة في شِعْب آل عبد الله بن خالد على تسعة أميال من مَكَّة، وحدّه من طريق الطائف على عرفات من "بطن نَمِرَة" على سبعة أميال من مَكَّة، وحدّه من طريق جُدَّة "مُنقطع الأعشاش" على عشرة أميال من مَكَّة(٥).

---

(١) الإضافة من متن الإيضاح.

(٢) لعلها "الحرم".

(٣) انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٤٨-١٤٩.

(٤) ث: "بيوته"، والضبط والإضافة من متن الإيضاح.

(٥) انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٣٩-١٤٢.

والميل ثُلث فرسخ، لأنَّ الفرسخ ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي، والذراع أربع وعشرون إصبعًا، والإصبع ست شُعيرات، ظهر كل واحدة إلى بطن الأخرى، والشُّعيرة ستة شعرات من ذنب البغل(١).

[ذكر أسماء مَكَّة]

ولمَكَّة- زادها الله شرفًا- سبعة(٢) عشر اسمًا، وكثرة الأسماء تدل على شرف المُسمَّى، وأسماؤها:مَكَّة بالميم، وبَكَّة بالباء، والبلدة، وأُم القُرى، والبلد الأمين، و"أم رُحْمٍ"، أي الناس يتراحمون ويتواصلون فيها، و"صَلاحِ" بفتح الصاد وكسر الحاء، سُمِّيَتْ بذلك لأمنها، و"المُقدَّسَة"، و"القادسية" من التقديس وهو التطهير، و"النَاسَّة" بالنون والسين المُهملة المُشدَّدة، و"النسَّاسة"[٧أ] بتشديد السين الأولى، لأنها تنُسُّ من ألحد فيها أي تطرده وتنفيه، و"الباسَّة" بالباء الموحدة، لأنها تبس المُلحِد أي تُحطِّمه وتُهلكه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾(٣)، و"الحاطمة" لحطمها المُلحِد، و"الرأس" لأنها أشرف الأرض كرأس الإنسان، و"العرش"،و"كوثى"، و"عروض"، ولا يُعرف من البلاد أكثر من مَكَّة والمدينة اسمًا، لكونها أشرف الأرض.

وقيل: "إنَّ مَكَّة وبَكَّة بمعنى واحد"، وقيل: "مَكَّة بالميم للحرم كله، وبالباء اسم البلد خاصة"، وقيل: "مَكَّة بالميم اسم البلد، وبالباء اسم البيت والمطاف"، وقيل: "بل البيت خاصة"(٤).

ومعنى قوله تعالى: ﴿فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ﴾(٥) هي المناسك، وأمن الخائف، وإمحاق الجمار مع كثرة الرمي والرامين على تكرُّر الأعصار والسنين، وامتناع الطير من العلو عليه، واستشفاء المريض [به](٦)، وتعجيل العقوبة لمن انتهك فيه حرمه، وإهلاك أصحاب الفيل لمَّا قصدوا تخريبه، وغير ذلك(٧).

---

(١) انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص٣٦٦.
(٢) ث: "سبعة عشر"، والضبط من متن الإيضاح.
(٣) سورة الواقعة، الآية ٥.
(٤) انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٤٩-١٥٠.
(٥) سورة آل عمران، الآية ٩٧.
(٦) الإضافة من متن الإيضاح.
(٧) انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٤٦.

وقيل في قولهِ تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[1]، قيل: "كان الرَّجُل لو جنى كل جناية، ثم دخل المسجد الحرام لم يُطلب".

ورُوِيَ أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال: "لو ظفرتُ فيه بقاتل الخطَّاب ما مسستُه حتى يخرج منه".

وعند الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنَّ مَن لزِمَهُ القتل في الحلِّ لقصاصٍ أو رِدَّةٍ أو زنى، فالتجأ إلى الحرم لا يُتعرَّض له، إلا أنه لا يُطعم ولا يُسقى حتى يضطر إلى الخروج[2].

ورُوِيَ أنَّ النبي ﷺ قال: {مَن مات في أحد الحرمين بُعِثَ يوم القيامة آمنًا}، ومنه كان ظهور النبي ﷺ.

ورُوِيَ أنه ﷺ قال: {الحَجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما ويُنثران في الجَنَّة}، والحَجون مقبرة مَكَّة، والبقيع مقبرة المدينة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ وقف على ثنيَّة الحَجون وليس بها يومئذٍ مقبرة فقال: {يبعث الله تعالى من هذه البُقعة ومن هذا الحرم كله سبعين ألفًا وجوههم كالقمر ليلة البدر، يدخلون الجنة بغير حساب، ويشفع كل واحدٍ منهم في سبعين ألفًا، وجوههم كالقمر ليلة البدر}.

وعنه ﷺ [٧ب] قال: {من صبر على حرِّ مَكَّة ساعة من نهار تباعدت منه جهنم مسيرة مائة عام}.

[ذكر أحكام تخُص مَكَّة وحدها]

ولها- زادها الله شرفًا- أحكام تُخالف غيرها من البلاد، منها:

أنه يُحَب أو يُستحَب أنَّ أحدًا لا يدخل الحرم إلا بإحرام، ومنها تحريم صيده على جميع الناس أهل الحَرم والمُحلين، ومنها تحريم شجره وحشيشه، ومنها أنه يُمنع جميع من خالف دين الإسلام من دخولِهِ، مُقيمًا كان أو مارًّا، خِلَافًا للإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، فإنه جوَّزه إذا لم يستوطنه.

---

[1] سورة آل عمران، الآية ٩٧.

[2] انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٤٤.

ومنها أنه لا تحل لُقَطتِهِ لمُتملِّك، ومنها تغليظ الدِّية بالقتل فيه، ومنها تحريم دفن المُشرك، ولو دُفِنَ فيهِ نُبش ما لم يتقطَّع، ومنها تحريم إخراج أحجارهِ وتُرابهِ إلى الحِلّ، ويُكره إدخال ذلك من الحِلّ إليه، ومنها أنه لا يُكره فيه صلاة النافلة التي لا سبب لها في وقت من الأوقات، ومنها أنه يَحرُم استقبال الكعبة أواستدبارها بالبول والغائط في الصحراء.

ومنها تضعيف الأجر في الصلوات بمَكَّة، وكذا سائر أنواع الطاعات، فقد رُوِيَ عن مُجاهد والإمام أحمد بن حنبل أنَّ السيئات تُضاعف فيها أيضًا كما تُضاعف الحسنات، ورُوِيَ عن الحسن البصري أنه قال: "صوم يوم في مَكَّة بمائة ألف، وصدقة درهم بمائة ألف، وكل حسنة بمائة ألف".

ومنها كراهية حمل السلاح بمَكَّة لغير حاجة، إلى غير ذلك من الفضائل التي لا يُمكن حصرها[١].

[ذكر كسوة البيت الحرام]

وأمَّا كسوتها، فأول من كسا البيت كسوة كاملة تُبَّع. أُرِيَ في المنام أنه يكسوها فكساها الأنطاع، ثم أُري أن يكسوها الوصائل، وهي ثياب حَبْرة من عصب اليمن، ثم كساها الناس بعدهُ في الجاهلية.

ورُوِيَ أنَّ النبيﷺ كساها، ثم كساها أبو بكر، وعُمر، وعُثمان، ومُعاوية، وابن الزُّبير، ومَن بعدهم، فكساها عُمرﷺ القباطي، وكساها ابن الزُّبير ومُعاوية الدِّيباج.

وكانت تُكسى يوم عاشوراء، ثم صار مُعاوية يكسوها مرَّتين، ثم كان المأمون يكسوها ثلاث مرَّات، وكسوها يوم التروية الدِّيباج الأحمر، ويوم هلال رجب[٢] القباطي، ويوم سبعة وعشرين من شهر رمضان الدِّيباج الأبيض، وهذا الأبيض ابتداهُ المأمون سنة ست ومائتين حين قالوا له: "الدِّيباج الأحمر ينحرق قبل الكسوة الثانية"[٨أ]، فسأل عن أحسن ما يكون فيه الكعبة فقيل: "الدِّيباج الأبيض" ففعله، ثم بعد ذلك استقرت كسوتها على ما هي عليه الآن، وهو الدِّيباج الأسود بطُرُز مُذهَّبة.

---

[١] انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٣٦، ١٣٩، ١٤٣-١٤٤، ١٥١، ١٥٣.

[٢] ث: الرجب.

وأمَّا داخلها فمُكتسى بكسوة حسنة من المخمل الأحمر بطُرُز مُذهَّبة، كساها المَقر الأشرف الزيني عبد الباسط[1] أمير الجيوش المنصورة بالممالك الإسلامية، عَظَّمَ الله شأنه، وهذا غاية الأُبَّهة والعظمة. قيل: إنه لم يُسبق إلى ذلك[2].

ورُوِيَ أنَّ عبد الله بن الزُّبير حين أراد هدم الكعبة وبناءها استشار الناس في ذلك، فأشار جابر بن عبد الله وعُبيد بن عمير وآخرون بهدمها ثم بنائها، لأنها كانت قد استُهدِمَتْ، وأشار ابن عبَّاس وآخرون بتركها على حالها، فعزم ابن الزُّبير على هدمها، فخرج أهل مَكَّة إلى مِنَى فأقاموا بها ثلاثًا، خوفًا من أن ينزل عليهم عذاب لهدمها، فما اجترئ على ذلك أحد.

فلمَّا رأى ذلك علاها بنفسِه، وأخذ المعول وجعل يهدمها ويرمي أحجارها، فلمَّا رأوا أنه لا يُصيبه شئ اجترأوا، فصعدوا وهدموها.

فلمَّا فرغ ابن الزُّبير من بناء الكعبة خَلَّقها من داخلها وخارجها، مِن أعلاها إلى أسفلها، وكساها القباطي، وقال: "لمن كانت لي عليه طاعة فليخرُج فليعتمر من التنعيم، ومن قدر أن ينحر بَدَنَة فليفعل، ومن لم يقدر فليذبح شاة، ومن لم يقدر عليها فليتصدق بوسعه".

وخرج ابن الزُّبير ماشيًا، وخرج الناس معه مُشاة حتى اعتمروا من التنعيم، شُكرًا للهِ تعالى، ولم يُر يوم أكثر عتيقًا وبَدَنَة منحورة وشاة مذبوحة وصدقة من ذلك اليوم، ونحر ابن الزُّبير مائة بَدَنَة[3].

[ذكر تذهيب البيت الحرام وترخيمه وتجميره]

ورُوِيَ أنَّ أول من ذَهَّبَ البيت في الإسلام ورخَّمه الوليد بن عبد المَلِك بن مروان، وذلك أنه بعث إلى واليهِ على مَكَّة خالد بن عبد الله القَسري بستةِ وثلاثين ألف دينار، فضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب، وعلى ميزاب الكعبة، وعلى الأساطين التي في بطنها، وعلى الأركان التي في جوفها، فكل ما على الميزاب والأركان من الذهب فهو من عمل الوليد.

---

[1] هو عبد الباسط بن خليل، من أعيان الديار المصرية، تولى الوزارة والأُستادَّارية ونظر الجيش، وله كثير من العمائر، توفي سنة ٨٥٤هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص٢٤-٢٧.

[2] من أول "ثم بعد ذلك استقرت" ممَّا أضافه المؤلِّف من عنده للنص.

[3] انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٥٣-١٥٤.

وأمَّا ما كان على الباب من الذهب من عمل الوليد فرَقَّ وجَفّ[1]، فرُفِعَ ذلك إلى أمير المؤمنين محمد[2] بن الرشيد في خلافته، فأرسل إلى عاملهِ على صوافي مَكَّة سالم بن الجرَّاح بثمانية عشر ألف دينار ليصرف بها صفائح الذهب على باب الكعبة، فقلع ما كان[٨ب] على الباب من الصفائح فزاد عليها ثمانية عشر ألف دينار، فضرب عليه الصفائح والمسامير وحلقتي الباب والعَتَب، فالذي على الباب من الذهب ثلاثة وثلاثون ألف مثقال.

وعمل الوليد بن عبد المَلِك الرُّخام الأخضر والأحمر والأبيض في بطنها، مُوزَّر به جُدرانها، وفرشها بالرُّخام، فجميع ما في الكعبة من الرُّخام هو عمل الوليد بن عبد المَلِك، وهو أول من زخرف المساجد.

ورُوِيَ أنَّ عبد الله بن الزُّبير ﷺ كان يُجمِّر الكعبة كل يوم برطل، ويوم الجمعة برطلين، ورُوِيَ عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: "طيِّبوا البيت، فإنَّ ذلك من تطهيره، يعني قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾"[3]، وعنها أيضًا أنها قالت: "لأنْ أُطيِّب الكعبة أحب إليَّ من أنْ أُهدي لها هدايا أو فضة"[4].

---

[1] متن الإيضاح: فسُرِق.

[2] هو المعروف بـ"الأمين".

[3] سورة الحج، الآية ٢٦.

[4] انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٥٤-١٥٥.

[فصل]

[ذكر الأماكن المُفضَّلة المُستحب زيارتها]

وبمَكَّة- زادها الله شرفًا- أماكن مُفضَّلة، منها ما يُستحب زيارته[1]، فمن ذلك: البيت الذي وُلِدَ فيه رسول الله ﷺ[2]، وهو الآن في زُقاق يُقال "زُقاق المرفق".

ومنها بيت خديجة الذي كان يسكنه رسول الله ﷺ وخديجة رضي الله عنها، وفيه وُلِدَ أولادها من رسول الله ﷺ، وفيه توفِّيت رضي الله عنها، ولم يزل رسول الله ﷺ مُقيمًا [به][3]حتى هاجر، ثم اشتراهُ مُعاوية وهو خليفة من عقيل بن أبي طالب، فجعلهُ مسجدًا.

ومنها مسجد في دار الأرقم، وهي التي يُقال لها "دار الخيرزان"، كان النبيﷺ مُستترًا بهِ في أول الإسلام، قيل: إنَّ عُمر بن الخطابﷺ أسلم فيه.

ومنها الغار الذي بجبل حِرَاء، كان النبي ﷺ مُتعبِّدًا فيه، والغار الذي بجبل ثور هو المذكور في القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾[4].

ومن الأماكن المُباركة: مسجد الجِنّ الذي بايع رسول اللهﷺ الجِنّ فيه، ومسجد الشجرة الذي دعا النبي ﷺ الشجرة فأتت إليه ثم عادت، ومسجد الفتح الذي بايع النبي ﷺ فيه يوم الفتح، ومسجد بذي طوى، وموضع صلَّى فيه رسول الله ﷺ [٩أ]، ومسجد موضع أحرم فيه رسول الله بالعُمرة، ومسجد التنعيم،

---

[1] قال النووي بعدها: "قيل إنها ثمانية عشر موضعًا".

[2] ذكر النووي نقلًا عن الأزرقي أنه الزقاق يُسمَّى "زقاق المولد".

[3] إضافة لضبط السياق من متن الإيضاح.

[4] سورة التوبة، الآية ٤٠، وانظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٣٦-١٣٧.

ومسجد باب الحُديبية موضع عهد النبيﷺ، وحُديبية بعضها في الحِلّ وبعضها في الحَرم، وفي طريق العُمرة مسجد المُرسلات، وبهِ الحَجَر الذي جلس عليه رسول اللهﷺ، والتنعيم، ومسجد عائشة رضي الله عنها.

وأمَّا جبالها، فظاهرها جبل أبي قبيس، والصفا محسوب منه، وقيل: "قبر آدم به"، وقيل: "قبر آدم عند منارة مسجد إبراهيم‌عليه السلام"، وجبل حراء كان رسول اللهﷺ يتعبَّد فيه، وجبل قيقعان، والمروة محسوب فيه، وقيل: "حجارة البيت منه قُطِعَتْ"، وقيل: "من جبل حراء وثبير"، وقيل: "من جبالها السبعة"، والله أعلم، وجبل ثور بهِ الغار الذي اختفى به النبيﷺ وأبو بكر، وجبل ثبير يُزار، والثبير دار جعفر الصادق.

وأمَّا الآبار، فبئر آدم بالأبطح، وبئر إبراهيم بمَكَّة، وآبار الزاهر، وبئر همور قريب مَكَّة، عندها الإمام المنصور رحمه الله، [و]"شرف" موضع قريب بمَكَّة، بهِ ميمونة زوج النبيﷺ.

بين مَكَّة والمدينة بها آمنة أُم رسول اللهﷺ، وبها عبد الله بن جعفر الصادق رضي الله عنهما، وبين مَكَّة والمدينة قبر القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق‌رضي الله عنه، وموضع خيمة أُم مَعْبَد، حيث نزل رسول اللهﷺ وأبو بكر الصِدِّيق عند مسيرهما إلى المدينة، واسم أُم مَعْبَد عاتكة بنت خالد.

و"غدير خُم": موضع آخى[(1)] رسول اللهﷺ لعلي بن أبي طالب كَرَّمَ الله وجهه.

"بدر، وحُنين": موضعان قاتل رسول اللهﷺ الكُفَّارونصرهُ الله تعالى.

جبل الملائكة: يُقال إنَّ الملائكة- عليهم السلام- أرسلهم الله تعالى لنُصرة رسول اللهﷺ يوم بدر من تلك الجهة، ويُقال إنَّ صوت الطبل يُسمع من ذلك الجبل إلى اليوم، والله أعلم.

جبل ريحانة، ووادي الفُرُع: بهِ ينزل الحاج، به عُروة بن الزُّبير.

بئر علي بن أبي طالب-كَرَّمَ الله وجهه- قريب المدينة، يُقال قاتل الجِنّ بها[(2)].

---

(1) ث: "آخار".
(2) من قوله: "وبين مَكَّة والمدينة قبر القاسم" نقله المؤلِّف من كتاب "الإشارات" للهروي، ص٧٨.

ومسجد [٩ب] العشرة الذي بايع النبي ﷺ [عندهُ][(١)] الأنصار، وغير ذلك من المساجد والجبال المشهورة بالفضل، لا يليق ذكرها بهذا المُختصر.

ودُفِنَ بها كثير من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين، منهم: عبد الله بن الزُّبير بالمُصلَّى، وسهل بن حنيف، وأسماء بنت أبي بكر الصديق ﷺ، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وخالد بن كيسان، والفُضيل بن عياض، وبها خلق كثيرون من الشُّهداء والصالحين والأولياء والمُجاورين من العرب والعجم.

وبها السبيل إنشاء المَقر الزيني[(٢)] المُشار إليه، ينفع الحُجَّاج، وله من الخير والمعروف أماكن كثيرة[(٣)].

قيل: إنه اتفق نُكتة بين أئمة من العُلماء أحببتُ ذكرها في هذا المحل، فإنَّ فيها فوائد، وهو أنه[(٤)] ذهب البعض إلى أنَّ الحِجْر ستة أذرع من البيت، وما زاد ليس من البيت، ومنهم من يقول: "سبعة أذرع"، ومنهم يقول: "الحِجْر قريب من سُبع البيت"، وهو مائة ذراع وثلاثة وعشرون ذراعًا واثني عشر إصبعًا[(٥)]، ويعلوه الميزاب يصب ماؤه فيه، وهو مُصفَّح كما تقدَّم.

واختلفوا أيضًا في مقام إبراهيم، فمنهم من قال تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا﴾[(٦)] عائد إليه، ومنهم من قال: "عائد إلى البيت"، وهو الأصح.

ورُوِيَ أنَّ النبي ﷺ قال: {ماء زمزم لِمَا شُرِبَ له}، وهي بئر مباركة، عينها حارة حسنة تجاه الكعبة[(٧)]، أنشأ بسطحها مقعدًا المَقام الشريف المَلِك المؤيَّد أبي النصر شيخ، سقا الله عهده، فإنه حَجَّ أمير الحاج قبل أن يلي السلطنة، ونذر ذلك.

---

(١) إضافة لضبط السياق.
(٢) يقصد عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش.
(٣) عن عمائره وتجديداته وترجمته. انظر: النهروالي: الإعلام، ص٢١٧-٢٢٠.
(٤) ث: أن.
(٥) انظر: النووي: متن الإيضاح، ص٧٤-٧٦.
(٦) سورة البقرة، الآية ٩٧.
(٧) انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٣٥-١٣٦.

وبمَكَّة المُشرَّفة شوارع عظيمة، أعظمها الذي بها الصفا والمروة، الذي أنزل الله تعالى في شأنهما: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾[1] الآية، وبينهُما الميلان الأخضران، وأنشأ بمَكَّة المُشرَّفة المَقام الشريف الأشرف[2] معروفًا[3].

ويلها من الجهة الشرقية مِنَى، بينها وبين مَكَّة فرسخ، وحدودها ما بين وادي مُحَسِّر وجمرة العقبة، وهي شِعْب طويل نحو ميلين وعرضه يسير وجبال، وبها عمائر كثير[ة] فيها سُكَّان، ويُقام بها في موسم الحج أسواق[١٠أ]، يُباع بها غالب الأشياء، وقد نُظِم فيها:

يا غاديًا نحو الحِجَاز ولعلعَ ... عَرِّج على وادي مِنَى والأجرع

وانزل بأرضٍ لا يُضام نزيلها ... فيها الشفاءُ لكل قلبٍ موجع

قد حَلّ فيها سيدٌ ومُكَرَّم ... وهو الشفيع لدَى المَقام الأرفع

وبينهُما وبين مِنَى وعرفات: نَمِرَة، والمُزدَلِفَة، والمَشعر الحرام.

وفي حدِّ عرفة أقوال، منها: أنَّ العرفة ما جاوز وادي عُرَنة- بضم العين وفتح الراء وبعدها نون- إلى الجبال المُقابلة ممَّا يلي بساتين بني[4] عامر، وقيل: من الجبل المُشرِف على بطن عُرَنة إلى جبل عرفة إلى وصيق إلى مُلتقى وصيق ووادي عرفة.

وقيل: لعرفات أربع حدود: أحدها ينتهي إلى جادة طريق المشرق، والثاني إلى حافات الجبل الذي وراء أرض عرفات، والثالث إلى البساتين التي تلي "قرية عرفات"، وهذه القرية على يسار مُستقبِل القبلة إذا وقف بأرض عرفات، والرابع ينتهي إلى وادي عُرَنة.

وقال البعض: يطوف بمُنعرجات عرفات جبال، وجوهها [المُقبلة][5] من عرفات، وليس من عرفات وادي عُرَنة ولا نَمِرة ولا المسجد الذي يُصلِّي فيه الإمام، المُسمَّى "مسجد إبراهيم" ويُقال "مسجد عُرَنة"، بل هذه المواضع خارج عن عرفات على طرفها الغربى ممَّا يَلي مُزدَلِفَة.

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٥٨.

(2) يقصد السُّلطان الأشرف بَرسْبَاي.

(3) عن عمائره وتجديداته. انظر: النهروالي: الإعلام، ص٢١٢-٢١٧.

(4) ث: بن.

(5) ث: "وجوها"، والضبط والإضافة من متن الإيضاح.

وبوسط عرفات جبل يُسمَّى "جبل الرحمة"، وعرفات ليس من الحَرَم، بل يُسمَّى الحَرَم من تلك الجِهَة عند العَلمين المنصوبين عند مُنتهى المَأْزِمَينِ[١].

وحَدّ المُزدَلِفَة ما بين مأزِمي عَرفة المذكورين، وقرن مُحَسِّر يمينًا وشمالًا من تلك المواطن القوابل والطواهر أو الشِّعاب والجبال، فكلها أمن مُزدَلِفَة، وليس المأزمان ولا وادي مُحَسِّر من مُزدَلِفَة.

ومُحَسِّر- بضم الميم وفتح الحاء وكسر السين المُشدَّدة المُهملتين- سُمِّيَ بذلك لأن فيل أصحاب الفيل حَسَّر فيه، أي أعيا وكَلَّ عن المسير[٢].

واسم صاحب الفيل أبرهة بن الصباح، قَدِم يُريد خراب الكعبة، ومعه ألف فيل يقدُمهُم فيل عظيم يُقال له "محمود"، وكان أبرهة بن صباح هذا يُقال له "الأشرم"، وهو مَلِك الحبشة الذي قتلوا "ذا نواس"، وغلبوه على[١٠ب]مُلك اليمن[٣]، وكان دليلهم "أبو رِغَال الثقفي"، ورجَمت العرب قبره حين مات.

وكان أيضًا نُفيل بن حبيب الخثعمي قد أسرهُ أبرهة، ثم استحياه ليدل به، فلمَّا نزلوا بالفيل على مَكَّة أخذ نُفيل بأُذُن الفيل، وقال له: "إبرك محمود أو ارجع راشدًا، فإنك في بلد الله الحرام"، ثم هرب إلى قُريش، وكان معهم.

فلمَّا مُطِر عليهم الحجارة صاحوا: أين نُفيل بن حبيب؟ فقال نُفيل في ذلك شعر:

وكُلُّ القومِ يسألُ عن نُفيلٍ   كأنَّ عليَّ للحُبشَان دينَا
حَمِدتُ الله[٤] إذ عَاينتُ طَيرًا   وخِفْتُ حِجَارةً تُلقى علينَا

ومُحَسِّر واد بين مِنَى وعرفة ومُزدَلِفَة، مُتوسطة بين مِنَى وعرفات، بينهُما وبين كل واحدة منهُما فرسخ، وهو ثلاثة أميال[٥].

والمَشعر الحَرام: جبل صغير آخِر المُزدَلِفَة، اسمُه "قُزَح" بضم القاف وفتح الزاي[٦]، وجبل عرفات بِهِ قُبَّة أبينا آدم عليه السلام.يُقال: إنه يقف بِهِ يوم الموقف ستمائة ألف نفر، وإذا قُدِّرَ نقصهم عن ذلك كمَّلهُم الله تعالى بملائكة.

---

[١] انظر: النووي: متن الإيضاح، ص٩٣-٩٤.
[٢] انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٠٢-١٠٣.
[٣] ث: اليمين.
[٤] ث: لله.
[٥] انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٠٣.
[٦] انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٠٦.

ولم نذكر أفعال الحج من الواجبات والسُّنن.

ومَكَّة- شرَّفها الله تعالى- في شرقها مائلة إلى الجنوب قليلًا، حيثُ الطول سبع وستون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، والعرض إحدى وعشرون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، وهي من الجُزء الرابع من الإقليم الثاني.

[ذكر مدينة الطائف]

وفي شرقيها "الطائف"، التي يُنسب إليها الأديم الطائفي، وبينهُما درجة في الطول، والطائف أعرض بدقائق، ومنها يُجلب الليمون والعنب لمَكَّة، وحيثُ الطول إحدى وسبعون درجة وست وأربعون دقيقة، والعرض إحدى وعشرون درجة وإحدى وعشرون دقيقة، وهي بلاد عجيبة، كثيرة الماء والشجر والأعناب، وليس في أرض الحجاز بلدة فيها الماء والشجر والأعناب أكثر منها.

وسبب تسميتها "الطائف" في قصة أصحاب الجَنَّة، التي ذكرهم الله تعالى في كتابهِ العزيز في سورة "ن" في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾(١).

قيل: هي جَنَّة بسورين عن فراسخ من صنعاء(٢)، وكان أصحاب هذه الجَنَّة بعد رفع عيسى عليه السلام، وكانوا بُخلاء، وكان يجنون الثمر بدلًا من جني المساكين، وكانوا أرادوا حصاد زرعها، وقالوا: ﴿لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾(٣)، فغدوا إليها فإذا هي قد أُقْتُلِعَتْ من أصلها، فأصبحت "كالصريم" أي كالليل، وكان الطائف الذي طاف عليها[١١أ][جبريل عليه السلام](٤) فاقتلعها، فيُقال: إنه طاف بها حول البيت، ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم، ولذلك سُمِّيَت "الطائف".

وقيل: سُمِّيَت "الطائف" لأنَّ رجُلًا من الصَّدِف يُقال له "الدَّمُون" بنى حائطها، وقال: "قد بنيتُ لكم طائفًا حول بلدكم"، فسُمِّيَت"طائفًا"(٥).

---

(١) سورة القلم، الآية ١٧.

(٢) في تفسير القرطبي: "هي جَنَّة بصَوْران، وصَوْران عن فراسخ من صنعاء"، ولعله الصواب.

(٣) سورة القلم، الآية ٢٤.

(٤) الإضافة من تفسير القرطبي.

(٥) نقل المؤلِّف تفسير الآية من كتاب الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج٢١، ص١٦٠-١٦١.

[ذكر مدينة جُدَّة]

وأمَّا مدينة جُدَّة فهي أيضًا من الجُزء الرابع من الإقليم الثاني، وهي مائلة إلى الشمال بدقائق، وهي ميناء مَكَّة المُشرَّفة من جهة البحر، تَرِد إليها المراكب بالبضائع، وهي أعظم المِيْن[1].

قيل: إنه يَرِد إليها في كل سنة نحو مائة مركب، من جُملة ذلك مركب بسبع قُلوع[2]، وهي في غاية الكِبَر، ويُجلب بتلك المراكب من أصناف القُماش، والبضائع اللطيفة، والشاشات، والأَرز، والصيني الشفَّاف، والرقيق الحبش، والنارجيل، وغير ذلك ممَّا يطول وصفه، ويؤخذ بها الموجبات والرسوم، منها حِصَّة لصاحب مَكَّة المُشرَّفة، والباقي للذخائر الشريفة.

وسَمِعْتُ من لفظ السُّلطان المَلِك الأشرف[3] يقول: "أتانا من مُتحَصّل جُدَّة في هذه السنة ما قيمته مائتا ألف دينار".

وقيل: إنه في الزمان المُتقدِّم كان صاحب مَكَّة يستأدي جميع ذلك، وكان له بذلك قوة.

واتفق في الزمان الماضي أنَّ صاحب مَكَّة خرج عن الطاعة الشريفة في أيام الظاهر برقوق، حتى إنه صار يصدع الحاج، ويقصُد لهم الضرر والأذى، وجهَّز في تلك السنة الأمير جركس الخليلي[4] أمير الحاج الشريف، وكان أمير آخور كبير له قوة وضخامة، وجهَّز صُحبته فرقة من العسكر المنصور، ومع ذلك لم يحصُل إرب، بل حصل للحاج ما لا خير فيه.

ولم يحصُل إرب من صاحب مَكَّة إلا بتسليط الفداوية عليه إلى أن قتلوه، وأمَّا الآن فصاحب مَكَّة تحت الطاعة الشريفة، مُمتثل أوامرها.

---

(1) جمع ميناء.

(2) مفردها قلع، وهو شراع السفينة. انظر: المعجم الوسيط، ص٧٥٥.

(3) هو السُّلطان الأشرف أبو النصر بَرسْبَاي. انظر: الزُّبدة، ص١٤.

(4) هو الأمير جاركس بن عبد الله الخليلي اليلبغاوي، توفي سنة٧٩١هـ. انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص٢٠٥-٢٠٧.

[ذكر خبر حج المؤلِّف سنة ٨٤٠هـ]

ولمَّا حَججتُ سنة أربعين وثمانمائة أمير الحاج الشريف[1]، فخرج صاحب مَكَّة بأُمرائهِ ووزرائهِ ونُوَّابهِ وحُجَّابهِ وجيشهِ لمُلاقاة المحمل الشريف، وهو في غاية العظمة والأبَّهة، فنزل عن فرسِه، وقبَّل الأرض لدى المحمل الشريف، وألبستُه تشريفة الشريف المُجَهَّز[ة] من الخزائن الشريفة، وهو أطلسين مُتمر، وتأدَّب غاية التأدُّب.

ولمَّا صَعدتُ إلى سطح الكعبة الشريفة- شرَّفها الله- يوم عيد النحر، وألبستُها كسوتها الجديدة المُعتادة في كل عام، فخلعتُ عليه خِلعَة سنيَّة نخّ بقاقم، وحصل منه[١١ب] غاية الخَدم والإكرام، وأقام بالمُعتاد عليه لأُمراء الحاج، وهو ألف دينار، وزيادة على ذلك بما قيمته خمسمائة دينار، وكانت حَجَّة عظيمة مرخيَّة، كثيرة الخيرات، ووقفنا وقفة الجُمعة، وهو الحج الأكبر.

وممَّا اتفق من الغرائب ما منحنا الله بهِ من النِّعَم التى عَدَّتها الحُجَّاج في تلك السنة كرامة نبع الماء من "مغارة نَبْط"، إلى أن سالت منه أودية بقدرها، وكان قبل يَزدحِم الحاج على المغارة المذكورة بسبب قِلَّة المياه، وسَمِعْتُ من جماعة أنَّ تلك المياه مُستمر فيضها إلى الآن.

وحكى جماعة من المشايخ المُطعِنين في السن من جُملتهم الحاج عيسى الدليل أنهم حَجُّوا نيف وستين حَجَّة، فلم يروا مثل تلك السنة من الأمن، والرخاء، وكثرة الحاج، والراحة، والرفاهية، والخصب، وكثرة الأعشاب.

وأبطلتُ ما كان يُستأدى بدرب الحجاز من المظالم، ورتَّبتُ الحاج على أسلوب وقوانين، استمر غالبها إلى الآن، سيأتي بيانها. ذلك فضل الله يؤتيهِ من يشاء.

وقد مدح تلك الحَجَّة جماعة من الشُعراء منهم: ابن خطيب أبشيه[2]، من جُملة قصيدة مائتين وأربعين بيتًا[3]، فمن ذلك قوله:

---

(1) عن خبر حجِّه. انظر: المقريزي: السلوك، ج٤، ص١٠١٠؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ص٥١؛ عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٤، ص٤٢٧.

(2) لعله محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي المحلي الشافعي، ولد بأبشويه وولي الخطابة بها، وتعاني النظم والأدب، وله عدة مؤلفات، توفي سنة٨٥٢هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص١٠٩.

(3) ث: بيت.

مــا زالــت الحُجَّــاج مــن أفضــالهِ   مُتمتعـــــين بنعمــــــةٍ وهنـــــاء
للهِ حَجتنــــا التــــي أبــدًا بهـــا   تتحــدث الرُّكبـــان فـــي الأرجـــاء
فيهــا وقفنــا الجُمعــة الغــرَّاء وقــد   عُــــدنا إذًا منهـــا بغيـــر خطـــاء

وممَّا تفضل بهِ قاضي المحمل الشريف بيتين في المُؤلِّف:

مُتقــــدَّمٌ بخصــــائلٍ وفضـــائلٍ   لا بُـــدَّ عنـــد مليكـــهِ يتقـــدَّمُ
وبـــذكرهِ طـــابَ المقَـــامُ لزائـــرٍ   وتزمزمــوا عنــد الحَطيم وزمزمــوا

وممَّا تفضَّل بهِ شمس الدين بن مُحيسن[1] مُحتَسِبُ المحمل الشريف:

جئنـــا نطـــوف وداعًــا والخليــل بــدا   ضــمنالمقَام يُصــلي قَلْـتُ مُخترعــا
هـــذا المقـــام بـــإبراهيم نســـبتُهُ   حــق الخليــل إذا صــلّى بــهِ ودعــا

ومن أحسن ما قاله أيضًا في المعنى، من جُملة قصيد:

أشـرافُ مَكَّــة مــع أهـل الحجـاز أتــوا   نحو المَقرّ لنيلِ القصد والأمل[١٢أ]
والبيـــتُ فـــي فـــرحٍ لمَّـــا رآهُ بـــهِ   طافــت جوانبــهِ بــالعُرسِ والحُلــل

وما قاله شهاب الدين أحمد بن ناهض الحلبي[2] الشاعر، من جملة قصيدة مُطوَّلة:

لمَّـــا حَـــدى الحـــادي وســـار الـــدليل   وارتحــل الركــب ونـــادى الرحيــل
وخلّفـــوا المُشـــتاق مِـــن بعـــدهم   فــي وجــدهِ المســكين يبكــي طويــل
طـــاب السُـــرى للنـــاس فـــي فرحـــةٍ   حتـــى يـــروا ذاك المَقـــام الجليـــل

---

(١) لم أعثر على ترجمته، وسيذكر له المؤلِّف شعر في ق٤٣أ، وسيُضيف إليه "المالكي السكندري"، توفي بعد ٨٤٠هـ.

(٢) لم أعثر على ترجمته، ولعله أخي الأديب الشمس محمد بن ناهض بن محمد الجهني الحلبي نزيل القاهرة المتوفى سنة٨٤١هـ، أو أنه المقصود والسهو وقع من الناسخ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٦٧.

[فصل]
في ذكر المدينة الشريفة
على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

وهي من الجزء الرابع من الإقليم الثالث، حيثُ الطول خمس وستون درجة وعشرون دقيقة، والعرض خمس وعشرون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة.

ولها أسماء منها: المدينة، وطيبة، وطابة، والدار، وسُمِّيَتْ "طابة، وطيبة" لخلوصها من الشِّرك وطهارتها منه، وقيل: "طيبها لأمن سكانها ودعتهم"[(١)]، وقيل: "لطيب العيش بها"، وأمَّا تسميتها "الدار" فللاستقرار بها لأمنها[(٢)]، وأمَّا "يثرب" فليس اسمًا لها، بل اسم أرض المدينة في ناحية منها.

والمدينة أفضل بقاع الأرض بعد مَكَّة، زادها الله شرفًا، ولولا أنَّ الله تعالى اختارها على سائر الأرض ما جعلها دار هجرة نبيِّهﷺ، وضمَّت أعضاءهُ الشريفة، وهي إحدى الثلاثة التي تُشدُّ إليها الرِّحال.

ولها حدود: القبلي من أوائل وادي بني سالم، والشمالي مدينة العُلا، والشرقي جبل يعرف بمناس، والغربي [...][(٣)].

[ذكر الحرم النبوي الشريف]

وبوسطها الحرم الشريف النبوي، وهو مسجد رسول الله ﷺ، وداخله مقصورة بها الحُجرة التي بها مدفون ﷺ ومعه صاحباه[(٤)] أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

---

(١) متن الإيضاح: لطيب سكانها، لأمنهم ودعتهم.

(٢) انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٥٦.

(٣) بياض في ث، ب.

(٤) ث: صاحبها.

وبها منبر رسول الله ﷺ، لم يبق من آثارِهِ غيره، وقيل: "كان من خشب الطَّرفاء"، وهو تحت المنبر الموجود الآن، فإنَّ الموجود الآن بعلبكي مدهون، أنشأهُ المَلِك المؤيَّد تغمدَّهُ الله برحمته، وكان منبر رسول الله ﷺ ثلاث درجات.

ودائرة الحُجرة ثمان وخمسون ذراعًا ونصف ذراع، الجانب الواحد خمسة عشر ذراعًا، والثاني سبعة عشر ذراعًا ونصف، والثالث أربعة عشر ذراعًا، والرابع اثني عشر ذراعًا[١٢ب] مشحطة(١).

وحد حرم المدينة ما بين عَير إلى ثور، وقيل: ما بين عَير إلى أُحُد(٢).

وكان مسجد رسول الله ﷺ مبنيًّا باللَّبِن، وسقفه الجريد، وعُمده خشب النخل، فلم يزد فيه أبو بكر ﷺ [شيئًا، وزاد فيه عمر ﷺ](٣)، وبناهُ على بُنيانِهِ في عهد رسول الله ﷺ [باللَّبِن](٤) والجريد، وأعاد عُمدهُ خشبًا، ثم غَيَّرَهُ عُثمان ﷺ، فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصَّة- بفتح القاف وتشديد الصاد المُهملة- هي الجَصّ، وجعل عُمدهُ من حجارة منقوشة، وسقَّفه بالسَّاج.

ورُوِيَ أنَّ النبيﷺ بنى مسجدهُ سبعين ذراعًا في ستين ذراعًا، وجعل عُثمان طول المسجد مائة وستين ذراعًا، وعرضه مائة وخمسين ذراعًا(٥)، ثم زاد فيه الوليد بن عبد المَلِك، فجعل طوله مائتي ذراع، وعرضه في مُقدِّمِهِ مائتين وفي مُؤخِّرِهِ مائة وثمانين، ثم زاد فيه المهدي مائة ذراع من جهة الشام فقط دون الجهات الثلاث(٦).

---

(١) كذا في ث، والغالب عندي أنها كانت في الأصل "مسطح"، فقد جاء بكتاب الإشارات: "... والرابع اثني عشر ذراعًا. مسطح روضة فاطمة..." فلمَّا فصل بين الفقرتين أبقى "مسطح" فحُرِّفت، والله أعلم، ومن قوله: "بها الحجرة" نقله المؤلِّف من كتاب "الإشارات" للهروي، ص٧٨.

(٢) قال النووي: "وحدّ حرم المدينة ما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن علي بن أبي طالبﷺ عن النبي ﷺ قال: {حرم المدينة ما بين عَير إلى ثور}، قال أبو عبيد القاسم بن سلام وغيره من أهل العلم: "عير جبل بالمدينة، وأمَّا ثور فلا يعرف أهل المدينة بها جبلاً، قالوا: فنرى أنَّ أصل الحديث: {ما بين عَير إلى أُحُد}...". انظر: متن الإيضاح، ص١٦٣-١٦٤.

(٣) الإضافة من متن الإيضاح.

(٤) الإضافة من متن الإيضاح.

(٥) جاء بعدها في متن الإيضاح: وجعل أبوابه ستة كما كانت في عهد عمر.

(٦) انظر: النووي: متن الإيضاح، ص١٦٤-١٦٥.

وعند الحُجرة روضة فاطمة رضي الله عنها، والأُسطوانة المُخَلَّقَة، وطول روضة فاطمة- عليها السلام- ذراعان ورُبع في مثل ذلك، ومنها إلى رأس الحُجرة إلى الجبَّانة أربعون ذراعًا، ومن الجبَّانة إلى المنبر خمسة عشر ذراعًا، ومن الإسطوانة المُخَلَّقَة إلى الجبَّانة عشرون ذراعًا.

وللحرم ستة أبواب: باب البقيع، وباب جبريل، وباب الأستاذين، وباب الحبشة، وباب الرحمة، وباب الخوخة، وطاقات الحرم من الشرق تسعة عشر، ومن الغرب كذلك، ومن القبلة أحد عشرة، ومن الشمال كذلك، والجميع ستون[1].

ورُوِيَ أنَّ ما بين المنبر ومقام النبي ﷺ الذي كان يُصلِّي فيه حتى توفي أربعة عشر ذراعًا وشبر، وما بين المنبر والقبر ثلاثة وخمسون ذراعًا وشبر.

ورُوِيَ أنه ﷺ قال: {ما بين قبري ومِنبَري روضة من رياض الجنَّة}، وبين ضريح النبي ﷺ والروضة شعر حسن[2]:

يا خيرَ مَن دُفِنَتْ في القاعِ[3] أعظَمُه فطابَ[4] مِن طيبهِنَّ القاعُ والأكَمُ

وبمدفن ضجيعيهِ[5]- رضي الله عنهُما- مسمار فضة، وعليه كسوة من الحرير المنقوش دالات أبيض[١٣أ] وأزرق، وحول الحُجرة قناديل فضَّة مُذهَّبة، وعلى المنبر علمان من الدِّيباج الأسود، منقوش على كل منهما بالنخ المُذهَّب "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، عليهما هِلَالان من فضَّة، وبحول الحرم رواقًا، وبوسطه قُبَّة سبيل، وحولها شجر، وبه أربع منارات.

[ذكر مساجد ودُور المدينة المشهورة]

بالمدينة المُشرَّفة مساجد مشهورة بالفضل، منها: مسجد الفتح، ومسجد القبلتين، ومسجد بني حارثة، ومسجد بني ظفر، ومسجد بني الحارث بن الخزرج، وغيرها.

---

(١) من قوله: "وعند الحجرة روضة" نقله المؤلِّف من كتاب "الإشارات" للهروي، ص٧٨-٧٩.

(٢) ذكر النووي حكاية الأعرابي الذي زار قبر النبي، وأنشد عنده القصيدة التي مطلعها هذا البيت، ولم يذكر ما ورد في المتن، وربما تكون قد كُتبت بعد ذلك بين الضريح والروضة. انظر: متن الإيضاح، ص١٥٩-١٦٠.

(٣) متن الإيضاح: بالقاعِ.

(٤) ث: "وطابَ"، وما ورد في المتن من متن الإيضاح والزُّبدة ص١٤.

(٥) ث: ضجيعه.

ومن الدُّور المشهورة بالفضل: دار أبي بكر ﷺ، وبيت أنس بن مالك ﷺ، وبيت عمر بن الخطَّاب ﷺ، وبيت عُثمان بن عفَّان ﷺ، وبيت علي بن أبي طالب ﷺ، ومسكن الحسن والحُسين عليهما السلام، وبيت العبَّاس ﷺ، وبيت حمزة ﷺ، وبيت طلحة ﷺ، وسعد، وسعيد، وصَفِيَّة عَمَّة النبي ﷺ رضي الله عنهم، وبيت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وآثار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين(١).

[ذكر مقابر البقيع ومن دُفِنَ به]

وفيها البقيع المُتقدَّم ذكره، وهو شرقي المدينة، بهِ العبَّاس عمّ رسول الله ﷺ، وعندهُ الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب كَرَّمَ الله وجهه، والإمام علي بن الحُسين زين العابدين(٢)، والإمام محمد الباقر، والإمام جعفر الصادق، وقبر عبد الله بن عبَّاس، وقبر صَفِيَّة عَمَّة رسول الله ﷺ، وبيت الأحزان لفاطمة- رضي الله عنها- وقبرها، وبه قبور جميع أزواج النبي ﷺ.

وبه قبر عُثمان بن عفَّان ﷺ، وقبر مالك بن أنس، والأرقم بن مخزوم(٣)، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وجُبير بن مُطعم، وحكيم بن حزام، وحاطب بن أبي بلتعة، وزيد بن ثابت، وزيد بن خالد الجُهني، والمُغيرة بن الأخنس بن شَريق(٤)، وعُروة بن الزُّبير في قرية قُرب المدينة، وصُهيب الرُّومي، والمقداد ابن الأسود، ومحمد بن أبي سلمة، وأبو الهيثم بن التيهان(٥)، وعبد الرحمن بن الحارث، وعبد الرحمن بن عوف الزُهري، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد من العشرة رضي الله عنهم أجمعين، ومُعاوية بن مُعاوية الليثي، وسلمة بن الأكوع، وعُمير بن سعد، ومحمد بن المُنكدِر، وابن أُم مكتوم، وعتاب بن أُسيد[١٣ب]، وجابر بن عبد الله، ونوفل بن مُعاوية، وجعفر بن محمد بن الحنفية، وعبد الله ابن أبي أوفى، وعبد الله بن مسعود، وسعيد بن المُسيَّب، وقيس بن سعد، وعبد الله بن سلام، وصفوان بن سُليم، وعبد الله بن عبد العزيز العُمري، وسعيد بن إبراهيم بن عون، وعبد الله بن عبد الله بن مسعود، وأبو طلحة، وأبو

---

(١) انظر: الهروي: الإشارات، ص٧٩.

(٢) ث: علي بن الحسين بن زين العابدين.

(٣) ث: مغرور.

(٤) ث: "وشريق"، وهو المغيرة بن الأخنس بن شريق بن عمر الثقفي، حليف بني زهرة، وهو ممن قتل يوم الدار مع الخليفة عثمان.

(٥) ث: الهيبان.

سفيان بن الحارث، وعمرو بن أُم مكتوم، وأبو قتادة بن ربعى، وخلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم، منهم من خفي قبره، ومن التابعين.

وبقُباء مسجد شريف نطقت بهِ الآثار، بهِ قُبَّة بيضاء ومنارة، والبئر التي تفل فيها رسول الله ﷺ فعادت حُلوة.

وجبل أُحُد شمالي المدينة، وهو أقرب الجبال إليها. كان به وقعة أُحُد، وبهِ قبر حمزة عمّ النبي ﷺ، وعبد الرحمن بن جحش مع حمزة في قبر واحد، والجماعة الذين قتلوا بأُحُد قدر سبعين من الشُّهداء رضي الله عنهم، وبأُحُد الغار وطئه رسول الله ﷺ.

ومساجد[1] رسول الله ﷺ من المدينة إلى تبوك سبعة عشر مسجدًا، وفي تبوك حائط يُنسب إلى رسول الله ﷺ، وبتلك الأرض من الأماكن المُفضَّلة ما لا يُعد[2].

وبالمدينة المُشرَّفة أسواق، وفنادق، وثلاثة[3] حمَّامات، أحدها لطيف بدار القاضي الشافعي، والآخران بالمدينة، وبها عمارات حسنة، وبظاهرها من الجهة الغربية حصن يسكُن بهِ الشريف صاحب المدينة، ومن الجهة القبلية مدائن خَيبر وقلاعها، وهي الآن خراب.

وبأراضي المدينة الشريفة عُربان، لهُم حدائق نخيل، وعليهم رسوم تُحمل في كل سنة لصاحب المدينة من الإبل والغنم والتمر، وحولها حدائق كثيرة، ويُعمل بها من الأطعمة والمأكل كالكعك المحشو بالعجوة، والهريسة التي لا نظير لها في غيرها من البلاد، وبها تمر كثير، يُجلب إلى سائر البلاد، وبها ولاة أمور: قُضاة، وحُكَّام، أيَّدهُم الله تعالى.

وأمَّا أنوار النبي ﷺ وقد رأيتُها وعاينتُها تظهر في كل ليلة على المآذن، والمُتعيَّن على كل أحد أن لا يُنكِر ذلك.

وأرض الحجاز مُتسعة[١٤أ] جِدًّا، ووادي الصفراء من أحسن الأودية وأعجبها، بهِ مياه وبساتين وعنب وبطيخ كثير.

ورأيتُ هذه الأماكن جميعها، وزرتُ النبي ﷺ مرَّتين الأولى في سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة[4]، والثانية في سنة أربعين وثمانمائة وأنا أمير الحاج

---

(١) ث: مسجد.

(٢) انظر: الهروي: الإشارات، ص٨٠-٨١.

(٣) ث: ثلاثة.

(٤) كان فيها برفقة والده. انظر: عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص٩٣.

الشريف، ولي في النبي ﷺ قصيدة نظمتها أتوسل به رجاءً للمغفرة والشوق إليه، رزقنا الله التلذذ بالعود لزيارته، وهي:

يا سيد السادات يا علم الهُدى ... إنِّي لمُشتاقٌ إليكَ بمُهجتي
ولقد وردتُ لبابهِ مُتكرِّرًا ... ورجوتُ غُفرانَ الذنوبِ وذِلَّتِي
فلعلَّ ربِّي أن يُسامح ما مضى ... ولعلَّ تحلو في المَعادِ صحيفتي
إنِّي لمُحتاج لعفوٍ دائمٍ ... وأخافُ من أمرٍ لهُ بعقوبتي
ورجائي لا ينفك منِّي بالرِّضَى ... مِن عَالِم الأسرار مُعطي النِّعمةِ
فالحمدُ للهِ الكريم لفضلهِ ... المُنعِم الغَفَّار كل خطيئةِ
والشُّكر دائم للإلهِ مُؤبَّدًا ... فلعلَّهُ بالشُّكر يرحم غُربتي
ولقد خلقنا مِن قديمٍ في الأزل ... في زُمرة الهادي وأفضلَ أمَّةِ
فهو الذي اختارهُ ربُّ العُلى ... معراجهُ مرفوع فوق الصَّخرةِ
وعلى جميع الأنبياء عُلوَّه ... ومحلَّهُ سامي بأسنى رُتبَةِ
يأتيهِ زُوَّارٌ بشوقٍ عدّهم ... سبعون ألفًا ثمَّنهم بالحَجَّةِ
ويَرون من أنوارهِ ما قد بَدت ... فوق المُفَرِّح من جبال البُقعةِ
وعمارة الحرم الشريف عجيبة ... والمنبر العالي قرين الروضةِ
والحُجرة المحفوظ فيها المُصطفى ... من أعظم الهيئات عند الرؤيةِ
حرمٌ شريفٌ مُعظَّمٌ ومُكرَّمٌ ... مَن زارهُ قد نال أعظم حَجَّةِ
ومدينة شُدَّ الرِّحَال لأجلها ... ربِّي إليها أمنُن عليَّ بعودتي
لزيارة الهادي البشير المُجتبى ... خير الورى طُرًّا وأكرم نسبةِ[١٤ب]
مَن جاء للخَلق الجميع مُبَشِّرًا ... ومُحذِّرًا وشفيع في ذي الأمَّةِ
ومُبيد كل مُعاندٍ بسيوفهِ ... والطالبين الظُّلم أهل البدعةِ
فهو المُشفَّع والشفيع المُقتدى ... خير الورى من أصل خير بريَّةِ
فتراهُ في يوم المعاد مُشَمِّرًا ... عن ساعديهِ يقول قصدي أمَّتي
يا مُظهر الشرع الشريف ورُكنِهِ ... ومُزيل كل مُحرَّمٍ والشبهةِ

يـا مَـن أتـاهُ الـوحي مِـن ربّ العُلـى فتكمّلـــــت أحوالـــــهُ بالنّصْــــرَةِ
يـا فــاتح الأمصــار يـا مَـن سـيفه قــد طــال فــي كــل الــبلاد بسـطوةِ
يـا صـاحب الـدين المتـين المُرتضـى يــوم الحســاب إليــك حُســن وسـيلتي
يـا أشـرف المُخلـوق يـا شـمس الضُحى صـــلّى عليـــك الله ربّ العِـــزّةِ
وعلــى أهــل بيتــكَ والصـحابة كُلمــا هبّــت ريـــاحٌ بالعشـــيّ وبُكـــرَةِ

[ذكر مدينة اليَنْبُع]

واليَنْبُع هي من أرض الحجاز، وبها مدينة اليَنْبُع، وموضوعها حيثُ الطول أربع وستون درجة، والعرض ست وعشرون درجة، وهي من الجزء الرابع من الإقليم الثالث.

وهي مدينة حسنة، بها عمائر مُتقنة، وأسواق، وجوامع، ومدارس، وبساتين، ومياه، وكان بها حِصْن ينبُع على رأس جبل، فهدمهُ السُّلطان المَلِك الأشرف أبو النصر بَرسْبَاي، ولذلك سبب سيأتي بيانه في فصلِهِ ومحلّه في الباب الحادي عشر.

وبلدان الينبُع كثيرة، يُسمون البلد بالحجاز "خِيْف"، ولها ميناء على بحر القلزم، ترد إليها المراكب من الطور والسويس وغير ذلك بالبضائع والحُجَّاج، وأكثرها بالغِلَال، ويؤخذ بها المكوس لصاحب الينبُع.قيل: إنَّ مُتحصّلَهُ في كل سنة مُعَدّل ثلاثين ألف دينار.

[فصل]
[في ذكر القُدس الشريف]

الثالث في التشريف والتعظيم والإجلال والتكريم "القُدس الشريف"، وهو أحد الثلاثة ذوي القَدر المنيف، ومعنى التقديس: "التطهير"، والمُقدَّسة: "المُطَهَّرة"، وروح القُدس: "جبريل ﷺ"، كأنه روح مُطَهَّرة، ونُقدِّس لك: "أي نُنزِّهك عمَّا لا يليق بِك"، وسُمِّيَ"البيت المَقْدِس" مُقدَّسًا لأنه يُتطهَّر بهِ من الذنوب، ومن أسمائهِ ﷻ: "القُدُّوس" أي المُنزَّه عن الأولاد [١٥أ] والأضداد.

واختلف العُلماء- رضي الله عنهم- في الأرض المُقدَّسة، فقال مُجاهد: "هي الطُّور وما حوله"، وقال الضَّحَّاك: "إيليا وبيت المَقْدِس"، وقال ابن عبَّاس وعكرمة والسدي: "هي أريحا"، وقال الكلبي: "هي دمشق وفِلَسطين وبعض الأُردن"، وقال قتادة: "الشام كلها".

ورد فيهِ آيات من القرآن الكريم، وأخبار فيما بهِ من الآثار والعجائب، وقبور الأنبياء- صلوات الله وسلامهِ عليهم- والتابعين والأولياء والصالحين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾[١] أي قيل ليوشع بن نون وأصحابهِ بعد موسى ﷺ: "ادخلوا هذه القرية". قال بعض المُفسِّرين: "هي بيت المَقْدِس.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي القُبَّة التي كان يُصلِّي فيها موسى وبنو إسرائيل، وقولوا ﴿حِطَّةٌ﴾ أي حِطّ عنَّا ذنوبنا، والمُراد قوله كلمة "لا إله إلا الله" الحاطة للذنوب.

---

[١] سورة البقرة، الآية ٥٨.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنيا خِزْيٌ﴾[1]. قيل: "هو بُخت نصر وأصحابه، خرَّبوا القُدس، وأعانهم على ذلك النصارى"[2]، لا ﴿يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾: "لا يدخلون المساجد إلا مُسارقة قدر عليهم عوقبوا"، ﴿لَهُمْ فِي الدُّنيا خِزْيٌ﴾ حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهُم صاغرون.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[3]- أي في اللوح المحفوظ- قبل خلقكم أنكم تقسمونها، وتسكنونها بعد أعدائكم.

قال الكلبي: صعد إبراهيم عليه السلام جبل لبنان، [فـ]ـقيل له: "انظر فما أدرك بصرك فهو مُقَدَّس".

وقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[4]. قيل: "جهات شرقها أرض الشام، وجهات غربها مصر"، وقيل: "مشارقها أرض الشام، ومغاربها أرض فِلَسطين والأردن"، وقال الحسن: "هي أرض الشام، باركنا فيها بالماء والأشجار والأثمار والخِصْب والسِّعة".

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾[5]. قال مَعْمَر: "بوأهم الشام وبيت المَقْدِس".

وقال الله تعالى: ﴿سُبحان الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[6][١٥ب]. لو لم يكن للمسجد الأقصى فضيلة إلا هذه الآية المُعظَّمة لكانت كافية، لأنَّ الله تعالى نوَّه بهِ في كتابهِ العزيز، وجعلهُ طريق حبيبه ﷺ حين أراد أن يعرج بهِ إلى السماء، وأثنى عليه نبينا لفضلهِ، وليجمع له فضل البيتين وشرفهما، وإلا فالطريق من البيت الحرام

---

(١) سورة البقرة، الآية ١١٤.

(٢) كذا في مثير الغرام ص٦٦، وبين الملك البابلي بختنصر وميلاد سيدنا عيسى عليه السلام ما يزيد عن الخمسمائة سنة فكيف أعانه النصارى؟!

(٣) سورة المائدة، الآية ٢١، ٢٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٣٧.

(٥) سورة يونس، الآية ٩٣.

(٦) سورة الإسراء، الآية ١.

إلى السماء كالطريق من بيت المَقْدِس إلى السماء، ولأنه قبلة الأنبياء عليهم السلام أو قبلة موسى ومقصدهم، إذ في الحديث أنَّ جبريل عليه السلام ربط البُراق بالحلقة التي كان يربط بها الأنبياء عليهم السلام، وجمع له النبيون فأمَّهُم به. ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ يعني الشام.

وقيل له "الأقصى"، لبُعد المسافة بينهُ وبين المسجد الحرام. قيل: كان أبعد مسجد عن مَكَّة في الأرض يُعظَّم[1] بالزيارة، و"البركة "إتيان الخير، أي بالأنهار والأشجار والثمار والأنبياء والصالحين.

قال مُجاهد: "سمَّاهُ الله تعالى"مُباركًا"، لأنه مقر الأنبياء والملائكة والوحي، ومنه يُحشر الناس يوم القيامة".

وقال الله تعالى لصفيّهِ موسى عليه السلام: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوى﴾[2]، "طُوى" أي طُوي مرَّتين أي قُدِّس، وقيل: "لأنَّ الأنبياء- عليهم السلام- طووا فيه أي ساروا"، وقد صلَّى نبينا ﷺ بهذا الموضع لمَّا مرَّ عليه ليلة الإسرى.

فإن قيل: ما الحكمة في أمرهِ بخلع نعليه؟

قال عكرمة ومُجاهد: "أُمِرَ بخلع النعلين ليُباشر بقَدمِهِ تُراب الأرض، فينالُه بركتها، لأنها قُدِّسَت مرَّتين أي طُهِّرَت، فخلعهُما موسى، وألقيهما من وراء الوادي".

وقال بعضهم: "أُمِرَ بالخَلع ليصل إلى الأرض بركتها، أو لأنَّ الحفوة من التواضع والتذلُّل"، وقيل: "لأنهما كانا من جلد حمار ميِّت".

رُوِيَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: {يوم كَلَّمَ الله موسى عليه السلام كان عليه جُبَّة صوف، وسراويل صوف، وكساء صوف، وكُمِة صوف، ونعلاهُ من جلد حمار غير ذكي}، و"الكُمِة" بضم الكاف والميم المكسورة[3].

---

[1] ث: تعظم.

[2] سورة طه، الآية ١٢.

[3] ذكر ابن تميم المقدسي سند الحديث، وما قاله الترمذي فيه، وأنَّ الكمّة هي القلنسوة الصغيرة، وضبطها بضم الكاف وتشديد الميم. انظر: مثير الغرام، ص٧٢.

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[1] إنها الأرض المُقدَّسة، بارك الله فيها للعالمين، لأنَّ كل ما في الأرض من ماء عذب يخرج من أصل الصخرة التي ببيت المَقْدِس، يهبط من[١٦أ] السماء إلى الصخرة، ثم يتصرَّف في الأرض.

وسُمِّيَتْ الأرض المُقدَّسة مُباركة، لأنه ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المَقْدِس.

قال الله تعالى: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2]. قيل في أحد الأقوال: إنها الأرض المُقدَّسة، يرثها أُمَّة مُحمد ﷺ[3]، وقيل: هي لقُرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلًا.

وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾[4] أي حيث أمرني بالمسير إليه، وهو الشام. قال مُقاتِل: "فلمَّا قَدِمَ الأرض المُقدَّسة سأل الله تعالى الولد قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾[6]. المُنادي إسرافيل عليه السلام، يُنادي من تحت صخرة بيت المَقْدِس بالحشر، وهي في وسط الأرض، فيقول: "أيتها العظام البالية، والأوصال المُتقطِّعة واللحوم المُتمزِّقة، والشُّعور المُتفرِّقة إنَّ الله يأمُركُنَّ أن تجتمعنَ لفصل القضاء"، و"المكان القريب" هي صخرة بيت المَقْدِس. عن علي وابن عبَّاس وحذيفة وقتادة وزيد بن جابر رضي الله عنهم.

وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[7] يعني به بيت المَقْدِس، وقال تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾[8] أراد بهِ الجبل الذي كلَّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام بالأرض المُقدَّسة.

---

(1) سورة الأنبياء، الآية ٧١.

(2) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥.

(3) في تفسير القرطبي، ج١٤، ص٣٠١: وعن ابن عباس: أنها الأرض المقدسة، وعنه أيضًا: أنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد بالفتوح.

(4) سورة الصافات، الآية ٩٩.

(5) سورة الصافات، الآية ١٠٠.

(6) سورة ق، الآية ٤١.

(7) سورة النور، الآية ٣٦.

(8) سورة الطور، الآية ١، ٢.

وقال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[1] يعني بهِ المؤمنين والمُنافقين، وهو حائط بين الجنة والنار، لهـ- أي لذلك السُّور- باب "بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ" أي في ذلك السور، "مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ" من قبل ذلك الظاهر العذاب.

ورُوِيَ عن عبد الله بن عمر قال: "إنَّ السُّور الذي ذكر الله في القرآن هو سور بيت المَقْدِس الشرقي، "باطنهُ فيه الرحمة" المسجد، و"ظاهرهُ مِنْ قِبَلِهِ العذاب" وادي جهنم".

ورُوِيَ عن كعب أنه كان يقول: "في الذي يُسمَّى باب الرحمة في بيت المَقْدِس أنه الباب الذي قال الله ﷻ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ﴾ [١٦ب] الآية.

ورُوِيَ عن عُبادة بن الصامت ﷺ أنه قام على سور بيت المَقْدِس الشرقي فبكى، فقال بعضهم: ما يُبكيك يا أبا الوليد؟ قال: مِن هَاهُنا أخبرنا النبي ﷺ أنه رأى جهنم.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾[2]. صَحَّ عن عكرمة أنه قال: "مَن شكَّ أنَّ المحشر إلى بيت المَقْدِس فليقرأ ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾، فقد حُشِرَ الناس مرَّة، وذلك حين ظهر النبي ﷺ على المدينة أجلى اليهود إلى بيت المَقْدِس.

ورُوِيَ عن ابن عبَّاس ﷺ أنه قال: "مَن شكَّ أنَّ المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية"، فكان هذا أول حشر إلى الشام. قال النبي ﷺ: {أُخرجوا؟ قالوا: إلى أين؟ قال: إلى أرض المحشر}، ثم يُحشر الناس يوم القيامة إلى الشام.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾[3]. قال سُفيان: "هي الشام"، وقيل: "جهنم"، وعن إبراهيم بن أبي عبلة ﴿إِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ قال: "البقيع الذي هو إلى جانب الطور طورزيتا".

وقال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[4]. رُوِيَ عن أبي هُريرة ﷺ قال: "أقسم ربنا ﷻ بأربعة أجبل، فقال: ﴿وَالتِّينِ

---

[1] سورة الحديد، الآية ١٣.
[2] سورة الحشر، الآية ٢.
[3] سورة النازعات، الآية ١٣، ١٤.
[4] سورة التين، الآية ١- ٣.

وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾. قال: "التين" هو طورتينا مسجد دمشق، "والزيتون" طورزيتا مسجد بيت المَقْدِس، "وطور سينين" حيثُ كَلَّمَ موسى عليه السلام، "وهذا البلد الأمين" بلد مَكَّة.

وقال أبو زُرعة الشيباني: "رُفِعَ عيسى بن مريم عليه السلام من طورزيتا".

وقال قتادة: "والتين" الجبل الذي عليه دمشق، و"الزيتون" الجبل الذي عليه بيت المَقْدِس، لأنهما يُنبتان التين والزيتون"، وقال الضحَّاك: "هُما مسجدان بالشام".

وقال ابن زيد: "هُما مسجد دمشق وبيت المَقْدِس".

وقال بعضهم: "الزيتون جبل بيت المَقْدِس موضع ظهور عيسى عليه السلام، والتين الجبل الذي بدمشق موضع نزولهِ إن شاء الله تعالى"[١].

ورُوِيَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: {لا يزال طائفة من أُمتي على[١٧أ] الدين، ظاهرين لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا ما أصابهم، وهُم كذلك. قالوا: يا رسول الله وأين هُم؟ قال: ببيت المَقْدِس وأكناف بيت المَقْدِس}[٢].

---

[١] نقل المؤلِّف مادة هذا الفصل من مثير الغرام لابن تميم المقدسي، ص٦٥-٨١، وانظر: المنهاجي: إتحاف الأخصا، ج١، ص٢٢١-٢٢٤.

[٢] ابن تميم المقدسي: مثير الغرام، ص١٠٢.

[فصل]

[في بناء بيت المَقْدِس]

قيل: إنَّ أول من بنى مسجد بيت المَقْدِس، وأُرِي موضعه يعقوب بن إسحاق عليهما السلام.

رُوِيَ أنَّ أباهُ إسحاق أمرهُ أن لا ينكح امرأة من الكنعانيين، وأمرهُ أن ينكح امرأة من بنات خاله، فلمَّا توجَّه إلى خالِهِ لينكح ابنته أدركهُ الليل في بعض الطريق، فبات مُتوسِّدًا حَجرًا، فرأى فيما يرى النائم أنَّ سُلَّمًا منصوبًا إلى باب من أبواب السماء والملائكة تعرج فيه وتنزل منه، فأوحى الله تعالى إليه: "إنِّي أنا الله لا إله إلا أنا، وقد ورَّثتُك الأرض المُقدَّسة. أحفظكَ وذُرِّيتك ومَن بعدك، ثم أنا معك حتى أرُدَّك إلى هذا المكان، فاجعلهُ بيتًا تعبُدني فيه"، فهو بيت المَقْدِس.

ورُوِيَ أنَّ الله تعالى أوحى إلى داوودﷺ لمَّا كَثُرَ طُغيان بني إسرائيل: "إنِّي أقسمتُ بعِزَّتي لأبتلينهُم بالقحط سنين، أو أُسلِّط عليهم العدو شهرين، أو الطاعون ثلاثة أيام"، فجمعهم داوود، وخيَّرهُم بين إحدى الثلاث، فقالوا: "أنت نبينا، وأنت انظُر لنا من أنفسنا فاختر لنا".

فقال: "أمَّا الجوع فإنه بلاء فاضح، لا يصبر عليه أحد، وأمَّا العدو والموت فإنِّي أُخبركم إنْ اخترتم تسليط العدو فلا بقيَّة لكم، والموت بيد الله تعالى تموتون بآجالكم في بيوتكم، ففوضوا ذلك إلى الله تعالى فهو أرحم".

فاختار لهُم الطاعون، وأمرهُم أن يتجهزوا، ويلبسوا أكفانهم، ويُخرِجُوا نسائهم وإمائهم وأولادهم أمامهم، وهُم خلفهم على الصخرة والصعيد، والذي بُني عليه بيت المَقْدِس، وهو يومئذ صعيد، فنادى: "يا رب إنك أمرتنا أن نُعتق

الرِّقاب فنسألك برحمتك أن تُعتقنا اليوم. اللهم وقد أمرتنا أن لا نَرُدّ السائل إذا وقف بأبوابنا،وأنت تُحب من لا يَرُدّ السائل، ولقد جئناك سائلين فلا تَرُدَّنا".

ثم خرُّوا سُجَّدًا من حين انفجر الصبح، فسَلَّطَ الله عليهم الطاعون إلى أن زالت الشمس، ثم دفعه عنهم. ثم أوحى إلى داوود: "ارفعوا رؤوسكم فقد شَفَّعْتُك فيهم".

فرفعوا رؤوسهم وقد مات منهم مائة ألف وسبعون ألفًا أصابهم الطاعون وهُم سُجود، فنظُروا إلى ملائكة بينهم[١٧ب] بأيديهم الخناجر، ثم عمد داوود فارتقى الصخرة رافعًا يديه يُحدِث للهِ شُكرًا.

ثم إنه جمع بني إسرائيل بعد ذلك، وقال: "إنَّ الله سُبحانه قد رحمكم وعفى عنكم، فأحدثوا للهِ شُكرًا بقدر ما أبلاكم". قالوا: "مُرنا بما شئت".

قال: "إنِّي لا أعلم أمرًا أبلغ في شُكركم من بناء مسجد على هذا الصعيد الذي رحمكم الله عليه، فنبنيه مسجدًا نعبد الله فيه، ونُقدِّسه أنتم ومن بعدكم". قالوا: "نفعل"، وسأل داوود ربه فأذن له، فأقبلوا على بنائه.

قال رسول اللهﷺ: {الطاعون رجس أُرسل على بني إسرائيل، وعلى من كان قبلكم} الحديث.

وقيل: أصاب بني إسرائيل طاعون في زمن داوود، فخرج بهم إلى موضع بيت المَقْدِس يدعون الله، ويسألون كشف البلاء عنهم، فاستجاب لهم، واتخذوا ذلك الموضع مسجدًا، وذلك لإحدى عشرة[1] سنة خلت من مُلكِه، وتُوفِّيَ مِن قبل أن يستتم بناؤه، وأوصى إلى سُليمان فبناهُ في ثمانِ سنين، ولمَّا فرغ من بنائهِ أطعم فيه بني إسرائيل اثني عشر ألف ثور.

وقيل سببه أنَّ داوود- صلوات الله وسلامه عليه- رأى الملائكة سالِّين سيوفهم يغمدونها ويرتفعون في سُلَّم ذهب من الصخرة إلى السماء، فقال داوود: "هذا مكان يبغى أن يُبنى فيه مسجد للهِ تعالى".

ورُوِيَ أنه كان للعبَّاس دار، فلمَّا أراد عُمرﷺ أن يوسِّع مسجد رسول اللهﷺ أخذ منه الدار، فقال له العبَّاسﷺ: "ليس إلى ذلك سبيل. اجعل بيني وبينك رجُلًا"، فجعل بينهُما أُبيّ بن كعبﷺ فقال: قال أُبيّ: إنه لمَّا أُمِرَ سُليمان ببناء المسجد المُقدَّس، وكانت أرض لرجُل اشتراها سُليمان، فلمَّا اشتراها قال له

---

[1] ث: عشر.

الرجُل: الذي أخذتَ منِّي خير أم الذي أعطيتني؟ فقال: "لا، بل الذي أخذتُ منك خير"، فقال له: "إنِّي لا أُجيز البيع"، فزادهُ ثلاث مرَّات، كل ذلك يقول: "لا أُجيز البيع"، حتى اشتراها منه بحُكمه على أن لا يسأله شيئًا كثيرًا، فسأله كثيرًا، فتحاكما إلى الله تعالى، فأوحى الله تعالى لنبيِّه: "إن كُنْتَ إنما تُعطيهِ من عندنا فأعطهِ حتى يرضى"، فرضي العبَّاس.

ورُوِيَ عن كعب أنه قال: "إنَّ الله تعالى أوحى إلى سُليمانعليه السلام "أن ابنِ بيت المَقْدِس"، فجمع حُكماء الإنس والجن وعفاريته وعُظماء الشياطين[١٨أ]، فجعل فريقًا يبنون، وفريقًا يقطعون الصخرة والعُمد من معادن الرُّخام، وفريقًا يغوصون في البحر فيخرجون منه الدُّرّ والمَرْجَان، وذكر قدر الدُّرَّة أنها مثل بيضة النعامة وبيض الدجاجة، وأخذ في بناء المسجد، فلم يثبت البناء، فأمر بهدمهِ، ثم حفر الأرض حتى بلغ الماء فأسَّسهُ على الماء، فألقوا فيه الحجارة، فكان الماء يلفظها، فدعا سُليمان الحُكماء الأحبار ورأسهم آصف، فقال: "أشيروا عَلَيَّ".

فقال آصف ومَن قال منهم: "إنَّا نرى أن نتخذ قُللًا من نحاس، ثم نملأها حجارة، ثم نكتب عليها الكتاب الذي في خاتمك، ثم نُلقي القلال في الماء"، ففعلوا فثبتت القلال، فألقوا الصخر والحجارة عليها، وبنى حتى ارتفع بناؤه.

وفرَّق الشياطين في أنواع العمل فداموا في عمله، وجعل فرقة منهم يقطعون معادن الياقوت والزُّمُرُّد وألوان الجواهر، وجعل الشياطين صفًّا مرصوصًا ما بين معادن الرُّخام إلى حائط المسجد، فإذا قطعوا من المعادن حجرًا أو إسطوانة تلقَّاهُ الأول بهم، ثم الذي يلي المعدن إلى الذي يليه، ثم الذي يليه، فتُلقى بعضهم لبعض إلى أن ينتهي إلى المسجد، وجعل الرُّخام الأبيض منه مثل بياض اللبن، يُقطع بآلة من معدن يُقال له "السامور"، ليس بهذا السامور الذي بأيدي الناس، ولكن هذا به سُمِّي، وإنما دلَّهُم على معدن السامور عفريت من الشياطين كان في جزيرة من جزائر البحر، فدلُّوا سُليمانعليه السلام عليه، فأرسل إليه بطابع من حديد، وكان خاتمه يُرسم في الحديد والنحاس، فيطبع إلى الجن بالنحاس، وإلى الشياطين بالحديد، ولا يُجيبه أقصاهم إلا بذلك، وكان خاتمًا نزل عليه من السماء حلقتُه بيضاء وطابعه كالبرق لا يستطيع أحد أن يملأ بصرهُ [منه][1].

---

(1) الإضافة من مثير الغرام، ص١٤٤؛ إتحاف الأخصا، ج١، ص١١٨.

فلمَّا وصل إلى العفريت وجيء به قال: هل عندك من حيلة أقطع بها الصخرة، فأنا أكره صوت الحديد في مسجدنا هذا وصوره، والذي أمرنا الله به من ذلك هو الوقار والسكينة؟ فقال له العفريت: "ابتغِ لي وكر عُقاب، فإنِّي لا أعلم في السماء طيرًا أشد منه ولا أكثر حيله"، فوجدوا وكر عُقاب، فغطى عليه ترسًا من حديد غليظًا، فجاءهُ العُقاب، فبعجهُ برجلِهِ ليقطعه فلم يقدر عليه، فحلَّق في السماء مُتطلعًا، فلبث يومه وليلته، ثم أقبل ومعه من السامور، فتفرَّقت له الشياطين حتى أخذوه منه، فأتوا بهِ سُليمان عليه السلام[١٨ب]، فكان يقطع به الصخرة.

وعملهُ سُليمان عملًا لا يوصف، ولا يُبلغ كُنْهَهُ أحد، وزيَّنهُ بالذهب والدُّرِّ والياقوت والمَرْجَان وألوان الجواهر في سمائهِ وأرضهِ وأبوابهِ وأركانهِ، شيئًا لم يُر مثله، ولم يكن يومئذ في الأرض موضع مال أعظم منه، فتسامعت الخلائق به.

فلمَّا رفع سُليمان عليه السلام يدهُ من البناء بعد فراغهِ منه وإحكامه جمع الناس، وأخبرهم أنه مسجد[1] لله تعالى، وهو أُمِرَ ببنائهِ، وإنَّ كل شيءٍ فيه للهِ تعالى، من انتقصه أو شيئًا منه فقد خان الله تعالى، وإن داوود عهد إليَّ ذلك من قبل، وأوصى بذلك مَن بعده، واتخذ طعامًا، وجمع الناس جمعًا لم يُر مثله قط ولا طعام أكثر منه.

ثم أمر بالقرابين فقُرِّبَتْ للهِ تعالى، فجعل القُربان في رحبة المسجد، وميَّز ثورين أوقفهما قريبًا من الصخرة فدعا بدُعاءٍ منه: "اللهُم أنت وهبتني هذا المُلك مَنًّا منك وطولًا عليَّ وعلى والدي من قبل، وأنت ابتدأتني وإياهم بالكرامة، وجعلتُه حَكمًا بين عبادك وخليفة في أرضك، وجعلتني وارثًا من بعدهِ وخليفة في قومِه، وأنت الذي خصصتني بولاية مسجدك هذا، وأكرمتني به قبل أن تخلقني، فلك الحمد على ذلك والعز والطول. اللهم وأسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال: أن لا يدخل إليه مُذنب لا يعمدهُ إلا لطلب التوبة أن تتقبل منه توبته وتغفر له، ولا يدخل إليه خائف لا يعمدهُ إلا لطلب الأمن أن تؤمن خوفه وتغفر له ذنبه، ولا يدخل إليه مقحوط لا يعمدهُ إلا لطلب الاستسقاء أن تسقي بلاده، وأن لا تصرف بصرك عمَّن دخله حتى يخرج منه. اللهم إن أجبت دعوتي وأعطيتني مسألتي فاجعل علامة ذلك أن تتقبل قُرباني"، فتُقبِّلَ القُربان.

---

(١) ث: مسجدًا.

ورُوِيَ أنَّ نبي الله سُليمان لمَّا فرغ من بنائهِ ذبح ثلاثة آلاف بقرة وسبعة آلاف شاه، ثم قال: "اللهم من أتاهُ من ذي ذنب فاغفر ذنبه، أو ذي ضُر فاكشف ضُرَّه"، فلا يأتيه أحد إلا أصاب من دعوة سُليمان عليه السلام.

ورُوِيَ أنَّ علي بن أبي طالب-كَرَّمَ الله وجهه- قال: "كانت الأرض ماء فبعث الله ريحًا فمسحت الماء معها، فظهرت على الأرض زُبدة، فقسمها أربع قطع: خلق من قطعة مَكَّة، والثانية المدينة، والثالثة بيت المَقْدِس، والرابعة الكوفة"[1].

ورُوِيَ عن كعب وابن مُنبِّه "أنَّ داوود عليه السلام أعدَّ لبناء بيت المَقْدِس مائة ألف بدرة ذهب[١٩أ]، وألف ألف بدرة وَرِق، وثلاثمائة ألف دينار لطلي البيت".

ورُوِيَ أنَّ الكلبي قال: "لمَّا فرغ سُليمان من بناء بيت المَقْدِس أنبت الله له شجرتين عند باب الرحمة أحديهما تُنبت الذهب والأخرى تُنبت الفضة، فكان في كل يوم ينزع من كل واحدة مائة رطل ذهبًا وفضة".قال: "ففرش المسجد بلاطة ذهبًا وبلاطة فضة، فلما جاء بُخت نصر[2] خرَّبه، واحتمل منه ثمانين عجلة ذهبًا وفضة وطرحه برُومِيَّة"[3].

ورُوِيَ عن عطاء الخُرساني: "قالوا: وكان ارتفاع الصخرة زمن سُليمان بن داوود اثني عشر ذراعًا، وكان الذراع- ذراع الأمان- ذراع وشبر وقبضة، وكان ارتفاع القُبَّة التي عليها ثمانية عشر ميلاً، فوق القُبَّة غزال من ذهب في عينه دُرَّة حمراء يَقعُدنَ نساء البَلْقَاء يغزلن على ضوئها بالليل، وهي فوق مرحلتين من القُدس، وكان أهل عمواس يستظلُّون بظل القُبَّة إذا طلعت الشمس من الشرق، وإذا مالت إلى الغرب استظل بظلها أهل الرامة وغيرهم من الغور.

وكان فراغ بيت المَقْدِس لمُضي إحدى عشرة[4] سنة من مُلك سُليمان، ولمُضي خمسمائة وستة وأربعين سنة من وفاة موسى عليه السلام، وكان هبوط آدم إلى ابتداء سُليمان بناء بيت المَقْدِس أربعة آلاف وأربعمائة وست وسبعون سنة، وقيل: بدأ سُليمان في بنائهِ لمُضِي سنتين من مُلكه، ولبث في بنائهِ أربع سنين".

---

[1] قال ابن تميم: "أثرٌ واهٍ، في إسناده إسماعيل بن عياس وأبو عمرو لم يدرك عليًّا". انظر: مثير الغرام، ص١٤٦.

[2] من مشاهير ملوك مملكة بابل بالعراق، ويُكتب أيضًا "نبوخذ نصر".

[3] الصواب أنها بابل، ولم تكن حينها قد وُجِدَت رومية.

[4] ث: أحد عشر.

قالوا: "وكان عدد من يعمل معه في بناء بيت المَقْدِس ثلاثين ألف رجُل وعشرة آلاف، يتراوحون عليهم قطع الخشب في كل شهر عشرة آلاف خشبة، وكان عِدَّة الذين يعملون في الحجارة سبعين ألف رجل، وكان عِدَّة الذين يقومون عليهم ثلاثمائة أمين، فلمَّا بناهُ وزيَّنهُ كما أحب من الذهب والفضة والأبواب المونقة وسقَّفه من العود الألنجوج[1] صنع له مائتي سُكرة من الذهب، في كل سُكرة عشرة أرطال، وأولج فيه تابوت موسى وهارون".

ورُوِيَ عن ابن المُسيِّب أنه قال: إنَّ سُليمانﷺ لمَّا بنى بيت المَقْدِس وفرغ منه تغلقت أبوابه، فعالجها سليمان أن يفتحها فلم يُفلح، حتى قال في دُعائهِ"بصلوات أبي داوودﷺ إلا تفتحت الأبواب"، فتفتحت". قال: "ففرَّغ له سُليمان عشرة آلاف من قُرَّاء بني إسرائيل[١٩ب] خمسة آلاف بالليل، وخمسة آلاف بالنهار حتى لا يأتي ساعة من ليل أو نهار إلا والله تعالى يُعبد فيه".

ورُوِيَ أنَّ مُفتاح بيت المَقْدِس كان يكون[2] عند سُليمان، لا يأمن عليه أحدًا، فقام ذات ليلة ليفتحه فعسر عليه، فاستعان عليه بالإنس فعسر عليهم، ثم استعان عليه بالجن فعسر عليهم، فجلس حزينًا، فهو كذلك إذ أقبل شيخ يتكئ على عصى له، وقد طعن في السن، وكان من جُلساء داوودﷺ فقال: "يا نبي الله أراك حزينًا"، فقال: قُمْتُ إلى هذا البيت لأفتحه فعسر عليَّ، فاستعنتُ عليه بالإنس والجن فلم ينفتح"، فقال الشيخ: "ألا أُعلِّمك كلمات كان أبوك يقولهُن عند كربهِ فيكشف الله عنه ذلك". قال: "بلى". قال: "قُل: اللهم بنورك اهتديتُ، وبفضلك استعنتُ، وبك أصبحتُ وأمسيتُ. ذنوبي بين يديك، أستغفرك وأتوب إليك يا حنَّان يا منَّان"، فلمَّا قالها انفتح له الباب.

قال: فيُستحب أن يدعو الزائر وغيره بهذا الدُّعاء إذا دخل من باب الصخرة، وكذلك من باب المسجد.

فلم يزل المسجد الأقصى كذلك إلى أن أخربهُ بُخت نصر، خرج في ستمائة ألف راية ودخل بيت المَقْدِس بجنوده، ووطيء الشام، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم[3]، وخرَّب بيت المَقْدِس، وأمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسة ترابًا

---

[1] أي العود الهندي.

[2] كذا في ث؛ مثير الغرام، ص١٤٩؛ إتحاف الأخصا، ج١، ص١٢٤.

[3] لم يُفنهم، وإنما بعد أن أشبعهم قتلًا أخذ بقيتهم إلى بابل، وعُرِفَ ذلك بالسبي البابلي.

ثم يقذفه في بيت المَقْدِس، وكان خروجه بعد قتل إشعيا وفي زمن أرميا، وبعد موت بُخت نصر رجع عُزير إلى الشام، ووضع لنبي إسرائيل التوراة.

قالوا: كان من بناء داوود المسجد الأقصى إلى وقت تخريب بُخت نصر إياه، وانقطاع دولة بني إسرائيل أربعمائة سنة وأربع وخمسون سنة.

قال أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري: فلم يزل خرابًا إلى أن بناهُ مَلِك من مُلوك الفُرس يُقال له "كوشك"(١).

قال البغوي: بناهُ كيرش ابن أخشورس(٢) بعد تخريب بُخت نصر تسعين سنة، ثم تغلَّبت مُلوك غسَّان على الشام بتمليك ملوك الرُّوم لهم، ودخولهم في نصرانيتهم إلى أن جاء الله بالإسلام، وملك الشام منهم جبلة بن الأيهم، ففُتِحَ الشام على المُسلمين[٢٠أ] زمن عمر بن الخطابﷺ.

ورُوِيَ عن كعب أنه قال: كانت صخرة بيت المَقْدِس طولها في السماء اثني عشر ميلًا(٣)، وكان أهل أريحا وعمواس يستظِلُّون بظِلِّها، وكان عليها ياقوتة تُضيء بالليل كضوء الشمس، فإذا كان النهارطمس الله ضوءها، فلم تزل كذلك حتى أتت الرُّوم فغلبوا عليها، فلمَّا صارت في أيديهم قالوا: "تعالوا نبني عليها أفضل من البناء الذي عليها"، فبنوا عليها على قدر طولها في السماء، وزخرفوها بالذهب والفضة، فلمَّا فرغوا من البناء دخله سبعون ألفًا من رُهبانهم وشمامستهم في أيديهم مجامر الذهب والفضة، وأشركوا فيها فانقلبت عليهم، فما خرج منهم أحد.

فلمَّا رأى مَلِك الرُّوم ذلك جمع البطارقة والشمامسة ورؤساء الرُّوم، فقال لهم: ما ترون؟ قالوا: "نرى أنَّا لم نُرضِ إلهنا، فلذلك لم يَقبل بناؤه".

قال: فأمر به الثانية فبنوا فيها، وأضعفوا فيها النفقة، فلمَّا فرغوا الثانية دخل سبعون ألفًا مثل ما دخلوا أول مرَّة، ففعلوا كفعلهم، فلمَّا أشركوا انقلبت عليهم،

---

(١) مثير الغرام ص١٥٠: كيرش.

(٢) مثير الغرام: "كيرش بن أخشويرش، وفي إتحاف الأخصا، ج١، ص١٢٦: "كوشك بن كوشك بن أخورش"، ولعله الصواب، بدليل ورود الصواب في الفقرة التي تقدمته، ويُقصد به الملك الفارسي كورش.

(٣) ذكر المؤلف قبل ذلك أنَّ القبة التي على الصخرة طولها في السماء ثمانية عشر ميلًا.

ولم يكن المَلِك معهم، فلمَّا رأى ذلك جمعهم ثالثة، وقال ما ترون؟ قالوا: "إنَّا لم نُرضِ ربنا كما ينبغي فلذلك خَرُبَت، ونُحب أن نبني ثالثة"، فبنوا ثالثة، حتى إذا رأوا أن قد أتقنوها وفرغوا منها جمع النصارى، وقال: هل ترون من العيب شيئًا؟ قالوا: "لا نُكلِّلها بصليب الذهب والفضة"، ثم دخلها قوم قد اغتسلوا وتطيَّبوا، فلمَّا دخلوا أشركوا كما أشرك أصحابهم فخرَّت عليهم ثالثة، فجمعهم ملكهم رابعة واستشارهم، وكثر خوضهم في ذلك.

فبينما هُم على ذلك إذا قبل إليهم شيخ كبير عليه برانس سود وعمامة سوداء قد انحنى ظهره مُتوكِّأً على عَصاه، وقال: "يا معشر النصارى إليَّ، فإنِّي أكبركم سِنًّا، وقد خرجتُ من مُتعبَّدي لأُخبركم أنَّ هذا المكان قد لعن أصحابه، وأنَّ القُدس قد نُزع وتحوَّل إلى هذا الموضع، وأشار إلى الموضع [الذي][1] بنوا فيه كنيسة القمامة، وأنا أُريكم الموضع، ولستم تروني بعد هذا اليوم أبدًا. اقبلوا منِّي ما أقول لكم"، فغرَّهم وزادهم طُغيانًا، وأمرهم أن يقلعوا الصخرة، ويبنوا بحجارتها الموضع الذي أمرهم[٢٠ب] به.

فبينما هو يُكلمهم ويقول لهم ذلك إذ خُفِيَ فلم يروه، وازدادوا كفرا، وقالوا فيه قولًا عظيمًا، فخرَّبوا المسجد، وحملوا العُمد وغيرها، وبنوا بها كنيستهم والكنيسة التي في وادي جهنم، وقال لهم: "إذ فرغتم من هذه، فأفرغوه واتخذوه مزبلة لعذراتكم"، ففعلوا ذلك، [حتى][2] كانت المرأة تطرح حيضها عليها من القُسطنطينية، فمكثوا على ذلك حتى بعث الله مُحمدًا ﷺ، وأسرى به إليها، وذكر فضلها.

وهذا يقتضي أنَّ مَلِك الفُرس الذي عمَّرها بعد بُخت نصر بنى المكان على ما كان على بناء سُليمان عليه السلام[3].

---

(١) الإضافة من مثير الغرام ص١٥٢.

(٢) الإضافة من مثير الغرام.

(٣) من أول فصل بناء بيت المَقْدِس نقله المؤلِّف من مثير الغرام، ص١٣٤-١٥٣.

فصل

وفتح عُمر بن الخطَّاب ﷺ القُدس سنة ست عشرة من الهجرة، ولم يزل بأيدي المُسلمين إلى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة.

وفي سنة اثنتين وثمانين أقام عليه الفرنج نيفًا وأربعين يومًا، فملكوه ضُحى نهار الجُمعة من السنة، وقُتِلَ فيه من المُسلمين خلقٌ كثير في مُدَّة أسبوع، وقُتِلَ في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، وأخذوا من عند الصخرة من أواني الذهب والفضة ما لا يضبُطه الحصر، وانزعج بسببه المُسلمون في سائر بلاد الإسلام غاية الانزعاج[1].

ولم يزل في أيدي الفرنج نيفًا وتسعين سنة إلى أن فتحهُ الله تعالى على يد المَلِك صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة.

وسبب مسير المَلِك صلاح الدين إلى القُدس أنه لمَّا كثر فتوحاته للسواحل، وأوجع فيهم بسهامِهِ وسطوته، وكان لا يتجاسر على فتح بيت المَقْدِس لكثرة من فيه من الأبطال والعُدَّة، ولكونهِ كُرسي دين النصرانية، وكان في بيت المَقْدِس شاب مأسور من أهل دمشق كتب هذه الأبيات، وأرسل بها إلى المَلِك صلاح الدين على لسان القُدس:

يا أيها المَلِك الذي ... لمعَالِم الصِّلبان نكَّس

جاءت إليك ظُلامة ... تسعى من البيت المَقْدِس

كل المساجد طَهِّرت ... وأنا على شرفي مُنجَّس[2]

---

(1) ابن تميم المقدسي: مثير الغرام، ص١٦٨؛ المنهاجي: إتحاف الأخصا، ج١، ص٢٤٧.

(2) هامش ث: "مدنس"، وهي من بحر الكامل.

فكانت الأبيات الداعية إلى فتح بيت المَقْدِس، فيقال: إنَّ السُّلطان وجد من ذلك الشاب أهلية فولَّاهُ خطابة المسجد الأقصى، وكانت وفاة المَلِك صلاح الدين في صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة[1]، رحمه الله تعالى، وجزاهُ عن الإسلام خيرًا.

ورُوِيَ أنه لمَّا جاء كتاب رسول الله ﷺ إلى قيصر، وهو ببيت المَقْدِس، وعلى صخرة بيت[٢١أ] المَقدِس مزبلة قد حاذت محراب داوود عليه السلام ممَّا ألقته النصارى عليها مُضارة لليهود، حتى إن كانت المرأة لتبعث بخِرَق دمها من رُومِيَّة فتُلقى عليها.

قال قيصر حين قرأ كتاب رسول الله ﷺ: "إنكم يا معشر الرُّوم لخليق أن تقتلوا على هذه المزبلة بما أنهكتم من حُرمة هذا المسجد كما قُتِلَتْ بنو إسرائيل على دم يحيى"، فأمر بكشفها فأخذوا في ذلك، فقَدِمَ المُسلمون الشام ولم يكشفوا منها إلا ثُلثها، فلمَّا قَدِمَ عُمر رضي الله عنه بيت المَقْدِس وفتحها ورأى ما عليها من المزبلة أعظمه ذلك، وأمر بكشفها وسَخَّرَ لها أنباط فِلَسطين.

---

[1] المنهاجي: إتحاف الأخصا، ج١، ص٢٧٤.

[فصل]

[في ذكر بناء عبد المَلِك بن مروان قُبَّة الصخرة ومتى كان ذلك البُنيان]

قال العُلماء: بنى عبد المَلِك بن مروان بيت المَقْدِس سنة سبعين[1] من الهجرة، وحمل إلى بنائه خراج مصر سبع سنين.

ورُوِيَ أنَّ عبد المَلِك حين هَمَّ ببناء صخرة بيت المَقْدِس والمسجد قَدِمَ من دمشق إلى البيت المَقْدِس، وبثَّ الكُتب في جميع عَملِه إلى جميع الأمصار: "إنَّ عبد المَلِك قد أراد أن يبني قُبَّة على صخرة بيت المَقْدِس تَكُنُّ المُسلمين من الحرِّ والبرد، والمسجد، فكره أن يفعل ذلك دون رأي رعيتِه، فلتكتب الرَّعِيَّة إليه برأيهم وما هُم عليه".

فوردت الكُتب عليه: "يرى أمير المؤمنين رأيه مُوفَّقًا رشيدًا، نسأل الله تعالى أن يُتم له ما نوى من بناء بيتِهِ وصخرتِهِ ومسجده، ويُجري ذلك على يديه، ويجعلهُ مكرمة له ولمن مضى من سلفه".

فجمع الصُنَّاع من جميع عَملِه كله، وأمرهم أن يصفوا له صفة القُبَّة وسمتها من قبل أن يبنيها، فرُسِمَتْ له في صحن المسجد، وأمر أن يبني بيت المال في شرقي الصخرة، وهو الذي فوق على حرف الصخرة، فأُشحن بالأموال، ووكَّل

---

(1) ث: "تسعين"، وهذا خطأ لأنَّ عبد الملك مات سنة٨٦هـ، والوارد في المتن من مثير الغرام، ص١٧١.

على ذلك رجاء ابن حياة[1] ويزيد بن سلام، وعلى النفقة عليها، وعلى القيام بأمرها، وأمرهم أن يُفرغوا المال عليها إفراغًا دون أن يُنفقوه إنفاقًا، وأخذوا في البناء والعمارة حتى أُحكم، وفرغ من البناء، ولم يبق لمُتكلِّم فيه كلام.

وكُتِبَ إليه بدمشق قد أتمَّ الله ما أمر بهِ أمير المؤمنين من بناء صخرتهِ والمسجد الأقصى، ولم يبق لمُتكلِّم فيه كلام، وقد تبقَّى ممَّا أمر بهِ[٢١ب] أمير المؤمنين من النفقة عليه بعد أن فرغ البناء وأُحكِم مائة ألف دينار، فيصرفها أمير المؤمنين في أحب الأشياء إليه".

فكتب إليهما "قد أمر بها أمير المؤمنين لكُما جائزة لِمَا وليتما من عمارة ذلك البيت الشريف المُبارك"، وكتبا "نحنُ أولى أن نزيد من حُلِيّ نسائنا فاضلًا عن أموالنا، فاصرفها في أحب الأشياء إليك".

فكتب إليهما "تُسبك وتُفرغ على القُبَّة"، فسُبِكَتْ وأُفرِغَتْ على القُبَّة، فما كان أحد يقدر أن يتأملها ممَّا عليها من الذهب، وهيأ لها جلالات[2] من لبود ومن آدم من فوقه، فإذا كان الشتاء ألبسه ليكنها من الأمطار والرياح والثلوج.

وكان رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام قد حَفَّا الحجر بدرابزين ساسم[3]، من خلف[4] الدرابزين ستور ديباج مُرخَاة بين العُمد، وكان كل إثنين وخميس يأمرون بالزعفران أن يُدق ويُطحن، ثم يُعمل من الليل بالمسك والعنبر والجاورد الجوري، ويُخمَّر من الليل، ثم يُأمر الخدم بالغداة فيدخلون حمَّام سُليمان بن عبد المَلِك فيغتسلون ويتطهرون، ثم يأتون إلى الخزانة التي فيها الخِلَق فتُلقى أثوابهم عنهم، ثم يُخرجون أثوابًا جُددًا من الخزانة "مرويا، وقوهيا"، وشيئًا يُقال له

---

(١) هامش ث: "لعله حيوه، ولعلَّ المؤلِّف ظنها عند النقل من رسم الكُتَّاب على جاري عادتهم في رسم "حياة" يكتبون "حيوه"، أو من الناسخ والله أعلم" انتهى. وسيذكر المؤلِّف الرسم الصحيح بعد قليل في المتن، وقد أوردها المؤلِّف، وكذا ابن تميم في مثير الغرام، والمنهاجي في إتحاف الأخصا ص٢٤٢ على الصواب، وأوردها البكري في كتابه المسالك والممالك ص٤٧٠ على الصورة الواردة في المتن.

(٢) أي أغطية.

(٣) نوع من الخشب الجيد.

(٤) مثير الغرام: من فوق.

"العصب"، ويُخرجون مناطق مُحلَّاة يشدون بها أوساطهم، ثم يأخذون سفوك الخلوق، ثم يأتون بها حجارة الصخرة فيلطخونها بما قدروا أن تناله أيديهم حتى يغمرونه كله، وما لم تنله أيديهم غسلوا أقدامهم، ثم يصعدون على الصخرة حتى يلطخوا ما بقى منها، ثم تُرفع آنية الخلوق، ثم يأتون بمجامر الذهب والفضة والعود القماري والند مُطرى بالمسك والعنبر، فتُرخى الستور حول الأعمدة كلها، ثم يأخذون البخور حولها يدورون بهِ حتى يحول بينهم وبين القُبَّة من كثرتِهِ، ثم تُشمَّر الستور فيخرج البخور يفوح من كثرتهِ حتى يبلغ إلى رأس السوق فتشم الرِّيح من شَمَّ، وينقطع البُخور من عندهم.

ثم يُنادي مُنادٍ في صف البزَّازين وغيرهم: "ألا إنَّ الصخرة قد فُتِحَتْ، فمن أراد الصلاة فيها فليأت"، فيُقبل الناس مُبادرين إلى الصلاة في الصخرة، فأكثر الناس من يدرك أن[٢٢أ] يُصلِّي ركعتين، وأقلهم أربعًا، ثم يخرج الناس، فمن شموا رائحته قالوا: "هذا ممَّن دخل الصخرة"، ويُغسل آثار أقدامهم بالماء ويُمسح بالآس الأخضر وتُنشَّف بالشباني والمناديل، وتُغلق الأبواب، وعلى كل باب عشرة من الحجبة، ولا يُدخل إلا يوم إثنين وخميس، ولا يدخلها إلا الخادم.

ورُوِيَ أنه كان في السلسلة التي في وسط القُبَّة: "الدُّرَّة اليتيمة، وقرنا كبش إبراهيم، وتاج كسرى، مُعلَّقات في أيام عبد المَلِك، فلمَّا صارت الخلافة إلى بني هاشم حولوها إلى الكعبة حرسها الله تعالى.

ورُوِيَ أنه كان في المسجد الأقصى من الخشب المُسقَّف سِوىَ أعمدة خشب ستة آلاف خشبة، وفيه من الأبواب خمسون بابًا، ومن العُمد ستمائة عمود رُخام، وفيه من المحاريب سبعة، ومن السلاسل للقناديل أربعمائة سلسلة إلا خمسة عشر، منها في المسجد مائتا سلسلة، والباقي في قُبَّة الصخرة، وذرع السلاسل أربعة آلاف ذراع، ووزنها ثلاثة وأربعون ألف رطل بالشامي، وفيه من القناديل خمسة آلاف قنديل، وكان يُسرج فيه القناديل وألفا شمعة في ليالي الخير في نصف رجب وشعبان وفي ليلتي العيد، وفيه من القِبَاب خمس عشرة[(١)] قُبَّة سِوىَ قُبَّة الصخرة، وعلى سطوح المسجد تلبيس من شقاق[(٢)]

---

(١) ث: خمسة عشر.

(٢) مثير الغرام: ملبس من شقات.

الرَّصاص سبعة آلاف شقَّة وسبعمائة، وزن الشقَّة[1] سبعون رطلًا بالشامي غير الذي على قُبَّة الصخرة.

وكل ذلك عُمِلَ في أيام عبد المَلِك، ورتَّب له من الخُدَّام القُوَّام ثلاثمائة خادم، اشتريتُ له من خمس بيت المال، كلما مات منهم ميت قام مكانه ولده أو ولد ولده أو من أهلهم، يجري عليهم ذلك أبدًا ما تناسلون، ويقبضون من بيت المال.

وفيه من الصهاريج للماء أربعة وعشرون صهريجًا، وفيه من المنائر أربعة: ثلاث منها صف واحد، والأخرى على باب الأسباط، وكان له من الخدم اليهود لا يؤخذ منهم الجزية عشرة رجال، فتوالدوا فصاروا عشرين لكنس أوساخ الناس في المواسم والشتاء والصيف، ولكنس الأرض التي حول الجامع، وله من الخدم النصارى عشرة أهل بيت يتوارثون خدمته لعمل الحُصر، ولكنس حُصر المسجد، ولكنس القنى التي تجري إلى صهاريج الماء وكنس الصهاريج أيضًا وغير ذلك، وله من الخدم اليهود جماعة يعملون القناديل الزُّجاج والأقداح والبزاقات وغير ذلك، لا يؤخذ منهم جزية، ولذلك لا يؤخذ جزية من الذين يقومون بعمل الفِتَل التي للمصابيح، جاريًا[٢٢ب] عليهم وعلى أولادهم أبدًا ما تناسلوا من عهد عبد المَلِك بن مروان.

وقبل كانت الأبواب مُلبَّسة ذهبًا وفضة صفائح الأبواب في خلافة عبد المَلِك كلها، فلمَّا قَدِمَ أبو جعفر- وكان شرقي المسجد وغربيه قد وقع- فرُفِعَ إليه: "يا أمير المؤمنين قد وقع شرقي المسجد وغربيه"، وكانت الرجفة سنة ثلاثين ومائة، فقالوا له: "لو أمرت ببناء هذا المسجد وعمارته"، فقال: "ما عندي شيء من المال"، فأمر بقلع الصفائح الذهب والفضة التي كانت على الأبواب، فضُرِبَتْ دنانير ودراهم، وأنفق عليه حتى فرغ منه.

ثم كانت الرجفة الثانية فوقع البناء الذي أمر به أبو جعفر، ثم قَدِمَ المهدي مِن بعد وهو خراب، فرُفِعَ إليه فأمر ببنائه، فقال: "دَقَّ هذا المسجد وطال، وخلى من الرِّجال. انقِصوا من طوله، وزيدوا في عرضه"، فتمَّ البناء في خلافته.

---

[1] إتحاف الأخصا ص٢٤٤: من شقف الرَّصاص سبعة آلاف شقفة وسبعمائة، وزن الشقفة.

وفـي سـنة اثنـين وخمسـين وأربعمائـة سـقط تنُّـور قُبَّـة بيـت المَقْـدِس، وفيـه خمسمائة قنديل، فتطيَّر المُسلمون المُقيمون ببيت المَقْدِس، وقـالوا: "ليَكـونَنَّ فـي الإسلام حادث عظيم".

وقيـل: كانـت اليهـود تُسـرج مسـجد بيـت المَقْـدِس، فلمَّـا ولـي عمـر بـن عبـد العزيز- رحمه الله تعالى- أخرجهم.

وقـال الحـافظ بـن عسـاكر: طـول المسـجد الأقصـى سـبعمائة ذراع وخمسـة وخمسون ذراعًا بذراع الملك، وعرضه أربعمائة ذراع وخمسة وستون ذراعًا، وقيل: إنه ذُرِعَ بعد ذلك فوُجِدَ طوله من الجهة الشرقية ستمائة وثلاثـة وثمـانون ذراعًـا، وفـي الغربيـة سـتمائة وخمسـون ذراعًـا، وجـاء قـدر عرضـه أربعمائـة وثمانية وثلاثون، خارجًا عن عرض أسواره[1].

---

[1] من أول الفصل نقله المؤلِّف من مثير الغرام لابن تميم المقدسي، ص١٧١-١٧٨.

[فصل]

[في ذكر العجائب
التي كانت ببيت المَقْدِس في الزمان الأول]

رُوِيَ أنَّ الضَّحَّاك بن قيس صنع به عجائب:

الأولى: أنه صنع في ذلك الزمان نارًا عظيمة اللهب فمن لم يُطع الله تعالى في تلك الليلة أحرقته تلك النار حين ينُظر إليها.

والثانية: من رمى في بيت المَقْدِس بنُشابة رجعت إليه.

والثالثة: وضع كلبًا من خشب على باب بيت المَقْدِس، فمن كان عنده شيء من السحر إذا مرَّ بذلك الكلب نبح عليه، فإذا نبح عليه نسى ما عندهُ من السحر.

والرابعة: وضع بابًا، فمن دخل من ذلك الباب إذا كان ظالمًا من اليهود(١) ضغطه ذلك الباب حتى يعترف بظُلمِه.

والخامسة: وضع عصًا في محراب بيت المَقْدِس، فلم يقدر أحد يمسك تلك العصى إلا من كان من أولاد الأنبياء، ومن كان من سوى ذلك أحرقت يده.

والسادسة: [٢٣أ] كانوا [يحبسون](٢) أولاد المُلوك عندهم في محراب بيت المَقْدِس، فمن كان من أهل المملكة إذا أصبح أصابوا يدهُ مطلية بالدُّهن(٣).

---

(١) أضاف إتحاف الأخصا ص٢١٨: والنصارى.

(٢) الإضافة من مثير الغرام، وإتحاف الأخصا.

(٣) إتحاف الأخصا: بالذهب.

وقيل: جعل سُليمان بن داوود- عليهما السلام- ببيت المَقْدِس سلسلة مُعلَّقة من السماء إلى الأرض، وفيها يقول الشاعر[١]:

مضى مع الوحي زمان العُلى وارتفع الجود مع السلسلة

ومُلخَّص حكايتها مع اختلافٍ فيه أنَّ رجُلًا يهوديًا كان قد استودعه رجُل مائة دينار، فلمَّا طلب الرجُل وديعته جَحدهُ ذلك اليهودي، فارتفعوا إلى ذلك المقام عند السلسلة، فأخذ اليهودي بمكرهِ وذكائهِ[٢] فسبك بالدنانير وحفر لها في عصاه فجعلها فيها، فلمَّا أتى إلى ذلك المقام دفع العصا إلى صاحب الدنانير، وأقبل حتى أخذ السلسلة، فحلف أنه لم يأخذها منه[٣]، ومسكا كلاهما السلسلة، فعَجِبَ الناس من ذلك، فارتفعت السلسلة من ذلك اليوم، وكان الناس قبل ذلك من كان له حقًّا مسَّ السلسلة، ومن كان مُبطِلًا ارتفعت فلم ينلها.

قيل: وجعل سُليمان أيضًا تحت الأرض مجلسًا وبِركة، وجعل فيها ماء، وكان على وجه ذلك الماء بساط ومجلس رجُل عظيم أو قاضٍ جليل، فمن كان على الباطل إذا وقع في ذلك الماء غرق، ومن كان على الحق لم يغرق.

ورُوِيَ عن ابن شهاب أنه قال: "قدِمْتُ دمشق وأنا أُريد الغزو، فأتيتُ عبد المَلِك لأُسلِّم عليه، فوجدتُه في قُبَّة على فَرش يفوق القائم، والناس تحته سِمَاطان، فسلَّمتُ عليه وجلست، فقال: "يا ابن شهاب أتعلم ما كان في بيت المَقْدِس صباح قتل علي بن أبي طالبﷺ؟

قُلْتُ: "نعم". قال: "هَلُمّ"، فقُمْتُ من وراء الناس حتى أتيتُ خلف القبَّة، وحوَّل وجهه فأحنى عليه، وقال: ما كان؟ فقُلْتُ: "لم يُرفع حجر في بيت المَقْدِس إلا وُجِدَ تحته دم".

قال: "فقال: لم يبق أحدٌ يعلم هذا غيري وغيرك، فلا تُسمعن منك".

ورُوِيَ عن مَعْمَر أنه قال: "أول ما عُرِفَ الزُّهري تكلَّم في مجلس الوليد بن عبد المَلِك، فقال الوليد: أيُكم يعلم ما فعلت أحجار بيت المَقْدِس يوم قُتِلَ الحُسين

---

[١] من بحر السريع.

[٢] هامش ث: "لعله "ودهائه".

[٣] هامش ث: المشهور أنه حلف أنه أعادها إليه، وسياق الكلام يدل عليه.

ابن علي كَرَّمَ الله وجهه؟ فقال الزُّهري: "إنه لم يُقلب حجر إلا وجد تحته دم عبيط".

ورُوِيَ عن الزُّهري أنَّ أسماء الأنصارية قالت: "ما رُفِعَ حجر بإيليا ليلة قُتِلَ علي إلا وُجِدَ تحته دم عبيط".

ورُوِيَ أنه كان في زمن بني إسرائيل في بيت المَقْدِس عند عين سلوان [٢٣ب] عين، وكانت المرأة إذا قُذِفَت(١) أتوا بها فشربت منها، فإن كانت بريئة لم يضرها، وإن كانت غير بريئة طفت(٢) فماتت، فلمَّا حملت مريم أتوا بها، فدعت الله أن يعقم(٣) فرجها، فعُقِمَت من يومئذ، فلمَّا انتهى شربت منها فلم تزدد إلا خيرًا.

ورُوِيَ أنه كان في بيت المَقْدِس حيَّات عظيمة قاتلة، إلا أنَّ الله تعالى قد تفضَّل على عبادهِ بمسجد على ظهر الطريق أخذهُ عُمر ﷺ من كنيسة هُناك تُعرف بـ"قمامة"، وفيه أسطوانتان كبيرتان من حجارة، على رأسهما صورة حيَّات يُقال إنها طلسم لها، فمتى لسعت حيَّة إنسانًا في بيت المَقْدِس لم يضرهُ شيء، فإن خرج عن بيت المَقْدِس شبرًا من الأرض مات في الحال، ودواؤه من ذلك أن يُقيم ببيت المَقْدِس ثلاثمائة وستين يومًا، فإن خرج منه وبقي من العِدَّة يوم واحد هلك.

ورُوِيَ عن ذي النون أنه قال: وجدتُ صخرة ببيت المَقْدِس عليها أسطُر، فجئتُ لمن ترجمها، فإذا عليها مكتوب "كل عَاصٍ مُستوحش، وكل مُطيعٍ مُستأنس، وكل خائفٍ هرَّاب، وكل راجٍ طالب، وكل قانع غني، وكل طامع ذليل".

ورُوِيَ عن عطيَّة بن قيس أنَّ رسول الله ﷺ قال: {ليدخُلنَّ الجنَّة رجُل من أُمتي يمش على رجليه وهو حي}، فقدِمْت رفقة بيت المَقْدِس يُصلُّون في خلافة عمر بن الخطَّاب ﷺ، فانطلق رجُل من بني تميم يُقال له "شَريك بن حباشة" يسقي أصحابه، فوقع دلوهُ في الجُبّ، فنزل ليأخذ دلوه فوجد بابًا في الجُبّ يفتح إلى جِنَان، فدخل من الباب إلى الجِنَان فمشى فيها، فأخذ ورقة من شجرها

---

(١) أي اتهمت بالزنا.

(٢) مثير الغرام: "طفقت"، وإتحاف الأخصا ص٢١٢: "طعمت".

(٣) ث: "يعقر"، والوارد في المتن من مثير الغرام، وإتحاف الأخصا.

فجعلها خلف أذنه، ثم خرج إلى الجُبّ فارتقى، فأتى صاحب بيت المَقْدِس فأخبرهُ بالذي رأى من الجِنَان ودخولهِ فيها، فأرسل معه إلى الجُبّ، فنزل ونزل معه ناس فلم يجدوا بابًا ولم يصلوا إلى الجِنَان، فكتب بذلك إلى عمر، فكتب عمر بصدق حديثهِ في دخول رجُل من هذه الأُمَّة الجَنَّة يمشي على قدميهِ وهو حيّ، وكتب عمر أن انظروا الورقة فإن يبست وتغيَّرت فليس هي من شجر الجَنَّة، فإنَّ الجَنَّة لا يتغير شيء منها، وذكر في حديثهِ أنَّ الورقة لم تتغير.

ورُوِيَ من طريق آخر أنَّ شَريك بن حباشة النميري أتى جُب بيت المَقْدِس[٢٤أ] [يستقي][1] لأصحابه إذ خرَّ منه الدلو، فنزل في طلبهِ إذ تبدًّا له شخص، فقال: "انطلق معي"، فأخذ بيدهِ في الجُبّ، ثم أدخله الجنَّة، فأخذ شَريك ورقات، ثم ردَّهُ إلى موضعه فخرج، فأتى أصحابه فأخبرهم، فارتفع أمرهُ إلى عُمر بن الخطَّاب، فقال كعب: "إنَّ رجُلًا من هذه الأُمَّة سيدخُل الجنَّة وهو حيّ بينكم". قال: "انظروا إلى الورقات فإن تغيَّرت فليس هي من ورق الجنَّة وإن لم تتغيَّر فهي من ورق الجنَّة".

قال: "فلم يكن الورقات يتغيَّرن". قال: "ولم يبق معه إلا ورقة واحدة دخرها لنفسه". قال: فكُنَّا نسأله يُرينا إيَّاها، فيدعو بمصحفهِ فيُخرجها من بين ورق المصحف خضراء ترفاء، فنأخذها فنُقلِّبُها أو فنُقبِّلُها، فيضعها على عينه ثم يردها بين الورق.

قال: فلمَّا احتضر أوصى أن يجعلها بين كفنهِ وصدره. قالوا: فكان آخر عهدنا بها أن وضعوها على صدره، ثم وضعوها على أكفانه، وقيل: "شبهوها بورق الدُرَاقن بمنزلة الكف، مُحدَّدة الرأس[2].

---

(١) الإضافة من مثير الغرام، وإتحاف الأخصا.

(٢) من أول الفصل نقله المؤلِّف من مثير الغرام، ص١٧٩-١٨٦.

[فصل]

[في فضائل بيت المَقْدِس]

رُوِيَ عن مكحول أنه قال: "من زار بيت المَقْدِس شوقًا إليه دخل الجنَّة مُدلَّلًا، وزارهُ جميع الأنبياء في الجنَّة وغبطوهُ بمنزلتهِ من الله ﷻ، وأيما رفقة خرجوا يُريدون بيت المَقْدِس شيَّعتهُم عشرة آلاف من الملائكة، يستغفرون لهم ويُصَلُّون عليهم، ولهم مثل أعمالهم إذا انتهوا إلى بيت المَقْدِس، ولهم بكل يوم يُقيمون فيه صلاة سبعين مَلكًا، ومن دخل بيت المَقْدِس طاهرًا من الكبائر تلقاهُ الله تعالى بمائة رحمة، ما منها رحمة إلا لو قُسِّمت على جميع الخلائق لوسعتهم، ومن صلَّى في بيت المَقْدِس ركعتين يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب و"قُل هو الله أحد" خرج من ذنوبهِ كيوم ولدته أُمُّه، وكان له بكل شعرة من جسدهِ حسنة، ومن صلَّى في بيت المَقْدِس أربع ركعات مرَّ على الصراط كالبرق، وأُعطى أمانًا من الفزع الأكبر يوم القيامة، ومن صلَّى في بيت المَقْدِس ثمانِي ركعات كان رفيق إبراهيم خليل الرحمن، ومن صلَّى في بيت المَقدِس عشر ركعات كان رفيق داوود وسُليمان في الجنَّة، ومن استغفر للمؤمنين والمؤمنات في بيت المَقدِس[٢٤ب] ثلاث مرَّات كان له بمثل أو مثل حسناتهم، ودخل على كل مؤمن ومؤمنة من دُعائِهِ سبعون مغفرة، وغُفِرَ له ذنوبُه كلها".

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: {من زار بيت المَقْدِس مُحتَسِبًا أعطاهُ الله ثواب ألف شهيد، ومن زار عَالِمًا فكأنما زار بيت المَقْدِس، ومن زار بيت المَقْدِس مُحتَسِبًا حَرَّمَ الله لحمه وجسده على النار}.

ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: {فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيرهِ مائة ألف صلاة}.

ورُوِيَ عن كعب أنه قال: "لا تقوم[1] الساعة حتى يزور البيت الحرام بيت[2] المَقدِس، فينقادان إلى الجَنَّة جميعًا وفيهما أهلوهُما، والعَرض والحساب ببيت المَقْدِس".

ورُوِيَ عن أبي الزاهرية قال: صلَّيتُ العَتمة في بيت المَقْدِس، ثم استندتُ إلى عمود من عُمد المسجد فنمت، فأغفلتني السَّدنَة[3] فلم يُنبِّهوني، وأُغلقِتَ الأبواب فلم أنتبَّه إلا بخفق أجنحة الملائكة قد ملأوا المسجد صُفوفًا، فقال الذي يليني: آدمي؟ فقلتُ: "نعم"، ثم أخبرتُه بعُذري، فقال: "لا بأس عليك"، فسَمِعْتُ قائلًا يقول من الشِّقِّ الأيمن: "سُبحان الدائم القائم، سُبحان القائم الدائم، سُبحان الحيّ القيُّوم، سُبحان الله وبحمده، سُبحان المَلِك القُدُّوس رب الملائكة والرُّوح، سُبحان العَلِيّ الأعلى، سُبحانه وتعالى". ثم قال قائل من الشِّقّ الآخر مثل ذلك، وذكر له أنَّ من قالها في السَّنة كل يوم مرَّة لم يمُت حتى يرى مقعدهُ من الجَنَّة".

ورُوِيَ عن عبد الله بن مسعود قال: "يدخُل الدَّجَّال الأرض إلا أربعة مساجد أو أربع قُرى: مَكَّة، والمدينة، وبيت المَقْدِس، وطور سيناء".

وعن خالد بن مَعْدَان قال: "عصمة المؤمنين من مسيح الدَّجَّال بيت المَقْدِس".

ورُوِيَ أنه مَن نزل بيت المَقْدِس أو حوله فهو في رِبَاط.

ورُوِيَ أنَّ الشُّهداء يسمعون آذان مؤذِّن بيت المَقْدِس لصلاة الغداة يوم الجُمعة.

وعن كعب قال: "لم يستشهد عبد قط في بر ولا بحر إلا وهو يسمع أذان بيت المَقْدِس،[و]أنه يسمع أذان مؤذِّن بيت المَقْدِس مَن في السماء".

وعن الحسن البصري قال: "مَن تصدَّق في بيت المَقْدِس بدرهم كان فداء من النار، ومن تصدَّق برغيف كان كمن تصدَّق بجبال الأرض ذهبًا"، وعنه: "من صام يومًا في بيت المَقْدِس كان له حِجَابًا من النار".

---

[1] ث: يقوم.

[2] ث: "البيت"، وضبط هذا الموضع وما قبله من مثير الغرام ص٢٢٠، وإتحاف الأخصا، ج١، ص٩٩-١٠٠.

[3] ث: "السنة"، والضبط من من مثير الغرام، وإتحاف الأخصا، ج١، ص١٤٠.

ورُوِيَ عن كعب الأحبار في بيت المَقْدِس: "اليوم[٢٥أ] فيه كألف يوم، والشهر فيه كألف شهر، والسنة فيه كألف سنة، والحسنة فيه كألف حسنة، والسيئة فيه كألف سيئة، ومن مات فيه فكأنما مات في السماء، ومن مات حوله فكأنما مات فيه".

ورُوِيَ عن خالد بن معدان قال: "زمزم وعين سلوان التي ببيت المَقْدِس عين من عيون الجَنَّة"، وعنه أيضًا: "من أتى بيت المَقْدِس فليَسْبَح في عين سلوان، فإنها من الجَنَّة".

ورُوِيَ عن ابن عبَّاس ﷺ: "سيِّد البقاع بيت المَقْدِس، وسيِّد الصُّخور صخرة بيت المَقْدِس"، وعنه: "صخرة بيت المَقْدِس من صُخور الجَنَّة".

وعن وهب قال: "قال الله تعالى لصخرة بيت المَقْدِس: "فيكِ جنَّتي وناري، وفيك جزائي وعقابي، وطُوبى لمن رَآكِ، ثم طُوبى لمن رَآكِ".

ورُوِيَ عن عُبادة بن الصامت: "يُقال الصخرة- صخرة بيت المَقْدِس- على نخلة، والنخلة على نهرٍ من أنهار الجَنَّة، وتحت النخلة آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران، تنظمان سُمُوط أهل الجَنَّة إلى يوم القيامة".

وعن وهب: "قال الله تعالى لصخرة بيت المَقْدِس: "عليكِ أضع عرشي، وإليكِ أحشر خلقي، ولأُفجِّرنَّ أنهاركِ خَمرًا وعسلًا ولبنًا".

ورُوِيَ عن كعب قال: "إنَّ الكعبة بميزان البيت المعمور في السماء السابعة الذي يحُجُّه ملائكة الله تعالى لو وقعت منه أحجار وقعت على أحجار البيت، وإنَّ الجَنَّة في السماء السابعة بميزان بيت المَقْدِس والصخرة، ولو وقع منها حجر لوقع على الصخرة".

ورُوِيَ عن ابن عبَّاس قال: "إنَّ عبد الله بن سلام قال للنبيﷺ: من أين ركب نوح السفينة؟ قال: "من العراق". قال: وإلى أين بلغته؟ قال: "طافت بالبيت أسبوعًا، وببيت المَقْدِس أسبوعًا، واستوت على الجودي". قال: "صدقت".

ورُوِيَ عن ابن عمر والسَيباني بالمُهملة: "لا تقوم الساعة حتى يُضرب على بيت المَقْدِس سبعة أحياط: حائط من ذهب، وحائط من فضة، وحائط من ياقوت،

وحائط من زُمُرُّد، وحائط من لؤلؤ، وحائط من نور، وحائط من غَمام، فيمر الناس فيقولون: "طُوبى لمن وضع جبهته لله عليك ساجدًا"، ولم يختلف اثنان أنه عُرِجَ بهِ ﷺ من القُبَّة التي يُقال لها "قُبّة المعراج اليمين" عند الصخرة.

ورُوِيَ[٢٥ب] عن مُقاتل بن سُليمان: "إنَّ كل ليلة ينزل سبعون ألف مَلَك من السماء إلى مسجد بيت المَقْدِس يُهلِّلون الله، ويُسبِّحون الله، ويُقدِّسون الله، ويحمدون الله، لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة".

وعن الإمام أبي بكر العربي أنه قال في "شرح موطأ الإمام مالك" في تفسير قولهِ تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾[١] فذكر أقوالًا أربعة. الرابع منها: قيل إنَّ مياه الأرض كلها تخرج من تحت صخرة بيت المَقْدِس.

وهي من عجائب الله في أرضهِ، فإنها صخرة في سماء في وسط المسجد الأقصى فانقطعت من كل جهة لا يُمسكها إلا الذي يُمسك السماء أن تقع على الأرض، في أعلاها من جهة الغرب قَدَم النبيﷺ حين ركب البُراق، وقد مالت من تلك الجِهَة لهيبتِه، وفي الجِهَة الأخرى أثر أصابع الملائكة- عليهم السلام- التي أمسكها حين مالت به، ومن تحتها الغار الذي انفصلت عنه من كل جِهَة، عليه باب يُفتح للناس للصلاة والاعتكاف.

هِبتهُا مُدَّة أن أدخل تحتها، إلا أنِّي كُنْتُ أقول: "أخاف أن تسقط عليَّ بالذنوب"، ثم رأيتُ الظَّلمة والمُجاهرين بالمعاصي يدخلونها ثم يخرجون عنها سالمين، ثم هممتُ أن أدخلها، ثم قُلْتُ: "ولعلهم أمهِلُوا وأُعاجَل"، فتوقفت مرَّة، ثم عُزِمَ عليَّ فدخلتها فرأيتُ العجب العُجاب، يُمشى في حواشيها من كل جِهَة، فتُرى مُنفَصِلَة عن الأرض، لا يتصل بها من الأرض شيء، وبعض الجهات أشد انفصالًا من بعض[٢].

---

[١] سورة المؤمنون، الآية١٨.

[٢] من أول الفصل اختصره المؤلِّف من مثير الغرام، ص١٩٧-٢٦٤.

[فصل]

في ذكر من ورد القُدس الشريف
من الأنبياء والأعيان ومن عُرِفَ فيه بالاستيطان

الأنبياء- صلوات الله وسلامهِ عليهم-أربعة وعشرون ألف نبي، المُرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، أولهم آدم ﷺ، وشيت، وأخنوخ وهو إدريس، وهو أولِ من خَطَّ بقلم، ونوح، وأربعة من العرب: هود، وشُعيب، وصالح، ومحمد صلَّى الله وسلَّم عليه وعليهم أجمعين.

والكُتُب المُنزلة مائة وأربعة كُتب. أُنزِلَ على شيت خمسون صحيفة، وعلى أخنوخ ثلاثون صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وعلى موسى قبل التوراة عشر صحائف، والتوراة، والإنجيل، والزبور، والفُرقان.

ورُوِيَ[٢٦أ] في حديث الإسراء المنقول في الصحيح الشريفي(١) معناه أنه سُئِلَ ﷺ: كيف أسري بك؟ قال: صلَّيتُ لأصحابي صلاة العَتمة بمَكَّة مُعتِمًا، فأتاني جبريل بدابة بيضاء فوق الحمار ودون البغل، فقال: "اركب"، فاستصعبتْ عليَّ، فرازها بإذنها ثم حملني عليها، فانطلقتْ تهوي(٢) بنا، يقع حافرها حيثُ أدرك طرفها، حتى بلغنا أرضًا ذات نخل فأنزلني، فقال: "صَلِّ"، فصلَّيتُ. ثم قال: أتدري أين صلَّيت؟ قُلْتُ: "الله أعلم"، فقل: "صلَّيتَ بطيبة"، فانطلقتْ تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، فقال: "انزل" فنزلت. ثم قال: "صَلِّ"، فصلَّيتُ ثم ركبنا، فقال: أتدري أين صلَّيت؟ قُلْتُ: "الله أعلم". قال:

---

(١) هذا الحديث رواه البيهقي من حديث شداد بن أوس. انظر: دلائل النبوة، ج٢، ص٣٥٥-٣٥٧.

(٢) ث: يهوي.

"صلَّيتَ بمدين. صلَّيتَ عند شجرة موسى". ثم انطلقتْ تهوي بنا، يقع حافرها حيث أدرك طرفها.

ثم بلغنا أرضًا بدت لنا قصور، فقال: "انزل"، فنزلت، فقال: "صَلِّ"، فصلَّيتُ ثم ركبنا، فقال: أتدري أين صلَّيت؟ قُلْتُ: "الله أعلم". قال: صلَّيتَ ببيت لحم، حيث وُلِدَ عيسى بن مريم".ثم انطلق بي حتى دخل المدينة من بابها اليماني، فأتى قبلة المسجد فربط فيه الدابة، ودخلنا المسجد من باب [فيه][(١)] تميل الشمس والقمر، فصلَّيتُ في المسجد حيثُ شاء الله فأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأُتِيْتُ بإنائين في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، فأخذتُ اللبن فشَرِبْتُ حتى قرعتُ[(٢)] بهِ جبيني، وبين يدي شيخ مُتكئ على مثراةٍ[(٣)] له، فقال: "أخذ صاحبك الفطرة إنه ليهدى".

ثم انطلق حتى أتينا الوادي الذي في المدينة فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابي.قُلْتُ: يا رسول الله كيف وجدتها؟ قال: "مثل الحَمَّة السُّخْنَة". ثم انصرف بي، فمررنا بعِيْر لقُريش بمكان كذا وكذا [قد أضلُّوا][(٤)] بعيرًا لهم قد جمعه فلان، فسلَّمتُ عليهم، فقال بعضهم: "هذا صوت مُحَمَّد"، ثم أتيتُ أصحابي قبل الصُّبح بمَكَّة، فأتاني أبو بكر فقال: "يا رسول الله أين كُنْتَ الليلة؟ فقد التمستك في مكانك"، فقال: "عَلِمَتَ أنِّي أتيتُ بيت المَقْدِس الليلة"، فقال يا رسول الله: "إنه مسيرة شهر فصِفْهُ لي"، قال: "ففُتِحَ لي صراط كأنِّي أنظر إليه، لا تسألني عن شيء إلا أنبأتهم[(٥)] عنه". قال أبو بكر: "أشهد إنكَ رسول الله"، فقال المُشركون: "انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعُم أنه أتى بيت المَقْدِس الليلة".

قال: "فقال: إنَّ أمارته ما أقول لكم، أنِّي مررتُ بعِيْرٍ لكم بمكان كذا[٢٦ب] وكذا قد أضلُّوا بعيرًا قد جمعه فلان، فإنَّ مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم، عليه مِسْحٌ أسود، وعليه غرارتان سوداوان".

---

(١) الإضافة من دلائل النبوة، ومثير الغرام، وإتحاف الأخصا.
(٢) ث: "فرغت"، وفي إتحاف الأخصا: "فرغت جنبي"، والضبط من دلائل النبوة، ومثير الغرام.
(٣) ث: "متكٍ على مراه"، والضبط من دلائل النبوة، ومثير الغرام.
(٤) الإضافة من دلائل النبوة، ومثير الغرام، وإتحاف الأخصا.
(٥) دلائل النبوة: "لا يسألني عن شيء إلا أنبأته عنه"، ومثير الغرام: "لا يسألني عن شيء إلا أنبأتهم عنه"، وإتحاف الأخصا: "لا يسألني أحد عن شيء إلا أنبأتهم عنه".

قال: "فلمَّا كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى مرَّ عليهِ قريبًا من نصف النهار، حتى أقبلت العِيْر يقدمهم[1] ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ".

ومن روايةٍ لمُسلم: "وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء[2]، فحانت الصلاة فأممتُهم، فلمَّا فرغتُ من الصلاة قال قائل: "يا مُحَمَّد هذا مَالِك صاحب النار فسلِّم عليه"، فالتفتُ إليه فبدأني بالسلام"[3].

ومن سُنن النَّسائي[4]: "أُتِيْتُ بدابةٍ دون البغل وفوق الحِمَار، خطوها عند مُنتهى طرفها، فركِبْتُ ومعي جبريل، فسِرْتُ، فقال: "انزل فصَلِّ"، ففعلت، فقال: أتدري أين صلَّيتْ؟ صلَّيتَ بطيبة وإليها المُهاجَر". ثم قال: "انزل فصلِّ"، ففعلت. قال: تدري أين صلَّيتْ؟ صلَّيتَ بطور سيناء، حيث كَلَّمَ الله موسى". ثم قال: "انزل فصلِّ"، فنزِلْتُ فصلَّيت، فقال: "أتدري أين صلَّيتْ؟ صلَّيتَ ببيت لحم، حيث وُلِدَ عيسى"، ثم دخلتُ بيت المَقْدِس، فجمع لي الأنبياء، فقدَّمني جبريل حتى أممتُهم. ثم صعد بي إلى السماء ...". الحديث.

فهذه منقبة عظيمة لهذا المسجد المُشرَّف باجتماع هذا الجمع الكثير والجم الغفير من الأنبياء، آدم فمن دونه. هذا لم يتفق في سائر الأرضين.

ثم اختلف العُلماء رضي الله عنهم: هل هذه الصلاة المعروفة أم صلاة لُغويَّة، وهي الدُّعاء والذِّكر؟ والأصح أنها الصلاة المعروفة[5].

آدم أبو البشر ﷺ: مات وعُمره ألف سنة، وقيل: "ألف إلا سبعين عامًا"، وقيل: "ثمانمائة سنة"، ودُفِنَ في أبي قُبيس، ثم أخرجه نوح- عليهما السلام- زمن الطوفان، وحمل تابوته في السفينة، ثم أعادهُ إلى مكانه، وقيل: إلى بيت المَقْدِس.

نوح النبي ﷺ: تقدَّم أنَّ السفينة طافت بالبيت الحرام ثم ببيت المَقْدِس، ثم استوت على الجودي.

---

(١) ث: "يقدم"، والضبط من دلائل النبوة، ومثير الغرام، وإتحاف الأخصا.
(٢) سقط جزء من الحديث فيه وصف سيدنا موسى وعيسى وإبراهيم، وليس الإسقاط من فعل المؤلِّف بل من المصدر الذي نقل عنه.
(٣) حديث رقم ١٧٢.
(٤) حديث رقم ٤٥٠.
(٥) من أول الفصل نقله المؤلِّف من مثير الغرام، ص٢٦٤-٢٦٨.

إبراهيم خليل الرحمن ﷺ.

يعقوب نبي الله ﷺ: وهو إسرائيل، سُمِّيَ إسرائيل لأنه أُسري بهِ في سبع سموات، وكل الأنبياء بني إسرائيل إلا عشرة: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشُعيب، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ومُحمد صلَّى الله وسلَّم عليه وعليهم أجمعين[٢٧أ].

يوسف الصِّدِّيق ﷺ.

أيوب النبي ﷺ.

موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام. كانت الصخرة قبلته.

يوشع بن نون عليه السلام: بعثهُ الله تعالى بعد موسى، وأمرهُ بالمسير إلى أريحا لحرب من فيها من الجبَّارين، وسار إليها مع بني إسرائيل فقابلهُم يوم الجمعة حتى أمسوا ودخل السبت، فدعا الله تعالى فردَّ عليهِ الشمس، وزِيْدَ في النهار نصف ساعة، فهزم الجبَّارين، واقتحموا عليهم فقتلوهم.

داوود النبي عليه السلام: كان ببيت المَقْدِس دار مُلكِه.

رُوِيَ أنَّ أبا سُليمان[1] سَمِعَ يقول: "كان إذا كان يوم نياحة داوود أمر مُناديًا يُنادي في بيت المَقْدِس: من أراد أن يشهد نياحة داوود على نفسهِ فليحضر". قال: "فيصعدون إليه من بطون الأودية، وينزلون إليه من الغِيرَان". قال: "فبينما هو ذات يوم إذ ذكر الجنَّة، فشهق شهقة مات منها أربعة آلاف من عواتق بني إسرائيل شوقًا إلى الجنَّة، فأُخرج بأربعة آلاف جنازة من بيت المَقْدِس".

ورُوِيَ عن ابن أبي الدُّنيا أنه قال: بلغنا أنه إذا كان يوم نوح داوود مكث قبل ذلك سبعًا لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أُخرِجَ له منبر إلى البرية، وأمر سُليمان مُنادٍ يُنادي يستقرئ البلاد وما حولها من الفياض والآكام والجبال والبراري والديور والصوامع والبيع فيُنادي فيها: "ألا من أحب أن يسمع نوح داوود فليأتِ".

---

[1] ث: "أبا سفيان"، والوارد في المتن من مثير الغرام ص٢٧٦.

قال: فتأتي الوحش من البراري والآكام، وتأتي السِّباع من الغياض، وتأتي الهوام من الجبال، وتأتي الطير من الأوكار، ويأتي الرُّهبان من الصوامع والديارات، وتأتي العذارى من خدورها، ويجتمع الناس لذلك اليوم، ويأتي داوود حتى يرقى المنبر، ويُحيط به بنو إسرائيل كل صف على حدته، فيحيطون به يصغون إليه، وسُليمان قائم على رأسه، فيأخذ في الثناء على الله عَزَّ وَجَلَّ فيضجون بالبكاء والصراخ، ثم يأخذ في ذكر الجنَّة والنار فيموت طائفة من الناس، وطائفة من السِّباع، وطائفة من الهوام، وطائفة من الوحوش، وطائفة من الرُّهبان والعذارى المُتعبِّدات، ثم يأخذ في ذكر الموت[٢٧ب] وأهوال القيامة، ثم يأخذ في النياحة على نفسهِ فيموت طائفة من هؤلاء وطائفة من هؤلاء، ومن كل صنف طائفة، فإذا رأى سُليمان ما قد كان من الموت في فرقة منهم نادى: "يا أبتاه قد مزَّقتَ المُسمعين كل مُمزَّق، وماتت طائفة من بني إسرائيل، ومن الوحش والسِّباع والهوام والرُّهبان".

قال: فيقطع النياحة ويأخذ في البكاء، وفيه: ويخر مغشيًا عليه، فلمَّا نظر سُليمان إليه وما أصابه أتى بسرير فحمله عليه، ثم أمر مُناديًا فنادى: "من كان له مع داوود حميم أو قريب، فليأت بسرير، فإنَّ الذين كانوا مع داوود قد قتلهم ذكر الجنَّة والنار".

ورُوِيَ أنه خرج بهم ذات يوم في ثلاثين ألفًا من الناس، فوعظهم فمات منهم عشرون ألفًا، ورجع في عشرة آلاف من الناس مرضى.

سُليمان بن داوودعليهما السلام: باني المسجد الأقصى.

رُوِيَ أنه ذات يوم رأى شجرة، فقال: ما اسمك؟ قالت: "اسمي الخروب". قال: لأي شيء أنتِ؟ قالت: "لخراب مُلكك"، فقال سُليمان عليه السلام: "اللهم غَمِّ على الجن موتي حتى يعلم الإنس أنهم لا يعلمون الغيب"، ونحت من الخروب عصى، وتوكأ عليها حولًا وهو ميِّت، والجن لا يعلم، فأكلتها الأرضة فسقط.

شَعْيَا عليه السلام: هو الذي بشَّر بعيسى ومُحَمَّد عليهما السلام، ولمَّا قتله بنو إسرائيل- نشروه بالمنشار- سَلَّطَ الله عليهم عدوهم، فشرَّدهم وأفناهم، وأقام الشام خرابًا ليس فيه غير السامرة سبعين سنة، والمُلك لأهل بابل.

أرميا عليه السلام: لمَّا أحدث بنو إسرائيل البدع، ورغبوا عن دينهم، ورغب بعضهم عن بيت المَقْدِس، وضارعوه بمسجد ضرارًا وزُلزل بهم المسجد غزاهم بُخت نصر، فتابوا إلى الله تعالى فردَّهُ عنهم، ثم أحدثوا بعد ذلك إحداثًا فبعث الله تعالى أرميا النبي ليُخبرهم بغضب الله عليهم، فضربوه وقيَّدوه، فبعث الله عليهم بُخت نصر، فقتل منهم وحرق، وسبى الذراري، وخرَّب بيت المَقْدِس.

زكريا عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾[1] فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف.

يحيى بن زكريا عليهما السلام: قال الله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾[2][٢٨أ] قال قتادة: "لا يأتي النِّساء مع القدرة".

عيسى بن مريم عليه السلام: لمَّا سألهُ الحواريون أن يُنزل الله تعالى لهم المائدة قام عيسى، فألقى الصوف عنه ولبس الشعر والتحفه، ووضع يمينه على شماله، ووضعهما على صدره، وصَفَّ بين قدميه، وألصق الكعب بالكعب، والإبهام بالإبهام، وخفض برأسه خاشعًا، ثم أرسل عينه بالبكاء حتى سالت الدموع على لحيته، وجعلت تقطر على صدره، وقال: "اللهم أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا. تكون عطيَّة منك لنا، وعلامة بيننا وبينك، وارزقنا عليها طعامًا نأكله، وأنت خير الرازقين".

قال: فنزلت سُفرة حمراء بين غمامتين، غمامة فوقها وغمامة تحتها وهُم ينظرون إليها تهوي منقضة في الهواء، وعيسى عليه السلام يبكي ويقول: "اللهم اجعلنا لك من الشاكرين. اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابًا. إلهي كم أسألك من العجائب فتعطيني. إلهي أعوذ بك أن يكون أنزلتها غضبًا ورجزًا. اللهم اجعلها عافية وسلامًا، ولا تجعلها مثلة ولا فتنة" حتى استقرت بين يدي عيسى، والناس حوله يجدون ريحًا طيبة لم يجدوا مثلها، وخرَّ عيسى ساجدًا للهِ تعالى، وخرَّ الحواريون معه، فبلغ اليهود ذلك فأقبلوا عتوًّا وكُفرًا ينظرون، فرأوا أمرًا عجيبًا، وإذا منديل مُغطًّى على السُّفرة، وجاء عيسى فجلس يقول: "مَن أحرانا وأوثقنا بنفسهِ وأحسننا بلاء عند ربِّه فليكشف عن هذه الآية حتى ننظر ونأكل،

---

[1] سورة آل عمران، الآية ٣٧.
[2] سورة آل عمران، الآية ٣٩.

ونُسمِّي باسم ربنا، ونحمد إلهنا". قال الحواريون: "أنت أولى بذلك يا روح الله وكلمته".

قال: فتوضأ عيسى وضوءًا جديدًا، وصلَّى صلاةً جديدة، ودعا ربَّه دُعاءً كثيرًا، وبكى طويلًا، ثم قام حتى جلس عند السُّفرة، فإذا سمَكَّة مشوية ليس فيها فلوس، وليس لها شوكة، تسيل سيلانًا، وقد نضت حولها من البقول، وإذا عند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، وخمسة أرغفة، على كل واحد منها زيتون، وخمس رمانات، وخمس تمرات.

قال شمعون رأس الحواريون: "يا روح الله وكلمته أمِن طعام الدُّنيا أم من طعام الجنَّة؟ فقال عيسىعليه السلام: أو ما استيقنتم؟ قال: "لا والله[٢٨ب] ما أردتُ بما سألتك سوء يا بن الصِّدِّيقة". [قال:][1] "نزلت وما عليها من السماء، ليس شيء ممَّا ترون عليها من طعام[2] الدُّنيا ولا من طعام الآخرة، وهي وما عليها شيء ابتدعه الله بالقدرة الغالبة، إنما قال له: "كُن" فكان، فكلوا ممَّا سألتم، واحمدوا عليه ربكم يُمِدَّكم ويزيدكم، فإنه القادر والبديع لما يشاء، إذا شاء يقول له: "كُن" فيكون".

قال: "يا روح الله وكلمته إن أريتنا اليوم آية من هذه السمَكَّة"، فقال عيسى: "يا سمَكَّة أحيي بإذن الله تعالى"، فاضطربت السمَكَّة طريَّة، تدور عيناها تُبصبص، تلمظ بفيها كما يلمظ السبع، وعاد عليها فلوسها، ففزع القوم، فقال عيسى: "ما لكم تسألون الشيء فإذا أعطيتموه كرهتموه؟ فما أخوفني أن تعبدوا هذه السمَكَّة". ثم قال: "عودي كما كُنْتِ بإذن الله"، فعادت مشوية في حالها.

قالوا: "كُن أنت يا روح الله أول من يأكل،ثم نحنُ نأكل بعدك". قال عيسى: "معاذ الله، بل يأكل منها من طلبها وسألها"، ففَرِقَ الحواريون أن يكون إنما أُنزلت سخطة فيها مُثلة، فلم يأكلوا، ودعا لها عيسى أهل الفاقة، والزمانة من العميان والمجذومين والبرصى، والمُقعدين، وأصحاب الماء الأصفر، والمجانين، فقال: "كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم، فإنه رزق ربكم، فتكون المهنَّاة لكم والبلاء لغيركم، وأذكروا الله وكلوا"، ففعلوا، فصدر عن تلك السمكة

---

[1] إضافة من مثير الغرام.

[2] ث: الطعام.

والأرغفة والرُّمَّانات والتمرات والبقول ألف وثلاثمائة رجل وامرأة من فقير جائع وزمن ناقه رغيب كلهم شبعان يتجشئ، فنظر عيسى فإذا ما عليها كهيئته حين نزلت من السماء، ورُفِعَتْ السُّفرة إلى السماء وهم ينظرون إليها، واستغنى كل فقير أكل منها يومئذ، فلم يزل غنيًا حتى مات، وبرأ كل زِمنْ [من][1] زمانته، فلم يزل حتى مات، وندم الحواريون وسائر الناس ممَّن أبى أن يأكل منها حسرة، وشابت منها أشعارهم، وكانت إذا نزلت بعد ذلك أقبلوا إليها صورًا من كل مكان يركب بعضهم بعضًا الأغنياء والفُقراء والرجال والنساء، فلما رأى عيسى ذلك جعلها نوبًا بينهم.

قال: وكانت تنزل غِبًّا، تنزل يومًا ولا تنزل يومًا، كناقة ثمود ترعى يومًا وتردّ يومًا، فلبث بذلك أربعين صباحًا تغب يومًا وتنزل يومًا حتى إذا فاء الفيء صارت صعداء ينظرون إليها[٢٩أ] في الأرض حتى توارت عنهم، فأوحى الله إلى عيسى أن اجعل مائدتي رزقًا لليتامى والزمني دون الأغنياء من الإنس، فلمَّا فعل ذلك بهم عَظُمَ على الأغنياء، وأذاعوا القبيح حتى شكُّوا وشككوا فيه الناس، فوقعت منه الفتنة في قلوب المؤمنين. قال قائلهم: "يا روح الله وكلمته إنَّ المائدة بحق أن تنزل من عند الله؟ قال عيسى: "ويحكم هلكتم، تيسروا للعذاب إن لم يرحمكم الله"، فأوحى الله إلى عيسى: "إنِّي آخذ بشرطي من المُكذِّبين، قد اشترطتُ عليهم أنِّي مُعذِّب من كفر منهم عذابًا لا أُعذِّبَهُ أحدًا من العالمين بعد نزولها". قال عيسى: "إنْ تُعذِّبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم".

قال: فمسخ الله ثلاثة وثلاثين خنازير من ليلتهم، فأصبحوا يأكون ما في الحشوش، ويتبعون ما في الكُناسة والطُّرُق، وناموا أول ليل على فرشهم عند نسائهم في ديارهم بأحسن صورة وأوسع رزق، فأصبح الناس يفرُّون إلى عيسى فزعًا وفرقًا من عقوبة الله، وعيسى يبكي عليهم ويبكون معه عليهم، وجاءت الخنازير تسعى حين أبصرته ينظرون إليه ويمشون إليه ويشمُّون ريحه ويسجدون له وأعينهم تسيل دموعًا لا يستطيعون الكلام. ثم قام عيسى يُناديهم بأسمائهم: "يا فلان"، فيقول برأسه: "نعم". "يا فلان بن فلان قد كُنْتُ أخوفكم

---

[1] إضافة من مثير الغرام.

عذاب الله وعقوبته وكأني قد كُنْتُ أنظر إليكم مُمثَّلًا بكم في غير صورتكم"، فسأل عيسى ربَّه أن يُميتهم، فأماتهم الله بعد ثلاثة أيام، فما رأى أحد منهم جيفة في الأرض، والله أعلم كيف كان.

قيل: لمَّا تمَّ لعيسى ثمانية أيام من ولادتهِ خُتِن على سُنَّة موسى، وسمُّوه "اِيشوع"، وهربت بهِ أُمُّه إلى مصر، فأقام بها اثنتي عشرة سنة، ثم رجعت بهِ إلى الشام، فلمَّا بلغ ثلاثين سنة جاءهُ الوحي، ويقال إنه رُفِعَ ليلة القدر من جبل بيت المَقْدِس. وقال وهب: "تَوفَّى الله عيسى ثلاث ساعات من نهار حين رفعه الله إليه".

وذكر وهب أنَّ عيسى وقت رفعهُ الله تعالى من طوررزيتا دعا بدعاء، وهو: "سُبحانك اللهم أنت القريب في علوك، المُتعالي في دنوِّك، الرفيع على كل شيء من خلقك. أنت الذي نفذ بصرك في[٢٩ب] خلقك، وحسرت الأبصار دون النظر إليك، وغُشِيَتْ دونك، وسبَّح لها الفلق في النور. أنت الذي جليت الظُّلَم بنورك فتباركت. اللهم خالق الخلق بقُدرتك، مُدبِّر الأمور بحكمتك، مُبدع الخلق بعظمتك، والقاضي في كل شيء بعلمك، الذي خلتتَ سبعًا في الهواء بكلماتك، مُستويات الطباق، مُذعنات لطاعتك، سما بهِنَّ العلو من سُلطانك فأجبن وهُنَّ دُخان من خوفك فأتين طائعات بأمرك، فيهنَّ الملائكة يُسبِّحونك ويُقدِّسونك، وجعلتَ فيهنَّ نورًا يُجلي الظلام، وضياء أضوى من الشمس، وجعلتَ فيهنَّ مصابيح يُهتدى بها في ظُلمات البرِّ والبحر ورجومًا للشياطين فتباركت. اللهم في مفطور سماواتك وفيما دحوت من أرض، ودحوتها على الماء فأذللت لها الماء الظاهر فذَّل لطاعتك وأذعن لأمرك، وخضعت لقوتك أمواج البحار ففُجِّرت فيها بعد البحار الأنهار، وبعد الأنهار العيون الغرار والينابيع، ثم أخرجتَ منها الأشجار بالثمار، ثم جعلتَ على ظهرها الجبال أوتادًا، فأطاعتك أطوادها، فتباركت اللهم صِفَتك، فمن يبلُغ صفة قدرتك، ومن يُنعت نعتك. تُنزِّل الغيث وتُنشئ السحاب، وتفُك الرقاب، وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين. لا إله إلا أنت إنما يخشاك من عبادك العُلماء الأكياس، وأشهد أنكَ لست بإله استجديناك، ولا ربّ يبيدُ ذكره، ولا كان لك شُركاء يقضون معك فندعوهم

وندعك، ولا أعانك أحد على خلقك فنشُك فيك. أشهد أنك أحد صمد، لم تلد ولم تولد، ولم يكن لك كفوًا أحدا، ولم تتخذ صاحبة ولا ولدًا. اجعل لي من أمري فرجًا ومخرجًا".

الخضر ﷺ: ذهب جماعة من العُلماء إلى أنه نبي، وذهب آخرون إلى أنه ولي، ومذهب الأكثرين أنه حيٌّ. قيل: مسكنه بيت المَقْدِس فيما بين باب الرحمن إلى باب أسباط، وهو يُصلِّي كل جُمعة في خمسة مساجد: في المسجد الحرام، وفي مسجد المدينة، ومسجد بيت المَقْدِس، ومسجد قباء، ومسجد النور، ويُصلِّي جُمعة في المسجد الحرام، وجُمعة في مسجد بيت المَقْدِس، ويأكل في كل جُمعة أكلتين من كماة وكرفس، ويشرب مرَّة من ماء زمزم ومرَّة من جُبِّ سُليمان الذي ببيت المَقْدِس، ويغتسل من عين سلوان.

مريم الصِّدِّيقة[٣٠أ] عليها السلام: قيل إنَّ قبرها في الكنيسة المعروفة بالجُسمانية.

الإسكندر الأصغر "ذو القرنين الحميري": كان قبل عيسى بأكثر من ثلاثمائة سنة. كان مُدَّة سفرهِ إلى يوم قُبض خمسمائة عام، ومات ببيت المَقْدِس، وقيل بدومة الجندل.

المهدي الذي يكون في آخر الزمان: قيل إنه ينزل بيت المَقْدِس.

هذا ما ورد في من أتى بيت المَقْدِس من الأنبياء وغيرهم(١).

ووردها من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين: أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب ﷺ، وأبو عبيدة بن الجرَّاح ﷺ، وسعد بن أبي وقاص ﷺ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، وأبوه، وأخوه، ومُعاذ بن جبل ﷺ، وأبو ذر الغفاري ﷺ، وسلمان الفارسي ﷺ، وخالد بن الوليد ﷺ، وعبد الله بن سلام ﷺ، ويزيد بن أبي سفيان ﷺ، ومُعاوية بن أبي سفيان ﷺ، وأبو هُريرة ﷺ، وأبو أُمامة ﷺ، وأبو مسعود الأنصاري ﷺ، وعوف بن مالك الأشجعي ﷺ، وأبو جمعة الأنصاري ﷺ ومُرَّة بن كعب السعيد ﷺ، وعُبادة بن الصامت الأنصاري ﷺ، وشدَّاد بن أوس ﷺ، وأبو ريحانة ﷺ، وتميم الداري ﷺ، والشريد بن سويد ﷺ،

---

(١) من أول ذكر "آدم عليه السلام" اختصره المؤلِّف من مثير الغرام، ص٢٦٩-٢٩٩.

وذو الأصابع التميمي ﷺ، وفيروز الديلمي ﷺ، أبو محمد النجَّاري بالجيم أبو أُبَيّ، وأُم حرام، واثلة بن الأسقع ﷺ، محمود بن الربيع ﷺ، سلامة بن قيصر وقيل سلمة، صفيَّة بنت حُيَيّ أُم المؤمنين رضي الله عنها، عصيف بن الحارث ﷺ.

ثم من التابعين وغيرهم رضي الله عنهم: أويس القرني، كعب الأحبار، وجماعة كثيرون من التابعين، وعبد المَلِك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز، الوليد بن عبد المَلِك، وسليمان بن عبد المَلِك، ورابعة العدوية، ومُقاتل بن سُليمان المُفسِّر، وسُفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، والليث بن سعد، وأبو جعفر المنصور، والمهدي بن المنصور، والإمام محمد بن إدريس الشافعيﷺ، وبشر الحافي، والغزالي حُجَّة الإسلام، والمَلِك[٣٠ب] صلاح الدين يوسف بن أيوب مُنقِذ بيت المَقْدِس من المُشركين، رحمه الله تعالى.

وكثير غير مَن ذُكر من التابعين وتابعيهم والأولياء والصُّلحاء والعُلماء، لو استُوعِبَ ذكرهم لطال الشرح[١].

[مولد المؤلِّف]

ومولدي بالقُدس الشريف[٢] في نصف شهر شعبان من سنة ثلاثة عشر وثمانمائة، ووالدي حينئذ نائب بها، وقال الشيخ زين الدين بن الخَرَّاط[٣] عين موقِّعين الدَّسْت الشريف وشيخ الأُدباء بيتين:

خليل الصفا أمَّا مقامكَ في الورى ... عَلِيٌّ وأمَّا الفضلُ منك جليل

مقامكَ قَدسي بأقصى تعبُّدِ ... فلا تُقصني منه وأنت خليل

[ذكر خِطَطُ مدينة القُدس]

وهي مدينة حسنة، ولها أبواب: باب الخليل، وباب حارة المغاربة، وباب حِطَّة، وباب العمود.

---

[١] من أول ذكر من زارها من الصحابة والتابعين اختصره المؤلِّف من كتاب "مثير الغرام"، ص٢٩٩-٣٧٦.

[٢] سيذكر المؤلف بعد قليل أنَّ مولده بالمدرسة الخاتونية.

[٣] هو زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن سلمان الحلبي الشافعي، المعروف بابن الخراط، توفي سنة٨٤٠هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص١٣٠-١٣١.

وللمسجد أبواب منها: باب المغاربة، وباب السلسة وهو بابان، وباب الميضأة، وباب القطانين، وباب الحديد، وباب الناظر، وباب النيابة، وباب حِطَّة، وباب الأسباط، وباب الرحمة، وباب التوبة، وباب يطلع من إسطبل سُليمان عليه السلام.

وبالمسجد المذكور من الجهة الجنوبية- وهي القبلية- المسجد الأقصى، وهو الذي ذكرهُ الله تعالى في كتابهِ العزيز، وشرفهُ المُتقدِّم ذكرُه، وبهِ قِبْلَة مُعظَّمة، يعلوها ثلاث جواهر صف واحد، وبهِ نقش حسن إلى الغاية، وبجانبهِ مقصورة بها بوابة من حديد حسنة يُداخلها الحنية[1]، وتجاه ذلك عمود يُقال له "عمود النبي ﷺ"، وعليه سِتْر حرير وهو يندر[2]، وبداخل المسجد الأقصى جامع النِّساء، وبه عواميد كثيرة[3]، وتجاه ذلك جامع ألطف منه بهِ محراب.

ويعلو الجامع الأقصى قُبَّة حسنة مُرصَّص ظاهرها، وداخلها منقوش بالفصوص، وبها تنُّور مُعظَّم، مُعلَّق بسلسلة، يُشعل فيه نحو ألفي فتيلة، وله صف أبواب تجاه قُبَّة الصخرة، وهي تسعة: باب من الجهة الشرقية، باب يطلع إلى الزيتون بجانبه محراب زكريا، ومن الجهة الغربية باب تجاه باب المغاربة به ستارة تُصلِّي النِّساء بداخلها، ولا يختلطون بالرجال في المسجد المذكور.

البئر المعروف بـ"بئر الورقة"[4] الذي تقدَّم الكلام عليه، وفضائله وأوصافه أكثر من أن تُحصى[5]، وتحت المسجد الأقصى إسطبل كان لدواب سُليمان بن داوود كما ذكرنا، وبه حجارة هائلة ومعالف الدواب إلى الآن[6].

وأمَّا الصخرة فلها[٣١أ] صحن عظيم- وهي بوسطه- مُبلَّط بالبلاط الهيصم، وبالصخرة علامة، يُقال إنها مكان غاصت عمامة النبي ﷺ فيه، وجميع داخل القُبَّة مفروش بالرُّخام الملفوف، وهُناك رُخامة خضراء تسمَّى بـ"باب الجنَّة"،

---

[1] ث: الجنيه.

[2] كذا في الأصل.

[3] قال العليمي: "وداخل الجامع المذكور من جهة الغرب مجمع كبير، معقود بالأحجار الكبار، وهو كوران ممتدان شرقًا بغرب، ويُسمَّى هذا المجمع جامع النساء، وهو عشر قناطر على تسع سواري في غاية الإحكام، وقد أُخبرتُ أنه من بناء الفاطميين". انظر: الأنس الجليل، ج٢، ص٤٨.

[4] انظر: العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٤٩-٥١.

[5] ث: يحصى.

[6] ث: "الأمن"، والضبط من الإشارات للهروي، ص٣٣.

وأمَّا علو القبلة من باطنها فهو من الفصوص الملونة، وظاهرها بالرُّخام الأبيض العجيب، وبأعلاها الرَّصاص المُصفَّح كما تقدَّم، وبفُسحة المسجد من جهته الشرقية أشجار زيتون كثيرة، ومكان يُعرف بسوق المعرفة ومهد عيسى ﷺ، ومن الجهة الغربية رواقات، بها بعض الأبواب المذكورة، وكذلك من الجهة الشمالية، وبالجهة القبلية "مسجد المغارية"، مائل إلى الغرب، يُقام به الصلاة أولًا على مذهب الإمام مالك ﷺ، ثم بالمسجد الأقصى على مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي ﷺ، ثم بقُبَّة الصخرة على مذهب الإمام أبي حنيفة ﷺ، ثم بالرواقات الغربية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ﷺ، وبساحة المسجد مساطب يُظلها شجر من ميس، يستظلها المُصلُّون.

وأوصاف هذا المسجد كثيرة، وأوقافه عديدة، اختصرتها خشية الإطالة.

وبالقُدس الشريف أسواق كثيرة، من جُملتها ثلاث[١] قصبات: بأحدها تُجَّار، وبالثانية عطَّارين، وبالثالثة خُضريين. قيل إنه لم يكن لها بغالب البلاد نظير.

وبها مدارس كثيرة ما ينيف عن ثلاثمائة مدرسة، أجَلُّهُم الصلاحية[٢]، وأمَّا مدرسة الخاتونية[٣] بالقُرب من باب الحديد، ومولدي بها في التاريخ المُتقدَّم ذكره.

وبالقُدس الشريف حمَّامات وخانات، ولم يؤخذ بها شيء من المكوس التي تؤخذ بسائر البلاد.

وبها كنيسة قمامة التي يرد إليها جميع طوائف النصارى من أقاصي البلاد وأدانيها، وبها غرائب كثيرة، والسبب في تسميتها "قمامة" أنها كانت مزبلة للبلد، يُقطع عليها أيدي المُفسدين، ويُصلب بها المُجرمين[٤]، وبالقُدس الشريف كنائس وديور لجميع أهل الذِّمَّة.

ويُعمل بالقُدس الشريف الفضة المينا، وتُجلب إلى غالب البلاد.

---

[١] ث: ثلاثة.

[٢] تقع بباب الأسباط، بناها السُّلطان صلاح الدين الأيوبي سنة٥٨٨هـ، وكانت مشيختها من الوظائف السنية. انظر: العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٨٨.

[٣] نسبة لواقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين القازانية البغدادية سنة٧٥٥هـ. انظر: العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٨٠.

[٤] الهروي: الإشارات، ص٣٣-٣٤.

[ذكر المزارات التي بضواحي القُدس]

وأمَّا ضواحيها: من الجهة القبلية: عين سلوان، وبئر أيوب الذي قال الله تعالى في حَقِّه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[1]، ومن الجهة الشرقية: الطور، ورابعة العدوية، وقبر السَّيِّدة مريم، ومن الجهة الشمالية: كروم كثيرة، والساهرة، ومن الجهة الغربية: خان المَلِك الظاهر بيبرس، و[الزاوية][2] القلندرية، وهو مكان حسن به أشجار كثيرة، وبِرْكة تُعرف بـ"مأمن[3] الله"، وبِرْكة السُّلطان، ومن أول كروم القُدس الشريف[٣١ب] من القنطرة إلى آخر البُقعة نيف عن نصف بريد.

وبطريقها إلى مدينة سيدنا الخليل عليه السلام قبر السَّيِّدة راحيل، أُم يوسف الصِدِّيق عليه السلام، عن يمين الطريق، وقد أنشأ والدي- تغمده الله برحمته- عليها قُبَّة حسنة، وعمَّر هُناك صهريج ماء، يشرب منه المارة[4]، وواقف عليها أشجار زيتون.

وبالطريق أيضًا: بيت لحم، وبها كنيسة عجيبة، بها مولد عيسى عليه السلام، وبها آثار وعمائر عجيبة من الرُّخام، والفص المُذهَّب، والعُمد، والتصاوير.

وبِهِ موضع النخلة المذكورة في القرآن العزيز [في][5] قولِهِ تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾[6] الآية.

وبالقُدس الشريف قلعة جَيِّدة، بها أبراج عديدة، وبها حَرسِيَّة.

والقُدس الشريف من الجزء الرابع من الإقليم، حيثُ الطول ست وخمسون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، والعرض اثنتي[7] وثلاثون درجة.

وقرية حَلحول بها قبر يونس عليه السلام، ورامة بها مقام إبراهيم عليه السلام، وكفر بريك قرية بها قبر لوط عليه السلام، وياقين بها مقام لوط، بها كان يسكن بعد رحيلهِ من

---

(١) سورة ص، الآية ٤٢.

(٢) الإضافة من الزُّبدة، ص٢٣، وعن هذه الزاوية انظر: العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٢٢.

(٣) ث: بمام.

(٤) قال في الزُّبدة: وأقام والدي المرحوم شاهين الظاهري قبة وصهريجًا ومسقاة نلسبيل.

(٥) الإضافة من الإشارات للهروي.

(٦) سورة مريم، الآية ٢٥.

(٧) ث: اثني.

زغر، وسُمِّيَتْ "ياقين" لأنه لمَّا سار بأهلِهِ ورأى العذاب قد نزل بقومهِ سجد في هذا الموضع، وقال: "أيقنتُ أنَّ وعد الله حق"[1].

[ذكر مدينة حَبْرُوْن "الخليل"]

وأمَّا مدينة حَبْرُوْن[2] المدفون بها سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وهي مدينة حسنة.

والمسجد الذي بها له سرداب، يوقد فيه قنديل ليلًا ونهارًا، وعن اليمين شِبَّاك بهِ مدفن الخليل عليه السلام، وعليه قُبَّة حسنة، وعليه أستار من حرير، وعليه بشخاناه حرير أحمر أطلس مُزركش، وتجاه ذلك زوجته سارة بقُبَّة حسنة، وعليها أيضًا بشخاناه، وداخل المكان الذي يُصلَّى به مقصورتان[3]، في إحداهما السيد يعقوب وزوجته ليقة، وبظاهره مكان بشُبَّاكين: أحدهما للسيد إسحاق، والآخر لزوجته، وبداخل المكان السيِّد يوسف الصِّدِّيق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وبظاهر ذلك قبل الدخول إليه جامع يُعرف بـ"الجاولي"[4].

وبالمسجد خُطبة، ومنارتان يؤذَّن فيها، وله صحن مُربَّع، وقيل: قبر يوسف عليه السلام خارج المغارة.

ويُحكى أنَّ رجُلاً قصد زيارة الخليل عليه السلام، فتقرَّب إلي القَيِّم بخدمته، وطلب منه النزول إلى المغارة فوعدهُ عند انقطاع الزُّوَّار، وكان في زمن الثلج، فلمَّا انقطع الناس أتى إلى بلاطة فقلعها، فأخذ ما يستضيء به، ونزل في درج مقدار سبعين درجة، فانتهى إلى مغارة واسعة كبيرة الهواء يخترق فيها، وبها دِكَّة عليها إبراهيم الخليل[٣٢أ] مُلقى، وعليه ثوب أخضر، وشيبته يلعب بها الهواء، وإلى جانبهِ إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ثم أتى بهِ إلى حائط في المغارة، فقال: "إنَّ سارة خلف هذا الحائط"، فهمَّ الرجُل أن ينظر ما وراء الحائط وإذا بصوت يقول: "إياك والحريم"، فعادا من حيث نزلا.

---

(1) الهروي: الإشارات، ص٣٣-٣٤.

(2) بالفتح ثم السكون وضم الراء وسكون الواو. غلب على اسمها "الخليل". انظر: البغدادي: مراصد الاطلاع، ج١، ص٣٧٦.

(3) ث: مقصورتين.

(4) عمَّرهُ الأمير سنجر بن عبد الله الجاولي(ت:٧٤٥هـ). انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٦٦-٢٦٨.

وقيل إنَّ إبراهيم- عليه [السلام][1]- ابتاع هذه المغارة من عفرون بن صوحار[2] الحِتّي بأربعمائة درهم فضة، ودفن سارة فيها[3].

ومدينة الخليل ﷺ يُعمل بها الزُّجاج، ويُجلب إلى سائر البلاد، ويُطبخ بها الربّ، ويُعتصر بها الشّيرج.

وسِمَاط الخليل ﷺ يمتد في كل يوم بعد صلاة العصر، فيُفرَّق على كل من حضر، ومن سِرِّهِ أنه لو حضر حبوس الديار المصرية كفاهم، ويُعطى كل نفر رغيفين، وكان سِمَاط الخليل قديمًا يطبخ عدسًا، ثم أُبدل ذلك بالدشيشة بالزيت، وصار العدس يُطبخ في كل جُمعة خاصة.

وأمَّا الآن فقد زاد في ذلك المَقرّ السخاوي غرس الدين ناظر الحرمين الشريفين[4] في كل ليلة جُمعة أرزًا وحب رُمَّان من أموال الأوقاف، فإنَّ أوقافه عديدة وأمواله جمَّة، ولم يُسبق المَقر السخاوي لذلك، فإنه من أهل الخير والفضل[5].

وبلاد مُعاملة الخليل إقليم بمفرده، لكنه مُضاف إلى القُدس الشريف، وهو من الأرض المُقدَّسة، وبين القُدس والخليل بِرَك عِظَام، بها قناة[6] ماء تجري إلى القُدس الشريف مُدَّة ستة شهور، وللقناة قرية موقوفة وشاد ومُباشرون.

ولمدينة حَبْرون قلعة لطيفة، بها بعض أبراج.

ويُجلب من بلاد القُدس الشريف وبلاد الخليل ﷺ: الزيت، والزيتون، والجُبن، والربّ، والخرنوب.

---

(1) إضافة لضبط السياق.

(2) ث: "صوخان"، والضبط من الإشارات للهروي.

(3) الهروي: الإشارات، ص٣٥.

(4) يقصد القُدس والخليل، وقد تولى غرس الدين خليل بن محمد السخاوي(ت:٨٤٧هـ) نظرهما في مُستهل ربيع الأول سنة ٨٤٤هـ. انظر: السخاوي: الضوء، ج٣، ص١٩٣؛ العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٤٠١.

(5) عن السماط. انظر: محمد سالم بكر باعامر: سِمَاط أو ضيافة خليل الرحمن في العصر المملوكي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، الرياض، مج١٩، ع٢،٢٠١١م، ص٣-٥٤.

(6) لعلها قناة عروب، وهي قناة تصل مياهها من منطقة العروب إلى الحرم القدسي، أو عين الطواشي التي منبعها من خربة مجدل، والقرية وقف على مصالح قناة العين. انظر: العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص١٤٣، ٤٥٧.

[خاتمة الفصل]

فهذه نُبذة من فضائل هذه الأماكن الشريفة وهي: مَكَّة، والمدينة، وبيت المَقْدِس، ولكل منهما من فضائل ما تَكِلّ عن ضبطها الأقلام، وتعجز عن الإحاطة بها العقول والأفهام، لأنها خيرة الله تعالى من جميع أرضه، وأحب بُقعِهِ إليه لأداء سُنَتِهِ وفرضه، وهي الثلاثة التي لا تُشدُّ الرِّحال إلا إليها، ولا تُسمح ببذل الأرواح وإنفاق الأموال إلا عليها، بها الحسنات مقبولة مُضاعفة، والرحمة لساكنيها واسعة مُترادفة، وبفضلها وشرفها حصل لسُلطانها الشرف التام، وتفضَّل مَلِكِهَا على سائر مُلوك الإسلام، مع ما يُضاف إلى ذلك من فضائل مصر والشام، وما بها من الزيارات وقبور الأنبياء والصحابة والأولياء والعُلماء الأعلام [٣٢ب]، فكل مُلوك الأرض ما يبلغوا عُشر معشار فضله، لأنَّ الجميع يخافون وقوع سطواته، ويؤملون فائض عدله، خَلَّدَ الله مُلكه تخليدًا مؤبَّدًا، ولا أبقى له على وجه الأرض أعداء أبدًا.

وممَّا ورد أنه رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: {أجلّ البقاع مَكَّة، وأشرف البقاع المدينة، وأجمل البقاع بيت المَقْدِس}.

[فصل]
في ذكر الديار المصرية

عمَّرها الله سُبحانه، وخَلَّدَ الله أيام سُلطانها وأعزَّ أعوانه، وأكَّد قواعد مُلكه وثبَّت أركانه. بها كُرسي المُلك الشريف، وقدرها على غيرها من البلاد عَالٍ منيف.

سُمِّيَتْ "مصر" باسم مصر بن بيصر بن قبط بن النبيط بن كشوش بن كنعان، كما أنَّ إخميم من بلادها سُمِّيَتْ بإخميم أخى المَلِك مصر بن بيصر المذكور.

[ذكر حدودها]

وبلاد مصر من أعجب بقاع الأرض، وهي من الجُزء الثالث من الإقليم الثالث، حيثُ الطول ثلاثة وخمسون درجة وخمسون دقيقة، والعرض تسعة وعشرون درجة وخمسة وخمسون دقيقة، تشتمل على بلادها ومُعاملاتها خاصة حدود أربع:

القبلي: من صفة القلزم حيثُ عَيْذَاب على بلاد الحداربة إلى بلاد الدُّوم[1] من بلاد النوبة، خلف الجنادل التي عليها مصب النيل إلى جبال العدن إلى صحراء الحبشة.

والشرقي: ينتهي إلى بحر القلزم، وهو من الجزء الرابع من الإقليم الثالث، حيثُ الطول خمسة وخمسون درجة والعَرض ثلاثون درجة، تسافر فيه مراكب

---

[1] ث: "الروم"، والضبط من السحماوي: الثغر الباسم، ص٢٧٨.

الحُجَّاج وتُجَّار اليمن،وهو يضيق من هُناك، ثم يأخذ في الاتساع إلى الجنوب والشرق إلى أن يكون اتساعهِ عند "بركة غُرُنْدل[1]" نحو سبعين ميلًا، والبِرْكة داخلة في الإقليم الرابع، وكذلك الطور وأيلة على خورها، ثم ينتشر البحر إلى الإقليم الثالث فيكون مناهل حُجَّاج مصر على ساحله، وبالقُرب منه مدينة مَدْين، وغالب ما بين بحر القلزم ومجرى النيل مُنقطع رمال ومحاجر وجبال، ويُسمَّى ساحل البحر في هذا الحد "برّ العجم"، ثم يتسع من حيث السويس وما أخذ مُشرِقًا من بركة الغُرُنْدل- هي التي أغرق الله تعالى فرعون فيها- فينتهي الحد إلى تيه بني إسرائيل، حتى يقع على أطراف الشام.

وأمَّا الحد الشامي[2]، وتُسمِّيهِ أهل الديار المصرية "البحري"، فما بين الزَّعقة ورفح، وقيل: "أمّج" وهي العريش، ثم يأخذ هذا الحد مُساحلًا مع البحر الشامي.

وأمَّا الحد الغربي فآخره[3] في العمارة معمور الإسكندرية، آخذًا على الليونة على العميدين، وآخر الحد من تلك الجهة "العقبة الكبيرة"، وهُناك"مرس السلم" من المراسي[٣٣أ] المذكورة، والعقبة، حيثُ الطول ثمان وأربعون درجة، والعرض اثنتان[4] وثلاثون درجة وخمسة وعشرون دقيقة، وفي شرقيها "العقبة الصغيرة"، حيثُ الطول تسع وأربعون درجة ونصف، والعرض اثنتان[5] وثلاثون درجة، ثم يعطف الحد على الواحات، وهي جزائر نخل ومياه، مُقبِلًا على الصعيد الأعلى حتى يقع على الحد القبلي إلى منحدر النيل[6].

[ذكر نهر النيل]

قيل إنَّ النيل في أصلهِ أقوال للناس، حتى ذهب بعضهم إلى أنَّ مجراهُ من جبال الثلج، وهي بجبل قاف، وأنه يخرق البحر الأخضر بقدرة الله تعالى ويمُرّ على معادن الذهب والياقوت والزُّمُرُّد، فيسير ما شاء الله تعالى إلى أن يأتي إلى

---

[1] عنها انظر: المقريزي: الخطط، ج١، ص٤٢.
[2] يُقصد به الشمالي. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٤، ٣١٦.
[3] ث، ب: "مأخذه"، والضبط من التعريف وصبح الأعشى.
[4] ث: اثنان.
[5] ث: اثنان.
[6] نقل المؤلِّف هذا الوصف من التعريف للعمري، ص٢١٧-٢١٨، وعن هذه الحدود. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣١٤-٣١٧.

بحُيرة الزنج، وقال قوم: "مبدأهُ من خلف خط الإستواء بإحدى عشرة[1] درجة"، وقال قوم: "مبدأهُ من جبل القمر، وإنه ينبع من اثنتي عشرة[2] عينًا.

اختُلِفَ في سبب زيادتهِ ونقصانه"، وقال قوم: "لا يعلم ذلك إلا الله تعالى".

أقول: يسير جاريًا في بلاد ديار مصر مسيرة شهر، وفي النوبة مسيرة شهرين، وفي الخراب حيث لا عمارة مسيرة أربعة أشهر إلى أن يخرج من جبل القمر خلف خط الاستواء، وليس في الدُّنيا نهر يَصُبّ من الجنوب إلى الشمال غير النيل، وليس في الدُّنيا نهر يَصُبّ في بحر الرُّوم والصين غير نيل مصر، وليس في الدُّنيا نهر يزيد ويَمُرّ في أشدِّ ما يكون من الحر حين تنقص أنهار الدُّنيا وعيونها غير النيل، وكل ما زاد الحر كان أوفر لزيادته.

وأجمعت أهل الدُّنيا أنه ليس بالدُّنيا نهر أطول مُدًّا منه، ولا أعجب ترتيبًا في الزيادة، يسير من الجنادل إلى شطنوف، ويفترق مِن هُناك فرقتين: فرقة تُعرف عند أهل البحر بالغربي، وفرقة بالشرقي، فأمَّا الشرقي فيَصُبّ من فوهة ثغر دِمْياط المحروس، والغربي يَصُبّ من فوهة رشيد، والمَصبَّين إلى البحر المحيط.

وبحر النيل يفترق فِرَق كثيرة، أجلَّها أربع، المُستمر صب المياه بها شتاءً وصيفًا، لا ينقطع أبدًا:

أحدها: "بحر اللَّبين"[3] من البحر المُعظَّم المذكور، يجتاز بثلاثة أقاليم: البهنساوية، والجيزية، وبعض بلاد البحيرة، ويَصُبّ في البحر الغربي[4].

والثانية: تُعرف بـ"بحر بني مُنجَّاه"[5]، أوله من قناطر بني مُنجَّاه، ويجتاز إقليميِّ القليوبية والشرقية إلى أن يَصُبّ من فوَّهة الطينة من بين البُرجين إلى البحر المُحيط أيضًا.

---

(1) ث: عشر.

(2) ث: اثني عشر.

(3) هي ترعة حفرها السُّلطان الناصر محمد بن قلاوون، وعُرفت ببحر اللبيني نسبة إلى قرية اللبيني بالجيزية. انظر: الشجاعي: تاريخ الناصر محمد وأولاده، ص١١٤؛ المقريزي: الخطط، ج٤، ص٢١٢.

(4) يُعرف اليوم بفرع رشيد.

(5) يُعرف بـ"بحر أبي المُنجَّا"، حفرهُ الأفضل ابن أمير الجيوش سنة٥٠٦هـ، وتولى حفره أبو المُنجَّا ابن شعيا اليهودي فعُرِفَ به، وأمَّا قناطر هذا البحر فهي من إنشاء السُّلطان الظاهر بيبرس

والثالثة: تُعرف بـ"بحر أبيار"، تفترق من البحر الغربي، تجتاز بجزيرة بني نصر[1]، وترجع تَصُبّ في البحر الغربي أيضًا.

والرابعة: تفترق من البحر الشرقي، تجتاز بالدقهلية والمرتاحية، تُعرف بـ"بحر المنزلة"، وتَصُبّ ببُحيرتها[2].

وببحر النيل خِلجَان وجزائر كثيرة[٣٣ب].

البندقداري سنة٦٦٥هـ. انظر: ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص١٢٨-١٣٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٠٥؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص١٩١؛ ج٣، ص٥٠٧.

(١) تُنسب إلى بني نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن، وأبيار قصبتها. انظر: المقريزي: الخطط، ج١، ص٦١٣.

(٢) عن سير النيل من المنبع للمصب. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٢٨٩-٢٩٢.

[فصل]
في صفة دار المُلك الشريف
وهي قلعة الديار المصرية تُسمَّى قلعة الجبل
وما بها من القصور والعمائر(١)

يُحيط بها سور، وخندق، وأبراج من جهة الجبل، ولها أبواب منها:

باب المدرج: وهو الباب الأصل، يُفتح عند طلوع الفجر، ويُقفل بعد غروب الشمس، ويليه باب من جهة الغرب يُفتح أوقات الخدم الشريف، وباب السلسلة القديم لا يُفتح إلا وقت الضرورة، وباب سر لطيف تحت الطبلخاناه، وباب الإصطبل ويُعرف الآن بـ"باب السلسلة"، يُتوصَّل منه إلى باب السلسلة القديم، يُفتح عند طلوع الفجر، ويُقفل عند غياب الشفق، وباب الميدان يستمر مفتوحًا، وبجانبهِ باب سر لطيف، وبابان أيضًا بالقُرب من باب القرافة: أحدهم مغلوق، والآخر مسدود، وباب من جهة الجنوب يُعرف بـ"حوش العرب"، وباب الدرفيل: يُفتح في كل حين، ومن جميع الأبواب إلى داخل القلعة والإصطبل والميدان نافذ من بعضها إلى بعض.

وبالقُرب من باب المدرج من داخله دار نيابة القلعة، والبُرج الظاهري وهو سجن القلعة، و"خرائب الططر"(٢) سُكنى المُقطعين البحرية وعامة القلعة المنصورة من أرباب المعاش والصنائع.

---

(١) عن خطط القلعة وعمائرها. انظر: ابن عبد الظاهر: الروضة البهية، ص١٣٠-١٣٢؛ العمري: مسالك الأبصار، ص٧٨-٨٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٧٢-٣٧٨؛ المقريزي: الخطط، ج٣، ص٦٥٠-٦٩٨؛ السحماوي: الثغر الباسم، ص٢٨٠.

(٢) ذكر المقريزي أنَّ الصواب: "خرائب تتر"، "وأنَّ العامة تقول: "خرائب التتر" بالتعريف، وهذا خطأ"، وتتر هذا أحد أمراء أسد الدين شيركوه، استولى على الحمام الذي كان بخط دار الوزارة

وبها جامع محمد بن تاج الدين[١]، به خُطبة، وبالقُرب منه الزردخاناه القديمة، وسوق القلعة نيف عن خمسين دُكَّانًا.

ومن الجهة الشمالية سبيل أنشأهُ المَلِك الظاهر برقوق[٢]، بأعلاهُ مكتب للأيتام، وتجاه ذلك دار العدل الشريف بشُبَّاك مُعظَّم، ولهـ[ـا][٣] مُفتي وخُدَّام.

وباب القلعة بوسط الفسحة، بابٌ مُعظَّم، بداخله دهليزين مُعظَّمين: أحدهُما إلى القصر الأبلق[٤] وما هُناك من الأماكن، والآخر إلى الحوش وما هُناك من الأماكن.

قيل: إنَّ بالقلعة نيف [و]ثلاثمائة باب مُحكمة مُصفَّحة بالحديد.

والإيوان المُعظَّم الذي هو تخت المُلك إنشاء المَقام الشريف المرحوم السُّلطان المَلِك الناصر محمد بن قلاوون، بهِ قُبَّة لطيفة حسنة، بجانبها في صدر الإيوان مرتبة مُعظَّمة صِفَةَ المنبر، يجلس عليها المَلِك في أوقات خدمة الإيوان سيأتي بيانه، والإيوان من الرُّخام المُلوَّن، بهِ عُمد كثيرة، يعلوه قُبَّة مُعظَّمة[٥]، داخلها منقوش وظاهرها أخضر، تُرى من بُعد، وبفسحتها صهريج أنشأهُ المَقام الشريف المَلِك الأشرف أبو النصر بَرسْبَاي.

وبالفسحة باب القصر الأبلق المُعظَّم، وهو أعظم القصور وأجلّها، بهِ كرسي المُلك مُطعَّم، وبه إيوانان مُعظَّمان[٦]، مفروش بالرُّخام الملون، وسقفه بالذهب المُموَّه واللازورد، وحيطانه منقوشة بالفُصوص الملونة، وبوسطهِ فسقية عليها طيور من فضة مُطلاة بالذهب، وبداخله القصر الثاني من أحسن القصور[٣٤أ] منظرًا، يُصعد منه إلى القصر الثالث، أحسن من الثاني، يُصعد منه إلى الخرجاة

الفاطمية، فعُرِفَ به وما حوله، وكانت قدر حارة خرَّبها السُّلطان بَرسْبَاي في ذي القعدة سنة٨٢٨هـ. انظر: الخطط، ج٣، ص٢٦٤، ٦٥٢.

[١] من الجوامع المندثرة.

[٢] قال القلقشندي: "وقد استجد الملك الظاهر برقوق بهذه القلعة صهريجًا عظيمًا يُملأ في كل سنة زمن النيل من الماء المنقول إلى القلعة من السواقي النقالات، ورتب عليه سبيلًا بالدركاه التي بها دار النيابة يُسقى فيه الماء، وحصل به للناس رفق عظيم". انظر: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٧٧.

[٣] إضافة لضبط المعنى.

[٤] الزُّبدة ص٢٦: أما القصر الأبلق به ثلاثة قصور شريفة وخرجاه برسم المواكب السلطانية، الجميع مفروش بالرخام الملون، والسقوف المدهونة بالذهب واللازورد والنقوش العجمية، إنشاء المقام الشريف المرحوم الملك الناصر محمد بن قلاوون تغمده الله برحمته.

[٥] الزُّبدة: "وأمَّا الإيوان المُعظَّم فليس له نظير، وهو مكان بمفرده بظاهر القصر، يعلوه قبة خضراء عالية جدًّا، حسنة المنظر...".

[٦] ث: ايوانين معظمين.

التي بها جلوس السُّلطان، مُشرفةٍ على المدينة والفَلاة، وهي عجيبة من أعجوبة الدَّهر.

وقد استعملتُ برسم القصر الثالث المذكور بُسُطًا عجيبة، وأنا نائب السلطنة الشريفة بمَلَطْيَة المحروسة في الأيام الظاهرية، وهو مبسوط بهِ الآن، وكان دهليز القصر الكبير هُدِمَ عمَّرتُه، ولم أصرف عليه شيئًا من الخزائن الشريفة، بل جعلتُ ذلك خدمة من مالي لمولانا السُّلطان المَلِك الأشرف، وأنا إذ ذاك مُباشِر عنده.

وأمَّا الجوامع التي بالقلعة، التي يُخطب بهم يوم الجُمعة:

الجامع الأعظم بوسط القلعة، به منارتان وقُبَّة حسنة[١]، مُتسِع جدًا، وله أبواب من الجهات الثلاث، وبقبلتهِ قناديل من فضة مُطلاة بالذهب، وبجانبها مقصورة بها مرآة يُصلِّي بها المَقام الشريف، ينظُر المار من خلفه، وبالجامع عُمد عجيبة، وصحنه مُتسع جدًّا، يسع خلقًا كثيرة[٢]، والجامع المذكور إنشاء المَقام الشريف المَلِك الناصر محمد بن قلاوون مُنشئ القصور والإيوان المُقدَّم ذكرهم.

وجامع خرائب الطَّطَر المُقدَّم ذكره، وجامع بالحوش إنشاء المَلِك الناصر فرج بمنارة حسنة، وجامع الرِّديني[٣] بمنارة أيضًا، والمؤيدية بسطح الزردخاناه القديمة، وبها منارة أيضًا إنشاء السُّلطان المَلِك المؤيَّد شيخ، وجامع بالإسطبل[٤] [وبه][٥] منارة عجيبة.

وثَمَّ أيضًا بالقلعة مدارس ومساجد.

وأمَّا الحوش، والدهيشاة، والبَحرة، والبُستان فعجيبون.

الحوش مُتَسِع جدًّا، وبهِ بُرج الحَمام البطائق، ودِكَّة برسم جلوس المَقام الشريف عليها، ومقعدان: أحدهم جنوبي، والآخر شمالي، وبدائر الحوش من الجهة الغربية مساكن الأسياد أولاد السلاطين.

---

(١) ث: "منارتين وقبه حسنة"، وقد تهدمت هذه القبة فعمَّرها السلطان قايتباي أفضل مما كانت عليه. انظر: الصوفي: الصفوة، ص١٠٦.

(٢) ث: "خلق كثيرة" وفي الزُّبدة: قيل إنه يُصلِّي فيه خمسة آلاف نفر.

(٣) الزُّبدة ص٢٧: وهناك سيدي الرديني، مكان مُبارك يُزار.

(٤) ب: بالإصطبل.

(٥) إضافة من ب.

والبُستان جنوبيه، به أشجار كثيرة، تُساق المياه إليه وإلى جميع القلعة من النيل بقناة على قناطر وأقنيةٍ من رصاص، وبه بَحرة عجيبة، بوسطها مقعد وعمائر وأواوين حسنة.

والدهيشاة من جهة الحوش صوب الشمال، من أعجب العمائر وأحسنها، عديمة المثل، ليس لها نظير، بها معازل وأماكن حسنة مُختصَّة بالمَقام الشريف في خلواته، وهي إنشاء المَقام الشريف السُّلطان المَلِك الناصر محمد بن قلاوون، وبها تخت صندل بسقط فضة، وقد استعملتُ على قدرهِ مقعدًا من مخمل[٣٤ب] منقوش مُذهَّب، وعُمِلَ بهِ رنوك من زركش وريش باسم المَلِك الأشرف، واستعملتُ أيضًا زوج مقاعد أنطاع غدامسي بحواشٍ كمخا برنوك مُطرَّزة، برسم إيوان الدهيشاة المذكور، فجاؤوا على قانون عجيب، لم يُر لهم نظير، وكُنْتُ إذ ذاك نائب السلطنة الشريفة وناظر الخواص الشريفة بثغر الإسكندرية المحروسة، واستعملتُ أيضًا بُسُطًا شوبكية برسم دور الفسقية وأنا إذ ذاك نائب السلطنة الشريفة بالكرك المحروس.

وأمَّا القِيَاع التي هي مُختصَّة بالآدُر الشريفة[١] داخل باب الستارة سبعة:

الأولى: البيسرية، وهي من أعظم الأماكن اتساعًا، مُزخرفة، تجتمع بها جميع الآدُر عند موكب السُّلطان فيهم على القاعدة القديمة.

القاعة الثانية: الكبرى، وتُعرف بالعواميد[٢]، الثالثة: قاعة رمضان، الرابعة: القاعة المُظفَّرِيَّة، الخامسة: القاعة المُعلَّقة، السادسة: القاعة البربرية، السابعة: القاعة السنيتيَّة[٣].

وبهذه القِيَاع قاعات وطِبَاق عديدة، وباب الستارة يُغلق على الجميع، وهو[٤] باب مُعظَّم.

---

(١) ث: الشريف.

(٢) تم تجديدها في عهد السُّلطان محمد بن قلاوون سنة٧٣٠هـ، وفي عهد السُّلطان قانصوه الغوري سنة٩١٠هـ، وكانت بها مرتبة تجلس عليها الخوند، أنشأتها شجر الدر زوجة الصالح نجم الدين أيوب، وجُدِّدت في عهد السُّلطان محمد بن قلاوون سنة٧٣٠هـ. انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٦٠؛ ج٢، ص٢٩٢؛ ج٤، ص٦٧.

(٣) سيورد المؤلِّف تتمة الحديث عن الآدر في ق١٥٣ب-١٥٤أ، وفي الزُّبدة ص٢٦-٢٧: "وأمَّا القياع المخصوصة بالآدر الشريفة فعديدة، منها: البيسرية وهي مكان خدمة الآدر بها، ومنها القاعة الكبرى وتُعرف بالعواميد برسم خوند الكبرى، ومنها قاعة رمضان بها الخوند الثانية، ومنها قاعة المظفرية بها خوند الثالثة، ومنها القاعة المعلقة وبها الخوند الرابعة، ومنها قاعة البربرية برسم السراري".

(٤) ث: هي.

وأمَّا طِبَاق المماليك الشريفة السُّلطانية اثنتا عشرة[1] طبقة، نذكرهُم على الترتيب:

طبقة الرفرف، وطبقة رأس القصر، وطبقة الطازيَّة، وطبقة الأشرفيَّة، وطبقة الغور، وطبقة الأربعين، وطبقة المُقدَّم، وطبقة الزمنداريَّة، وطبقة السُّنْبُلِيَّة، وطبقة الصندليَّة، وطبقة القاعة، وطبقة البُرهانيَّة، وكل طبقة من هؤلاء بها عِدَّة طِبَاق ومعازل[2].

وأمَّا الميدان والإصطبل اللذان[3] هُما من داخل القلعة، فمُتسعين جدًّا.

وبالإصطبل مقعدان شريفان[4]: أحدهما جنوبي، إنشاء المَقام الشريف السُّلطان المَلِك الظاهر برقوق، بهِ كُرسي المُلك أيضًا، والآخر شمالي، إنشاء المَقام الشريف السُّلطان المَلِك المؤيَّد.

وبالإصطبل إصطبلات كثيرة، يأتي بيانها في وصف الإصطبلات الشريفة في الباب الثامن، وإنما ذكرنا هُنا العمارة خاصة.

والميدان يُسمَّى بـ"الأُسود"، عجيب في اتساعهِ وتمَهُّدِه[5]، وبهِ مقعد شريف.

وأوصاف القلعة، وما بها من العمارات، والأسواق، والحمَّامات، وغير ذلك كثيرة، اختصرتها خوف الإطالة.

وأمَّا ما يتعلَّق بالقلعة من أرباب الوظائف، والبحرية، والحرسية، والمُباشرين، والرَّهجية، والمنجنيقية، والمدافعية، وأرباب آلات السلاح والكنانية، والخُدَّام وأصحاب النُّوب، والجرائحية، والبطائقية[٣٥أ]، والكنانية، والبوَّابين وغير ذلك فعديدة، يأتي بيان نُبذة من ذلك في أبوابه وفصوله.

---

(1) ث: اثني عشر.

(2) الزُّبدة: "كل طبقة منها قدر حارة، تشتمل على عدة مساكن، حتى إنه يمكن السكنى في كل طبقة لألف مملوك"، وعن الحياة والتربية داخل هذه الطباق. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص٦٩١-٦٩٥؛ علي سالم النباهين: نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، ص١٥٣-١٩٩.

(3) ث: اللذين.

(4) ث: مقعدين شريفين.

(5) الزُّبدة: وأما الميدان الشريف المعروف بالأسود فمتسع جدًّا، برسم المُسايرة.

[فصل]
في ذكر مصر والقاهرة المحروستين

وهُما مدينة واحدة، وهي المشهورة "مصر"، تقدَّم أنها من الجُزء الثالث من الإقليم الثالث، وذُكِرَ ارتفاعها عمَّرها الله تعالى، وقد تقدَّم السبب في تسميتها في هذا الباب عند ذكر الديار المصرية والحدود.

وهي مدينة عجيبة كبيرة جدًّا، تُسمَّى عند كثير من الناس "أُم الدُّنيا"، لاتساعها وكبرها وكثرة شوارعها، ومسيرة المدينة من أولها إلى آخرها بَريد[1].

ابتداء ذلك من "التاج والسَّبْع وجوه"[2]، وهو قصر بسبعة أوجه، مفروش بالرُّخام المُلوَّن، إنشاؤه قديم، وقد جدَّد عمارته المَلِك المؤيَّد شيخ، وكان يُقيم في زمن الربيع به مُدَّة، وحوله: مُقطعات من النيل، وقرط، وكتان، وأزهار، وأطيار. هذا من الجهة الشمالية.

وآخرها من الجهة الجنوبية: "الآثار الشريفة النبوية[3]"، وهُناك مسجد يُزار، به من آثار النبي ﷺ: قطعة من قصعته، وميل حديد كان يتكحل به، و[الإ]شفا[4] حديد كان يخصف به نعله، وقطعة من عُكَّازِه،

---

[1] البريد أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال. انظر: المقريزي: الخطط، ج١، ص١٩٩.

[2] هي من بناء الأفضل بن أمير الجيوش، وجدد السلطان المؤيد الخمس وجوه سنة ٨٢٣هـ وترك التاج خرابًا، فأطلق الناس على الخمس وجوه اسم التاج والسبع وجوه، ثم هُدِمَ في شوال سنة٨٤٨هـ. انظر: المقريزي: الخطط، ج٢، ص٥٦٧-٥٦٨؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص١٩١-١٩٢، ١٩٤.

[3] عُرِفَ برباط الآثار. انظر: المقريزي: الخطط، ج٤، ص٨٠١-٨٠٤.

[4] الإضافة من الخطط، ج٤، ص٨٠١.

وشيء من آثاره في كيس، وهو مكان مُبارك من جُملة الزيارات، أنشأ بهِ المَلِك المؤيَّد مقعدًا يتنزَّه بهِ في أيام النيل.

وبجانب ذلك "بِرْكة الحبش": وهي بُقعة حسنة، لها مُفترج حسن في وقت معلوم، يهرع إليه أهل الديار المصرية.

ويلي ذلك "الرَّصد": إنشاء الحَاكِم بأمر الله، والبَرِيم، وبئر شَلَنْدَة[1]، ومساطب الحَاكِم من مُفترجات مصر.

وأمَّا جبل المُقطَّب[2]، وقيل "المُقَطَّم"، فهو يعلو القلعة المنصورة، وهو من أحسن الجبال، مُبارك، وله سطح عجيب في اتساعِه، وبهِ معبد موسى عليه السلام، وبهِ مكان يُسمَّى بـ"العارض، أنشأ بعض الظُّرفاء شعرًا ضَمَّنَ آخره: "حتى الجبل ما خلي قلبه من العارض"[3]، وبهِ مقام المؤمن والجيوشي[4]، ومغاير كثيرة كانت مساكن روميَّة.

وأمَّا القرافة الكُبرى بها جوامع وأسواق وحمَّامات، قيل إنها كانت قديمًا تُقارب في العمارة مدينة الإسكندرية.

وأمَّا القرافة الصُّغرى تُضاهي مدينة حِمْص في الهيئة.

وأمَّا كوم الجارح[٣٥ب] يُقارب مدينة عَكَّة.

وأمَّا مصر القديمة فهي على شرقي بحر النيل، ولها سور وأبواب فاصلة بينها وبين القاهرة، وبها جوامع ومدارس ومساجد كثيرة، أكبرها جامع عمرو بن العاص، وهو مُبارك، وبها حمَّامات وأسواق، تُضاهي مدينة حلب.

---

(١) كذا في ث، ولم أهتد إلى أي شيء عنهما.

(٢) القول الوارد في المتن النُّطق العامي له. انظر: الفضائل الباهرة المنسوب لابن ظهيرة، ص١٩١.

(٣) لم أقف على بيت فيه هذا، والمشهور بيت سبط ابن الفارض: جُز بالقرافة تحت ذيل العارضِ .. وقُل السلام عليك يا ابن الفارضِ. انظر: المقريزي: الخطط، ج٤، ص٨٥٤.

(٤) ث: "الجيوش"، وهو نسبة إلى أمير الجيوش بدر الدين الجمالي، عُمِّرَ سنة٤٨٧هـ. انظر: المقريزي: الخطط، ج٤، ص٨٨٣.

رأيـتُ فـي بعـض "التعـاليق"[1] عـن الفخـر الـوزير أنـه ضـبط مـا بساحلها من المراكب التي تسير ببحر النيل، فكانت ما ينيف عن ألف وثمانمائة مركب.

وبهـا الأهـراء والشُّـوَن[2] السُّـلطانية التـي يُوضـع بهـا الغِـلَال، وهـي عجيبة، سيأتي بيانها.

وبها دار النحاس[3].

وبهـا رَبْـع بَكتَمُـر[4] لـه أربعـة أوجـه. حكـى شـخص مـن الثِّقـاة أنَّ شخصًـا سكنه مُـدَّة، فـاجتمع بشـخص آخـر سبقه فـي السُّكنى بـالرَّبْع المـذكور، فسـأله عـن مسـكنهِ فـأخبرهُ بـذلك. قـال: "مـا عَلِمْـتُ قـطّ"، وهـذه مـن الغرائـب؛ لاتساعهِ وكثرة ما بهِ من السكان.

وبها معاصر ومطابخ برسم قصب السُّكَّر، وبها فُنْدُق الكارم.

وبها قصر الشمع، وهي كنيسة كبيرة.

وبها السد الذي يُقطع كل سنة عند وفاء النيل، سيأتي بيان ذلك.

وأمَّا الكبَّارة[5] فغالب أهلها السودان، وهي تُضاهي مدينة جَعْبَر.

وتجـاه مصـر القديمـة: "الروضـة"، وهـي مكـان حسـن، جزيـرة بوسـط بحر النيل بين مصر والجيزة، تُضاهي مدينة البيرة.

---

(1) لعلها تعاليق الأزهري كما سيذكر المؤلف بعد قليل.

(2) ث: "الشوان"، قال ابن شاهين في الزُّبدة ص٢٨: "وبها شون [الغِلَال] الشريفة السلطانية، التي توضع بها الغِلَال، وهي من أغرب الغرائب؛ لاتساعها وكثرة ما بها من الغِلَال".

(3) من الدور القديمة، اختطها وردان مولى عمرو بن العاص، وانتقلت إلى معاوية بن أبي سُفيان بعد ذلك، ثم تحولت إلى فُنْدُق، ثم دُثِرَت وصار الخط يُعرف بها. انظر: المقريزي: الخطط، ج٢، ص١٦٥.

(4) كان يقع على شاطئ النيل، فلما كانت محن سنة٨٠٦هـ اشتراه شخص وهدمه مع غيره. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص٣٩٠؛ ج٤، ص٨٩٢.

(5) هي من جملة أراضي الحمراء الوسطى بالفسطاط، وتقع على النيل، وكان بجوار الكبارة كوم خرب يُشنق عليه أرباب الجرائم، فبنى الناس عليه وعمَّروه فعُرِفَ بكوم الكبارة. انظر: المقريزي: الخطط، ج٢، ص١٥٨-١٥٩.

وبهـا "المقيـاس"، تـاريخ عمارتـهِ سـنة سـبع ومـائتين، بنـاهُ المـأمون، وجـدَّدهُ المُتوكِّـل، وهـو مكـان شـريف، وبـهِ عـامود بوسـط فسقية يُنـزل إليهـا بسـلالم، معقـود عليـه قُبَّـة، تظهـر زيـادة النيـل ونُقصـانه مـن ذلـك العمـود، وهو مُقسَّم أصابع وأذرع، وبهِ مسجد ومحراب[1].

وأمَّـا "بـولاق"[2]، فإنهـا مـن أحسـن الأمـاكن، وهـي علـى شـاطئ النيـل، ويـرد سـواحلها أكثـر ممَّـا يـرد إلـى سـاحل مصـر القديمـة مـن المراكـب، وبهـا منـاظر والحجازيـة والبارزيـة[3]، وبهـا عمـائر حسـنة، وجوامـع، ومـدارس، ومساجد، وأسواق، وحمَّامات، وفنادق، تُضاهي مدينة طَرابُلُس.

وبجانبهـا جزيـرة الفيـل: بهـا قصـور، ومنـاظر، وعمـارات، وبسـاتين كثيـرة، وخلجان من النيل صفة الأنهُر، سنذكر ما تُضاهيه.

وأمَّـا الجزيـرة الوسـطى[4]: فيهـا مـن العمـائر والبسـاتين مـا يعسُـر ضـبطه، وهي تُضاهي مدينة بعلبك.

وتجـاه بـولاق: قصـر المَلِـك المؤيَّـد بـأرض الـورَّاق، وهـو مـن أحسـن القصور على شاطِّ [٣٦أ] النيل، إنشاء المَقام المُشار إليه.

وأمَّـا أرض الطبَّالـة، والجنينـة، وبِرْكـة الرَّطلـي، وجسـر بُشْـتَيْه، وحِكْـر الشـامي[5]، وغـيط الحاجـب[6]، وخلـيج الناصـري، وقنـاطر الإوز فـذاك مـن أعظـم مُفترجـات الـديار المصـرية، وبهـذه الأمـاكن مـن الجوامـع، والمـدارس، والمسـاجد، والعمـارات، والحمَّامـات، والأسـواق، والبسـاتين، والمراكـب مـا لا يُمكن حصره، وذلك[7] تُضاهي مدينة بغداد في وقت عمارتها.

---

(1) عن الروضة والمقياس. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص٥٦٨-٥٨٨.
(2) تُعرف ببولاق القاهرة تمييزًا لها عن بولاق التكرور.
(3) الزُّبدة ص٢٨: "وبه منظرة المقر الأشرف البارزي والحجازية"، وقال الصوفي: "... ومتنزهات كمنظرة المرحوم البارزي والحجازية والبرابخية والقطينية والطنبدية". انظر: الصفوة، ص٩٤-٩٥.
(4) تُعرف بجزيرة أروى. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص٥٩٤.
(5) لم أقف على خبرهما.
(6) أنشأه الأمير بيبرس الحاجب الناصري بجوار قنطرته التي على الخليج الناصري ظاهر أرض الطبالة. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص١٥٩، ٢٥٦.
(7) لعل الصواب: وتلك.

وأمَّا الحُسينية فهي أكثر عمائر ممَّا ذكرناه من هذه الأماكن[١]، وهي تُضاهي مدينة غَزَّة.

وأمَّا الجوشن وما حوله يُضاهي مدينة البَهَسْنَة[٢].

وأمَّا الصحراء مع ما يُضاف إليها من التُّرب والعمائر، وخليج الزعفران[٣]، والمطرية، وتلك البساتين تُضاهي مدينة سيواس[٤].

وأمَّا القاهرة المحروسة فهي من أعجب العجائب، يشتمل عليها سور بشرقيِّه خندق، والسور يشتمل على عِدَّة أبراج.

رأيتُ في "تاريخ ابن خلكان" أنَّ قراقوش أمر بعمارته[٥]، ولا أعلم هل هي العمارة الأصلية أو ترميم؟[٦]

ورأيتُ في كتاب "المهاد في أسماء البلاد"[٧] أنَّ جوهر غلام المُعز العبيدي هو الذي أمر بعمارته.

وللقاهرة ثلاثة عشر بابًا، أجلُّها باب زويلة، وبقية الأبواب نصفها، وهي: باب سعادة، وباب قبو الذهب، وباب الفرج، وباب الشعرية، وباب الفتوح، وباب النصر، وباب الصحراء، وباب البرقية، وباب الجديد، وباب المحروق، وباب الوزير، وباب سر يُعرف بزويلة[٨].

---

[١] الزُّبدة ص٢٨-٢٩: "الحسينية: وهي متسعة، كان يسكنها قديمًا كثير من الأمراء، حكى بعض الثقاة أنه أُخبِرَ من أبيه أن كان يسكن في الحسينية من جملة الأمراء ثلاثين أميرًا تدق على أبوابهم الطبلخانات في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون".

[٢] الزُّبدة: "وبها الجوشن وما حوله من العمائر الشاهقة، مع ما يُضاف إليه من الخليج اللؤلؤي يُضاهي مدينة قلعة الروم".

[٣] كان يتفرع من الخليج الكبير، ويسير باتجاه الريدانية(العباسية)، ويمثل مسار الخليج شارع العباسية الآن، ويستمر في مساره شمالاً في شارع الخليفة المأمون ثم يخترق أراضي منشية البكري وسراي القبة والزيتون والمطرية حيث كان يروي أرضها، وربما كان منتهيًا هناك. انظر: محمد الششتاوي: متنزهات القاهرة، ص٢٢٤-٢٢٦.

[٤] الزُّبدة: "تُضاهي مدينة مَلَطْيَة"، وسيواس اليوم عاصمة محافظة سيواس بتركيا.

[٥] وفيات الأعيان، ج٤، ص٩١.

[٦] كانت تجديد، فأول بناء له كان في عهد جوهر الصقلبي، ثم أعيد بناءه في عهد أمير الجيوش بدر الجمالي أيام الخليفة الفاطمي المُستنصر، والبناء الثالث كان في عهد بهاء الدين قراقوش. انظر: المقريزي: الخطط، مج٢، ص٢٥٤.

[٧] لم أقف عليه.

[٨] عن أسوار وأبواب القاهرة. انظر: المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٥٤-٢٨٣.

ورأيتُ بكتاب "سكردان السُّلطان" أنَّ كافور الأخشيدي أو مَلِك مصر جوهر المُعِزّي[1] طلب المُنجِّمين وأرباب التقاويم، وأمرهم أن يختاروا طالعًا بسبب عمارة السور، فاصطنعوا أخشابًا بلولب بهِ خيط يدور عليهم، وباللولب جرس كبير، وأمروا البنائين أن يأخذوا بأيديهم الحجارة، وعندما يتحرك الجرس يلقوها بالأساس، ورصدوا الطالع، فاتفق وقوع غُراب على ذلك اللولب فتحرك الجرس، وألقت البنائون الحجارة، فصاحت المُنجِّمون: "لا لا. القاهر في الطالع"، فمضى ذلك، وخانهم ما قصدوه، والقاهر عند المُنجِّمين هو المريخ، فسُمِّيت بـ"القاهرة"[2].

وبها بيمارستان ليس له في الدُّنيا نظير، إنشاء المَلِك المنصور [٣٦ب] قلاوون.

رأيتُ في بعض "التعاليق"[3] للأزهري أنَّ المَلِك المنصور المُشار إليه أوقف على البيمارستان المذكور أوقافًا مُتحصِّلها في كل عام أربعون ألف مثقال ذهب، وجعل منها أربعة آلاف مثقال لعمارته وخُدَّامه، وستة وثلاثون ألف مثقالًا، ضريبة كل يوم مائة مثقال للأدوية والأطعمة والأشربة[4]، ولولا خشية الإطالة لذكرتُ نُبذة ما بهِ من الغرائب.

وبالقاهرة جوامع كثيرة[5]، أجلّها "جامع الأزهر"، وهو مُبارك لا يخلو من أولياء الله.

وبها مدارس، ومساجد، وأسواق، وحمَّامات، وفنادق ما يعسر ذكره، والقاهرة وجزيرة الفيل المُقدَّم ذكرها تُضاهيها دمشق.

وأمَّا الناصرية وما بها من البِرْكة المُعظَّمة، والميدان الأعظم وما بهِ من القصور، والمريس وما بهِ من البساتين والخِلجَان، وما يُضاف إلى

---

(١) القصة وقعت لجوهر المعزي لا كافور.

(٢) السكردان، ص٣٥.

(٣) لم أقف عليها.

(٤) أضافت الزُّبدة: "ولم أعلم ما هو عليه الآن"، وعن أوقافه. انظر: محمد محمد أمين: وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري، ص٢٩٥-٣٩٦.

(٥) انظر الزُّبدة، ص٣٠-٣١.

ذلك من المناظر كمنظرة شيخون والخليلي وقرقماس وغير ذلك، والزريبة وما يحتوي عليه من الخِلجَان والبِرْكة والقناطر، وما هُناك من العمائر تُضاهي مدينة حَماة.

وأمَّا مِن هذا الحد المذكور من الجهة الشمالية إلى باب الشعرية، والمَقْس، وميدان القمح، والدِكَّة، وباب اللُّوق[1]، وما هُناك من العمائر تُضاهي مدينة سمرقند[2].

وأمَّا من ظاهر باب زويلة إلى الصليبية إلى بِرْكة الفيل إلى قناطر السِّباع إلى جامع بَشْتَك إلى باب الخَرق[3] إلى جامع قوصون إلى باب الوزير[4]، وما يحتوي عليه تلك الدائرة من العمائر تُضاهي مدينة بُرْصَا، بل أكبر[5].

وأمَّا جامع طولون فهو جامع عظيم، حتى إنَّ كثيرًا من الناس يُشبِّهونه بحرم مَكَّة- زاد الله شرفها- في الهيئة لا في الحُرمة، وله أبواب كثيرة، ومنارة درجها حلزون من ظاهرها، والسبب في عمارتها على تلك الهيئة على ما نُقِل أنَّ أحمد بن طولون كان صاحب الديار المصرية، وكان جالسًا بين خواص مملكته، وكان بيدِهِ مرسوم فجذبه سهوًا، فكان في غاية معقوله أنه استدرك في المجلس، وطلب

---

(1) الدكة تقع شرق أرض اللوق بجوار المقس، وباب اللوق مُجاور لجامع الطباخ المطل على بركة الشقاف. انظر: المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٨٩.

(2) الزُّبدة: "ومنها أماكن متفرقة من باب الشعرية إلى المَقْس إلى ميدان القمح إلى الدِكَّة تُضاهي مدينة سمرقند، ومنها باب اللُّوق وتلك النواحي تُضاهي مدينة سيواس"، وأضافت الصفوة ص٩٩: "وأما ما أنشأهُ المقر الأشرف الأتَابِكي أُزبك المسماة باسمه فهي بديعة، فريدة في الحُسن، لم يوجد في البلاد ما يُضاهيها من حسن بنائها وكثرة سكانها".

(3) هو المعروف اليوم بباب الخلق، وكان يقوم على رأس الطريق الموصلة من باب زويلة إلى ميدان باب الخلق المعروفة الآن بشارع تحت الربع. انظر: علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج٣، ص٢٠٦؛ عبد الرحمن زكي: موسوعة مدينة القاهرة، ص٢٠.

(4) أحد أبواب القاهرة في سورها الشرقي، في المسافة بين الباب المحروق وقلعة الجبل، أنشأهُ الوزير محمود بن علي بن شروين سنة٧٤٢هـ، ولهذا عُرف بباب الوزير، ولا يزال موقع هذا الباب قائمًا إلى اليوم. انظر: المقريزي: الخطط، ج٤، حاشية١، ص٢٦٦.

(5) الزُّبدة: "ومنها أماكن أيضًا من باب زويلة إلى باب الوزير إلى الصليبية إلى قناطر السِّباع بما تحتوي عليه من بركة الفيل وجامع قوصون وجامع بشتك والشيخونية وجامع المارداني ومن بينهما تُضاهي مدينة بُرْصَا، بل أعظم".

المهندسين، وأمر ببناء المنارة المذكورة على هذه الهيئة، لئلا يُنسب إليه العبث الذي لا فائدة فيه، وهذا من نهاية العقل والناموس.

وما اشتملت عليهِ تلك الدائرة مثل: حَدْرَة ابن قَمِيْحَة[١]، والمراغة[٢]، وما يشتمل عليهِ من دائرة السيدة نفيسة[٣٧أ]: النَّقْعَة[٣] وحلقوم الجبل[٤]، وما هُناك من العمائر يُضاهي مدينة القِرْم[٥].

وأمَّا الكَبْش وما يحتوي عليه يُضاهي مدينة كَرَك الشَّوْبَك[٦].

وأمَّا القُبَيْبَات[٧] وما يشتمل عليه تلك الدائرة من العمائر يُضاهي مدينة الرَّملة.

وأمَّا شقة الجبل، والعمائر التي بها إلى عمر بن الفارض، وإخوة يوسف عليه السلام، وجامع محمود[٨]، وما يحتوي عليه تلك الدائرة تُضاهي مدينة حَبْرون[٩].

وأمَّا القلعة المنصورة فهي في الهيئة لا في الحُرمة تُضاهي القُدس الشريف.

وأمَّا الرُّمَيْلَة وما يشتمل عليه إلى باب القرافة إلى الصليبة إلى المصنع إلى باب المدرج، مع ما يُضاف إلى ذلك من بساتين الوزير[١٠] يُضاهي مدينة أَرْزَنْكَان[١١].

---

[١] يُقصد بها قطائع ابن طولون. انظر: المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢١١.

[٢] هي المنطقة التي بها درب السِّباع، الذي به مشهد السَّيِّدة نفيسة. انظر: علي مبارك: الخطط ج٢، ص١٩٠.

[٣] يقع بالقرافة الكبرى، وهو مصلى المعافر على الجنائز. انظر: المقريزي: الخطط ج٤، ص٨٥٣، ٨٥٦.

[٤] يقصد جبل المُقَطَّم.

[٥] الزُّبدة: "... حَدْرَة ابن قَمِيْحَة، والمراغة، ودائر السَّيِّدة نفيسة والنَّقْعَاء تُضاهي مدينة القِرْم، ومنها حلقوم الجبل، وما به من العمائر يُضاهي مدينة بَهَسْنَا".

[٦] الزُّبدة ص٣٠: "ومنها الكبش وما يحتوي عليه بما في ذلك من قصر يلبُغا الكبير ومنزله والحدرة والقطع الذي في الجبل يُضاهي مدينة كرك الشوبك".

[٧] من جُملة أرض القطائع، قُرب الجامع الطولوني. انظر: المقريزي: الخطط، ج٢، ص٨٠، ١٦٨.

[٨] هذه الأماكن مُجاورة لبعضها بالقرافة الكبرى بجوار جبل المُقَطَّم.

[٩] الزُّبدة: "مدينة حبرون المعروفة بسيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام".

[١٠] ث: "الوزيري"، عُرفت بالوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي، وتقع في الجهة الجنوبية من بركة الحبش، وهي قرية فيها عدة مساكن وبساتين كثيرة، وبها جامع تقام فيه الجمعة. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص٥٢٣.

[١١] الزُّبدة: "تُضاهي مدينتي توقات وأماسي".

وأمَّا مدرسة السُّلطان المَلِك الناصر حسن فهي من أعظم المدارس وأجلّها، حتى إنه كل من رآها من المُسافرين يقول: "ما رأيت مثلها أبدًا". تشتمل على قُبَّة تُضاهي قُبَّة الصخرة، ظاهرها مُصفَّح بالرَّصاص، وباطنها مُموَّه بالذهب واللازورد، وبأعلى المدرسة منارتان عجيبتان[1] إلى الغاية، ينظُرها الرائي من مسيرة يوم، وسُمْك جُدران كل منارة عشر أذرع، وأمَّا سُمْك جُدران المدرسة يُقارب عشرين ذراعًا[2].

ورأيتُ نُكتة من الغرائب أحببتُ ذكرها أنَّ شخصًا كان فرنجيًّا وأسلم، نصب حبلًا من الأشرفية[3] بالقلعة المنصورة إلى أحد المنارتين، وهو نحو ميل، ومشى على الحبل بالأربع، وبيده مكاحل وقوس جرخ، فتارة يصرخ بالمكاحل، وتارة يرمي بالجرخ، وأهل الديار المصرية يتفرَّجون عليه[4].

وبوسط المدرسة مفروش بالرُّخام المُلون، وكذلك بالقُبَّة، وشبابيك القُبَّة من قبلي المدرسة داخلًا من النحاس الأسبادريَّة، مُكفَّت بالذهب والفضة العجيب، والمدرسة تشتمل على أربع أواوين يُدرَّس بها على الأربع مذاهب.

قيل إنَّ المَلِك الناصر السُّلطان حسن لمَّا أراد عمارة هذه المدرسة سأل أرباب التواريخ وقُدماء الهجرة والمُسافرين عن أعظم العمائر وأعلاها، قيل له: "إيوان كسرى"، فأمر بعمارة هذه الأربع أواوين، وجعل كُلًّا منها أعلى من إيوان كسرى، وقال: "قصدي أُعمِّر هذه العمارة للهِ تعالى

---

(١) ث: منارتين عجيبتين.

(٢) الزُّبدة ص٣١: "ثمانية عشر ذراعًا بالمصري... قيل إنَّ متحصل وقفها في كل سنة نيف عن متحصل مملكة ضخمة".

(٣) الزُّبدة: "سطح الطبقة الأشرفية".

(٤) الزُّبدة ص٣٢: "فلما وصل إلى نصف الحبل وأهل الديار المصرية مجتمعون ينظرون إليه ألقى بنفسه فصاح القوم كلهم، وكان بيده حبل دقيق مربوط بالحبل المنصوب فتعلق به وصعد، وصاح وصلى على النبي ﷺ".

وهذه الحادثة كانت في يوم الثلاثاء حادي عشر ربيع الآخر سنة٨٢٩هـ، والإفرنجي يُسمَّى يُشبك الجركسي، وسبقتها واحدة في ربيع الأول من السنة نفسها. انظر: المقريزي: السلوك، ج٤، ص٧١٣-٧١٤، ٧١٦-٧١٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٣٤٨؛ عبد الباسط الحنفي: نيل الأمل، ج٤، ص١٩٢.

لم يكن أحد سبقني لأعظم عمارة [٣٧ب] منها"، فساعدهُ المقدور والعناية الربانية، وكان كما أراد.

وأمَّا الحكورة التي بالديار المصرية الخارجة عمَّا ذكرناه كثيرة جدًّا[١]، يعسُر ضبطها[٢].

وأمَّا الريدانية فمُتسعة جدًّا، وبها مسطبة المطعم من أعظم الهيئات لجلوس المَقام الشريف في أوقات يأتي بيانها، وكذلك لكلٍّ من الأُمراء مُقدَّمي الألوف مسطبة. هذا إذا كان من الأعيان.

وقد ذكرنا بعض صفاتها، ولم نستوعب سائر أماكنها وجهاتها، ولو فعلنا ذلك لكثر الشرح وطال، وأفضينا إلى الضجر والملال، ونسأل المُسامحة والمعونة من الكبير المُتعال ببركة سيدنا محمد خير البريَّة والآل.

---

(١) عن هذه الأحكار. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص٣٧٨-٤٠٢.

(٢) الزُّبدة ص٣٠: "ومنها الحكورة التي هي متفرقة. قيل إنَّ عدتها أربعة وعشرون ألف حكر، فقسم ذلك من له خبرة بما سيأتي من المدن، وهي عشرة: هراة، وتبريز، وسُلطانية، وأصفهان، وشيراز، ويزد وكرمان، وأدرنة، وقصطمانية، وكنية، وفي الحقيقة لوقسمت مصر والقاهرة وما يشتملان عليه على التحرير لزادت بجملة، وسمعتُ من لفظ من يعتمد على قوله أن لو حررت هذه الأماكن لزادت عن مدن كثيرة عمَّا ذكرناه".

[فصل]

[ذكر أقاليم الديار المصرية]

وأمَّا بلاد الديار المصرية فإنها تشتمل على أربعة عشر إقليمًا بالوجه القبلي والبحري، وثلاثة أقاليم مُفردة، والمُستفيض على ألسنة الناس أنَّ كل إقليم منها يشتمل على ثلاثمائة وستين بلدًا، وبكل إقليم عِدَّة مُدُن وبلدان كراسى، وولاة أمور بالشرع الشريف والسياسة.

[أقاليم الوجه القبلي]

فأمَّا الوجه القبلي[1] فابتداؤه من الجيزة، وانتهاؤه الجنادل مكان انحدار النيل.

والجيزة: إقليم ذو بَرَّين[2]، يُزرع بها قصب السُّكَّر، والقُلْقاس، والقُرْط- وهو البرسيم- برسم خيول الجيش المنصور.

وبالإقليم المذكور الأهرام، وعِدَّتها ثمانية عشر هرمًا، الهرم مُثلث الوجوه، في مُقابلة مصر ثلاثة أهرام، أكبرها في كل وجه خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة، ويُعرف بـ"هرم المأمون"[3]، لأنه ذهب إلى الأهرام المذكورة حتى شاهدها، وفتح منها واحدًا وهو ألينها حجارة، وكل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعًا طولًا والغلظ عشرة أذرع، وقد أُحكِم نحته وتسويته وإلصاقه ما لا

---

(1) عن أقاليم الوجه القبلي. انظر: الإدفوي: الطالع السعيد، ص٧-٤٥؛ العمري: التعريف، ص٢١٩-٢٢٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٨٠-٣٨٤؛ ابن دقماق: الانتصار، ج١، ص١٢٦-١٣٦؛ ج٢، ص٢-٣٥؛ ابن الجيعان: التحفة السنية، ص٤-٥، ١٣٨-١٩٥.

(2) الزُّبدة ص٣٢: "... والنيل جار بينهما، والغربي أعرض من الشرقي".

(3) هو هرم الملك خوفو، ولا تزال فتحة المأمون موجودة إلى اليوم.

يستطيع النَّجَّار أن ينحت صندوقًا من الخشب على وضعه وهيئته، وغِلْظ حائطهِ حيثُ فُتح الباب أحد عشر حجرًا، كل حجر عرضه عشرون ذراعًا.

وذُكِرَ أنَّ رجُلًا ثقة من أهل الجيزة دخل في سنة سبع وخمسين وخمسمائة، فوجد داخله قُبَّة مُربَّعة الأسفل مُدوَّرة الأعلى كبيرة، في وسطها بئر عُمْقُه مقدار عشرة أذرُع وهي مُربَّعة، ينزل الإنسان في تلك البئر فيجد في كل وجه من تربيع البئر [٣٨أ] بابًا يُفضي إلى دار كبيرة فيها موتى من بني آدم عليهم أكفان كثيرة، وعلى كل واحد منهم أكثر من مائة ثوب قد اخترُقَتْ لطول الزمان واسودَّت، وأولئك الموتى أجسادهم مثلنا ليسوا طوالًا. يُقال إنهم وُضِعُوا هُناك في زمن إدريس‌عليه السلام صيانة لأجسادهم عن الطوفان الذي كان بعدهم في زمان نوح‌عليه السلام، ولم يسقط من أجسادهم ولا من شعورهم شيء ليس فيهم شيخ ولا من شعره أبيض أو في شعره شيب البتَّة، وهُم أجساد كثيرة جدًّا لا يقدر الإنسان أن يُزيل منهم عضوًا من أعضائهم، ولكنهم جفُّوا حتى صاروا كالقَنَى خِفَّة لطول الزمان، وخاصية أرض مصر أنَّ الموتى لا تفنى تحتها من أي حيوان كان، وفي تلك البئر أربعة من الدُّور مملوءة بأجسادهم، في كل وجه من تربيع البئر باب يُدخل منه إلى الدار من تلك الدُّور، وفيها من الخُفَّاش ما لا عدد له، وإنما يدخل الإنسان إلى داخل تلك الدار بالمشاعل بالنفط والحشيش اليابس يشدونه حِزَمًا كالشمع، ويُشعلون فيه النار لأجل الخُفَّاش، لأنهم إذا دخلوا بالشمع والسراج أطفأتها الخُفَّاش بأجنحتها، لكثرتها تلقي أنفسها في النار لتطفئها، وكانوا يدفنون أيضًا جميع الحيوان في الرَّمل.

قال راوي هذه القصة(١): لقد وجدتُ يومًا ثيابًا ملفوفة حِزمَة، وقد احترقت تلك الثياب من القِدَم، فأزلتُ تلك الثياب المُحترِقة إلى أن ظهر لي بعدها ثياب صِحَاح قوية بيض من كتان أمثال العصائب، فيها أعلام من حرير أحمر، وفي داخلها هُدهُد ميّت لم يتناثر ريشه ولا شيء من جسده، كأنه قد مات الآن، وفي القُبَّة التي في الهرم باب يُفضي إلى علو الهرم، كأنه سبب الرَّحى(٢) الذي يَنصبُّ فيه الماء على الرَّحى، عالٍ لا يُرى أعلاه، وليس فيه درج، وعرضه خمسة أشبارًا ونحوها. يُقال إنه صُعِدَ فيه، فأفضوا إلى قُبَّة صغيرة، فوجدوا

---

(١) هو أبو حامد محمد بن عبد الرحيم الغرناطي، المتوفى سنة٥٦٥هـ.

(٢) ث: الرحا.

صورة آدمي من حجر أخضر كالدهنج، فأخرجوا تلك الصورة إلى المأمون فوجدوها مُطبقة كالدواة ففتحوها، فوجدوا فيها آدميًّا عليه[٣٨ب] درع من ذهب مُزيَّن بأنواع الجواهر، وعلى صدره نصل سيف لا قيمة له، وعند رأسِه حجر ياقوت أحمر كبيضة الدجاجة، يُضيء كلهب النار، فأخذهُ المأمون، وقال: "هذا خير من خراج الدُّنيا ألف سنة".

قال لي رجُل من الثِّقاة رأى في بعض التواريخ مكتوبًا "بُني الأهرام والنسر الطائر في بُرج السرطان".

قال الرَّاوي: وقد رأيتُ الصنم الذي أُخرج منه ذلك الميت مُلقى عند باب دار المُلك بمصر، وهي دار السُّلطان الذي كان بها في سنة إحدى عشرة وخمسمائة.

وعند مدينة فرعون موسى عليه السلام أهرام أكبر وأعظم ممَّا قبله، وآخرها هرم يُعرف بـ"هرم ميدوم" كأنه جبل، وهو خمس طبقات، الطبقة الفوقانية كأنها قلعة على جبل[١].

ويلي ذلك إقليم الفيوم، ولا يُدخل إليها إلا من صحراء، والجبل دائر بينها وبُحيرتها، وفصل تلك نحو يوم، وتقع[٢] مدينتها حيثُ الطول ثلاثة وخمسون درجة، والعرض ثمان وعشرون درجة وثمانِ دقائق، ونهر يوسف عليه السلام يقسمها نصفين، ويمر عنها حتى يَصُبّ في البحيرة المعروفة بالفيوم، وهي كثيرة السمك والطير.

وقيل: إنَّ يوسف عليه السلام دبَّر الفيوم، ووضع فيها على ذلك الماء الذي أخرجه من النيل ضياعًا على عدد أيام السنة، وهي كثيرة الغِلَال، والسُّكَّر، والكتَّان، والفواكه، والرطب، والطير، والسمك، والأوز، وبالفيوم تماسيح كثيرة، وقد أُصِيدَ تمساح في وقت فقيس طوله من أنفه إلى ذَنَبِه ثلاثة عشر ذراعًا ونصف.

وقد خربت بلدان كثيرة بهذا الإقليم، لاتساع مياه البِرْكة المذكورة وزيادتها، وقيل: إنه كان للبِرْكة المذكورة منفسًا يتصرف منه الماء فاستد، وحصل الخراب بهذا المُقتضى[٣].

---

(١) انظر: الغرناطي: تحفة الألباب، ص١٠٣-١٠٤؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٣١٣-٣١٤، ٣٢٤.

(٢) ث: يقع.

(٣) الزُّبدة ص٣٢: "إقليم الفيوم وبحره يجري دائمًا، ويقسم الماء منه في مقاسم كمثل دمشق، وفيه مدينة كبيرة تُعرف بسيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام، غالبها خراب، جار بوسطها البحر

الإقليم الثالث "البهنساوية": وهو منسوب إلى مدينة البهنسة، وهي مدينة كبيرة بها عمائر كثيرة،ويُعمل بها الستائر البهنساوية، وكثير من الغِلَال تُجلب منها إلى الديار المصرية.

الإقليم الرابع "الإطفيحية[1]": ومدينتها إطفيح بالبر الشرقي، مُتصل إلى ضواحي مصر، ثم يرجع إلى البر الغربي.

والإقليم الخامس "الأُشمونين": بهِ مدينتان: أحدهما الأُشمونين المنسوب إليها الإقليم، ومُنية بن خَصيب[2]، ويُجلب من هذا الإقليم حطب[٣٩أ] الشعشاع، والطرفاء، والقرطم وزيته، والكتَّان وبذره[3] وزيته، وغلال كثيرة، غالبها الباقلاء وهو الفول.

الإقليم السادس"الأسيوطية": منسوب إلى مدينة أسيوط[4]، وهي أعظم مُدُن الوجه القبلي، بها عمائر كثيرة[5].

ومدينة منفلوط من الإقليم المذكور، لها قُرى تُنسب إليها، يُقال: "المنفلوطية نحو ثلاثين بلدًا"، حتى غالب الناس يظنُّون أنه إقليم بمُفرده، وهي جارية في ديوان الدولة الشريفة[6]، ويُعمل بها حلوى من حِنْطَة خاصة تُسمَّى "نيدة"، وغلالها فالحة جدًّا.

المذكور، موضع منبعه مكان يُعرف بالمنشية، وانتهاؤه إلى بُحيرة مالحة، وبه تماسيح كثيرة، وبه أشجار وأثمار كثيرة"، وعن أثر مياه البركة في خراب الفيوم. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٩٧-٣٩٨؛ السحماوي: الثغر الباسم، ص٢٨٣.

[1] وتُكتب "إتفيح"، وهي بالكسر ثم السكون وكسر الفاء، وياء ساكنة وحاء مهملة. انظر: البغدادي: مراصد الاطلاع، ص٢٣.

[2] وتُكتب: مُنية ابن خصيب، ومُنية أبو الخصيب، ومُنية بني الخصيب. انظر: ابن دقماق: الانتصار، ج٢، ص٢٢.

[3] ث: بزره.

[4] قال القلقشندي: "وإثبات الألف فيها هو الجاري على ألسنة العامة بالديار المصرية، والثابت في الدواوين حذفها". انظر: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٠٠.

[5] الزُّبدة ص٣٣: "وإقليم أسيوط منقطع رمالٍ ونحاجر مسيرة ثلاثة أيام، وغربي الإقليم المذكور بلاد النوبة".

[6] قال القلقشندي: "المنفلوطية وهو مُصاقب لعمل الأُشمونين من جنوبيه، وهو من أخص خاص السُّلطان الجاري في ديوان وزارته، ومنه يُحمل أكثر الغلال إلى الأهراء السُّلطانية بالفُسطاط". انظر: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٩٩.

نقل شخص ثقة أنه رأى في بعض مخازيم[1] مُتحصِّل الغِلَال بالشُّونة المذكورة في أيام المَلِك الأشرف شعبان بعد الغلاء الواقع[2] في ذلك الوقت، فكان مُتحصِّلها ألف ألف ومائة ألف وخمسون ألف إردب[3]، وكان زُرَّاع غالب أرضها العُربان الرَّحَّالة من البيداء، يرحلون عند نهاية الغِلَال.

وأُخبِرتُ أنَّ شخصًا كان مؤذِّنًا بالمدينة المذكورة زرع بها فدانًا بذر فيه ثُلثي إردب حِنْطَة برسم قوت عياله، فلمَّا انتهى وذَرَّاه، اعتبرهُ فوجده خمسة وعشرين إردبًّا، أربع وعشرين[4] عليقة، وأوصاف هذا الإقليم كثيرة اختصرتها.

ويلي ذلك من الجهة الغربية "إقليم الواحات": وهي خارجة عن الأقاليم السبعة التي بالوجه القبلي، لأنها على انفرادها، بينها وبين الأقاليم المذكورة مُنقطع جبال ورمال أقفر، وبلاد النوبة غربيها، وبالواحات قلعة حصينة، ويُجلب من الإقليم المذكور الشب والزاج والتمر، كثير المياه والنخيل، وبهِ مدينة[5] تُعرف بالإقليم، بها عمائر كثيرة.

ويلي إقليم الأسيوطية وجانب جبال الإقليم المذكور "إقليم القوصية": وهو سابع إقليم [بـ]ـالوجه القبلي. أعظم مُدُنه "قُوص"، المنسوب الإقليم إليها، بها عمائر كثيرة جدًّا، وهي عجيبة[6]، وبالإقليم المذكور مدينة "أسوان"، بها تَمْر كثير، حتى إنَّ كل أحد من سُكانها يُحصِّل في السنة مائة إردب.

ويليه ذلك الإقليم "بلاد الكُنوز": وهي مُتسِعَة، وأهلها سُمر الألوان.

ويلي ذلك الجنادل، وهو مكان انحدار النيل[7]، وليس هذان[8] بأقاليم، وإنما هُما بلاد، وتارة أهلها ينطاعون لحاكم الوجه القبلي، وتارة لا، فما كان من الجنادل إلى

---

[1] جمع مخزومة، وهي دفاتر أو أوراق فيها حساب. انظر: النويري: نهاية الأرب، ج٨، ص٢٧٤.

[2] سنة ٧٧٧هـ.

[3] الزُّبدة: ذكر واحد من الثقات أنه اطلع على متحصل الغلال المستخرجة من البلاد المذكورة الموضوعة في الشون السلطانية بمدينة منفلوط ألف ألف ومائة وخمسين ألف إردبًا.

[4] ث: وعشرون إردبًا، أربعة وعشرون.

[5] في الزُّبدة هي مدينة الواح.

[6] الزُّبدة: "وإقليم القوصية به مدينة قوص، وهي مدينة عظيمة جدًا، وهي أعظم مدن الصعيد، يرد إليها التجار من البلاد الجنوبية الواصلون في المراكب من البحر المالح إلى القصير تجاه جُدَّة".

[7] أضافت الزُّبدة: "من جبال صُمّ، وهي آخر الديار المصرية".

[8] ث: هذين.

الأُشمونين يُسمَّى "الصعيد الأعلى"، وما كان[٣٩ب] منه إلى الجيزة يُسمَّى "الصعيد الأدنى".

وببلاد الصعيد مُدُن خراب، من جُملتها:

مدينة "الأَنْصِنَه"[١]، بها عُمد كثيرة، وهي عجيبة من العجائب.

وجبل الطير يحج إليه الطير في كل سنة، وبهِ ثُقب يأتون إليه يُدخِلون مناقيرهم فيه، فإذا قبض على ثلاثة[٢] مناقير تكون تلك السنة خِصْبَة جدًّا، وإن قبض منقارين أيضًا فتلك السنة كذلك، وإن قبض مُنقارًا واحدًا فتكون تلك السنة مشحَّطة، وإن لم يقبض فتكون تلك السنة غلاء جدًّا[٣].

الطيلمون[٤] يدخل في النيل فينزعج الماء بسببهِ في المكان الضَّيِّق انزعاجًا شديدًا، يتحدَّر منه المراكب، وفي جنوبهِ **جبل طالوت**، وهو مُمتد فوق الواحات، يُقال إنَّ فيه مطالب كثيرة، **وجبل اللازورد** زعموا أنَّ فيه معدن اللازورد، ولكن منع من استخراجهِ طلسم.

وببلاد الصعيد كنائس وديور كثيرة، وغالب فلاحيها نصارى[٥].

وأمَّا "القُصير" فهو مورد المراكب الواصلة من جُدَّة إلى قوص.

[أقاليم الوجه البحري]

وأمَّا الوجه البحري[٦]**:**

فأول ذلك "إقليم القليوبية": أعظم مُدُنها "قليوب" المنسوب إليها الإقليم، وهي كبيرة، كثيرة العمائر والبساتين[٧]، وبها خيار شنبر يُجلب إلى غالب الإقليم، وهي جارية بديوان الدولة الشريفة.

---

(١) وتُكتب: "أنصنا". انظر: المقريزي: الخطط، ج١، ص٥٥٤-٥٥٥.

(٢) ث: ثلاث.

(٣) عن ذلك. انظر: الهروي: الإشارات، ص٤٢-٤٣.

(٤) هو جبل الطير. انظر: الإشارات، ص٤٢؛ الزُّبدة، ص٣٧.

(٥) الزُّبدة: "ويقال إنَّ بالصعيد من الكنائس والديورة قريب ألف، وغالب أهلها نصارى".

(٦) الزُّبدة: "وأمَّا الوجه البحري فكل ما كان من الديار المصرية إلى سواحل البحر المحيط"، وعن أقاليم الوجه البحري. انظر: العمري: التعريف، ص٢١٩-٢٢٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٩٦-٤٠٢؛ ابن دقماق: الانتصار، ج٢، ص٤٢-١٢٧؛ ابن الجيعان: التحفة السنية، ص٣-١٣٨.

(٧) الزُّبدة: "وهي مدينة كبيرة، غالبها خراب".

ومن الإقليم المذكور بلدة تُسمَّى "بَرشوم"، بها تين كثير جدًّا، يجلب إلى الديار المصرية، وبها بلدة تُسمَّى "قَلَمَة" يُزرع بها البطيخ، يُجلب منها أيضًا إلى الديار المصرية، ويُزرع بهذا الإقليم البطيخ الصيفي، وهو أحسن فواكه مصر، وزن كل بطِّيخة قنطار، وهذا الإقليم كثير الفواكه.

ويلي ذلك "إقليم الشرقية": أعظم مُدنها "بِلْبَيْس"[1]، وهي مدينة كبيرة جدًّا، كثيرة العمائر والبساتين.

وأمَّا "الخانقاه"[2]، فإنها مدينة حسنة، وهي من ضواحي مصر، مدينة حسنة كثيرة العمائر، وكُلٌّ من رؤساء الديار المصرية عَمَّرَ بها أماكن، وسبب زيادة عمارتها عدم المكوس بها، وعدم الظُّلم، وبَرَكة شيخ الشيوخ وناظر الخانقاه بها المَقر الأشرف المُحبِّي ابن الأشقر[3]، نفع الله المُسلمين ببركاته.

وأمَّا مدينة "قَطْيَه"[4]: فهي مزم الديار المصرية، بها رمال كثيرة لا يُمكن سلوكها، وما ثَمَّ مسلك إلا منها خاصة[١٤٠أ]، ويحتاج كل من مرَّ بها إلى ورقة طريق، وسيأتي بيان ذلك في محلِّه، وبها نخل كثير، ويُجلب منها رُطَب إلى سائر البلاد، ومِينَتها على ساحل البحر "الطينة"، مسيرتها من قَطْيَه دون بريد، ورمل قَطْيَه مُتصل من الطينة إلى سطح عقبة أيلة، وهُناك مسلك يُسمَّى "البدرية" عليها حُرَّاس[5].

---

(1) كذا ضبطها البغدادي على نُطق العامة، وضبطها السخاوي بضم الباء. انظر: مراصد الاطلاع، ج١، ص٢١٦؛ الضوء اللامع، ج١١، ص١٩١.

(2) هامش ث: "الخانكاه"، وفي الزُّبدة: الخانكة.

(3) محب الدين محمد بن عثمان الكرادي القرمي القاهري الحنفي، توفي سنة٨٦٣هـ. انظر: السخاوي:الضوء اللامع، ج٨، ص١٤٣-١٤٥.

(4) بفتح القاف وسكون الطاء المهملة وفتح الياء المثناة تحت وألف في الآخر، كذا وقع في التعريف ومسالك الأبصار، وفي تقويم البلدان إبدال الألف في آخره بهاء، والمؤلِّف يكتبها بالصورتين، وهي المعروفة بالجفار، وولايتها من السلطان برأي الوزير. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٠٥؛ السحماوي: الثغر الباسم، ص٢٨٣.

(5) الزُّبدة ص٣٤: "وأمَّا مدينة قطيا فليست من الأقاليم وإنما بمُفردها، وهي مزم الدرب، حتى لا يمكن التوصل إلى الديار المصرية إلا منها، وبها حرسية، وبها نخيل كثير، ولها ميناء وهي الطينة على شط البحر المحيط، وعمَّر هُناك الملك الأشرف- تغمدهُ الله برحمته- بُرجين، يُصب من هناك فرقة من بحر النيل تُعرف ببني مُنَجَّة، وبإقليم الشرقية المذكور بلدان كثيرة ليس لها أسماء في الديوان الشريف، وإنما عمَّرها العُربان في أرض سبخة لا ينتفع بها في الزرع، وإنما استوطنوها لكونها بادية".

ويلي إقليم الشرقية من الجهة الشمالية إقليم "الدقهلية والمُرتاحية": وغالب الناس يظنُّون أنهما إقليمان لاجتماع الإسمين، وبينهما بحر المَنْزَلة[1] المُقدَّم ذكره.

ومدينة المَنْزَلة كبيرة، بها عمائر وبساتين كثيرة، قيل: "إنَّ بحولها ثلاثمائة وستين عِزْبَة"، وهي من خواص المُفرد[2]، بها فواكه كثيرة، وقصب السُّكَّر، والأُرز، والطيور، وأسماك، والقُلقاس.

ومدينة "أُشمون الرُّمَّان"[3] من هذا الإقليم، وبهِ مَلَّاحَة، يُجلب منها الملح إلى الديار المصرية.

ومدينة "المنصورة" مدينة لطيفة، وهي عامرة.

ومدينة "فارسكور"[4] من أحسن المُدن، يُعمل بها القُماش الفارس كوري، وهي كثيرة العمائر والبساتين، وهي من خواص المفرد. يُقال إنَّ بها ثلاثمائة وستين عِزْبَة[5].

ويلي ذلك من آخر الإقليم"ثغر دِمْياط المحروس": وهو خارج عن الإقليم المذكور، وهو ثغر جليل، يُمشَى في بساتينهِ إلى أن يصل إليه نحو بريد، وهو كثير العمائر على شاطئ بالقُرب من البحر المحيط، وهُناك بُرجين عليهم سلسلة تَمُرُّ المراكب من بينهما[6].

---

(1) الزُّبدة: "وبينهما بحر حلو يعرف بالمنزلة".

(2) أي ديوان المُفرد، وسيأتي ذكره في المتن.

(3) وهي مقر الولاية. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٠٥.

(4) ث: "فارس كور"، ورسمتها على ما في الزُّبدة والمشهور عليه.

(5) الزُّبدة ص٣٤-٣٥: "... فأمَّا المنزلة وفارسكور فمُتحصلهما في كل سنة نيف عن سبعين ألف دينار لديوان المفرد الشريف، وهو إقليم حسن حتى إن العارفين فضّلوه على جميع أقاليم الديار المصرية، وبها: طيور حسنة الهيئة، شُهب الألوان، مُطوَّقة بالسواد، حُمر المناقير والرجلين، تُسمَّى بالدرَّاج، ولها أصوات شجيَّة، تقول في تصويتها مُفسرًا يفهمه أهل ذلك الأقاليم: "طاب دقيق السبل، سُبحان القديم الأزل"، حتى إنه من سلك تلك الأرض ولم يكن سلكها قط ظنَّ أنه صوت إنسان، ومن جُملة خواص هذا الإقليم أن غالب أهله يزرعون القصب والقلقاس والأرز على الماء السايح، لأن البحر المقدم ذكره أعلى من الأرض، وبالقُرب من مدينة المنزلة ملاحة عظيمة، يُجلب منها إلى الديار المصرية، ويُجلب من هذا الإقليم رمان كثير جدًّا".

(6) الزُّبدة: "والثغر المذكور على جانب بحر النيل، بالقُرب من البحر المُحيط، وهو من أعظم المين، يرد إليه كثير من المراكب، وبه من الأسماك والطيور ما لا يوجد في غيره قط، حتى إنه مُضمَّن،

وهُناك: شَطا، والبرزخ، والعيَّاش بلدة لطيفة بها صيَّادون الطيور، وبحيرة السمناوية يُصطاد بها الأسماك، وبه "المَرْقَب" مكان عالٍ بـهِ حرسية ونـواظر، وبهذا الثغر سُكَّر كثير وموز.

قيل إنه لم يكن ببلاد الإسلام أكثر من هذا الثغر طيرًا ولا سمكًا، وأوصافُه كثيرة.

ويلي ذلك من جهة الغرب قاطع النيل "الغربية": بها ثلاث مُدُن: المحلَّة، والنحرارية، وفُوَّة، كثيرون العمائر والبساتين، وبها بلدان كثيرة يُضاه المُدُن كسمنُّود، وأبو صِيْر، وأمثال ذلك، والسخاوية هي من الإقليم المذكور، وكذلك المُزاحمتين، وقيل بمُفردها[١].

وإقليم الغربية هو أعظم أقاليم الديار المصرية، ويُزرع بها من جميع الأصناف، وغالبها القُطن، وبها شجر الجُمِّيز كثير جدًّا، يستظل تحت كل شجرة نحو مائة فارس، والبحر المُحيط شمالي الإقليم، بآخر حَدِّهِ بلاد البُرُلُّس، ليس لهم[٤٠ب] زرع ولا رفع سوى صيد السَّمَك، ويُقارب ذلك ثغر نَسْتَرُوه.

ويلي ذلك الإقليم "إقليم المُنُوفِيَّة"[٢]: وهو من خواص الأقاليم[٣] بالديار المصرية، أعظم مُدُنِه "مُنُوف العُليا"، بها عمائر كثيرة.

وبالقُرب من ذلك الإقليم "جزيرة بني نَصْر"، بها بلدان كثيرة، وبحر النيل يدور حولها، بها مدينة "أَبْيَار"، بها عمائر كثيرة، يُعمل بها البُرُد الحرير الأبياري.

ويُباع صيفًا وشتاءً، ويُجلب منه إلى سائر الأقاليم بالديار المصرية طريًّا وقديدًا، وهُناك بُرجان أحدهما بالثغر المذكور والآخر تجاه ذلك البر الغربي على بحر النيل، والمراكب الواردة تدخل من بين البُرجين، وهُناك سلسلة موضوعة لئلا يدخل مركب إلا بإذن صاحب الثغر، ويُعمل فيه سكر كثير، يُجلب منه إلى سائر الأقاليم".

(١) الزُّبدة: "وبها من البلدان الكبار التي تُضاهي المدن ثلاثون بلدًا، كل واحدة منها خراجها في السنة اثنا عشر ألف دينار، وبهذا الإقليم ما ينيف عن خمسمائة وأربعين قرية، من جُملتها بلاد السخاوية، كثير من الناس يظن أنها إقليم بمفردها وهي من جُملة ذلك، وبلاد المزاحمتين عديدة، يُظن أنها إقليم بمُفردها وهي أيضًا من الغربية".

(٢) الزُّبدة: "ويلي ذلك إقليم المنوفية، وهو في المقام الثاني من الغربية".

(٣) ث: الاقليم.

ويلي ذلك الإقليم وإقليم الغربية "إقليم البُحيرة": يفصل بينهُما النيل، وهو إقليم مُتسِع جدًّا، أعظم مُدُنِه "دمنهور"، على نحو خمسين ميلًا من جنوب الإسكندرية.

و"الطَّرَّانة" بها معدن يُقال له النَّطرون، يُجلب منه إلى سائر البلاد صِفْة الملح، مُتحصِّله في كل سنة عشرة آلاف دينار، وبالبُحيرة عُربان كثيرة[1]، وهذا على حسب الاختصار.

(1) الزُّبدة: "وبالبحيرة مكان يُعرف بالطرانة، وبها مكان الأطرون، وهو الذي تستعمله الحُيَّاك في القماش، لا يوجد معدن ثمانية أيام بسير الإبل(كذا)، وبه عُربان كثيرة لا يُضبط عددهم. حكى شخص من المطعنين في السن أنه وقعت مقتلة بين عُربان ذلك الإقليم فقُتل فيها نيف عن ثلاثة آلاف نفر".

المزارات والأماكن المُباركة التي بالديار المصرية من المشاهد والقبور وغيرها ما يعسُر ضبطُه

فمن ذلك: مشهد زنبور، ومشهد التِّبر، يُقال إنَّ رأس الحُسينعليه السلام لمَّا نُقِلَ من عَسْقَلان إلى القاهرة حُطَّ في ذلك الموضع، وبالقصر مشهد بهِ رأس الحُسين في صندوق مُقفل عليه، وخلف القصر الرُّكن المُخلَّق يُنذر[1] له.

وظاهر القاهرة مشهد بهِ صخرة موسىعليه السلام، وبها آثار أصابعه، وبهذا الموضع اختبئ[2] من فرعون لمَّا خافه.

ومشهد بهِ قبر السيدة نفيسة ابنة الحُسين بن زيد بن علي بن الإمام الحُسين بن علي بن أبي طالب، ومشهد به قبر فاطمة ابنة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقبر أمينة ابنة الإمام محمد الباقر، ومشهد به قبر رُقيَّة ابنة علي بن أبي طالب.

وجبل المُقطَّب قيل إنه مُتصِل بطور سيناء، وبهِ أماكن مُباركة تُزار.

وبالقرافة مشهد به قبر الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعيرضي الله عنه، وعندهُ في المشهد قبر علي بن الحُسين بن علي بن زين العابدينرضي الله عنه، وقبر الشيخ أبي عبد الله الكيزاني، وعندهُ قبر أولاد [عبد] الحَكَم[3] طَلَبَة الإمام الشافعي.

---

[1] ث: ينذر.

[2] ث: "وبها الموضع الذي اختبئ"، والضبط من الإشارات للهروي، ص٣٨.

[3] كذا في ث، والإشارات، وورد في معجم البلدان: "أولاد عبد الحكم"، وعليه فمنه الإضافة، وعن قبر عبد الله بن عبد الحكم(ت:٢١٢هـ) وأولاده. انظر: ابن عثمان: مرشد الزوار، ص٤٩٦-٤٩٧.

وإلى جانبهِ مشهد[1] أهل البيت: مشهد بهِ قبر علي بن عبد الله بن القاسم بن محمد بن جعفر الصادق، ومشهد به قبر آمنة بنت موسى الكاظم، ومشهد بهِ[١٤١أ] قبر يحيى بن الحسين بن زيد بن الحسن عليه السلام، وبه قبر أم عبد الله بن القاسم بن محمد بن جعفر الصادق، وبه قبر أخيها يحيى، وبه قبر عيسى بن ولدها عبد الله، وبه قبر زوجها القاسم، وبه قبر كلثوم ابنته.

وعلى باب الكورتين مشهد به قبر رأس زيد بن علي بن زين العابدين، قيل: إنه قُتِلَ بالكوفة، وصُلِبَ وأُحرق، وبُعِثَ برأسِهِ إلى مصر.

وعلى باب درب الشَّعَّارين المسجد الذي أباعوا يوسف الصديق به.

وبالقرافة قبر يحيى بن عُثمان الأنصاري، وقبر عبد الله بن اليمان صاحب النبي عليه السلام، وقبر عُروة وأولاده، وقبر دِحْيَة الكلبي، وقبر روبين بن يعقوب عليه السلام، وقبر أخيه يهودا، وقبر اليسع، وقبر ذي النون المصري، وقبر أخي حليمة السعدية خال النبي عليه السلام، وقبر عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهري، وقبر أشهب، وقبر عبد الرحمن بن القاسم، وقبر ورش صاحب مالك، وقبر الفقيه أبي الثُّريَّا، وقبر شقران شيخ ذي النون، وقبر الكنز، وقبر أحمد الروذباني[2]، وقبر الزيدي، وقبر أبي الحسن علي السقطي، وقبر الناطق والصامت، وقبر الليث بن سعد، وقبر أبو العباس الحرَّاء، وقبر عبد الرحمن بن زعارة[3]، وقبر الورَّاد، وقبر الشيخ الأبَّار، وقبر القاضي بَكَّار، وقبر الشيخ أبي الحسن الدينوري، وقبر الأنباري، وقبر ابن طباطبه، وقبر محمد بن أبي بكر الصِدِّيق.

وقبر عَفَّان لا أبو عُثمان، وله حكاية عجيبة مُطوَّلة من مُلخصها أنه أبتاع عبدًا زنجيًّا فأساء عنده غاية الإساءة وهو لا يؤاخذه، فلمَّا ضجر منه أعتقه، وزوَّدهُ ولم يُؤذه، فسافر إلى بلاده، فأراد الله بسفر عَفَّان في مركب إلى بلاد اليمن بعد مُدَّة، فكُسِرَ المَرْكِب وسَلِمَ عَفَّان، ووصل إلى بلاد الزِّنج، فرأى العبد

---

[1] لعل الصواب: مشاهد.

[2] الزُّبدة ص٣١: "الرودباني"، وفي الإشارات، ومرشد الزوار، ومعجم البلدان: "الروذباري"، ولعله الأصوب.

[3] الزُّبدة: "الزغارة"، والإشارات: "زغارة"، وما ورد في معجم البلدان ج٥، ص١٤٣ موافق للمتن.

المذكور قد صار مَلِك ذلك الإقليم فخاف على نفسِه، وأراد الاختفاء منه، فلمحه المَلِك في الموكب، ونزل عن دابته، وقبَّل قدمه، وقال: "أنا عبدك فُلان، وهذا ببَرَكِة صَبْرَك عليَّ"، وأحسن إليه، وأعطاهُ سفينة مملوءة من الأموال، وجهَّزهُ إلى بلادهِ بخير وسلامة(١).

وبإقليم الديار المصرية مزارات كثيرة، فمن ذلك:

قبر أبو بَصْرَة(٢) الغفاري ببِرْكة رمسيس، وقبر عبد الله بن الحارث بقرية قرنفيل، وقبر كعب الأحبار[١٤١ب] وابن أبي هُريرة بإقليم البحيرة، وقبر زُليخا بالجيزية(٣)، وسجن يوسف ومشهد يعقوب ومَرْقب موسى عليه السلام بقرية طَغَش، والمسجد الذي أُبيعت فيه البقرة المذكورة في القرآن الشريف وقُبَّة البقرة التي ذبحت بها ببحطيط، ومولد موسى عليه السلام بأسْكَر، ومقامه وموضع قدميهِ بإطفيح، ومقام إبراهيم عليه السلام بمُنية ابن خَصيب.

وبطهنة(٤) آثار ومزار، وعُرِفَ صالح(٥) العزيز بالشرقية، والمطرية بها البئر التي تطفح في كل عام، ويستخرج من هُناك دهن البَلسان(٦)، وبعين شمس منارة عجيبة طولها مائة ذراع، وهي قطعة واحدة من الرُّخام المُجزَّع، ومسجد الديوان بالبهنسة، موضع أقام بهِ المسيح وأمه سبع سنين، ومسجد عمَّرهُ يوسف عليه السلام باللاهون مُبارك، ومسجد يعقوب عليه السلام بسيلة، وقبرَي شانة وبياض(٧) بالفيوم، ومسجد موسى عليه السلام بالواشي(٨)، وقبر أبو الحَجَّاج بالصعيد، وقبر أرسطاليس الحكيم بالمنشية، وبقوص مسجدين رُؤِيَ النبي صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي

---

(١) الزُّبدة: وأنعم عليه بمركب موسوق من المال، وهذا ثمرة فعل الخير، تغمده الله برحمته، ومشهد عمرو بن العاص، وقبر نصرة الغفاري...".

(٢) ث والزُّبدة: "قبر نصرة"، والإشارات: "أبي نضرة"، والضبط من مرشد الزوار، ص١٤١، ١٥٢-١٥٣.

(٣) عند الهروي أن كعب الأحبار وابن أبي هريرة بالجيزة، وقبة زليخا بمصر القديمة. انظر: الإشارات، ص٤٢.

(٤) قبالة منية ابن الخصيب. انظر: الهروي: الإشارات، ص٤٢.

(٥) عند الهروي: "صاع"، والزُّبدة: "ومكان يُعرف بصالح العزيز"، والراجح صواب كلام الهروي.

(٦) عن البلسان. انظر: العمري: مسالك الأبصار، ص٦٦.

(٧) قال الهروي: شانة وبياض قريتان سميتا بأسماء بنات يعقوب عليه السلام، وبهما قبورهما. انظر: الإشارات، ص٤٤.

(٨) عند الهروي: اللواسي. انظر: الإشارات، ص٤٤.

طالب-كَرَّمَ الله وجهه- بهِمَا مِرَارًا، وبسخا مسجد مُبارك، بهِ حجر أسود مكتوب بقلم الطير إذا أُخرج منه دخلت إليه العصافير وإذا أُعيد خرجت منه، وقبر فتح الأسمر وشطا[1] وقبر جمال الدين القلندر بثغر دِمْياط[2].

وثَمَّ من المزارات، والأماكن المُباركة، والعمارات العجيبة بمصر وأقاليمها[3] ما لو أردنا وصفه لاحتجنا إلى عِدَّة مُجلَّدات، فإنَّ جميع ما ذكرناه من صفات مصر وبلادها إنما هو نُبذة قليلة كقطرة من بحر أو لحظة من دهر، فإنَّ صفاتها وأحوالها جليلة.

وأحسن من وصفها عمرو بن العاصﷺ لمَّا أرسل إليه عُمَر بن الخطَّابﷺ كتابًا- وكان عامله على مصر- يقول له: "أمَّا بعد، يا عمرو بن العاص إذا أتاك كتابي هذا فانفذ إليَّ جوابه تصف فيه صِفَةَ مصر وأوضاعها وما هي عليه حتى كأنِّي حاضرها".

فأعاد عليه مكتوبًا جواب كتابهِ، يقول له:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أمَّا بعد، يا أمير المؤمنين فإنها بَرِّيَّة غبراء وشجرة خضراء بين جبلين، جبل رمل وجبل كأنه بطن أقبّ أو ظهر أجبّ، مكسبها[4] ورزقها ما بين أسوان إلى منشأ من[٤٢أ] البر ونتجٍ من البحر، يَخُط في وسطها نهر مُبارك الغدوات، ميمون الراحات، يجري بالزيادة والنُّقصان كمجاري[5] الشمس والقمر، له أوان تظهر إليه عيون الأرض وينابيعها مُسخَّرة له بذلك ومأمورة له، حتى إذا اطلخم[6] عجاجه، وتفضمضت أمواجُه، وأعولَّت لُججه[7]، ولم يبق الخلاص

---

(1) ذكر الهروي أنَّ بهذا الموضع أربعة من الصحابة لم يعرف أسماءهم.

(2) اعتمد المؤلِّف في ذكر هذه المشاهد على كلام الهروي، دون التزام النسق الترتيبي في غالب النقول. انظر: الإشارات، ص٣٧-٤٧.

(3) منها: مسجد الرديني على طريق النوبة، ومسجد الخضر عليه السلام بالغربية، وبقرية غربي المنية تُعرف ببهدال بها مشهد ينزل عليه النور. انظر: الزُّبدة، ص٣١، ٣٢.

(4) ث: "مكتشفها"، والهروي: "مكتنفها"، والوارد في المتن من مطبوع زُبدة كشف الممالك، ص٣٨.

(5) ث: "كمجرى"، وورد صوابها على هامشها موافقًا لمطبوع الزُّبدة.

(6) ث: "اطلحم"، والهروي: "اصلخم"، وفي الزُّبدة: "أظلم".

(7) عند الهروي: "وتعاظمت أمواجُه واغلولت لُجَجُه"، وفي الزُّبدة: "وتغمطمت أمواجه واعولت لججه".

إلى القُرى بعضها إلى بعض إلا في جفاف[1] القوارب أو صغار المراكب التي كأنها في الحبائل ورق الأبايل[2]، ثم عاد بعد انتهاء أجله نكص على عقبه، كأول ما بدأ في دوبه، وضمى في سربه[3].

ثم استبان مكنونها ومخزونها انتشر بعد ذلك أُمَّة محقورة، وذِمَّة مغفورة، لغيرهم ما سعوا بهِ من كَدِّهم ولا ينالونه بجهدهم، شعثوا بطون الأرض وروابيها، ورموا فيها ما يرجون بهِ من الرب النماء، حتى إذا أحدق وأبسق وأسبل قنواته سقى الله من فوقه الندى، وربَاهُ من تحتهِ بالثرى، وربما كان سحاب مكفهر الأوابل، وربما لم يكن.

وفي ذلك يا أمير المؤمنين ما يُغني ذبابه ويُدرّ جلابه[4]، فبينما هي بَرِّيَّة غبراء إذ هي لُجَّة زرقاء إذ هي مدرَّة سوداء إذ هي سُندسة خضراء إذ هي ديباجة رقشاء إذ هي دُرَّة بيضاء، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وفيها ما يُصلِح أحوال أهلها ثلاثة أشياء: الأول لا يُقبل قول رئيسها على خسيسها، والثاني يؤخذ ثُلث ارتفاعها تُصرف في جسورها وتراعها[5].

ويوجد بها في أوانٍ واحد وردًا ثلاثة ألوان، وياسمينًا لونين، ولِينوفر لونين، وآسًا، ونسرينًا، وريحانًا لونين، وخِريًّا وبنفسجيًّا ومنثورًا لونين، وزنبقًا، وسوسنًا، وأترُجًّا، وكبادًا، وحمضًا، وليمونًا مراكبيًا، وطلعًا، وجمارًا، ورطبًا، وموزًا، وجميزًا، وحصرمًا، وعنبًا، وتينًا أخضر، ولوزًا أخضر، ونبقًا، وقثاءً، وفقُّوسًا، وبطيخًا صيفيًا وأصفرًا وأخضرًا وعبد اللَّوِيًّا[6]، وباذنجانًا لونين، والباقلاء الأخضر، ويقطينًا، وحُمُّصًا أخضر، وجُبنًا ألوانًا، وجوز أخضر،

---

(١) عند الهروي: خفاف.

(٢) عند الهروي: "ورق الأبابيل"، وفي الزُّبدة: "ورق الأبابل".

(٣) عند الهروي: " كأول ما بدأ في دربه، وطمى في سربه"، وفي الزُّبدة: "كأول ما بدأ في دربه، وخيمًا في سربه".

(٤) على الهامش: "جلبابه"، وما ورد في الزُّبدة موافق للمتن، وعند الهروي: "حلابه".

(٥) هنا انقطاع في الكلام أهمل معه الأمر الثالث لإصلاح البلاد، وأورد الهروي تتمة الرسالة فقال: "...والثالث لا يُستأدى خراج كل صنف إلا منه عند استهلاله والسلام"، وحدَّث بعدها عن صحة سند هذه الرواية. انظر: الإشارات، ص٥٠.

(٦) هو نوع من البطيخ يُعرف بالعبدلي نسبة للوالي المصري عبد الله بن طاهر، ووردت عند الجبرتي: "العبد اللاوي". انظر: القلقشندي: صبح الأعشى, ج٢، ص١٨١-١٨٢؛ عجائب الآثار، ج٤، ص٢٤٦.

ورُمَّانًا، وهلبونًا، وقصب سُكَّر، ومن البقول ما يُحتاج إليه، وهذا ما لا يُمكن في غيرها قط والسلام"[1].

وقال بعض أهل الفضل: رأيتُ بمصر في زمن القُرْط[٢٤ب] والكتَّان، ومُقطعات النيل أزهار مُختلفة الألوان، وبها من جميع أصناف الطيور والأسماك والخِرَاف البدرية والألبان، والرطب الجَني المُختلف الألوان، ويوجد بالديار المصرية من جميع الفواكه اليابسة والطرية.

وقال الشيخ شمس الدين بن مُحيسن المالكي السكندري[2] في مصر أبياتًا مُطوَّلة من جُملتها:

فلا أرض إلا أرض مِصْر ومُلكها ... ولا حيّ إلا حيّها قط يُعشقُ
ولا راح إلا ريحها ونسيمها ... ولا شهد إلا نيلها المُتدفِقُ
ولا مِسْك إلا مِن فضالة بُرّها ... إذ المسك في طيِّ المخانقِ يُعبقُ

حُكِيَ أنَّ بعض العارفين ضبط جميع الطواحين بمصر والقاهرة، وقاس بحبل جميع مصب القمح من القواديس، فجاء قياس الحبل ستون ذراعًا، وهو نيف عن دور باب زويلة، وزُبدة ذلك أنَّ القمح الذي هو جاري بمصب هذه القواديس ليلاً ونهارًا لا يبطل قدر نهر وسع باب زويلة مُستمر به جريان القمح، وهذا من أعجب الغرائب.

---

(1) هذه الفقرة ذكرها الهروي قبل رسالة عمر بن الخطاب والرد عليها، وقد وردت في النص وكأنها جزء من الرسالة، وهي من كلام الهروي. انظر: الإشارات، ص٥٠، وأيضًا: الزُّبدة، ص٣٩.
(2) ذكر المؤلِّف قبل ذلك أنه كان مُحتسب المحمل الشريف. انظر ق١٢أ.

فصل
في ذكر ثغر الإسكندرية

وهو من أعظم الثُّغُور وأَجَلِّهَا، وأحسن الأماكن لِمَا رُوِيَ عن ذي القرنين فلأجل ذلك أُجِلُّهَا، وهو باب مُلك الإسلام، ليس يوجد مثله في الأنام، وللمدينة سوران بهما عِدَّة أبراج، مُحكمة حصينة بيضاء كالعاج، وتُسمَّى بـ"المدينة البيضاء"، وتُربتها من أحسن البقاع أرضًا.

ولها عِدَّة أبواب عجيبة، يستحسنها أولو الألباب[1]: الأول باب رشيد، ثم باب السدرة، ثم باب سر دار السُّلطان، ثم الباب الأخضر، ثم باب البحر، ثم باب سر دار السعادة، ثم باب شرقي.

وبالثغر المذكور قصر السلاح، بهِ سبع قاعات، كل قاعة إنشاء مَلِك من المُلوك، واسم مُنشئ كل قاعة مكتوب، مملوءة بالأسلحة، وبه نُشاب نصل، كل واحدة منها قنطارًا من الحديد، تُجعل بقوس الجَرخ، ويوتر القوس بالدواليب تديرها الأبقار، فإذا أصابت مركبًا أخرقته، ولو أردنا أن نَصِف ما بهذا القصر من الأسلحة والعُدَد والنفوط والمدافع والمكاحل وغير ذلك لطال الشرح، وله: شاد، ومُباشرون، وخُدَّام، وأرباب صنائع، وأوقاف.

وبأعلى أبراج الإسكندرية مناجيق ومدافع[2]، ولكل بُرج أُناس مخصوصون، وكوسات وأَنْفِرَة وأعلام، وأقمتُ مدفعًا، ونقشتُ اسمي عليه، ووضعتُه ببرج الدرغام، وجدَّدتُ إصلاح ما بها من المناجيق وملأتها من الرَّصاص، وأبطلتُ ما كان يؤخذ للحِسْبَة من أهل المعاش، ويُحمل لديوان

---

(1) الزُّبدة ص٣٩: "وللثغر عدة أبواب محكمة، حتى إن على كل باب منها ثلاثة أبواب من حديد".

(2) الزُّبدة: "مناجيق ومكاحل، وفي وقت الضرورة يُعلَّق على كل شُرَّافة قنديل".

النيابة الشريفة في السنة نحو ألف دينار بما فيه من الرسوم[1]، وكتبتُ بذلك رُخامات، وجعلتُ على باب رشيد واحدة، وعلى باب السدرة واحدة، وعلى باب البحر واحدة، وعلى باب دار السعادة واحدة احتسابًا لوجه الله تعالى.

وبالثغر المذكور من الجهة الشمالية وبعض[٤٣أ] الجهة الغربية دار السُّلطان، وهي دار عظيمة الهيئة، عالية البناء، كبيرة جِدًّا. قيل: "إنه لم يُعمَّر دار أوسع منها"، أنشأها جوبير المؤتفكي[2]، ثم جَدَّدَ عمارتها المَلِك الناصر يوسف بن أيوب، وقيل: "صلاح الدين [بن][3] أيوب"[4]، ثم جَدَّدَ عمارتها المَلِك الناصر فرج[5].

ولمَّا وُلِّيتُ كفالة الثغر ونظره جدَّدتُ عمارته أيضًا، وسكنتُ به مُدَّة بإذن السُّلطان المَلِك الأشرف، حين زوَّجني كريمة خوند الكبرى صاحبة القاعة، وأتت إلى الدار المذكورة بالحُلِيِّ والحُلل، ونصبتُ بها سبع بشاخين ملونة عجيبة، ومن الأمتعة الفضة البلُّور، والتخوت المُفضضة، والأقمشة المذهَّبة، والأمتعة العجيبة، والحَشم، والخدم، والطواشية ما يطول وصفُه إلى أن صارت هذه الدار مُزخرفة، وبها سبع قاعات مفروشة بالرُّخام الملون والسقوف المُذهَّبة.

وبها "دار المُلك" على عُمَد، بهِ تخت المُلك من عاج وأبنوس، قيل إنَّ المَلِك الناصر فرج دخل إلى هذه الدار، وجلس على هذا التخت، وكان موكبًا عظيمًا[6]، وبها من المعازل، والفساقي، والأحواش، والطِّباق ما يطول شرحُه، وبها بُستان مُتسع، به جميع الأشجار، وبها حمَّام ليس لها نظير، وهذا على حسب الاختصار.

وبالثغر المذكور من العمائر العجيبة ما يطول شرحه، وعمارتها جميعها بيضاء، وأسواقها وأزقتها على صفة رُقعة الشطرنج، وبها سبع قياع، كل قاعة منسوبة إلى طائفة، مملوءة بالسلاح والعُدد.

---

(١) ذكر ابن حجر أنَّ المؤلف أخبره أنَّ هذا المقرر في كل شهر ثلاثون ألفًا. انظر: إنباء الغُمر، ج٤، ص١٧.

(٢) سمَّاهُ ياقوت الحموي: "جُبير المؤتفكي"، وحكى بنائه للمدينة. انظر: معجم البلدان، ج١، ص١٨٤.

(٣) الإضافة من الزبدة ص٤٠.

(٤) انظر: زُبدة كشف الممالك، ص٣٩-٤١.

(٥) ذكرت الزُّبدة أنها مُشرفة على البحر المُحيط المعروف اليوم بالمتوسط، ولا يسكنها إلا السلاطين خاصة.

(٦) ث: موكب عظيم.

وبها "دار السعادة" محل النائب، وهي مُتسعة، كثيرة المعازل، وأنشأتُ بها إصطبلًا ومقعدًا مُتسعًا، وقال بعض الشُعراء في ذلك أبياتًا مُطوَّلة، من جُملتها:

وبنا بدار سعادةٍ مِن حَذقهِ أشياء زانت لونها التشييد
منها بحوش مقعد مُتوسع يسع السِّماط وطولُهُ ممدود
وكذاك حمَّام بناهُ مُجددًا يشفى بها المسقوم والمبرود

وقد كُنْتُ عمَّرتُ مقعدًا بأعلى دار السعادة أيضًا، وحمَّامًا، وعمَّرتُ قاعة برسم الحريم، وقال شمس الدين بن المُرضعة(١) في المعنى أبياتًا مُطوَّلة، من جُملتها هذه الأبيات:

وعمَّرتَ في دار السعادة مَقعدًا للحُكم صار فكان رأيُك أصوبُ
وأقمت ناموس المَليك بحُرمةٍ سكنتَ بأحشاء العِدَا لا تذهبُ[٤٣ب]
وسَقيتَ أهل الثغر ريقًا طعمَهُ أحلى مِن المَاء الزّلال وأطيبُ
وغَرستَ خيرًا مُثمِرًا بقلوبهم والأصل في ذا الثغر طبع أغلبُ

ولعَمرِي لقد جاد في شِعْرِهِ، كيف لا وهو عين موقِّعين الدَّسْت الشريف، والمُستحِق من فضل الله لكل خيرٍ منيف.

وبدار السعادة المذكورة أبراج يُسجن بها المُلوك، مُحكمة، ليس لها غير أبوابها سلوك، وبها إيوان برسم الخَدَم الشريفة، بها عُمد مُلوَّنة طريفة.

وبالثغر المذكور الخُمْس السعيد الذي تؤخذ به الموجبات، وتُحمل لديوان الخاص الشريف، ودار الطراز الذي يُعمل بها السروج الذهب والكنابيش وأصناف مُتنوعة من التشاريف، وآدُر الضرب الشريفة، ودار العدل وهي حسنة لطيفة، ودار البياض المشهورة بالقزازة، والكدس الذي يوضع به تلك الحاجة، والصناعة التي يوضع بها المراكب، وبيت المال المعمور الذي يُجمع به الأموال وتُصرف في الجوامك والرواتب.

وبالثغر سبع قاعات للسُّكنى، ليس لهُم نظير في العمارة، تفتخر بها السُّكان من الرؤساء والأُمراء(٢). قيل إنَّ مصروف قاعة منهُم تُعرف بـ"الشَّمَّاع" عشرة آلاف دينار مُذهَّبة مُرخَّمة، وأبوابها مُطعَّمة ليس يكثُر فيها هذا المقدار.

---

(١) لم أهتد لترجمته، لكن ورد في ق١٣٧ب أنه من أعيان موقعي الدست الشريف.
(٢) ث: الأمارة.

وبها جامع عظيم يُعرف بـ"العربي"، به أربعة[1] بساتين، مُتسع جدًّا، وبه نظير ذلك أيضًا من الجوامع والأماكن المُباركة والمزارات ما يطول شرحُه[2].

رأيتُ في كتاب الهروي[3] منقولًا عنه[4] أنَّ بالثغر المذكور اثنتي عشرة[5] ألف قِبْلَة[6]، وبها من العمائر العجيبة والكنائس ما لو أردنا وصفه لطال الشرح.

بها ميدان عجيب ليس له نظير بظاهر باب البحر، وبها ميناء ترد إليها المراكب من المغرب وبلاد الفرنج وبلاد الرُّوم وسواحل الشام ليس في المِيْن أعظم منها.

وللثغر المذكور خليج تقدَّم ذكره من بحر النيل إلى أن يَمُرّ ببساتينها ثم بالمدينة، ترد إليه المراكب بالضِّياع.

وبالثغر المنار المشهور، كان طوله أربعة وثلاثون قامة، وبجنوبها عمود الصواري عجيب من العجائب، طوله مائة ذراع بالهاشمي، ودوره أربعون شبرًا، وهو على قاعدة عجيبة، وقد صعد أعلاه بهلوان، وأصعد جَمَلًا بظهره حِمْل تبن، وصعد أيضًا فَرَّاش ونصب صيوانًا في أيام المَلِك الناصر فرج[7].

وبساتين إسكندرية أول ابتدائها أبو قير وآخر انتهائها أبو صير، مسيرة[٤٤أ] يوم للفارس، وبالبساتين قصور عجيبة، وقال بعضهم يمدح بساتينها الزاهرة وقصورها العامرة: "فرأيتُ أحسن بساتين رُأيَتْ في البلاد، وقصور عاليات كإرم ذات العماد".

وقد اختلف بعض المُفسِّرين في قولِه تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[8]، وقيل: هو ثغر الإسكندرية، وأنَّ اسمُه قديمًا "إرم"،

---

(1) ث: أربع.

(2) الزُّبدة ص٤١: "وبالثغر من المزارات والأماكن المُباركة ما يطول شرحها، منها: مشهد دانيال عليه السلام، وجابر الأنصاري، وابن الحاجب المالكي، وأبي بكر الطرطوشي، وأبي العبَّاس المرسي، وياقوت العرشي، وعبد الله الراسي، وقاسم القباري، وأبي الفتح الواسطي، وغير ذلك من الصُّلحاء والأماكن المُباركة".

(3) هامش ث: أبي بكر.

(4) الزُّبدة ص٤٠: "وحكى بعض الثقاة أنه اطلع على تاريخ الهروي فرأى فيه".

(5) ث: اثني عشر.

(6) قال الهروي: "وذكر لي ابن منقذ أنّ فيها اثني عشر ألف مسجد...". انظر: الإشارات، ص٤٧.

(7) الزُّبدة: "وكان بها المنارة التي بناها إسكندر ذو القرنين، وهي إحدى عجائب الدنيا، يرى فيها المراكب إذا سارت من بلاد الإفرنج، وهي الآن متهدمة".

(8) سورة الفجر، الآية ٧- ٨.

وهو مُركَّب على عُمد، هذا وجه، وقيل غير ذلك، وأمَّا في الحقيقة لم يكن لها نظير في البلاد.

وأمَّا ما جاء في فضل الإسكندرية عن خير البَرِيَّة ما نقلهُ الحافظ السِّلَفِي والعلَّامة النَّسفِي في فضل الجهاد والرِّباط عِدَّة مُجلَّدات.

وأمَّا الأقمشة التي تُعمل بها من أنواع المُذهَّب والحرير ما يطول شرحُه، وقد ذكرتُه في مُصنَّفِي الأصلي، من جُملة ذلك: قميص استُعمِلَ برسم خوند جلبان[1] مصروفُه ثمانمائة دينار، وغير ذلك من الاستعمالات العجيبة التي لا يُمكن وجودها في غير الإسكندرية قط.

ويُعمل بها الحُصْر العبداني التي ليس لها نظير، وبها من الفواكه المُفتخرة العجيبة ما لا يوجد في غيرها.

وأمَّا الموز والنبق فعجيب من العجائب، وأمَّا الورد فلا ينقطع عنها في السنة إلا القليل، وبها رمل يُباع بالمناقيل برسم المناكيب لا يوجد في غيرها، وبها رُمَّان بغير عجم، ويُجلب إليها ومنها جميع الأصناف بَرًّا وبحرًا.

والمُستفيض على ألسنة الناس أنَّ الثغر المذكور مُتحصِّله في كل يوم ألف دينار[2]، وله جِهَات عديدة اختصرتها في هذا المُختصَر.

ولم يزل أهل الثغر يُغازون، وإذا كانت غزوة عُلِّقَ على شراريف المدينة من جهة الشمالية قناديل فتصير منظرًا عجيبًا.

وأوصاف هذا الثغر لا يُمكن أن تُضبط، وجميع دُورها مُرخَّمة، وبها أشجار وصهاريج وآبار مُتصِلة من بعضها إلى بعض. قيل إنَّ الإسكندر ذي القرنين سار البلاد شرقًا وغربًا فلم يُعجبه مكان يجعل به دار مُلكِه إلا ثغر الإسكندرية، ولو أردنا إيضاح جميع ما أحطنا بهِ علمًا من أحوال هذا الثغر لاحتجنا إلى عِدَّة مُجلَّدات، ولكن هذا زُبدة الكلام فيه.

---

(1) هي جلبان بنت يشبك ططر الجركسية، زوجة السُّلطان الأشرف بَرسْبَاي، توفيت في شوال سنة٨٣٩. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج١٢، ص١٧.

(2) الزُّبدة: "واتفقت نكتة أحببتُ ذكرها، وهي أنه حُكِيَ أنه كان بالثغر تاجر يُقال له الكويك عمَّر به مدرسة مشهورة الآن، صرف عليه جملة من متحصل فائدة يوم واحد فقط، والمُشاع بين الناس أنه كان متحصل الثغر للديوان الشريف خاصة في كل يوم ألف دينار من جهات متفرقة".

وهو من الجُزء الثالث من الإقليم الرابع، ويُقال من الإقليم الثالث، حيثُ الطول إحدى وخمسون درجة وعشرون دقيقة، والعرض إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة.

ومن مُعاملة الإسكندرية:

"ثغر رشيد": وهو على شاطئ النيل من آخره وشاطئ البحر المحيط، حيثُ الطول إثنان وخمسون درجة وأربع[٤٤ب] دقائق، والعرض إحدى وثلاثون درجة وستون دقيقة، وبه بُرج مملوء بالسلاح، وبه عمائر كثيرة، وبه "كوم الأفراح" به مزارات وهو مكان مُبارك.

و"ثغر نستراوه"[١] أيضًا من جُملة تعلُّقات ثغر الإسكندرية[٢].

---

[١] يُقال لها: نستروه ونسترو، وهو مُندثر، وكان قديمًا يقع بين البحر المتوسط وبحيرة البرلس التي كانت تسمى بحيرة نستراواه، ومكانها اليوم يُعرف بكوم مسطورة. انظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج١، ص٤٥٩-٤٦٠.

[٢] اعتمد المؤلِّف بشكل رئيس فيما كتبه عن الإسكندرية ومزاراتها وما بها من العجائب على ما كتبه الهروي. انظر: الإشارات، ص٤٧-٥٠.

فصل
في ذكر الشام وما ورد في فضائلها من الأخبار

قيل: "معنى الشام "الطيب". سُمِّيَتْ بذلك لطيبها وخصبها، وقيل: "إنما سُمِّيَتْ "شامًا" لأنها عن شمال الكعبة كما سُمِّيَ اليمن "يَمنًا" لأنه عن يمين الكعبة"، وقيل غير ذلك.

وقال تعالى: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[1] قال السهلي: "هي الشام"، وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[2] يعني الشام.

ورُوِيَ عن أُبَيّ أنه قال في معنى (بَارَكْنَا فِيهَا): "يعني بالخصب، وكثرة الأشجار والثمار، وفيها بُعِثَ أكثر الأنبياء"، وقال تعالى: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[3] قيل إنها دمشق[4].

[أقسام بلاد الشام ومُعاملاتها]

وقَسَّمَ الأوائل الشام خمسة أقسام:

الأول فِلَسطين: من مُدُنِها: "إيليا"، وهي بيت المَقْدِس، ومدينة غَزَّة، ومدينة الرَّملة بينها وبين بيت المَقْدِس ثمانية عشر ميلاً، ولُدّ، وعَسْقَلان، ومدينة حَبْرون، ومدينة نَابُلُس، وأول حد فِلَسطين من جهة مصر "أمّج" وهو العريش، وآخرهُ اللَّجُّون، وعرض ذلك من يافا إلى أريحا.

---

[1] سورة الإسراء، الآية ١.
[2] سورة الأنبياء، الآية ٧١.
[3] سورة المؤمنون، الآية ٥٠.
[4] انظر: مثير الغرام، ص٦٩-٧٤.

الثاني الحوران، ومدينتها العُظمى "طبرية"، ومن مُدُنها أيضًا: الغُور، وبَيْسَان، واليرموك، والأردن هو المعروف بـ"الشريعة"، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾[1] الآية.

الثالث الغُوطَة، ولها ذكر في آثار عِدَّة، ومدينتها العُظمى "دمشق". قبل كانت دار نوح عليه السلام، ومن سواحلها طَرابُلُس. قيل: إنها من الأرض المُقدَّسة، وأُم الشام، وأكبر مُدنه.

الرابع بادية حمص، وسلميَّة، وتلك الدوائر.

الخامس قِنَّسْرين، وأعظم مُدُنِها حلب[2].

وسنذكر جميع التي بهذا التقسيم، وغير ذلك ممَّا هو من دواخل حدود مُلك مصر على الترتيب، فأول ذلك[3]:

(مدينة غَزَّة): وهي مُتسعة كثيرة العمائر والبساتين والفواكه، ويُقال لها "غَزَّة هاشم"، يزعمون أنَّ جَدّ النبيﷺ فيها مدفون، والإمام الشافعي رضي الله عنه منها، وهي حيثُ الطول سبعة وخمسون درجة ودقائق، والعرض أربعة وثلاثون درجة [٤٥أ] وخمسة وخمسون دقيقة، وهي على ساحل البحر المُحيط، بينها وبينه أكوام رمل.

قيل: "إنَّ عِدَّة قُرى غَزَّة نيف وخمسمائة قرية"، ولم أُحرِّر ذلك، وبغَزَّة مناظر على البحر[4].

ويلي ذلك (عَسْقَلان) في دخلة، حيثُ الطول خمسة وخمسون درجة وعشرون دقيقة، والعرض أربعة وثلاثون درجة وخمسة وخمسون دقيقة،

---

[1] سورة البقرة، الآية ٢٤٩.

[2] النص الوارد في الزُّبدة ص٤٢ أكثر تفصيلًا بعض الشيء من المتن، ويوافق حرفيًا ما ورد في مثير الغرام ص٨٥-٨٦.

[3] رَتَّبَ العُمري وعنه القلقشندي أعمال الديار الشامية على ست قواعد، وقسَّم قاعدة(نيابة) الشام إلى أربع صفقات. انظر: التعريف، ص٢٢٤-٢٣٨؛ صبح الأعشى، ج٤، ص٩٧-١٥٧.

[4] الزُّبدة ص٤٢: "أمَّا المملكة الغزاوية بها مدينة غزة، وهي مدينة حسنة بأرض مُستوية، وهي كثيرة الفواكه، وفيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة ما يورث العجب، وتُسمَّى "دهليز المُلك"، ولها مُعاملات وقُرى، وهي مملكة مُتسعة".

وغَزَّة وعَسْقَلان من الجزء الرابع من الإقليم الرابع، ويلي ذلك "الدارون" وهو مزمّ غَزَّة.

ورأيتُ منقولًا عن علي بن أبي بكر الهروي أنه قال: "دخلتُ ثغر عَسْقَلان سنة سبعين وخمسمائة وبِتُّ في مشهد إبراهيم عليه السلام فرأيتُ في ذلك الموضع رسول الله ﷺ وهو بين جماعة فسلّمتُ عليه وقبّلتُ يده، وقلت: "يا رسول الله ما أحسن هذا الثغر لو أنه للإسلام"، فقال: "سيصير للإسلام، ويبقى عِبْرَة للأنام"، فاستيقظتُ، وكتبتُ صورة ما رأيتُه على حائط المسجد من جانبهِ القبلي وورَّختُه، وفتح القُدس وعَسْقَلان سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة"[١].

وبجبَّانِة عَسْقَلان خلقٌ من الأولياء والتابعين لا تُعرف قبورهم، وخان يونس الدوادار[٢] هو أول الرمل، ويُطلق على غَزَّة "دهليز المُلك"، وهي كثيرة الخيرات مصرية شامية، اختصرتُ أوصافها خوف الإطالة.

ويلي ذلك (مدينة الرَّمْلَة): وهي مدينة حسنة، كثيرة الأشجار، حسنة العمائر، بها الجامع الأبيض له مئذنة عجيبة[٣]، وأرضها تَربى في الزرع، ولها مُعاملة وقُرى بذاتها، وهي ممر الدربَي الشامي والمصري، وهي عن غَزَّة نيف وثلاثين ميلًا، ومِنْيتها ومِنْية القُدس "يَافَا"، وهُما من الإقليم المذكور، وقد تقدَّم ذكر القُدس الشريف.

ويلي ذلك (جَلجُولية و"قاقون): كانت قديمًا مزمّ الدرب الشامي، و"لُدّ" بينهمـ[ـا].

ويلي ذلك (مدينة نَابُلُس): وهي في جبال، ولها مُعاملة مُتسعة وقُرى كثيرة، وأكثر ما يُجلب منها الزيت والزيتون، والحَاكِم عليها وعلى الرَّملة واحد، ومدينة نَابُلُس كثيرة الأشجار، مُختصرة في العمائر.

---

[١] الإشارات، ص٣٦-٣٧.

[٢] هذا الخان من بناء الأمير يونس بن عبد الله النوروزي الدوادار الكبير(ت:٧٩١هـ)، ويقع خارج مدينة غَزَّة. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٨٤؛ مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فِلَسطين، ج١، ق٢، ص١٣٥-١٣٦.

[٣] الزُّبدة: "وأمَّا مدينة الرملة فليست هي مملكة، وإنما إقليم يشتمل على قُرى عديدة، وهي مدينة حسنة، بها جوامع ومزارات من جُملتها الجامع الأبيض، عجيب من العجائب، قيل إنَّ بمغارته من قبور الصحابة أربعون قبرًا، وبها من الأماكن المُباركة ما يطول شرحه، وقبران من أخوة يوسف عليه السلام، وقبر أبي هريرة، وقبر سلمان الفارسي".

ويلي ذلك (مدينة عَجْلُون): بلد حصين، بهِ قلعة حصينة، ولها مُعاملة بذاتها، وكثيرة الفواكه، يُعمل[1] بها الخام العَجْلُوني، ويُجلب بهِ إلى سائر البلاد، ومدينتها وقُراها في وعار وجبال.

ويليها (مدينة الصَّلْت): كان أهله عُصاة، فبنى المُعظَّم[2] عليهِ "حصن الصَّلْت" حتى دخلوا في الطاعة، وبينه وبين عَجْلُون مرحلتان، والصَّلْت جبال سُود، بها أودية، ينبُت بها الرُّمَّان، يُجلب إلى[٤٥ب] الديار المصرية.

ويليها (مُعاملة حُسْبَان): وحُسْبَان الآن خراب.

ويليها (البَلْقَاء) إلى المُوجِب[3].

ويلي ذلك:

(مدينة الكَرَك[4])

بلد حصين على جبل، وهي معقل من معاقل الإسلام[5]، بل ربما أنه لم يكن أحصن منها [في][6] الاستحكام، حيثُ الطول ست[7] وخمسون درجة وخمسون دقيقة، والعرض إحدى[8] وثلاثون درجة ونصف، وتُسمَّى "حصن الغُراب"، وهي ممَّا فتحه المرحوم صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

وكانت بيد البرنس أرناط، كان كافرًا ومعه خَمسمائة فارس، فلمَّا كانت وقعة حِطِّين نزل البرنس أرناط المذكور لمُعاونة الكُفَّار على المُسلمين، فنصر الله أولياءه، وخذل أعداءه، وأظهر دينه، وأمكن السُّلطان صلاح الدين من ملوك الكُفر، وصاروا أُسراء في القبضة الشريفة.

---

(1) كلمة "يعمل" مكررة.

(2) هو المُعظَّم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر الأيوبي(ت:٦٢٤هـ)، وعن حادثة بناء الحصن. انظر: العمري: مسالك الأبصار، ص١٢٣؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٠٦.

(3) كذا ضبطها البغدادي في مراصد الاطلاع، ص١٣٣٠، وذكر أنه بلد بالشام بين القدس والبلقاء، هو وادي ونهر يقع اليوم في الأردن، وهو وادي شديد الانحدار، يصب في البحر الميت.

(4) تُعرف بكرك الشوبك لمُقاربتها لها. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٥٥.

(5) الزُّبدة ص٤٣: "وأمَّا المملكة الكركية فليست من الشام، وهي مملكة بمفردها، وتسمى "مآب"، وهي مدينة حصينة، معقل من معاقل الإسلام".

(6) إضافة لضبط السياق.

(7) ث: ستة.

(8) ث: أحد.

فلمَّا وقفوا بين يديه وعُرِضُوا عليه قيل: "هذا البرنس أرناط صاحب الكَرَك"، فوثب السُّلطان قائمًا، وضربهُ بنمجَاة[1] المُلك فقطع كتفه، وقال: "إنِّي مُعاهد الله تعالى لئن ظَفرتُ به قتلتُه بيدي"، والسبب في ذلك أنه في بعض السنين تعرَّض للحُجَّاج، وأساء الأدب في حقِّ النبيﷺ ظانًّا في نفسهِ أن ليس لأحد قُدرة عليه لكونهِ بقلعة الكَرَك، فساقهُ المقدور إلى أن أوقعه في هذا المحذور ببَرَكة النبيعليه السلام وأفضل البريَّة وخير الأنام، وكان قد استخلف بها بعض أخصائه، فرسم له السُّلطان أن يبعث لمن بها يُسَلِّمْهَا، ففعل بأمارات.

ولم تؤخذ قهرًا مُنْذُ عُمِّرَتْ وإلى تاريخه لحصانتها.

ولها قلعة لا سبيل لعدو إليها بسبب من الأسباب، ولا يطمع بهِ الظنون والأوهام المُسمَّى "عِشّ الغُراب"، من رامها بسوء لم يبلُغ مرامه، ومن قصدها بمكروه فأعجب أحواله السلامة، فإنها الملجأ التي يركن المُلوك إليه، ويعتمدون عند تغيُّر الأحوال ونزول الحوادث بهم عليه، وهي قلعة منيعة مُتعلِّقة بأذيال السحاب، يُرى منها ظهر الطير خصوصًا الغُراب.

ومع منعها وتحصينها وسمو أمرها وتمكينها ما برحت المُلوك تنظُر إليها بعين الإجلال، ويصرفون إليها بنظرهِم الشريف الهِمَم العوال، حتى إنَّ السُّلطان المَلِك الناصر محمد بن قلاوون- تغمَّدهُ الله برحمته- كان يختارها على سائر مملكته، حتى إنه ما ربَّى أولاده إلا بها، وقرَّر ولده أبا بكر[2] في حياته[3] مُدَّة أربع سنين نائبها، وما كان يعدلها عندهُ مصر ولا الشام، فإنه دخلها[٤٦أ] مرَّتين ثم خرج منها ببلوغ المرام، ورجع إلى مُلكهِ بعدما كان قد زال، ورتَّب الأمور كما كانت عليه وانتظم الحال.

واستمر مَن بعدهُ من المُلوك ينظُرون إليها بعين الكمال، ويُحسنون إلى كافلها ويُراعونه في جميع الأحوال، ولا يفوِّضون كفالتها إلا لمن يثقون به، ويعتمدون عليه، ويركنون في سائر أحوالهم إليه، فإنَّ مصر المحروسة كالفَرَس

---

[1] هي كلمة فارسية يقصد بها السيف القصير، وقد كان لكل سلطان من السلاطين نمجته المكتوب عليها اسمه وتحفظ في الخزائن بعد وفاة السلطان. انظر: ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٦؛ حسن حلاق وعباس صباغ: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، ص٢٢٣.

[2] يُعرف بالمنصور، وسيأتي خبر سلطنته في ق٥٧ب.

[3] ث: حيوته.

والكَرَك لجامها، وإن كانت هي "أُم الدُّنيا"، فالكرك زِمَامُهَا، ولأنها بين الحبيب والخليل عليهما الصلاة والسلام، وهي ملجأ للمُنقطعين من حُجَّاج بيت الله الحرام، وإنَّ كثيرًا من السلاطين حصل لهُم بها النُّصرة، ولم يكن ذلك لأعدائهم في فكره، يُدخل إلى المدينة من أبوابها المنقورة في الحجر الصوان.

والمدينة بها عمائر حصينة، يمر من وسطها إلى أن يأتي القلعة، فيصعدها مِن على جسر خشب، يُرفع بسلاسل حديد عند غلق الباب، فتصير كالنجم العالي، وبها قياع كثيرة، وعمارات حسنة إنشاء السلاطين.

وقد أنشأتُ بها حمَّامًا وإيوانًا مُعظَّمًا، وقد نظم الشُّعراء في ذلك الإيوان أشعارًا، فمن جُملة ذلك قصيدة مُطوَّلة لقاضي القُضاة شرف الدين أبو بكر الشافعي(١) لطف الله به، من جُملتها هذه الأبيات:

يا مَن محاسنهُ تاهت على التيهِ ... انظر لإيوان عِزّ لا شبيه له
وكل أرجائهِ تزهو بما فيهِ ... سماؤهُ ذهب إذ أرضهُ عجب
كأنَّ إيوان كِسْرى كان يحكيهِ ... قد حاز مِن كل معنى فهو مُنفرد
وحُيِّرتْ في كثيرٍ مِن معانيهِ ... وجاور الدهشةَ الحسناء فأدهشها
يا فخرةً نسبة للغَرس مُنشيهِ ... وأفصحت بلسان الحالِ قائلة
إلى السحاب فما دانٍ(٢) يُدانيه ... سمائهُ رفعة يرقى بها درجًا

ولقد أجاد في شعره، وليس ذلك بعجيب، لكونه فريد عصره، وله من الأشعار الرائقة.

وبقلعة الكَرَك جامع كبير كان أصله كنيسة، وأوصاف القلعة والمدينة كثيرة، اختصرتها خوف الإطالة، ولم تزل مُدخر المُلوك.

وكان يؤخذ بالمدينة المكوس فأبطلتُها، ونقشتُ بذلك رخامة، ووضعتُها على الباب الغربي، وأبطلتُ ما يؤخذ من أرباب المعاش برسم الحِسْبَة[٤٦ب]، وعوَّضتُ المُحتسِب خراج الكروم المُختصَّة بالنيابة الشريفة، وجدَّدتُ عمارة مأذنة الجرس بالقلعة المنصورة، وأقمتُ بها ستة مؤذِّنين، وأوقفتُ لهم حمَّامًا

---

(١) لم أهتد لترجمته.

(٢) ث: داء.

بالمدينة مُختصة[1] بالنيابة الشريفة، وأبطلتُ ما يؤخذ من الحُجَّاج بالركب الكركي وبمنزلة الحسا برسم أمير الحاج الكركي، وعوضتُه من ديوان النيابة غِلَالًا وجِمَالًا، كل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى.

ومُعاملة الكَرَك مُعاملة مُتسعة، ابتداؤها "زيزة" وانتهاؤها "العُلى" مسيرة عشرين يومًا[2]، وبها قُرى عديدة، ومن مُعاملتها: غُور "زُغَر"، به البِرْكة[3] المُنتنة المعروفة بـ"بُحيرة لوط"، مُتصلة إلى غور بَيْسَان.

وبغُور زُغَر "قرية الصَّافية"، يُزرع بها قصب السُّكَّر، والقُلقاس، والنيل المُشابِه[4] بالهندي، وبها الرُّطَب، والنبق، والليمون، ويُجلب منها الموز، وكانت قديمًا هذه القرية تعمل في السنة ستة عشر ألف دينار، وهي من خاص النيابة الشريفة.

ويُجلب من بلاد الكَرَك الجُبن العجيب، وحب الرُّمَّان، والكمثرى، والجوز واللوز، والزبيب، والمحلب، وهي بلاد عديَّة، وبها قُرى نصارى من جُملتهِم قرية "مُؤتَى"[5] التي كانت الوقعة بها[6]، والحكاية في ذلك مشهورة، فإنها كانت من أعظم الغزوات.

وللكَرَك وادي عجيب، بهِ من جميع الأشجار، وبه أنهُر وعيون، وينبُت بهِ الزعفران، وهُناك مُفترج أنشأهُ الملك الناصر أحمد[7] صاحب الكَرَك حسن جِدًّا، لا يُسلك إليه إلا بصعوبة، وقد أنشد بعض جُلسائه في ذلك ببيتين:

مكاننا جَنّة ولكن طريقهُ يقطع النياطَا
لجَنّةِ الخُلد لم يصلها إلا فتىً جاوز الصِّراطَا

---

(1) ث: مخصة.
(2) الزُبدة ص٤٣: "ومسيرة مُعاملة الكرك من العُلى إلى زيزة مقدار عشرين يومًا بسير الإبل".
(3) سمَّاها القلقشندي: "بحيرة زُغر". انظر: صبح الأعشى، ج٤، ص٨١.
(4) لعل صوابها: المُشبَّه.
(5) المشهور: "مؤتة". انظر: البغدادي: مراصد الاطلاع، ص١٣٣٠.
(6) يقصد سرية مؤتة سنة ٨هـ.
(7) هو ابن الناصر محمد بن قلاوون، تولى السلطنة في شوال سنة٧٤٢هـ، وخُلع في مُحرَّم سنة ٧٤٣هـ، وكان أراد أن يجعل الكرك دار حُكمه فخُلِع، ثم حُوصِر بالكرك حتى قُبِضَ عليه وقُتِل في صفر سنة٧٤٥هـ. انظر: مورد اللطافة، ج٢، ص٧٤-٧٦.

وهُناك حمَّام، وجميع طواحين مُعاملة الكَرَك دائرة على الماء من غير تكلُّف، لا يَتوصَّل السالك إلى جميع مُعاملة الكَرَك إلا من أربع جهات، وهي أيضًا حصينة جدًا، حتى لا يتمكن الصعود منهم إلا فارسًا فارسًا بصعوبة لوعارتها.

وبغربيها "تيه بني إسرائيل" من الكَرَك إلى مصر من الدرب السُّلطاني خمسة عشر يومًا، وأمَّا من على التيه خمسة أيام، لكن لا يُعرف بهِ درب، ويحتاج المُسافر بهِ إلى دليل.

وبها من المزارات: قبر سيدي جعفر الطيَّار، وقبر زيد بن حارثة، وقبر عبد الله بن رواحة، وقبر زيد بن أرقم، ومشهد علي بن أبي طالب، وقبر الحارث بن النُّعمان [٤٧أ]، وحنيف بن رياب[١]، وزيد بن الخطَّاب، وعبد الله بن سهل، وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم استشهدوا في غزوة مؤتى، وهُناك مغارة تُعرف بـ"الشُّهداء"، يظهر بها أنوار في كل حين، وعين القطارة بها آثار أصابع النبيﷺ، وقبر موسى، وقبر يوشع بن نونعليه السلام، وقبر داوودعليه السلام، وقبر إسكندر، ولم أعلم هل هو ذو القرنين أو غيره؟ وطور هارون ووادي موسى عليهما السلام، وغير ذلك[٢].

ويلي مُعاملة الكَرَك:

(مدينة الشَّوْبَك)

وهي مدينة جَيِّدة، كثيرة العمائر والبساتين والأنهار، وبها قلعة حصينة لها ثلاثة أسوار، بوسطها عين جارية، ولها مُعاملة، وهي كثيرة الفواكه، ويُعمل بها البُسُط الشَّوْبَكية، تُجلب منها إلى سائر البلاد، وقد عملتُ بها بُسُطًا كبارًا ثلاث[٣] شقات، برسم المُخيَّم الشريف، وهي من جُملة مُضافات الكَرَك.

وقد رأيتُ في مخزومة تاريخها سنة خمس وسبعين وستمائة بمُتحصِّل جهاتها التي كانت تُحمل إلى خزانة الكَرَك في كل شهر عشرة آلاف دينار.

---

(١) ث: "ريان"، والضبط من الإشارات للهروي.
(٢) انظر: الهروي: الإشارات، ص٢٦.
(٣) ث: ثلاثة.

ويليها ومُعاملة الكَرَك: "بَرِّيَّة الحجاز" من الجهة الجنوبية، ومن الجهة الشرقية "صحراء العراق" إلى أن يقع الحد إلى أطراف الشام.

(مدينة دمشق)

حيثُ الطول ستون درجة، والعرض أربعة وثلاثون درجة، وهي من الجُزء الرابع من الإقليم الرابع، قيل: "بناها دمشق بن قاني بن سام بن نوح"، وقيل: "بناها الضَّحَّاك".

رُوِيَ عن كعب الأحبار قال: "وجدتُ في كتاب الله المُنزَّل أنَّ الشام كنز الله من أرضه، وبها كنز من عباده".

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾[1]. قال مَعْمَر: "بوأهم الشام وبيت المَقْدِس".

وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[2] قيل: "جهات شرقها أرض الشام، وجهات غربها مصر".

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[3] يعني الشام.

ورُوِيَ عن أُبَي أنه قال: "سمَّاها الله مُباركة، لأنه ما مِن ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المَقْدِس".

وقال تعالى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[4]أي إلى حيث أمرني بالمُضيِّ إليه، وهو الشام[5].

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "طُوبى للشام"، فسُئِلَ: ولِمَ ذلك؟ فقال: "إنَّ ملائكة الرحمن باسطوا أجنحتها عليه".

---

(1) سورة يونس، الآية ٩٣.
(2) سورة الأعراف، الآية ١٣٧.
(3) سورة الأنبياء، الآية ٧١.
(4) سورة الصافات، الآية ٩٩.
(5) انظر: مثير الغرام، ص٦٨-٧٤.

رُوِيَ أنه ﷺ قال في الحديث[٤٧ب]: {فإنَّ الله تكفَّل[1] لي بالشام وأهله}، فكان الراوي[2] إذا تحدَّث بهذا الحديث قال: "مَن يُكفل الله بهِ فلا ضيعة عليه".

ورُوِيَ أنه ﷺ قال: {وإنها خيرة الله من بلادهِ، يجتبى إليها خيرتهِ من عباده}، وفي حديث آخر: {فإنها صفوة بلاد الله، يَّسكنها خيرتهِ من عباده}.

ورُوِيَ أنَّ الله سُبحانه وتعالى قال: "يا شام أنت صفوتي من بلادي، وأنا سائقٌ[3] إليكِ صفوتي من عبادي. مَن كان يولد فيكِ فاختار عليكِ فبذنبٍ يُصيبه، ومَن كان مولدهُ في غيركِ فاختاركِ فبرحمةٍ منِّي. يا شام اِتَّسعِي لأهلك بالرِّزق كما تتسع الرحم للولد، وعيني عليك بالظل والمطر مُنذُ خلقتُ السنين والأيام. مَن يُعدم فيك المال لا يُعدم فيك الخير. أنت مُقدَّس بنوري، وفيك المحشر. أزفك يوم القيامة كما تُزفّ العروس إلى أهلها، ومن دخلك استغنى من الزيت والقمح".

ورُوِيَ عن النبي ﷺ قال: {الشام صفوة الله من بلاده، يجتبي إليها صفوته من عباده، فمن خرج من الشام إلى غيرها فبسُخطِه، ومن دخلها من غيرها فبرحمتِه}.

ورُوِيَ عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: "قَسَّمَ الله الخير عشرة أعشار، فجعل تسعة أعشاره بالشام، وبقيته في سائر الأرض، وقَسَّمَ الشر عشرة أعشار، فجعل جُزءًا منه في الشام وبقيته في سائر الأرض".

ورُوِيَ عبد الله بن عمر أنه قال: "تسعة أعشار الخير بالشام، وعُشر بسائر البلدان، وعُشر الشر بالشام، وتسعة أعشارهِ في سائر البلاد".

ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: {بينما أنا نائم إذ رأيتُ عمود الكتاب احتُمِلَ من تحت رأسي، فظننتُ أنه مذهوب به، فاتبعتُه بصري فعُمِدَ بهِ إلى الشام. ألا وإنَّ الإيمان حين يقع الفتن بالشام}، ويُروى "عمود الإسلام".

ورُوِيَ عن عبد الله عمرو قال: قال رسول اللهﷺ: {إنَّ عمود الإسلام اتنُزِعَ من وسادتي فاتبعتُه بصري فإذا هو نور ساطع حتى ظننتُ أنه مذهوب به، فعُمِدَ بهِ إلى الشام، وإنِّي أوَّلتُ أنَّ الفتن إذا وقعت أنَّ الإيمان بالشام}.

---

[1] ث: يكفل.

[2] هو أبو إدريس الخولاني. انظر: مثير الغرام، ص٩٠.

[3] ث: سابق.

ورُوِيَ عن عبد الله بن حوالة أنه قال: يا رسول الله اكتب لي بلدًا أكون فيه، فلو أعلم أنك تبقى لم أختر على قُربك". قال: "عليك بالشام" ثلاثًا، فلمَّا رأى النبيﷺ كراهيته للشام قال: "هل [٤٨أ] تدرون ما يقول الله للشام؟ يقول: "يا شام يدي عليك. يا شام أنتَ صفوتي من بلادي أُدخِل فيك خيرتي من عبادي. أنتَ سيف نقمتي وسوط عذابي. أنتَ الأندر وإليك المحشر"، ورأيتُ ليلة أسري في عمود أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة. قلتُ: ما تحملون؟ قالوا: "عمود الإسلام أُمرنا أن نضعه بالشام".

ورُوِيَ عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: "هَبَّ رسول اللهﷺ مذعورًا وهو يرجع. قُلْتُ: ما بِكَ بأبي وأمي؟ قال: "سُلَّ عمود- يعني الإسلام- من تحت رأسي، ثم رميتُ ببصري فإذا هو قد غُرِزَ وسط الشام، [فقيل لي: "يا محمد إنَّ الله تعالى اختار لك الشام][1]، وجعلها لك عِزًّا ومحشرًا ومنعة".

ورُوِيَ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: "سَمِعْتُ رسول اللهﷺ يقول: {إنَّ الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام} ثلاث مرَّات".

ورُوِيَ عن ابن عُمر عن النبيﷺ قال: {يأتي على الناس زمان لا يبقى مؤمن إلا لحق بالشام}.

ورُوِيَ عن أبي أُمامة أنه قال: {لا تقوم الساعة حتى يتحول خيار أهل العراق إلى الشام، ويتحول شرار أهل الشام إلى العراق}.

ورُوِيَ عن النبيﷺ قال: {لا يزال عِصَابةٌ من أُمتي يُقاتلون على أبواب دمشق، وعلى أبواب بيت المَقْدِس وما حوله، لا يضُرهم خُذلان من خذلهم}.

ورُوِيَ أنَّ النبيﷺ قال: {أهل الشام سوط الله في أرضه، ينتقم بهم ممَّن يشاء من عباده، وحرام على مُنافقيهم أن يظهروا على مؤمنيهم، ولا يموتوا[2] إلا همًّا وغمًّا}.

ورُوِيَ عن كعب أنه قال: "أهل الشام سيف من سيوف الله، ينتقم بهم ممَّن عصاهُ في أرضِه".

ورُوِيَ عن أبي الدرداء أنَّ رسول الله ﷺ قال: {إنَّ فُسطاط المُسلمين يوم الملحمة بالغُوطة، إلى جانب مدينة يُقال لها دمشق، من خير مدائن الشام}.

---

(١) الإضافة من مثير الغرام، ص١٠٠.

(٢) ث: تموتوا.

ورُوِيَ عن أبي الدرداء قال: قال رسول اللهﷺ: {أهل الشام وأزواجهم وذرياتهم وعبيدهم وإماؤهم إلى مُنتهى الجزيرة مُرابطون، فمن احتل منها مدينة من المدائن فهو رباط، ومن احتل منها ثغرًا من الثغور فهو في جهاد}.

ورُوِيَ عن كعب أنه جاء إليه رجُل فقال: "إنِّي أريد الخروج ابتغي فضل الله تعالى"، فقال: "عليك بالشام، فإنه ما نقص من بَرَكة الأرضين يُزاد في الشام" [٤٨ب].

وممَّا يدل على خير أهل دمشق وأمانتهم ما ذكرهُ الإمام العلَّامة أبو محمد عز الدين بن عبد السلام في "فضائل الشام"(١) له: أنَّ امرأة باعت طشتًا في سوق الصفر بدمشق، فوجدهُ المُشتري ذهبًا، فقال لها: "إنِّي لم أشتره إلا على أنه صفر(٢) وهو ذهب"، فاختصما إلى الوليد بن عبد المَلِك، فأخبر رجاء بن حيوة، فقال: "انظر فيما بينهما"، فعرضه رجاء على المرأة فأبت أن تقبله، وعرضه على الرجُل فأبى أن يقبله، فقال: "يا أمير المؤمنين أعطها ثمنه، ودعه في بيت مال المُسلمين"(٣).

وفضائل الشام وما ورد فيها من الأخبار والآثار كثير لا يليق استيعاب جميعها بهذا المُصنَّف.

قيل: إنَّ أحسن المُدُن دمشق، يشتمل على مدينتها سور وخندق.

ولها ثمانية أبواب: باب الجابية، وباب الفرج، وباب الفراديس، وباب توما(٤)، وباب شرقي، والباب الصغير، وباب النصر، وباب كيسان(٥).

وبها سبعة أنهُر عجيبة من عجائب الدُّنيا، وبها عمائر كثيرة حسنة، وبساتين كثيرة، وبها ما ينيف عن مائة وثلاثين منارة للآذان، وجامع بني أُميَّة من أعجب الجوامع.

---

(١) هو "ترغيب أهل الإسلام في سُكنى الشام" لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السُّلمي الشافعي (ت:٦٦٠هـ)، والحكاية المحكية في هذا الكتاب نقلها ابن تميم المقدسي صاحب مثير الغرام من "الترغيب" لا المؤلِّف.

(٢) أي نحاس.

(٣) عن هذه الأحاديث وأسانيدها وما قيل فيها. انظر: مثير الغرام، ص٨٨-١٠٢، ١٠٩، ١١٢، ١١٥-١١٦.

(٤) ث: ثوما.

(٥) عن أبواب دمشق وما طرأ عليها. انظر: ابن كنان: المواكب الإسلامية، ص٢٠٨-٢١٦.

والمُستفيض بين الناس أنَّ عجائب الدُّنيا ثلاث[١]: جامع بني أُميَّة، ومنارة الإسكندرية، وحمَّام طبرية، وقد تقدَّم الكلام على مدينة طبرية[٢]، وإنَّ بُحيرتها واسعة جدًا، وهي مجمع جميع المياه المُنصبَّة من هذه السبعة أنهُر، وهي تصُبُّ بـ"البُحيرة المُنتنة" على قول بعضهم، وحمَّام طبرية يوجد به الماء البارد والحار من [غير][٣] تسخين[٤].

وبدمشق جامع دنكز[٥]، وهو من أحسن الجوامع، يَنظُر الميدان الأخضر، وهو من أحسن الميادين وأعجبها، بِهِ قصور عجيبة جدَّدها المَلِك الأشرف[٦].

وأمَّا البيمارستان المعروف بنور الدين الشهيد لم يُر أحسن منه من حين عُمِّر إلى يومنا هذا، لم يُطفأ ناره، واتفق لشخص أعجمي من أهل الفضل لمَّا رأى ما بِهِ من المآكل والتُّحف واللطائف تضاعف، وليس به ضعف، وأقام به ثلاثة أيام، ورئيس الطب يتردد إليه، فلمَّا عَلِمَ حاله وصف له ما يُناسبه من المآكل اللطيفة، ثم كتب له من معناها "إنَّ من عادة الضيف ثلاثة أيام"، وهذا من غاية لطافة الرئيس[٧].

وأمَّا مُفترجات دمشق فيعجز الواصف عن حصرها، من جُملتها: تخت الطارمة[٨]، والجبهة[٩]، والرَّبوة، والعاشق والمعشوق، وبين النهرين، والتخوت [٤٩أ]، والمقاسم، والواديين الفوقاني والتحتاني.

---

(١) الزُّبدة ص٤٥: ولقد رأيتُ في بعض التواريخ أن عجائب الدنيا ثلاث.

(٢) ذكر أنه تتبع الحوران في ق٤٥أ، ولم يذكر شيئًا عنها، ولعله كان في أصل الكتاب قبل الاختصار.

(٣) إضافة لضبط المعنى.

(٤) عن حمَّام طبرية. انظر: الهروي: الإشارات، ص٢٨.

(٥) كذا في ث، ب، والمشهور كتابته: "تنكز"، وهو من بناء الأمير تنكز الحسامي نائب الشام(ت:٧٤١هـ). انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٤، ص١٥٦-١٦٧.

(٦) يعني السُّلطان بَرسْبَاي.

(٧) كانت هذه الحادثة سنة٨٣١هـ، وكان المؤلف شاهد عليها. انظر: الزُّبدة، ص٤٥.

(٨) الزُّبدة ص٤٤: وبها طارمة مشرفة على المدينة، بها تخت المملكة، مغطى لا يكشف إلا إذا جلس السلطان عليه.

(٩) ث، ب: "الجهة"، والضبط من الزُّبدة، ص٤٥، وأمَّا الجبهة فهي أرض مربعة قدر فدانين بها كثير من الأشجار المتنوعة، وهي على نهر بردي. انظر: ابن كنان: المواكب الإسلامية، ص٢٢٢-٢٢٧.

ودمشق مُتسعة العمارة، من جُملتها: الصالحية، والقُبيبات[1]، والسبعة، والعنابة، والشاغور، وخان السُّلطان، فإنَّ كُلًّا من هذه الأماكن يُضاهي مدينة من المُدُن.

وأمَّا القلعة المنصورة فحصينة، يشتمل عليها سور مُحكم وأبراج، وحولها خندق ملؤه ماء، وبها الطارمة[2] التي بها تخت المُلك، عجيبة من العجائب، مُشرفة على دمشق.

وأمَّا ما بدمشق من الفواكه الرطبة واليابسة التي تُجلب إلى سائر الأقاليم فعجيبة، وكثيرة جدًّا، وأمَّا الرياحين المُختلفة الألوان والأجناس فعجيبة، وأمَّا القماش[3] المُذهَّبة والمُختلفة الألوان فحسنة إلى الغاية، حتى إنه يُقارب في التشبيه القُماش السكندري، وأمَّا في الحقيقة ليس للسكندري نظير[4]، وأمَّا النحاس المُصطنع مواعين فليس له نظير، وأمَّا آلات السلاح فكثيرة جدًا من جميع الأصناف، وتُجلب إلى سائر البلاد[5].

وبها من المشاهد والقبور: مشهد الحُسين‌ﷺ بباب الفراديس، وبظاهر البلد عند مشهد الخضر قبر محمد بن عبد الله بن الحُسين بن أحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وفي مدرسة مُجاهد الدين قدم النبيﷺ في صخرة سوداء أتوا بها من حوران، وبدمشق عمود عند الباب الصغير في مسجد يُزار ويُنذر له، وبالجامع مقصورة الصحابة رضي الله عنهم، وزاوية الخضر عليه السلام ومُصحف عُثمان بن عفَّان‌ﷺ ذكروا أنه خَطَّهُ بيده.

وجامع دمشق ليس للإسلام بعد المسجد الأقصى هيكل للعبادة مثله، وبالجامع العُمد الصغار التي تحت قُبَّة النسر مُجزَّعة بحُمرة. قيل: "إنهما كانا في عرش بَلقيس"، والله أعلم.

---

(1) ث: القببات.

(2) هو أحد الأبراج الغربية لقلعة دمشق، وهو من خشب جُعِلَ على هيئة قبة لجلوس السلطان. انظر: ابن كنان: المواكب الإسلامية، ص٢١٧-٢١٨.

(3) كذا في ث، وهي طريقة المؤلِّف، إذ السياق كله يسير على هذا، وليس خطأ ناسخ.

(4) قال القلقشندي: وقماشها يُقارب قماش الإسكندرية في الجودة والحسن، وإن لم يبلغ شأوه في ذلك. انظر: صبح الأعشى، ج٤، ص١١٣.

(5) أضافت الزُّبدة ص٤٦: "وبها الثلج لا يزال على الجبال شتاءً وصيفًا، وجميع أهلها يشربون منه، ويُنقل منه إلى السلطان وأركان الدولة الشريفة".

وبه المنارة الغربية التي أقام بها الغزالي وابن تومرت[١] الذي مَلك بلاد المغرب. يُقال: إنها كانت هيكلًا لعُبَّاد النار، وكانت إذا طلعت ذؤابة[٢] النار سجد لها أهل حوران.

وأمَّا المنارة الشرقية[٣] فلا تخلو من ولي لله يُقيم بها، وقيل: "هي المنارة البيضاء التي ورد أنَّ عيسىعليه السلام ينزل عندها"، وقيل: "بل [الـ]منارة التي عند كنيسة مريم بدمشق"، والله أعلم.

وبدمشق قبر نور الدين محمود بن زنكي من الأولياء بمدرسته[٤][٤٩ب] المعروفة، وبالجامع في الكلاسة قبر العبد الصالح صلاح الدين يوسف بن أيوب فاتح بيت المَقْدِس والثغور والعواصم[٥].

وقبلي الباب الصغير قبر بلال بن حمامة، وقبر كعب الأحبار، وثلاثة من أزواج النبيﷺ، وقبر فضة جارية فاطمة عليهما السلام، وقبر أبي الدرداء، وقبر أم الدرداء، وقبر فضالة بن عُبيد، وقبر سهل بن الحنظليَّة[٦]، وقبر واثلة بن الأسقع، وقبر أويس بن أوس الثقفي، وقبر أم الحسن ابنة حمزة بن جعفر الصادق، وقبر علي بن عبد الله بن العبَّاس، وقبر سُليمان بن علي بن عبد الله بن العبَّاس، وقبر زوجته أُم الحسن ابنة جعفر بن الحُسين[٧] بن فاطمة الزهراء عليهم السلام، وقبر خديجة ابنة زين العابدين، هؤلاء في تُربة واحدة، وقبر سُكينة ابنة الحسنعليه السلام.

وبالجبَّانة قبر أويس القَرني، وقيل إنه بالرَّقَة، ومن شرقي البلد: قبر عبد الله ابن مسعود، وأُبيّ بن كعب، وكعب الأحبار، وبها خلقٌ كثير من المشايخ والصالحين، وقيل: "إنَّ جبَّانة دمشق خَرُبَتْ[٨] فلا يُعرف بها القبور".

---

[١] ث: "تومة"، والضبط من الإشارات.

[٢] ث: "دابة"، والضبط من الإشارات.

[٣] ث: "الغربية"، والنص كما ورد في الإشارات: " وكانت إذا طلعت ذؤابة النار سجد لها أهل حوران، ولا تخلو من ولي لله يُقيم بها، والمنارة الغربية قيل هي المنارة البيضاء...".

[٤] ث: "بمدرسة"، والضبط من الإشارات. وهذه المدرسة تُعرف بـ"النورية الصغرى"، وهي من مدارس الحنفية، بناها الصالح إسماعيل بن نور الدين، ثم نقل جسد والده فدفنه فيها. انظر: النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٦٠٦-٦٠٧.

[٥] ث: "الصوامع"، والضبط من الإشارات.

[٦] ث: "الحطلية"، والزُّبدة: "الحنظلة"، والضبط من الإشارات.

[٧] الإشارات: أم الحسن بن الحسن بن الحسن.

[٨] الإشارات: حُرِثَتْ.

وقبلي دمشق مشهد الأقدام، بهِ آثار أقدام في الصخر يُقال إنها أقدام الأنبياء عليهم السلام، وبالمِزَّة قبر دِحْيَة الكلبي[1]، وقيل: "ببِزَرة مولد إبراهيم الخليل عليه السلام"، والصحيح أنَّ مولدهُ بالعراق.

جبل قَسيون بهِ مغارة الدم، قيل: "بها قتل قابيل هابيل"، وبه مغارة آدم عليه السلام سكن بها، وبهِ مغارة الجوع. قيل: "مات بها أربعون نبيًّا".

وبداريا قبر سُليمان الداراني من كبار الأولياء.

بيت لهيا: ذكروا أنَّ آزر كان ينحت الأصنام بها، ويدفعها لإبراهيم عليه السلام ليبيعها، فيأتي بها إلى حَجَر في البلد فيكسرها عليه، والحَجَر الآن بدمشق[2].

وأمَّا الأقاليم والمُعاملات المُتعلِّقة بدمشق للحاكم كافل الشام عليها فعديدة، كل مُعاملة ثلاثمائة وستون قرية، وثَمَّ ما يزيد عن ذلك وينقص، أول ذلك:

مُعاملة الرَّملة، ومُعاملة القُدس، ومُعاملة الخليل، ومُعاملة نَابُلُس، ومُعاملة الصَّلْت[3]، ومُعاملة حُسْبَان، ومُعاملة عَجْلُون، ومُعاملة بَيْسَان، ومُعاملة زُرع، ومُعاملة نُعران، ومُعاملة السواد[4]، ومُعاملة بانِيَاس، ومُعاملة بُصرى[5]، ومُعاملة البَلْقَاء، ومُعاملة الغُوطة، ومُعاملة الزَّبداني، ومُعاملة بَعْلَبَك[٥٠أ]، ومُعاملة البقاع العزيزي، ومُعاملة صَيْدا، ومُعاملة بيروت، ومُعاملة حِمْص، ومُعاملة صَرْخَد، وغير ذلك[6]، وبهذه الأقاليم مُدن لم نذكرها.

ويلي المملكة الشامية المنسوبة لدمشق من جهة الغربية:

---

[1] سبق وأن ذكر المؤلِّف نقلًا عن الهروي قبرًا لدحية بقرافة القاهرة.

[2] من أول "ومن المشاهد والقبور" نقله المؤلِّف من كتاب الإشارات للهروي، ص٢٠-٢٤.

[3] الزُّبدة ص٤٦: السلط.

[4] كذا في ث، وفي الزُّبدة ص٤٧: "وأمَّا السويدية فأصلها مدينة كبيرة، وهي الآن غالبها خراب، ولها إقليم يشتمل على ما ينوف عن مائتي قرية، وهي أيضًا من معاملة دمشق".

[5] ث: بسرى.

[6] عنها. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٩٩-٢٠٢؛ وقد أوردها ابن شاهين في الزُّبدة، ص٤٦-٤٧ بمزيد تفصيل واختلافات كثيرة، ولهذا جعلتُ نصها مُلحق بآخر الكتاب.

(مدينة صَفَد)

وهي مدينة حصينة، وبها عمائر وبيمارستان حسن، وهي عديَّة[1]، وبها مشايخ مشهورون بالصلاح، وبها أقسام موصوفة، ولها قلعة حصينة جدًا، ولها ثلاث مُعاملات تشتمل على عِدَّة بلدان، ومن مُدنها: مدينة صُور، ومدينة عكَّة، وهُما حصينتان[2]، فتحهُما الملك الناصر صلاح الدين يوسف[3]، وبعكَّة عين البقرة، وقد استشهد بها خلقٌ كثير من الصالحين.

حكى القاضي مُحيي الدين بن عبد الظاهر أنَّ الفقيه العَالِم شرف الدين البوصيري[4] رأى في منامهِ قبل مسير المَلِك الأشرف إلى حصار عكَّة في شوال سنة تسع وثمانين قائلًا[5] يُنشد[6]:

قد أخذ المَسلمون عكَّا ... وأشبعوا الكافرين صَكَّا

وسَاقَ سُلطاننا إليهم ... خيلًا تدُكُّ الجبال دكَّا

وأقسمَ التُّركُ مُنْذُ سارت ... لا تتركوا للفرنجِ مُلكَا

فلمَّا فُتحت، وفُتحت السواحل أنشد القاضي المُشار إليه في ذلك بيتين:

يا بني الأصفر قد حلَّ بكم ... نقمة الله التي لا تنفصل

نزل الأشرف في ساحلكم ... فأبشروا منه بصَفعٍ مُتصِل

والناصرة كانت قديم المدينة بها دار إبراهيم، **وحِطِّين** بها قبر شُعيب ﷺ، **وقرية كفر مَنْدَة** بها قبر صفوراء زوجة موسى ﷺ، وبها الجُبّ الذي قلع موسى

---

[1] أي قوية.

[2] ث: حصينتين.

[3] الزُّبدة ص٤٤: "ومدينة عكا كانت حصينة جدًّا، فلمَّا فتحها صلاح الدين بن أيوب هدم أسوارها، وهي الآن مينا المملكة الصفدية، ولمَّا هدمها جهَّز قفلها بمفاتحه، وهو حِمْل فرس إلى سجن قلعة الكرك، وهو بها الآن عجيب من العجائب، ومدينة صور وهي الآن خراب، ومدينة المعشوقة خربت إلى أن صارت قدر قرية، وهي قريبة من البحر، وبالمملكة الصفدية قرى كبار نظير المدن كالمنية والناصرة وكفر كنّة، وما أشبه ذلك، وقيل إنَّ بالمملكة الصفدية بالشقيف وكابول وغيرها سبع قلاع غالبها خراب الآن".

[4] ث: "حكي أن القاضي مُحيي الدين بن عبد الظاهر بن الفقيه العالم شرف الدين البوصيري"، والبوصيري هو محمد بن سعيد بن حمَّاد الصنهاجي، صاحب البُردة، توفي سنة٦٩٦هـ. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص١٠٥-١١٣.

[5] ث: وكان قائلاً.

[6] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٣، ص٤٠٤-٤٠٥.

الصخرة مِن عليه وسقى لبنتي شُعيبﷺ، وهُناك قبران لأولاد يعقوب، **وبكابول** اثنان أيضًا[1]، **واللَّجُّون** من مُعاملة صَفَد، **ومَرْبَع بني عامر، ومدينة الصُّبَيْبَة** تُسمَّى "بانياس"، **وأمَّا قلعة الصُّبَيْبَة** فحصينة جدًا، ومدينتها لطيفة، **ووادي التيم**[٥٠ب]، **وجسر يعقوب** فاصل بين حَدَّيِ الشام وصَفَد، **وجُبّ يوسف**ﷺ الذي أُلقي فيه مكان مُبارك[2]، **ومدينة الصَرْخَد** صغيرة، وبها قلعة حصينة.

ويلي المُعاملة الصَّفَدِيَّة:

مدينة صَيْدا: مدينة لطيفة، وهي على شاطيء البحر المحيط.

ومدينة بيروت لطيفة، يُقال: "إنها مُعاملة بمُفردها"، ويُقال: "هي وصَيْدا مُعاملة واحدة"، يَرد إليها مراكب الفرنج بالبضائع، وتُجلب إلى دمشق، وبها قبر الأوزاعيرضي الله عنه[3].

ويلي ذلك:

(مدينة طَرابُلُس)

فهي مدينة مُتسعة، بها عمائر حسنة وبساتين كثيرة، وهي شامية مصرية، وهي على البحر المُحيط من الجزء الرابع من الإقليم الرابع، حيثُ الطول ستون درجة وخمسة وثلاثون دقيقة، والعرض أربعة وثلاثون درجة ونصف،يَرد إليها مراكب الفرنج بالبضائع.

حكى لي سعد الدين بن المرأة[4] أنه كان صاحب ديوان النيابة في أيام أركماس الجُلباني[5]، فحصل من موجب القُطن خاصة في السنة أحد وثلاثون ألف دينار.

---

(١) ذكر الهروي في الإشارات ص٢٩ أنهما روبين وشمعون.

(٢) هذه المشاهد والقبور المذكورة في الفقرة نقلها المؤلِّف من كتاب الإشارات للهروي، ص٢٧، ٨١.

(٣) الهروي: الإشارات، ص٣٠.

(٤) هو إبراهيم بن يوسف القبطي الناصري، ويُعرف بابن المرة وابن المرأة، ولي نظر ديوان المفرد في عهد بَرسْبَاي، وخدم في دواوين الأُمراء كديوان أركماس الجلباني، وكان يحكي أنه ضبط المتحصل من مكس القطن الموسوق للفرنج بميناء طَرابُلُس في بعض السنين فجاء نحو ثلاثين ألف دينار، توفي سنة٨٤٤هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص١٨٤-١٨٥؛ ج١١، ص٢٧٠.

(٥) هو أركماس الجلباني قرا سنقر الظاهري جَقْمَقْ، تولى نيابة غَزَّة ثم طَرابُلُس، وتولى بعد ذلك نظر القُدس والخليل ونيابة القُدس فلم تحمد سيرته فعزل، ومات بالرملة سنة٨٣٨هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٢٦٨.

ويُعمل بها السُكَّر والصابون، ويُجلب إلى البلاد، ولها ما ينيف عن عشرة أقاليم، وبها قلعة خراب الآن.

ومن مُضافاتها مُدُن وقلاع وسواحل، يُعرف الجميع بـ"بلاد طَرابُلُس"، فمن ذلك:

(مدينة صَهْيُون): بها عمائر حسنة، وقلعة حصينة إلى الغاية، ولها مُعاملة تشتمل على عِدَّة قُرى.

ويلي ذلك **(مدينة جَبَلة)**، فيها اختلاف أنها مدينة أو قرية، ولها مُعاملة، ولم أُحرِّر ذلك، وبها قبر إبراهيم بن أدهمﷺ[1]، تَرِد إليها بعض المراكب.

ويلي ذلك **(مدينة المَرْقَب)**: مدينة لطيفة بالقُرب من البحر، ولها قلعة حصينة، ومُعاملة بها عِدَّة بلدان.

(مدينة أنطاكية): قيل إنها كانت قديمًا من طَرابُلُس، ولم أُحرِّر ذلك، والآن هي مِن مُعاملة حلب، وبها قبر حبيب النجَّار الذي أنزل الله تعالى في شأنِه: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾[2][٥١أ]، وجبلها يُزار[3]، وعليها سور مُتسع، ولها مُعاملة بها قرى عديدة.

(مدينة اللاذقية): حيثُ الطول إحدى[4] وستون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، وهي على البحر، بها بعض عمائر، ولها مُعاملة، وقيل: "هي وجَبَلة مُعاملة واحدة"، وهي: وصَهْيُون، والمَرقَب،وجَبَلة، وأنطاكية، وحصن الأكراد[5]، ومِصْيَات[6]، وحصن عَكَّار، وحصن برزية من الجُزء الرابع من الإقليم الرابع.

ويلي ذلك **(مدينة بَعْلَبَك):** وهي شرقي دمشق وشمائلها، بينهُما أربعون ميلًا، بها عمائر حسنة، ولها قلعة فيها الآثار العظيمة من الأحجار الطوال العراض،

---

(1) الهروي: الإشارات، ص٣٠.
(2) سورة يس، الآية ٢٠.
(3) الهروي: الإشارات، ص١٧.
(4) ث: أحد.
(5) ث: حصن أكراد.
(6) الزُبدة ص٤٩: "مصياة"، وعند القلقشندي: "مصياف"، أمَّا السحماوي فأوردها على الصورتين، وقال عبد الغني النابلسي: "مصياف بالصاد المهملة، وفي آخرها فاء، وبعضهم يقول مصياط فيجعل الفاء طاء مهملة". انظر: صبح الأعشى، ج٤، ص١١٣، ١٤٦، ٢٠٢؛ الثغر الباسم، ص٢٩٦-٣١٢؛ الحقيقة والمجاز، ص١٦٥-١٦٦.

وهي عديَّة[1]، بها بساتين وفواكه كثيرة وأنهار، ويُعمل بها: الأخشاب المدهونة العجيبة، والثياب البعلبكي، والدبس يُجلب إلى سائر البلاد، والقراصية التي ليس لها نظير، والعنب البعلبكي الذي كل عنبة منه مقدار بيض الحمامة، وبها ملبن عجيب، ولها بلاد كثيرة، وقريب منها جبل لبنان، يُقيم الثلج به، معروف بالصالحين، وعلى بابها قبر مَالِك بن أشتر النَّخعي[2]، وبها دير إلياس عليه السلام، وأمَّا حجر الحُبلي فعجيب في الطول والعرض[3].

ويلي ذلك (**مدينة كَرْك نوح عليه السلام**)[4] في بقعة مُليحة، بها عمائر كثيرة وبساتين وفواكه وأنهُر، وبها قبر نوح عليه السلام، وقريب منها قبر جُلية ابنتِه بقرية عرجوس[5]، وهي بلاد عديَّة.

ثم ترجع إلى حدود بعلبك، وهُناك منبع نهر العاصي يسير إلى الشرق، من أعجب الأنهار.

(مدينة حِمْص)

حيثُ الطول إحدى[6] وستون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، والعرض أربع[7] وثلاثون [درجة وعشرون][8] دقيقة، وهي مدينة حسنة، يشتمل عليها سور وخندق. يُقال: "إنها طبقتان"، لأن تحتها عمائر عجيبة، ولها قلعة حصينة.

ويُعمل بها القُماش الحَسَن، بحيثُ يُحاكي الدمشقي لحُسنِه وطراوته، يُجلب إلى سائر البلاد، وبها طلسم لا يدخل إليها العقرب، وإذا وُضِعَ من تُرابها على لذع العقرب يبرأ بإذن الله تعالى[9]، وهي عديَّة، كثيرة الأشجار والفواكه والمياه، ونهر العاصي يمر بها.

---

(١) ث: عديدة.
(٢) قال الهروي: والصحيح أنه بالمدينة النبوية. انظر: الإشارات، ص١٩.
(٣) لا يزال موجود ببعلبك إلى اليوم.
(٤) هي قرية في أصل جبل لبنان، وهي غير قلعة الكَرَك. انظر: البغدادي: مراصد الاطلاع، ص١١٥٩.
(٥) الهروي: "جبلة ابنة نوح بقرية يقال لها عرجموش. انظر: الإشارات، ص١٩.
(٦) ث: أحد.
(٧) ث: أربعة.
(٨) الإضافة من صبح الأعشى، ج٤، ص١١٢، وفيه: "والقياس أنَّ طولها إحدى وستون درجة، والعرض أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة".
(٩) الهروي: الإشارات، ص١٩، وأيضًا: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١١٣.

وكان النُّعمان بن بشير الصحابيﷺ المشهور بالجُود والسخاء أميرًا على حِمْص لمُعاوية ثم ليزيد، وممَّا اتفق من سماحتِهِ وخير أهل[٥١ب] حِمْص أنَّ أعشى همذان مَرَّ به، وكان بينهُما صُحبة، وقد تلاشى حاله، فجمع أعيان حِمْص، وقال: "هذا صاحبي، وهو من الأعيان المُنعَّمين، وقد صار إلى ما ترونه، فإن شئتُم بأن تُساعدوه بماذا تروا فلكم الأجر". قالوا: "سمعًا وطاعة، يُعطيه كل واحدٍ مِنَّا دينارًا". قال: "لا، بل كل اثنين دينارًا"، فحسبوا عشرين ألف اسم، وقرَّروا عشرة آلاف دينار، فقال: "أنا أجعلها من بيت المال، وأنتم ضعوها مكانها"، وزاد من مالِهِ عشرين ألف درهم، ودفعها إلى صاحبِهِ أعشى همذان المذكور، فأنشأ يقول[١]:

ولم أرَ للحاجات عند التمَاسِهَا	**كنُعمان نُعمَانِ الندى بن بشير**
إذا قال أوفى بالمقالِ ولم يكن	**ككاذبة الأقوام حبلَ غُرور**
فلولا أخو الأنصار كُنْتُ كنازلٍ	**ثوى ما ثوى لم ينقلب بنقير**
متى أكفُر النُّعمان لم أكُ شاكرًا	**ولا خير فيمن لم يكن بشكور**

نقل المقدسي في كتاب "فضائل الشام" أنَّ النبي ﷺ خُيِّر بين الدفن بيثرب وحِمْص، فاختار يثرب، وبها قبر هُود ﷺ وجماعة من الأنبياء الإسرائيلية.

وفي مؤلَّف الشيخ سراج الدين الحِمْصِي[٢] ما نقله من الحديث: "خمسة من مدائن الجنَّة، وخمسة من مدائن النار، فمدائن الجنَّة: مَكَّة، وبيت المَقْدِس، وطيبة، وحمص، ودمشق، ومدائن النار: أنطاكية، وعمورية، وقُسطنطينية[٣]، وتدمر، وصنعاء"[٤].

قال أبو عبد الله[٥]: "ليست صنعاء اليمن، إنما هي صنعاء الرُّوم".

---

[١] من بحر الطويل، وعن ترجمة النُّعمان بن بشير وشعر الأعشى. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٧، ص١٤٠-١٤١.

[٢] لم أهتد إليه، والغالب أنه في فضائل حمص، وأمَّا الشيخ فهو عمر بن موسى بن الحسن المخزومي الحمصي الشافعي، قاضي دمشق، توفي سنة٨٦١هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص١٣٩-١٤٢.

[٣] ث: قسطنطونية.

[٤] انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١، ص٢٢٢-٢٢٣.

[٥] هو محمد بن النعمان بن بشير السقطي كما ورد في تاريخ دمشق لابن عساكر، ج١، ص٢٢٠-٢٢١.

وقال[1]: "إنها أول مدينة في الشام جاءها كتاب سيد الخلق بدعائه للإسلام كما في البُخاري من حديث هرقل عظيم الرُّوم"، وقيل: "إنها رابع مدينة بُنيت على وجه الأرض".

استوطنها خالد بن الوليد خمس سنين، وعندهُ جماعة من الصحابة، فإنه تأمَّر عليهم في خلافة أبي بكر، وسكن عندهُ جماعة من الصحابة نحو ألف صحابي، وتوفي بها، وكان بها كثير من الطلسمات، والهواء لم يسكُن عنها أبدًا، وماؤها خفيف.

ولمَّا قصدها تمرلنك[2] ونزل على الرَّسْتَن[3]، وقيل له: "هذه قلعة حِمْص"، فلمَّا رآها وجد[٥٢أ] عندها عسكرًا عظيمًا، فقال: "قُلْتُم إنَّ السُّلطان فرج هرب فما هذا العسكر العظيم؟ قالوا: "لا نرى ما ترى"، فأرسل يكشف فلم يوجد أحد، ثم قيل له: "هذا عسكر خالد بن الوليد أمير الصحابة". قال: "لا شكَّ أنها في خفارته، وبانَ لي سِرّه"، ثم جاء إلى الضريح وقَبَّلَ العتبة[4].

وبها مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كَرَّمَ الله وجهه، وقبر خالد بن الوليد رضي الله عنه، وقبر عياض بن غنم، وقبر زوجة خالد بن الوليد، وقبر ابنه عبد الرحمن، وقبر عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقبر قنبر خادم علي بن أبي طالب، وقبور أولاد جعفر الطَّيَّار، وسفينة "مهران"وهو مولى رسول الله ﷺ، ومقام كعب الأحبار، ومشهد أبي الدرداء، وقبر ثوبان[5]، والحارث بن عطيف الكندي، وخالد الأزرق الغاضري[6]، والحجَّاج بن عامر، وكعب، وغير ذلك[7].

---

(١) لعله يقصد سراج الدين الحمصي.

(٢) هو تمرلنك بن طرغاي الأعرج. سلطان بلاد ما وراء النهر. غزا الشرق، واحتل الشام زمن السُلطان فرج بن برقوق، ثم تركها وعاد إلى بلاده، وأخباره كثيرة، أفردها بعض المؤرخين بالتأليف، توفي سنة٨٠٧هـ. انظر: المقريزي: درر العقود الفريدة، ج١، ص٥٠٧-٥٥٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٤٦-٥٠.

(٣) بلدة قديمة على علو يُشرف على نهر العاصي بين حماة وحمص. انظر: البغدادي: مراصد الاطلاع، ص٦١٥.

(٤) كان نزوله على حمص في ربيع الآخر سنة ٨٠٣هـ، وعن الحادثة. انظر: المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٠٣٨؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص١٠٣-١٠٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٠٣.

(٥) ث: "تومان"، والضبط من الهروي.

(٦) ث: "وخالد الأزرق، والعاصري"، والضبط من الهروي.

(٧) عن هذه المزارات والمشاهد. انظر: الهروي: الإشارات، ص١٨-١٩.

ولها بُحيرة عذبة مشهورة، كثيرة الطير والسمك[1].

ولحِمْص مُعاملة وعِدَّة قُرى، ومن مُتعلَّقاتِهَا: (سَلَمِيَّة)[2]، و(مدينة تَدْمُر) بها عمائر عجيبة كهيئة أحجار قلعة بَعْلَبَك، ويُعمل بها العِبْي التدمُري، وتُجلب إلى سائر البلاد، و(مدينة الرَّسْتَن) بها آثار، وهي مدينة أهل الرَّسِّ الذين ذكرهم الله تعالى في كتابِهِ العزيز[3].

(مدينة حَمَاة)

من أحسن المُدُن وأعمرهم، مدينة جليلة، يشتمل عليها سور وخندق بهِ أبراج مُحكمة، بها عمائر حسنة وبساتين كثيرة، ونهر العاصي يمر من عليها، وبهِشخاتير، ويُعمل بها السُّكَّر النبات، والورق العجيب، والمشمس الحموي، ويُجلب ذلك إلى سائر البلاد، وأوصافها كثيرة.

ومن جُملة مُدُنها:

(المَعَرَّة): المشهورة بكثرة التين والفُستق، وهي مرحلة عن حَماة، وبها دير سمعان، وقبر عمر بن عبد العزيزﷺ، وبها منارة عالية، بها آثار عجيبة[4].

(السَّلَمِيَّة): وهي من مُدُن المؤتفكة، فلمَّا أنزل الله عليهم العذاب رحم منهم مائة نفس، فعمَّروها وسُمِّيَتْ بها، وبها المحاريب السبعة. يُقال: "بها قبور التابعين"، وفي طريقها إلى حمص قبر النُّعمان بن بشير الصحابيﷺ المُقدَّم ذكره. قيل: إنها الآن في مُعاملة حِمْص"[5].

---

(1) ذكر القلقشندي أنَّ بوسطها بُحيرة صافية الماء، يُنقل السمك إليها من الفرات حتى يتولد فيها، والطير مبثوث في نواحيها. انظر: صبح الأعشى، ج٤، ص١١٣.

(2) الزُّبدة ص٤٩: "وأمَّا سلمية فلها معاملة بها عدة قرى، وهي من معاملة حماة"، وسيذكرها المؤلف بعد قليل ضمن أعمال حماة.

(3) الهروي: الإشارات، ص١٨.

(4) الهروي: الإشارات، ص١٨.

(5) الزُّبدة: "وأمَّا مدينة المعرة كان اسمها ذات القصور، وهي الآن لطيفة، ولها معاملة، وقرى عديدة، وهي من معاملة حماة، وبها قبر محمد بن عبد الله الصحابي، وبدير سمعان قبر عمر بن عبد العزيز الأمويﷺ"، وهذا النص موافق لما أورده الهروي في الإشارات، ص١٧-١٨.

و(سيجر): لطيفة، كثيرة المياه والأشجار، بها قلعة حصينة، يقال: "إنها كانت قديمة من مُضافات حماة"[١][٥٢ب].

(مدينة قِنَّسْرين): كانت مدينة كبيرة، ثم ضَعُفَتْ وخَرُبَتْ بدخول الفرنج واستيلائهم عليها، وهي الآن قرية يَصُبُّ تحتها نهر قُوَيْق في بُحيرة المطخ.

(مدينة حلب)

التي ضَخُمَت بدولة بني حمدان، حيثُ الطول ثلاث[٢] وستون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، والعرض أربع[٣] وثلاثون درجة ونصف، وهي من الجزء الرابع من الإقليم الرابع.

يشتمل عليها سور وخندق، وبها عمائر كثيرة حسنة المنظر، وبها بساتين وكروم بهيَّة المنظر، تُلقَّب بـ"الشهباء"، وهي عديَّة، ويُعمل بها المخمل والسابوري والصابون، ويُجلب إلى سائر البلاد، ولها مُعاملات وقلاع عديدة.

وأمَّا قلعتها فحصينة جدًّا، يشتمل عليها خندق عميق، مملوء من الماء، لا يُرام الوصول إليها.

وأمَّا المزارات فكثيرة: مقام إبراهيم عليه السلام بقلعتها، بهِ صندوق فيهِ قطعة من رأس يحيى بن زكريا عليه السلام ظهرت سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، ومشهد علي بن أبي طالب[٤]-كَرَّمَ الله وجهه- بباب الجنان، ومسجد غوث بباب العراق، به حجر عليه كتابة بخط الإمام علي، ومشهد الدِّكَّة بهِ قبر المُحسن[٥] بن الحُسين رضي الله عنهما.

وبالجبَّانة مشهد مُبارك ومقام إبراهيم عليه السلام، وقبور جماعة من الصحابة، وقبر عبد الله الأنصاري، وبظاهر باب اليهود حجر يُصَبُّ عليه ماء الورد والطيب، ولجميع الملل فيهِ اعتقاد، ويُقال: "تحته قبور الأنبياء"[٦]، وقبر قس بن ساعدة الأيادي بقرية روحين وصاحبيهِ الذين ندبهما في شعره حيثُ يقول[٧]:

---

(١) هامش ث: "وقيل: "إنها الآن من مُضافات حلب". وجاء في الزُّبدة ص٥٠: "وأمَّا مدينة سيجر فهي مدينة لطيفة، وبها قلعة حصينة، وإقليم به عدة قرى، وهي أيضًا من معاملة حلب".

(٢) ث: ثلاثة.

(٣) ث: أربعة.

(٤) ذكر الهروي أنه من مشاهد الرؤيا.

(٥) ث: "الحسن"، والضبط من الهروي.

(٦) عند الهروي: وقال تحته قبر أحد الأنبياء عليهم السلام أو الأولياء.

(٧) من بحر الطويل.

خليلــيَّ هُبَّــا طــال مــا قــد رقــدتُما   أجِـــدَّكُما لا تقضـــيان كِرَاكُمـــا

ألـــم تعلـــم أنِّـــي بســـمعان مُفـــردٌ   ومـــالي يومًـــا مِـــن صـــديقٍ ســـواكُما

أصُـــبُّ علـــى قبريكُمـــا مِـــن مُدامـــةٍ   فـــإنْ لـــم تنالاهـــا تـــروِ ثراكُمـــا

أقِـــيم علـــى قبريكُمـــا لســـتُ نازحًـــا   طـــوال الليـــالي أيجيـــبُ صَـــداكُما

وأبكيكُمـــا حتـــى الممـــات ومـــا الـــذي   يَـــردُّ علـــيَّ ذي لوعـــةٍ بُكاكُمَـــا

ومقام برصيصا العابد وشيخه، ومقام داوودﷺ بجبل برصايا، وبقرية [٥٣أ] "براق" معبد يقصدهُ الزمنى يبرؤون بإذن الله تعالى، وبـ"كفر نجد" بئر يقصدها من دخل في حلقة علقة وصعب إخراجها، فيشرب منه ويدور حوله فيخرج بإذن الله تعالى[١].

و(**مدينة سَرْمِين**): مدينة حسنة، ولها مُعاملة بذاتها.

و(**مدينةعَزَاز**): مدينة لطيفة، ولها جهات في نهاية الحُسن والخصب، وهي تُفرح النفس، وأكثر ما يُزرع فيها القُطن الذي يُحمل في المراكب إلى البلاد بكثرة، وبها قلعة.

و(**كِلِّس**)[٢]: مشهورة، ولها مُعاملة.

و(**البَاب**): من أملح ما يلمحه بصر وترتاح [له][٣] نفس، وهُنالك "يانف" الذي ذكرها امرؤ القيس[٤] في شعرهِ، والوادي الذي أتى في وصفهِ الوزير، والقضية في ذلك مشهورة، وله مدينة كثيرة العمائر، مرحلة عن حلب، وفي جهته الشمالية "نهر الجوز".

(**تَلِّ بَاشِر**): كانت مدينة جَيِّدة فخَرُبَتْ، وهي الآن قرية بها أنهُر وأشجار وعين، معروفة بالأجاص، وكان بها حصن منيع، وهي الآن خراب.

(**حصن حَازِم**): كثير الأرزاق، وقد حُصِّنَ بالرُّمَّان العجيب الذي ليس له عجم، وهي مرحلة من حلب.

---

(١) عن هذه المزارات والمشاهد. انظر: الهروي: الإشارات، ص١٦-١٧.

(٢) وردت في الزُّبدة ص٥٠: "كلّيس"، وهي اليوم عاصمة محافظة كلس جنوب تركيا، على الحدود التركية شمال حلب.

(٣) إضافة لضبط السياق.

(٤) ث: القس.

(مدينة مَنْبَج) الذي سأل الرشيد ابن عَمِّهِ صالح عن ليلها، فقال: "سَحَر كله"، ولأبي فراس الحَمْدَاني شِعْر في مُتنزهاتها وأماكن لذاذتها[1]، وفيها ماء سائح، وأكثر شجرها التوت؛ لتربية دود الحرير.

(قلعة نجم والجسر): وهذه القلعة في السحاب، وقد وصفها الفاضل[2] بالوصف البديع، وهي من بناء السُّلطان محمود بن زنكي رحمه الله، وكانت يُغزى عليها ويُرابط بها.

(مدينة الرَّحَبْة): وهي ذات فواكه كثيرة على غربي الفُراة في الجانب الشامي في البرية، وبها آثار كثيرة، يزعُم شُعراء العرب أنَّ الجِنَّ نبتها، وبها قلعة حصينة.

و**(مدينة جَعْبَر):** مدينة لطيفة، بها بعض عمائر، وبساتين، وقلعة في أطراف البلاد.

ثم يُرجع إلى الجهة الشمالية:

(مدينة عَيْن تاب): مدينة حسنة عديَّة، بها أنهُر وبساتين وعمائر، ويُعمل بها الحلوى، ولها قلعة حصينة، ومُعاملة بها قُرى عديدة.

(مدينة البَيْرَة): مدينة حسنة لطيفة، بها بساتين كثيرة، وبلدانها عامرة، وهي على شاطئ الفُراة من البرِّ المُتصل إلى ديار بكر، وبها جسر من صغار المراكب، ملصوقة بعضها ببعض، مشدودة بالسلاسل الحديد، يمُرّ السالك[٥٣ب] عليه، وبها قلعة حصينة جدًّا، عليها شبكة من القنب مُلبَّسة، لأجل منع المدافع من التوصُّل إليها.

(مدينة الرُّهَا): كانت قديمًا تخت نمرود، ويشتمل عليها سور وخندق، وبها عمائر، وبساتين، وقلعة حصينة، وبها العين التي نبعت للخليلﷺ حين رُمِيَ بالمنجنيق.

(مدينة كَركَر): بجبال وأوعار، وبها عمائر قليلة، ولها قلعة حصينة جدًّا. قيل: "إنها لم تُفتح عُنوة"، ولها قُرى عديدة، و(قلعة خروس) من جُملة تعلُّقاتِهَا.

---

(١) ث: لذادتها.

(٢) يقصد القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني المتوفى سنة٥٩٦هـ.

(مدينة كَخْتَا): هي مدينة لطيفة، بها عمائر قليلة، وقلعتها حصينة، وبها العسل المشهور بالكَخْتَاوي الذي ليس له نظير، ويُجلب إلى غالب البلاد، وبها عِدَّة قُرى.

(حِصْن منصور): كان قديمًا [به][1] عمارة، والآن خراب، وبه بعض قُرى، وكان من مُضافات بَهَسْنَة[2]، وأُفرِدَ عنها، وهو في فَلاة.

(مدينة قلعة الرُّوم): على شاطِ الفُرات، وبها عمائر وبساتين وفواكه كثيرة، تُسمَّى الآن بـ"قلعة المُسلمين"، ولها قلعة حصينة جدًا، مُتسعة إلى غاية، عديمة المثل. قيل: "إنها لم تُفتح عُنوة"[3]، وبها قُلَّة عجيبة، ولها عِدَّة قُرى معمورة.

(مدينة بَهَسْنَة): بأوعار وأحجار، بها عمائر قليلة، وقلعتها حصينة جدًّا، ولها عِدَّة قُرى، ومن مُضافاتها (زِبَدْرَة)[4]، يشتمل عليها سور وخندق بأرض مُصْطَحِبَة، بها أنهُر مياه.

(مدينة إياس): صغيرة جدًّا، بالقُرب من البحر المُحيط، بها أشجار ينشر منها الألواح[5].

(قلعة بَغْرَاس): على ممر الطريق، ولها رُبُط وبعض قُرى.

(مدينة أَدَنَة): على نهر جيحان من شماليه، ومنه إلى البحر عشرون ميلًا، وبها قلعة وبعض قُرى، وكان بالقُرب منها حصن صغير، والآن قد خَرُبَ.

(مدينة المَصِّيْصَة): على نهر جيحان، بينها وبين البحر المحيط اثنا عشر ميلًا، ولها قلعة لطيفة.

---

(١) إضافة لضبط السياق.

(٢) المشهور في رسمها "بهسنا"، وذكرها المؤلِّف في موضع واحد على هذه الصورة، وكذا ذكرها البغدادي: مراصد الاطلاع، ص٢٣٥، والقلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٢٦؛ ابن شاهين: الزُّبدة، ص٥١.

(٣) كان فتحها على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون في رجب سنة٦٩١هـ، وهو الذي سمَّاها بقلعة المسلمين. انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٢٧٤.

(٤) لعلها المعروفة بـ"زبطرة"، وهي بين مَلَطْيَة وسُمَيْسَاط. انظر: البغدادي: مراصد الاطلاع، ص٦٥٧.

(٥) ث: اللاواح.

(مدينة سِيْس): حصينة، وبها قاعة منيعة، غالب أهلها الأرمن، ويُنسج بها الأصواف الملونة، ويُجلب إلى سائر البلاد، وهي على جانبي نهر شيهان، وهو يَصُبّ في البحر، بحيثُ أنَّ هذا الإقليم يُعرف بالأرمنية.

(مدينة طرسوس): مدينة حصينة، كثيرة العمائر، قاعدة بلاد الأرمنية، بينها وبين البحر المُحيط[٥٤أ] اثنا عشر ميلًا، حيثُ الطول ثمانٍ وخمسون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وسبع عشرة[1] دقيقة.

(مدينة القيصرية)[2]: هي آخر الحد من تلك الجهة، وتارة يخرج عن هذا المُلك، وتارة يُعاد إليه، وآخر من أعادها المَلِك المؤيَّد.

(البُلُسْتَيْن)[3]: يشتمل عليها سور وبعض عمائر، وهي بأرض صحراء، يُطلق بها المياه فلا يتمكن العدو منها.

(مَرْعَش): مكان عجيب في مرعاته، مُتسع، بهِ أعشاب كثيرة.

(مدينة دوركي)[4]: حصينة، وبها قلعة مُتسعة منيعة، وهي عديَّة، وبها عمائر وكروم وبساتين، وبها معدن [الـ]حديد، وبها سنانير مشهورة عجيبة، ومن مُضافاتها: (قلعة أرجوكي).

(مدينة درندة): مُختصرة، بها بعض عمائر، والمشمش الغريبي الذي يُجلب إلى البلاد، ولها قلعة حصينة، ولها عِدَّة قُرى.

(مدينة جمشكِزَاك): مدينة مُختصَرة، وبها قلعة حصينة، وقُرى عديدة، ومُعاملات. قيل: "إنَّ مُعاملاتها أربعة وعشرون قلعة"، ومن مُضافاتها: (قلعة كزبزاك) بها رُبُط، وهي حصينة، ولها عِدَّة قُرى معمورة.

(مدينة عَرَبْكير): مدينة لطيفة، ولها قلعة حصينة، وهي في جبال وأوعار، ولها عِدَّة قُرى، وهذه المدينة وجمشكِزَاك بلاد عديَّة، كثيرة الخيرات، يُعمل بها البُسط العجيبة تُسمَّى "ملماني" في غاية الحُسن، ومن مُضافاتها: (قلعة كبَان) حصينة في غابة حولها مياه.

---

[1] ث: والعرض ستة وثلاثون درجة وسبعة عشر.

[2] هي مدينة قيسارية. انظر: الزُّبدة، ص٥١.

[3] ويُقال لها "الأبُلُسْتَيْن". انظر: البغدادي: مراصد الاطلاع، ص١٧؛ السحماوي: الثغر الباسم، ص٣٠٥.

[4] ويُقال لها "ديركي". انظر: السحماوي: الثغر الباسم، ص٣٠٥.

(مدينة مَلَطْيَة)

يشتمل عليها سور وخندق وخمسة أبواب، وبها عمائر كثيرة، وكذلك بظاهرها، وبها دار سعادة مُتسعة، حسنة العمائر، وبها أشجار وأنهار وفواكه كثيرة، وهي باب الرُّوم والعجم، وسفرجلها الفائق وشهدها الرائق فليس لهُما نظير، ويُزرع بها الأرز، ويجلب إلى البلاد، وكذلك الغِلَال، وهي في أرض مُصطَحِبة[١].

ولها سبع[٢] مُعاملات، وأربع قلاع: كرت برت[٣]، وقرا حصار، وأقجة، ونور حمام[٤].

ومن مُضافاتها: (قلعة مُوشار) وهي على شاطئ الفُراة، ولا بأس بحصانتها، ولها رُبُط، و(قلعة كومي) فهي على الفُراة أيضًا، بها بساتين وفواكه، وهي حصينة، ولها رُبُط وبعض قُرى، وجميع ما ذكرناه منسوب إلى مَلَطْيَة.

ولمَلَطْيَة ثلاثة[٤٥ب] معادي ببحر الفُراة تُعدِّي بالقفول من الشرق، وتُسمَّى في كتاب "المهاد" "قاعدة الثغور الجزيرية[٥]"، حيثُ الطول ثلاث[٦] وستون درجة، والعرض أربعون درجة وخمسون دقيقة، لكنها كثيرة الأوخام.

وأقمتُ بنيابتها مُدَّة، ويُعمل بها البُسُط، وقد استعملتُ بُسُطًا برسم القصر الشريف تقدَّم وصفها[٧]، ويقال: "إنَّ مَلَطْيَة كانت تخت علاء الدين[٨]"، وعمارتها يونانية.

(مدينة خَرْتَبِرت): مدينة لطيفة، ولها قلعة حصينة، وهي قاطع الفُراة، ومن **مُضافاتها:** قلعة هرسني، وقلعة كريك، ومدينة سُمَيْسَاط المذكورة في التواريخ-

---

(١) أي مُستوية. انظر: الزُّبدة ص٥٢.
(٢) ث: سبعة.
(٣) الزُّبدة والنسخ الخطية: كدربيرت.
(٤) الزُّبدة والنسخ الخطية: نوحمام.
(٥) أي الجزيرة الفراتية أو جزيرة ابن عمر.
(٦) ث: ثلاثة.
(٧) انظر ق٣٤ب.
(٨) يقصد السُّلطان السلجوقي علاء الدين كيْقُباد الأول بن كيخسرو المتوفى سنة٦٣٤هـ. قال في الزُّبدة ص٥٢: "وأصلها من الروم، كانت تخت السلطان علاء الدين، فُتِحَت في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، وجعلها مملكة بمُفردها، وكثير من الناس يظن أنها من جُملة المملكة الحلبية".

ويُقال "صُمَيْصَات"[1] هي المدينة الأصلية- كانت قاعدة تلك البلاد"، ولها عِدَّة قُرى.

وخَرْتَبِرت وجمشكِزَاك وعَرَبْكير والرُّهَا كانوا من تعلُّقات ديار بكر، وقد أُضيفوا إلى مُلك مصر في الأيام الأشرفية، ولذلك أسباب يطول شرحها، سيأتي بيان بعض ذلك في الباب الحادي عشر.

وثَمَّ مُدُن وقلاع ومُعاملات خُفيت عنِّي ولم استحضرها، فإنَّ نحنُ ما وضعنا هذا المُلخَّص لأجل ذلك خاصة، وإنما ذلك باب من جُملتِه أتينا منه بما تيسَّر على حسب الاختصار، ولم نُطِل الكلام فيما أتينا بِهِ أيضًا، فإنَّ هذا المُلك شريف، وعجائبه وغرائبه كثيرة، وهو أجلّ من أن يُضبط[2].

---

(1) ث: سمساط المذكورة في التواريخ ويُقال صمصات.

(2) **فائدة** أورد المؤلِّف مختصر لممالك البلاد الشامية ومعاملاتها في الزُّبدة ص٤٢-٥٢، وأورد فيه تفاصيل لم ترد في الكتاب، ولهذا على الباحث ألا يغفل مادة الزُّبدة لتمام الفائدة.

الباب الثاني

في وصف السلطنة الشريفة،
وما يتحلى به السُّلطان من الصِّفات،
وما يعتمدهُ لإقامة لوازمها الموظَّفات،
ووصف المواكب الشريفة،
والملبوس لكل من يُنسب إلى المُلك من الخاص والعام

[ذكر من حكم مصر من المُلوك والسلاطين]
[من ابن طولون إلى الظاهر جَقْمَق]

السلطنة سر من أسرار الربوبية، يُناط منها المُراد، ويُدفع بها الفساد، ويُحفظ بها البلاد والعِبَاد، ويُقطع بها دابر كل من قصد العناد، لأنَّ من مزاياها[1] وشرف سجاياها للرعايا الحراسة وللبرايا السياسة.

والسُّلطان- أيَّدهُ الله- قائم برعاية عِبَاد الله وحماية بلاده، وحراسة دينهِ القيِّم وتثبيت أوتاده، وحفظ ما افترضهُ الله من[٥٥أ] الأحكام، لأنه ارتضاهُ دون الأنام لإقامة الحدود وفعل الواجب واجتناب الحرام، وأوجب على الرعايا طاعته فيما أمر به والاستسلام، وجعل أمورهم معذوقة به في النقض والإبرام، فهو- أيَّدهُ الله- ظِلُّ الله في الأرض، بهِ تُقام شعائر السُّنَّة والفرض.

ومَن أراد إدراك شرفها وفضلها، وأن يكون أحق بمعرفتها وأهلها، فلينظُر إلى آثارها، ويُحقِّق خطر أقدارها، فيرى من ثمرتها للبلاد الحراسة، وللنفوس السلامة والسياسة، وللأموال الحفظ وللأرزاق الإدرار، وللعلم النشر وللدين الإظهار، بردع الظلمة وقمع البُغَاة والمُتمردين، والانتقام من جميع المُعتدين والمُفسدين، ويُقام[2] مصالح الدين والدُّنيا، وينتظم قوام أمر الآخرة والأولى، فيكتب له- أيَّدهُ الله- مثل أجور تلك الطاعات، وفضائل جميع تلك العبادات،

---

[1] الزُّبدة ص٥٣: حميد مزاياها.
[2] الزُّبدة: وإقامة.

فليُلازم شُكر الله تعالى الذي خَصَّهُ بهذا الإكرام، وأعلى قدرهُ على رؤوس جميع الأنام.

وإذ قد تحقَّق أنَّ السلطنة بهذا المحلِ الأسنى، والشرف الذي فاق في جميع الأحوال حِسًّا ومعنى، فسلطنة مصر والشام التي ثبت سلطنتها[1] على سائر الدُّنيا، ورقى سُلطانها ذروة الدرجة العُليا، وتحلَّى بجميل الخصائل والأوصاف، وكانت سائر مُلوك الأرض لديه تدين ومنه تخاف، المُقترنة طاعته بطاعة الله ورسوله بالسِّرِّ والجهر، المعنى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾[2].

وعلى الجُملة فشرف السلطنة جسيم، وقدرها عظيم، ومحلَّها كريم، ونفعها عميم، فلمَّا كانت بهذه الصفات العديدة أردتُ تعريف بعض أحوالها المديدة.

اِعلم أنَّ بعد وفاة سَيِّد الأولين والآخرين، وخُلفائه الأئمة المُهتدين، ومَن بعدهُ من خُلفاء المُسلمين، الذين كانوا يملكون جميع البلاد الإسلاميَّة، وتنقاد إليهم سائر الأُمَّة المُحَمَّدِيَّة، وانتقل المُلك إلى السلاطين العادلة، الذين يؤمن مع وجودهم أن تنزل بهذه المِلَّة نازلة، وانتقلت دار المُلك من الحجاز والعراق والشام إلى مصر المحروسة، وأضحت بالعدل آمنة ورحابهـ[ـا][3] مأنوسة، على ما ذكرهُ أصحاب التواريخ وبيَّنوه، وأتقنوا تحريرهُ وأحسنوه[٥٥ب].

واستقر السُّلطان- أيَّدهُ الله- بقلعتها- أدام الله تعالى عِزَّها، وأيَّد مُدَّتها- إمَّا بعهد مَن تقدَّمه في السلطنة، وإمضاء أمير المؤمنين والأئمة أهل الحَلِّ والعَقْد، أو بالمُبايعة من أمير المؤمنين، وإثبات ذلك على المُشار إليهم، واتفاق أركان الدولة الشريفة، ورضى السَّادة الأُمراء والجيش المنصور، وإخراج الأموال من بيت المال والنفقة على الجيوش المنصورة، وطاعة المُدُن والقُرى والقلاع والرعايا، وما كان ناقصًا عن ذلك كان نقص فيها.

---

[1] كذا في الأصل، وفي الزُّبدة ص٥٤: "فضلها"، فلعله الصواب.
[2] سورة النساء، الآية٥٩.
[3] إضافة لضبط السياق.

[الدولة الطولونية والإخشيدية]

فأول ما نبتدئ بذكر سلاطين مصر[1] من: أحمد بن طولون. كان على طويَّة حسنة، أقام في المُلك اثنتي عشرة[2] سنة، وقيل غير ذلك[3]، ثم توفي وتسلطن المَلِك خمارويه بن أحمد، وأقام إلى سنة اثنتين وثمانين[4] ومائتين، وكانت ولايته قدر ولاية أبيه من غير تحرير[5]، ثم تسلطن المَلِك جيش[6] في السنة المذكورة بعد أبيهِ خمارويه، وأقام أشهُرًا، وقيل غير ذلك، ثم توفي وتسلطن المَلِك شيبان[7] بن أحمد بن طولون، وأقام اثني عشر يومًا وعُزِل[8].

وتسلطن المَلِك محمد بن سُليمان، وأقام مُدَّة خمس سنين[9]، وفي بعض الروايات أنه توفي وتسلطن المَلِك عيسى النوشري [إلى][10] سنة سبع وتسعين

---

(1) يفهم من كلام المؤلف أنه يرى أن كل من ولي مصر فقد تملكها وتسلطن على عرشها، وهذا خلاف المشهور، فمعروف أن من تولى حكم مصر منذ فتحها حتى دخول جوهر الصقلبي مصر سنة٣٥٨هـ يُطلق عليهم ولاة، وبعدهم الخُلفاء الفاطميون، ثم ملوك بني أيوب، ثم سلاطين المماليك الذين جمعوا المُلك والسلطنة، قال ابن تغري بردي: "ومنذ فُتِحَت مصر إلى أن انتقل كُرسي الإمارة منها إلى القائد جوهر ثلاثمائة سنة وتسعًا وثلاثين سنة"، وتفصيل القول لا يتسع له المقام. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص٢٥.

(2) ث: اثنى عشر.

(3) كانت ولايته من سنة٢٥٤هـ إلى سنة٢٧٠هـ، وكانت مدته سبع عشرة سنة. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص١-٤٩.

(4) ث: "اثنين وتسعين"، وكان قتله في ذي الحجة سنة٢٨٢هـ. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٦٤.

(5) كانت ولايته اثنتي عشرة سنة وثمانية عشر يومًا. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٦٥.

(6) يكنى بأبي العساكر، ووالده خماروية بأبي الجيش. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٨٨.

(7) ث: "نيسان"، وقد أسقط المؤلف حكم هارون بن خمارويه الذي حكم الفترة(٢٨٣-٢٩٢هـ)، وكانت ولاية شيبان بعد عودته لمصر مع بقايا جيش ابن أخيه هارون المقتول في صفر سنة٢٩٢هـ. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٩٨-١٣٤.

(8) ما أن بويع شيبان حتى داهمته العساكر العباسية بقيادة محمد بن سليمان الكاتب، ولما وقع المصاف بينهما أمنه ابن سليمان وأهله، فترك المصاف ورحل إلى ابن سليمان بمن معه، فكف الجند عن القتال، ودخل ابن سليمان القطائع فنهبها وجنده، وأرسل شيبان وأهله إلى بغداد. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص١٣٧-١٣٩.

(9) ملك ابن سليمان مصر يوم الخميس مستهل ربيع الأول سنة٢٩٢هـ، ثم ورد عليه خطاب الخليفة المكتفي بالله بولاية عيسى النوشري لمصر، فخرج من مصر مستهل رجب منها، فكانت إقامته أربعة أشهر تقريبًا، ويعده الكثير من المؤرخين مقدم للعساكر العباسية على مصر لا واليها. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص١٣٩، ١٤٤.

(10) إضافة لضبط السياق، لأن هذه السنة هي التي مات فيها لا التي تولى فيها.

ومائتين[1]، ولم أُحرِّر ما اتفق له، ثم تسلطن المَلِك تكين أبو منصور، وأقام خمسٍ[2] وعشرين سنة إلى خلافة الرَّاضي[3]، ثم تسلطن[4] المَلِك أحمد بن كيغلغ، وأقام مُدَّة، ولم أُحرِّر ما انتهى من أمرِه[5].

ثم تسلطن المَلِك محمد بن طغج الأخشيد [إلى][6] سنة أربعة وثلاثين وثلاثمائة[7]، أقام مُدَّة وتوفي، ولم أُحرِّر ما آل من أمرِه، ثم تسلطن المَلِك أبو بكر بن محمد بن طغج الأخشيد.

ورأيتُ بتاريخ ابن خلكان أنه تسلطن المَلِك محمود أبو القاسم أنوجور بعَقْد الرَّاضي، ولم أعلم أيهما أصح[8].

---

[1] كانت ولايته لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة٢٩٢هـ، وظل بها حتى مات في شعبان سنة٢٩٧هـ، وكانت مدة ولايته خمس سنين وشهرين ونصف. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص١٤٥-١٥٦.

[2] ث: خمسة.

[3] تولى تكين أربع مرات: الأولى من شوال سنة٢٩٧هـ إلى ذي القعدة سنة٣٠٢هـ، وكانت مدته خمس سنين وأيامًا، والثانية بعد موت ذكا الرومي من ربيع الأول سنة٣٠٧هـ إلى ربيع الأول سنة٣٠٩هـ، وكانت مدته نحو السنة وسبعة أشهر تقريبًا، ثم عزله مؤنس الخادم وولى أبي قابوس محمود فرفضته الجند وأهل مصر فعزل بعد ثلاثة أيام، وأعيد تكين فأقام أربعة أيام وعُزل، والرابعة من ذي القعدة سنة٣١١هـ حتى مات بها سنة٣٢١هـ. انظر: ابن تغري بردي: النحوم الزاهرة، ج٣، ص١٧١-١٧٤، ١٩٥-١٩٧، ٢٠٠، ٢١٠-٢٣٥.

[4] أسقط المؤلف ولاية هلال بن بدر، وهي من ربيع الآخر سنة٣٠٩هـ إلى إلى ربيع الآخر سنة٣١١هـ. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٢٠١-٢٠٦.

[5] تولى ابن كيغلغ مرتين: الأولى من ربيع الآخر سنة٣١١هـ إلى ذي القعدة منها، والثانية من رمضان سنة٣٢١هـ إلى رمضان سنة٣٢٣هـ. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٢٠٦، ٢٤٢، ٢٥١.

[6] إضافة لضبط السياق، لأن هذه السنة هي التي مات فيها لا التي تولى فيها.

[7] تولى ابن طغج مرتين: الأولى من أواخر شعبان إلى أواخر رمضان سنة٣٢١، ولم يدخل مصر، والثانية من رمضان سنة٣٢٣هـ إلى ذي الحجة سنة٣٣٤هـ. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٢٣٧، ٢٥١-٢٩٠.

[8] ما ذكره ابن خلكان هو الصواب، ولم يتول لابن طغج ولد اسمه أبو بكر، وولاية أنوجور بن محمد ابن طغج من ذي الحجة سنة٣٣٤هـ إلى أن مات في ذي القعدة سنة٣٤٩هـ. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٢٩١-٢٩٣.

ثم تسلطن المَلِك علي أخوه بعد وفاته، وأقام مُدَّة ثم توفي[1]، وتسلطن الطواشي كافور الأخشيدي سنة خمس وخمسين وثلاثمائة[2]، وأقام مُدَّة يسيرة[3]، وتسلطن المَلِك أبو الفوارس[4] بن محمد بن طغج الأخشيدي، وأقام شُهورًا.

[الدولة الفاطمية]

وتسلطن المَلِك جوهر الخادم[5]، وأقام مُدَّة، ثم تسلطن المَلِك المُعِزّ العُبيدي إلى سنة خمسٍ وستين وثلاثمائة، ثم انتقلت السلطنة إلى الخُلفاء[٥٦أ] واحد بعد واحد، وهُم عشر خُلفاء: العزيز بالله، والحَاكِم بأمر الله، والظاهر لدين الله[6]، والمُستنصر بالله، والمُستعلي بالله، والآمر بأحكام الله، والحافظ لدين الله، والظاهر بأمر الله[7]، والفائز بأمر الله[8]، والعاضد.

ثم تسلطن المَلِك أسد الدين[9] في سنة أربع [وستين][10] وخمسمائة، وأقام مُدَّة إلى أن توفي.

---

(1) مات في المحرم سنة٣٥٥هـ. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٣٢٦.

(2) كان ذلك باتفاق أعيان الديار المصرية وجندها. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٣٢٧.

(3) تولى من المحرم سنة٣٥٥هـ إلى أن مات في جمادى الأولى سنة٣٥٧هـ. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٣٢٧؛ ج٤، ص٢١.

(4) هو أحمد بن علي الإخشيدي، تولى من المحرم سنة٣٥٥هـ إلى أن دخل جوهر مصر في شعبان سنة٣٥٨هـ. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص٢١-٢٥.

(5) لم يتسلطن، وإنما كان نائبًا عن المعز الفاطمي في مصر لحين فراغه من بناء القاهرة، فلما فرغ حضر المعز من المغرب وتملك البلاد. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج١، ص٢٧٠.

(6) الصواب "الظاهر لإعزاز دين الله". انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج١، ص٢٧٨.

(7) الصواب "الظافر بالله". انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج١، ص٢٩١.

(8) الصواب "الفائز بنصر الله". انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج١، ص٢٩٤.

(9) يقصد أسد الدين شيركوه، تولى الوزارة للعاضد، ولقب بالملك المنصور، وهو أول من ملك من بني أيوب الديار المصرية، وكان تابعًا للملك العادل نور الدين محمود زنكي صاحب الشام، ووقع خلاف في كونه أميرًا أم وزيرًا. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج١، ص٢٩٨؛ ج٢، ص١.

(10) إضافة لضبط السياق، وسيورد المؤلف الصواب في السطر الذي يليه.

[الدولة الأيوبية]

وتسلطن المَلِك الناصر في سنة أربع وستين وخمسمائة[1]، وأقام خمسٍ[2] وعشرين سنة إلى أن توفي[3]، ثم تسلطن المَلِك الأفضل[4] سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وأقام سنة، ولم أُحرِّر ما انتهى من أمره.

ثم تسلطن المَلِك العادل أبو بكر، وأقام سنتين[5]، ولم أُحرِّر ما انتهى من أمرِه، ثم تسلطن المَلِك الأشرف مُظفَّر الدين موسى ابن المَلِك العادل أبو بكر[6]، وأقام مُدَّة، ولم أُحرِّر ما انتهى من أمرِه، ثم تسلطن المَلِك الكامل مُدَّة يسيرة[7]، ثم تسلطن المَلِك الصالح نجم الدين أيوب[8].

ورأيتُ أيضًا اسم سُلطانين: أحدهما المَلِك الناصر صلاح الدين داوود[9]، اسمه مكتوب بدار السلطنة بقلعة الكرك، ورأيتُ اسم الآخر وهو المَلِك الناصر

---

(1) تولى الوزارة للعاضد بعد موت عمه أسد الدين، وظل تابعًا للعادل نور الدين في الشام، ولم يتسلطن ويستقل بالملك إلا بعد وفاة نور الدين سنة٥٦٩هـ. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٣-٥.

(2) ث: خمسة.

(3) توفي في صفر سنة٥٨٩هـ، وتولى بعدهُ ولده العزيز عثمان، فدام في الملك إلى أن مات في المحرم سنة٥٩٥هـ. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٥-٨.

(4) الذي تولى السلطنة بمصر في تلك السنة الملك المنصور محمد بن عثمان بن صلاح الدين، وأمَّا الأفضل بن صلاح الدين الوارد ذكره في المتن فكان حاكمًا على دمشق. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٧، ٩.

(5) تسلطن بعد خلع ابن أخيه الملك المنصور في شوال سنة٥٩٦هـ، وظل حتى مات في جمادى الآخرة سنة٦١٥هـ، ومدة حكمه ثماني عشرة سنة وثمانية أشهر تقريبًا. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٠-١٢.

(6) الذي تولى السلطنة بمصر بعد العادل ولده الكامل محمد، وكان نائبه بمصر فلما مات استقل بالملك، وأما الأشرف فهو موسى بن الملك الناصر يوسف بن الملك مسعود بن الملك الكامل بن العادل الأيوبي، وتولى السلطنة بمصر شريكًا للمعز أيبك التركماني وعُمره عشر سنين سنة٦٤٨هـ فلما قويت شوكة أيبك عزله واستقل بالسلطنة. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٣، ٢٦.

(7) تسلطن بعد موت أبيه في جمادى الآخرة سنة٦١٥هـ، وظل حتى مات في رجب سنة٦٣٥هـ. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٣-١٤.

(8) لما مات الكامل بالشام سنة٦٣٥هـ كان نائبه بمصر ابنه العادل فتسلطن، فلما سمع بذلك أخوه نجم الدين أيوب تحرك من ديار بكر إلى مصر، وبعد وقائع استولى على الملك، وقبض على أخيه وسجنه، ثم قتله في سنة٦٤٦هـ. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٥.

(9) هو داوود بن المعظم عيسى بن محمد الأيوبي، تولى دمشق بعد أبيه ثم انتقل إلى حكم الكرك، توفي سنة٦٥٦هـ. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٣، ص٤٨٠-٤٩٢.

أيضًا صلاح الدين[1] يوسف مكتوب على دار السلطنة بثغر الإسكندرية المحروس.

قيل: إنَّ المَلِك الصالح نجم الدين أيوب أقام في السلطنة إحدى[2] عشرة سنة[3] إلى أن توفي بالمنصورة مُنتصف شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة، واستولى على المملكة الطواشي مُحسِن مُدَّة شهور[4]، ثم تسلطن المَلِك المُعظَّم تُرَان شاه، أقام إلى المُحرَّم سنة ثمان وأربعين وستمائة، وتوفي[5].

ورأيتُ في "سكردان السُّلطان" أنَّ مُدَّته كانت أحدًا وسبعين يومًا[6].

وقتله مماليك والده المَلِك الصالح، ثم تسلطنت شجرة[7] الدر- سرية المَلِك الصالح، أُم خليل- سنة ثمان وأربعين وستمائة، وأقامت أشهُرًا، وتزوجت عز الدين أيبك الصالحي، وخلعت نفسها.

[تنبيه]

وجميع ما نقلتُه من التواريخ إلى شجرة الدر وجدتُ فيه اختلافًا وتقديمًا وتأخيرًا، وكلما حرَّرتُ نُسخة وجدتُ في الأُخرى خللًا، والظاهر أنه دخل في ذلك التلبيس، لالتباس أسامي بعض مُلوك الشرق، وقد وضعتُ الأسماء على حسب ما وجدتها[٥٦ب]، وما أمكن إلغاء شيء منها، ولا التوصُّل إلى ما خفي، وقد اعتذرتُ عن ذلك ولا إنكار، وأمَّا أسماء السلاطين من شجرة الدر إلى يومنا هذا فسنذكرهُم على التحرير إن شاء الله تعالى.

---

[1] جاء في ث بين السطرين بخط مخالف: "وقيل الأفضل".

[2] ث: أحد.

[3] كانت مدته تسع سنين وسبعة أشهر وعشرين يومًا. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٧.

[4] هو جمال الدين محسن الصالحي النجمي الطواشي، تولى مشيخة الحرم النبوي، توفي سنة٦٦٨هـ، وكانت له مشاركة في بعض الحوادث، لكنه لم يستقل بتدبير أو تحكم في المُلك لوجود شجر الدر وأعوانها بما في ذلك المماليك الصالحية. انظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٦؛ العيني: عقد الجمان، ج٢، ص٦٨.

[5] وصل مصر من حصن كيفا في أول المحرم سنة٦٤٨هـ، ومات قتيلا حريقا غريقًا في سابع عشرين المحرم منها. انظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٥٩-٣٦١؛ ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٩-٢٠.

[6] ص٤٢.

[7] الأصح: شجر. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٢١.

[الدولة المملوكية]

ثم تسلطن المَلِك المُعِزّ عز الدين أيبك الصالحي، وأقام مُدَّة سبع سنين، وقتلته شجرة الدر بالحمَّام، بسبب خطوبته ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ثم تسلطن المَلِك المنصور علي بن المُعِزّ أيبك، وأقام مُدَّة سنتين وتسعة شهور[(١)]، ثم نُفِي، وتسلطن المَلِك المُظفَّر قُطز المُعِزِّي، وأقام مُدَّة أحد عشر شهرًا[(٢)] إلى أن قُتِلَ بالقُصِير.

ثم تسلطن المَلِك الظاهر بيبرس الصالحي، وأقام مُدَّة سبع عشرة[(٣)] سنة وشهرين[(٤)] إلى أن توفي بدمشق سنة ست وسبعين وستمائة، وتسلطن المَلِك السعيد محمد ويُقال له "بَرَكة" بن المَلِك الظاهر بيبرس، وأقام مُدَّة سنتين[(٥)] ثم خُلِع، وتسلطن أخوه المَلِك العادل سلامش ابن المَلِك الظاهر بيبرس، وأقام مُدَّة يسيرة ثم خُلِع.

وتسلطن سيف الدين أبو المعالي المَلِك المنصور قلاوون التُّركي الصالحي النجمي الألفي، وأقام مُدَّة إحدى عشرة سنة وشهرين[(٦)] إلى أن توفي في سنة تسع وثمانين وستمائة، ثم تسلطن ولدُه المَلِك الصالح علي.

ورأيتُ بـ"سكردان السُّلطان" أنَّ سيف الدين قلاوون لمَّا عَهِدَ للملك الصالح ولده المذكور قبل وفاتِه، وخطب له معه توفي قبل والده[(٧)].

ولمَّا توفي والده تسلطن المَلِك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون بعد وفاة والده، وأقام مُدَّة ثلاث سنين وشهر إلى أن قُتِلَ بتروجة[(٨)]، وقاتِلَهُ بيدره، ثم

---

(١) ذكر ابن تغري بردي أنها كانت سنتين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يومًا. انظر: مورد اللطافة، ج٢، ص٢٩.

(٢) ذكر ابن تغري بردي أنها كانت سنة إلا يومًا واحدًا، وقيل: إلا عشرة أيام. انظر: مورد اللطافة، ج٢، ص٣٢.

(٣) ث: عشر.

(٤) واثني عشر يومًا. انظر: انظر: المقريزي: السلوك، ج١، ص٦٣٦.

(٥) وشهرين وخمسة عشر يومًا. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٣٦.

(٦) عند ابن تغري بردي: وثلاثة أشهر. انظر: مورد اللطافة، ج٢، ص٤٠.

(٧) ص٥٥-٥٦، وهو الصواب.

(٨) هي من بلاد البحيرة المندثرة، ومكانها اليوم كوم تروجة الواقع بحوض تروجه بأراضي ناحية زاوية صقر بمركز أبو المطامير بالبحيرة. انظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي، مج١، ص١٩٠.

تسلطن أخوهُ المَلِك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ثلاث وتسعين[1] وستمائة، وأقام مُدَّة سنة، وقيل أكثر من ذلك، ثم خُلِعَ وجُهِّزَ إلى سجن قلعة الكَرَك، وتسلطن المَلِك العادل زين الدين كتبُغا المنصور، وأقام سنتين إلى أن توفي، وقيل غير ذلك[2]، ثم تسلطن المَلِك المنصور حسام الدين لآجين المنصوري، وأقام سنتين وشهر، فهجم عليه جماعة من الناصرية وقتلوه.

ثم اتفق الرأي على إحضار المَلِك الناصر محمد بن قلاوون من الكَرَك وتسلطن، وهي المَرَّة الثانية، وأقام مُدَّة عشر سنين[٥٧أ] وأربعة[3] شهور إلى أن اضطربت أحوال مملكته، فأشاع أنه مُتوجِّه إلى الحجاز وعرج إلى الكَرَك، وخلع نفسه من السلطنة، وانقطع إلى الله تعالى.

ثم تسلطن المَلِك المظفر بيبرس المنصوري المعروف بالجاشنكير، وأقام مُدَّة أحد عشر شهرًا، ثم خامر عليه غالب الأُمراء، وتوجهوا إلى المَلِك الناصر وأخرجوهُ من الكرك، وتسلطن بالشام، وعاد إلى مُلكِه، وهي المَرَّة الثالثة، وأقام مُدَّة اثنتين وثلاثين سنة بعد أن أُحضِرَ إليهِ بالمَلِك المُظفَّر، فأودعه الاعتقال ثم قتله.

واستمر هذه المُدَّة المُطوَّلة في أرغد عيش إلى أن توفي سنة أحدى وأربعين وسبعمائة، وكانت مُدَّة سلطنته اثنتين وأربعين سنة، وقيل: أُريد في الثلاث مرَّات.

ثم تسلطن المَلِك المنصور أبو بكر بن الناصر محمد، وأقام مُدَّة ثلاثة[4] شهور[5]، ثم خُلِعَ وتسلطن المَلِك الأشرف سيف الدين كجك بن الناصر محمد، وأقام مُدَّة ستة شهور إلى أن توفي.

ثم تسلطن المَلِك الناصر أحمد بن الناصر محمد، وأقام مُدَّة أربعة[6] شهور، وقيل بعد خلع أخيه المَلِك الأشرف، وكان قدم من الكَرَك، وقيل: أنه أقام أربعين يومًا بمصر، ثم رجع إلى الكَرَك، واستمر بها إلى أن خُلِع.

---

(1) ث: ثمانين.

(2) لما خلع من السلطنة ولاه المنصور حسام الدين لاجين نيابة صرخد، فأقام فيها إلى أن نقله الناصر محمد فيما بعد إلى نيابة حماة، فمات بها سنة٧٠٢هـ. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٥٠.

(3) ث: أربع.

(4) ث: ثلاث.

(5) ذكر ابن تغري بردي أنها كانت شهرين وأيامًا. انظر: مورد اللطافة، ج٢، ص٦٨.

(6) ث: أربع.

ثم تسلطن المَلِك الصالح عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن الناصر محمد، وأقام مُدَّة ثلاث سنين(١) إلى أن توفي، ثم تسلطن المَلِك الكامل شعبان بن الناصر محمد، وأقام مُدَّة سنة وشهرين(٢)، ثم خُلِعَ وتسلطن المَلِك المُظفَّر حاجي بن الناصر محمد، وأقام مُدَّة [سنة و](٣)ثلاثة شهور(٤) ثم خُلِع، وقضى الله فيه أمره، وتسلطن المَلِك الناصر حسن ابن الناصر محمد، وأقام مُدَّة ثلاث سنين وثلاثة شهور(٥)، وقيل: مُدَّة ست سنين وسبعة شهور(٦) إلى أن توفي.

ورأيتُ بنُسخة منقولة من كتاب "دُرَّة الأسلاك(٧) في دولة الأتراك" اسم المَلِك الصالح بن الناصر محمد تسلطن، وأقام مُدَّة ست سنين وسبعة شهور(٨)، واسم المَلِك الناصر حسن بعده(٩).

ولم يحصل اختلاف فيما ذُكِرَ من السلاطين من المُعِزّ أيبك إلى الناصر حسن سِوَى هذين الإسمين خاصة(١٠).

ثم تسلطن المَلِك المنصور محمد بن المُظفَّر حاجي، وأقام مُدَّة سنتين وثلاثة شهور، ثم[٥٧ب] تسلطن المَلِك الأشرف شعبان بن حُسين بن محمد بن قلاوون، وأقام مُدَّة أربع عشرة سنة وثلاثة شهور ثم قُتِل، وتسلطن المَلِك المنصور علي

---

(١) وشهرًا وثمانية عشر يومًا. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٧٨.
(٢) ذكر ابن تغري بردي أنها كانت سنة وسبعة عشر يومًا. انظر: مورد اللطافة، ج٢، ص٨٠.
(٣) إضافة لضبط السياق من مورد اللطافة.
(٤) ذكر ابن تغري بردي أنها كانت سنة وثلاثة أشهر واثني عشر يومًا. انظر: مورد اللطافة، ج٢، ص٨٤.
(٥) ثلاث سنين ونحو عشرة أشهر. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٨٦.
(٦) المدة الأولى هي فترة سلطنته الأولى، والثانية هي مدة فترته الثانية. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٨٦، ٩٤.
(٧) ث: "الإسلام"، والكتاب للمؤرخ ابن حبيب الحلبي(ت:٧٧٩هـ).
(٨) مدته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٨٩.
(٩) ق١٨٩أ، ١٩٤ب.
(١٠) لا خلاف، فقد تولى الناصر حسن المرة الأولى ثم خلع، وتولى الصالح صالح ثم خلع، وتولى الناصر حسن المرة الثانية. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٨٥-٩٤.

ابن الأشرف شعبان ثم خُلِع، وقيل توفي[1]، ثم تسلطن المَلِك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان، وأقام مُدَّة سنة وخمسة شهور[2] ثم خُلِع.

وتسلطن المَلِك الظاهر أبو سعيد برقوق، وأقام مُدَّة ست[3] سنين وثمانية أشهر وثمانية عشر يومًا، وجرت له وقائع مِن مُلَخَّصِهَا أنه مُسِكَ وسُجِنَ بقلعة الكَرَك، ثم تسلطن المَلِك الصالح حاجي بن الأشرف شعبان ثانيًا، وسُمِّي بالمَلِك المنصور، وأقام مُدَّة سبعة أشهُر وأيامًا إلى أن تخَلَّصَ المَلِك الظاهر من الكَرَك بمُساعدة أهلها، وخُلِعَ المنصور وتسلطن المَلِك الظاهر أبو سعيد برقوق ثانيًا، وأقام مُدَّة تسع سنين وتسعة شهور إلى أن توفي.

وتسلطن ولدُه المَلِك الناصر فرج، وأقام مُدَّة ست سنين وأربعة شهور[4] وأيامًا ثم خُلِع، وتسلطن أخوه المَلِك المنصور عبد العزيز، وأقام أيامًا يسيرة ثم خُلِعَ، وتسلطن المَلِك الناصر فرج الثانية، وأقام مُدَّة ست سنين وثمانية أشهر[5] إلى أن قُتِلَ بدمشق.

ثم تولَّى الخليفة المُستعين بالله، وأقام مُدَّة خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا[6] ثم خُلِعَ، وأُرسِل إلى ثغر الإسكندرية وتوفي بها[7].

ثم تسلطن المَلِك المؤيَّد أبو النصر شيخ الظاهري، وأقام مُدَّة ثمان سنين وخمسة أشهُر وأيامًا إلى أن توفي، وتسلطن ولدُه المَلِك المظفر أحمد، قام مُدَّة سبعة أشهُر وأحد عشر يومًا[8] ثم خُلِع، وجُهِّز إلى ثغر الإسكندرية، واستمر بها إلى أن توفي بها[9].

---

(1) ظل في السلطنة إلى أن توفي في ثالث عشرين صفر سنة٧٨٣هـ. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٠٦.

(2) سنة وستة أشهر وخمسة عشر يومًا. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٠٨.

(3) ث: ستة.

(4) وخمسة أشهر. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٢٣.

(5) ست سنين وعشرة أشهر. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٣٢.

(6) سبعة أشهر وخمسة أيام. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٣٥.

(7) كانت وفاته في جمادى الآخرة سنة٨٣٣هـ. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٣٥.

(8) وعشرين يومًا. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٤٢.

(9) كانت وفاته في جمادى الأولى سنة٨٣٣هـ. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٤٢.

وتسلطن المَلِك الظاهر أبو الفتح طَطَر الظاهري، وأقام مُدَّة ثلاثة أشهر وخمسة أيام إلى أن توفي، ثم تسلطن ولده المَلِك الصالح محمد، وأقام مُدَّة أربعة أشهُر وأربعة أيام[١] إلى أن خُلِع.

ثم تسلطن المَلِك الأشرف أبو النصر بَرسْبَاي الظاهري، وأقام مُدَّة ست عشرة[٢] سنة وستة أشهُر وثمانية وعشرين يومًا[٣] إلى أن توفي، ثم تسلطن ولدُه المَلِك العزيز أبو المحاسن يوسف، وأقام ثلاثة أشهُر وأيامًا ثم خُلِع، وتسلطن المَلِك الظاهر أبو سعيد جَقْمَق الظاهري خَلَّدَ الله أيامه[٤].

---

(١) ثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٤٩.

(٢) ث: ستة عشر.

(٣) وثمانية أشهر وستة أيام. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٥٥.

(٤) كانت سلطنته يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول سنة٨٤٢هـ. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص١٥٨.

[فصل]
[في ما يجب على السُّلطان]

طاعة الله سُبحانه وتعالى ورسولِهِ ومُلازمة التقوى، ويتمسُّك بذلك فإنه السبب الأقوى، ويأخذ نفسه برعاية أحوالها، ويُروِّضها في أفعالها، ويعلم أنه متى [٥٨أ] قدر على سياسة نَفْسِه كان على سياسة العِبَاد أقدر، فقد قيل قديمًا: "لا ينبغي لذي لُبٍّ أن يطمع في طاعة غيره وطاعة نَفْسِه مُمتنعة عليه"، وقد قيل في المعنى بيت[1]:

أتطمع أن يُطيعك قلبُ سُعْدَى وتعلم أنَّ قلبكَ قد عَصَاكا

وقد تُزيِّن للإنسان نفسه حُسن الظَّنِّ بها، فيبقى وهو لا يعلم في أسرها مُرتهنًا، فيكون ممَّن زُيِّنَ له سوء عمله فرآهُ حسنًا، فيجتنب أشياء منها:

(الكِبْر والتجبُّر) فهو جالب لسخط الله تعالى. قال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[2]، وقال ﷺ: {لا يدخل الجَنَّة مَن كان في قلبهِ مثقالُ ذَرَّةٍ من كِبْر}، وقال: {ما اتصف مَلِكٌ بصفة الكِبْر إلا اختلَّت أحوال مملكته، واضطربت قواعد دولته، وعميت عليه أنباء مصلحته، وظهرت مَقاتِله بسهام[3] أعدائه}.

الثاني: (العُجْب) وهو من المُهلِكات. قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم

---

(١) من بحر الوافر.
(٢) سورة غافر، الآية ٣٥.
(٣) العقد الفريد ص١٣٦: "السهام"، ولعلها الصواب.

مُـدْبِرِينَ﴾[1]، وقـال رسـول اللهﷺ: {ثـلاث مُهلِكـات: شُـحٌّ مُطـاع، وهـوًى مُتبـع، وإعجاب المرء بنفسه}.

وقيل: "مَن استهواهُ العُجْب حتى نظر في عطفيه، واختال في برديه، ولم يَر لغيرهِ فضلًا عليه، فقد اكتسب ما فوق المَقْت إليه، واحتقب ما يورث الندامة يوم يَعَضُّ الظالم على يديه".

الثالث: (الغُرور) وهو مُطِلٌّ بصاحبهِ على العَطَب، سائقٌ له إلى ورطات هلاك ذَاتِ شُعَب، وهو أن يرى الأحوال في مبادئها مُنتظِمة في سِلْك السَّداد، فيظُن أنَّ هذه حالة واجبة الاطراد، فيغتر بذلك فيُهمل التأهُّب ويغفل عن الاستعداد، فتُسد عنه أبواب الصلاح ويُفتح عليه أبواب الفساد.

الرابع: (الشُّحّ) وهو من الأسباب التي صرَّح رسول اللهﷺ بكونها مُهلِكة. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

ويُقال: "الشحيح عدو نفسه، ومُتهِم لربِّه، ومُنقبِض عن صديقه، ومُتنغِّص في حياته[3]، ومُنكَّد في عيشه، وشقي في دُنياه وآخرته، فهو مطرود عن مقامات[٥٨ب] الكرام، ومعدود من سيئات الآثام، ومقصود بسهام المُلام بين الأنام، لا يسود أبدًا، ولا يبلُغ وطرًا ولا مقصدًا".

قال رسول اللهﷺ: {السَّخاء شجرة ولها أغصان، فمن تعلَّق بغُصنٍ منها جذبته إلى الجَنَّة، والبُخل شجرة ولها أغصان، فمن تعلَّق بغُصنٍ منها جذبته إلى النَّار}.

وقالعليه السلام: {السَّخِيُّ لا يدخُلُ النارَ ولو كان فاسِقًا، والبخيلُ لا يدخُلُ الجنَّة ولو كان عَابِدًا}.

الخامس: (الكذب)، ويكفي في ذَمِّهِ أنه مُجانب الإيمان، ومُستلِب خصيصة الإنسان.

فهذه الأسباب الخمسة يتعيَّن على كل ذي فطنةٍ ونُبل ودراية وعقل أن يصون شرف وعِزّ سُلطانِه وحُسن سُمعتِه عن شيء من هذه الأشياء التي هي أم

---

[1] سورة التوبة، الآية ٢٥.

[2] سورة الحشر، الآية ٩.

[3] ث: حيوته.

النقائص وينبوع الرذائل، فإنه قَلَّ من كانت فيه إلا اختلَّت أحوال مملكته، واضطربت قواعد دولته.

فواجب على السُّلطان- أيَّدهُ الله- أن يحمي نفسهُ الشريفة عن أن يتطرَّق إليها شيء من هذه النقائص، كما يحرس مزاجه الكريم من مولدات عوارض الأمراض، فإذا حماها من ذلك فيتعيَّن عليه أن يتحلَّى بما يزداد به مهابة ويكسيها عظمة وفخارًا، فمن ذلك:

أن لا يُسارع إلى اتباع الشهوات، وأن يُجانب سُرعة الحركات وخِفَّة الإشارات، فإنَّ أنفاس السُّلطان ملحوظة، وألفاظُه منقولة، ولقد قيل: "تكلَّم أربعة من حُكماء المُلوك بأربع كلمات، كأنها مُقتبسة من جذوة نور مجموع، أو مُنتجة من فوَّارة ينبوع، فقال مَلِك الرُّوم: "أفضل علم العُلماء الصمت"، وقال مَلِك الفُرس: "إذا تكلَّمتُ بالكلمة ملكتني ولم أملكها"، وقال مَلِك الهند: "أنا على رد ما لم أقُل أقدر منِّي على رد ما قُلْتُ"، وقال مَلِك الصين: "ندمتُ على الكلام، ولم أندم على السكوت".

وقد قيل: "إنه خُلِقَ للإنسان أُذنان ولسان، ليكون ما يسمعه أكثر ممَّا يقوله، فإذا دعت الحاجة إلى الكلام فليعتبره قبل أن ينطق به، فإنَّ كلام الإنسان ترجمان عقله وبُرهان فضله".

وقيل: "من كثر كلامُه كثر ندمُه"، ويختار أعذب الألفاظ وأحسنها.

واختار الحُكماء للسُّلطان[٥٩أ] جهارة الصوت في كلامه، ليكون أهيب لسامعيه، وأوقع في قلوبهم، ويجعل وعيده بالتأديب على قدر الذُّنوب، فقد نُقِلَ أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه كتب إلى عكرمة وهو عامله بعُمَان يقول: "إياك أن توعد في معصية بأكثر من عقوبتها، فإنك إن فعلتَ أثِمْتَ، وإن لم تفعل كذبتَ، وكلا الأمرين ذميم".

ويجتهد السُّلطان- أيَّدهُ الله تعالى- في منع نفسه من الغضب، فإنَّ الغضب شرٌّ قاهر، وإصر مُعاند مُجاهر، فإنَّ قَدَّرَةُ الله تعالى في بعض الأحايين فلا يُمضي السُّلطان في تلك الحالة فعلًا، ولا يُنفِّذ حُكمًا.

وقيل: "إنَّ مَلِك الفُرس كتب كتابًا ودفعه إلى وزيره، وقال له: "إذا رأيتني قد غضبت فادفع إليَّ هذا الكتاب ولا تؤخِّره"، وكان فيه مكتوبًا "مَالكَ وللغضب، لستَ بإله معبود، إنما أنت بشر مخلوق. اِرحَم مَن في الأرض يرحمكَ مَن في السماء".

وكما يجب الاحتراز من الغضب فكذلك يجتنب اللُّجَاج، فإنه أليف الغضب، وحليف العطب، ولا يَستعمِل في الناس كلهم حالة واحدة، بل يعتمد من الحالات في كل قضية ما يليق بحال صاحبها من: لينٍ وشِدَّة، وإقبال وإعراض، وإحسان وإساءة، وعفو وعقوبة وانتقام، وإقدام وإحجام، وإجابة ومنع، وزيادة ونُقصان، وبِشْر وقُطوب، وظهور واحتجاب، فإنَّ استعمال كل حالة في محلِّها مع مُستحقِّها أكمل تدبيرًا، وأتم رأيًا، وأجمع [الشمل][1] مصالح المُلك، ووضعها في غير محلِّها أفضى إلى توقُّع الضرر، ومُفتاح لباب العطب، فإنَّ طباع العَالَم مُتفاوتة، وأخلاقهم مُتباينة، فمنهم من يُصلحه الإقبال عليه والإحسان إليه، ومنهم من يُصلحه الإعراض عنه والانتقام منه.

ويتعيَّن على السُّلطان استمالة الأعداء وأهل الإحن من ذوي المقدرة، ويجتهد في إصلاحهم، فإن لم ينجع فيهم إصلاح واستمالة يعدل بهم إلى طريق المُداراة اللائقة بهم، إلى أن يلوح له وجه الفرصة ويُمكنه المؤاخذة بالانتقام، فينتهز ذلك بالمُبادرة إليهِ، ولا يؤخِّره عن وقته، فإنَّ تأخيرهُ مُضِرّ، والإهمال له مُفسِد.

وليعلم السُّلطان أنَّ من أعمِّ الأشياء نفعًا، وأعظمها في مصالح المُلك وقعًا[٥٩ب] كتمان سِرِّه وإخفاء أمره، ولا يُطلِع أحدًا على ما قد عزم على فعله قبل تمامه، ولا يتحدَّث بما يُريدهُ من المهام قبل إبرامه، فإنَّ ذلك أقوى أسباب الظُّفر، وقد ندب رسول اللهﷺ إليه، فقال: {استعينوا على الحاجات بالكتمان}.

ونُقِلَ عن علي-كَرَّمَ الله وجهه- أنه قال: "سِرَّك أسيرك، فإن أظهرتَه صِرْتَ أسيره".

لكن مِن الأسرار والأمور ما لا يُستغنى فيه عن إطلاع نصيح شفيق، ليستعين السُّلطان برأيهِ في المُهِمَّات، وينتفع بفكرهِ في الحوادث، ولا يثق بكل

---

[1] الإضافة من العقد الفريد، ص١٣٧.

مُتملِّق، ومتى حدث أمر من الأمور الجليلة يُكثر الاستشارة فيها ممَّن يراهُ أهلًا لذلك، ويسمع رأي كل أحدٍ منهم على انفراده، وينظر في جميع ما يسمعه، ويعمل بما هو الأقرب إلى نيل المطلوب[1]، والأصوب في دفع المرهوب، ولا يُهمل الاحتراز والحذر في عواقب الأمور، ويجتهد أن لا يفتح بابًا يعيى في سدِّه، ولا يرمي حجرًا يعجز عن رَدِّه، وقد قيل في المعنى بيتان[2]:

وإيـاكَ والأمـرَ الـذي إن توسَّـعت ... مـواردُهُ ضـاقت عليـكَ المصـادرُ

فمـا حَسَـنٌ أن يَعـذِرَ المـرءُ نفسـهُ ... ولـيس لـه مـن سـائرِ النـاس عـاذرُ

ولا يجعل السُّلطان أوقاته كلها مصروفة إلى نوع واحد، فإنَّ ذلك إن كان جِدًّا واجتهادًا في مصالح المُلك والنظر في تدبيرهِ ضجرت النفس منه، وسأمت الفكرة فيه، وربما أدى إلى خلل أو ذلل، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: "نفسي مطيتي إن أجهدتها كبت بي"، وإن كان لهوًا وقضاء شهوة أدى إلى تضيع المُلك وفساد أموره، بل عليه أن يُقسِّم أوقاته، فيقسم منها قسطًا إلى النظر في مصالح مُلكِهِ ورعيته، وقسطًا إلى الاختلاء بنفسهِ لراحتِه، وقسطًا لتضرُّعِهِ إلى الله تعالى وقيامًا لشُكر نعمهِ وأداء عبادته، ويخُصّ كل وقت منها بحالة تليقُ به، ولا يليق أن يُوقع فيهِ غيرها، كوقت ركوبهِ على جاري عادته، ووقت نظرهِ في مصالح مملكتِه، ووقت جلوسهِ لكشف قضايا رعيَّتِه، ووقت دخول الجُند عليه لأداء وظيفة خدمتِه، ووقت استحضار مَن يحضر من الرُسُل لأداء رسالتِه، ووقت سكونهِ ومنامهِ وقيلولتِه، ووقت استئناسهِ [٦٠أ] بمن يُحضِرهُ لمُحادثتِه، ووقت قيامهِ لفريضة الله تعالى وعبادتِه.

وكذلك يتعيَّن عليه أن يستعين في الأعمال بكُفاة العُمَّال، ويعتمد في المهام الثِّقَال بأجلاد الرجال، فقد قيل: "من استعان في عملهِ بغير كفؤه أضاعه، ومن فوَّض أمرهُ إلى عاجزٍ عنه فقد أفسد أوضاعه[3]".

وليحذر كل الحذر من تولية أحد أمرًا من أمور المملكة الدينية والدُّنياوية بشفاعة شفيع، أو رعاية لحُرمة، أو قضاء حق إذا لم يكن أهلاً، فإنْ أراد مُكافأة

---

[1] ث: "مطلوب"، والتصويب من العقد الفريد ص١٣٨.

[2] ث: بيتين، وهما من بحر الطويل.

[3] العقد الفريد ص١٣٩: أفسدهُ وأضاعه.

أحد من هؤلاء كافأهُ بالمال والصِّلات، وقطع طمعه عمَّا لا يصلُح له من الولايات، فقد قيل: "إنه كان على باب كسرى خشبة من ساج، مكتوب عليها بالذهب "الأعمال للكُفاة، والحقوق على بيوت الأموال".

ويصرف عين عنايته ونظر يقظته في عشرة أمور:

الأول: حفظ بيضة الإسلام في ناحيته، لئلا تقوى عليه شوكة كافر، ولا يصل إليه يد فاجر، وذلك بإقامة الأُمراء والأجناد، وإعداد الأُهب والاستعداد.

والثاني: تفقُّد الأعمال والحصون والثغور، والبدار في إصلاح عمارتها وذخائرها ومُهمَّاتِهَا.

الثالث: السياسات لدفع المُفسدين وردع المُعتدين.

الرابع: إقامة حُدود الله المانعة من ارتكاب المحارم، فقد[1] جعلها الله تعالى حراسة لحفظ النفوس والأموال، وأمر بإقامتها فلا يَحِلّ إسقاطها بشفاعة ولا سؤال.

الخامس: دوام تمسُّكِهِ بحبل الشريعة والتزامها، واعتمادِهِ في أمرِهِ على نقضها وإبرامها، واعتباره أمور القائمين بأحكامها، واعتنائه بإقامة قُضاتها وحُكَّامِهَا.

السادس: إقطاع الأُمراء والأجناد، وأرزاق ذوي الحقوق مِن العِبَاد.

السابع: تيقُّظِهِ على جهات الأموال لاجتلاب أنواعها، ومواطن الغِلَال التي بها تقوية البلاد باعتبار مزارع قُراها.

الثامن: استخدام الكُفاة والأُمناء، واستعمال النُّصحاء الأقوياء.

التاسع: أمور العامة، بأنْ يجلس لها في وقت من الأوقات لكشف المظالم، وإقامة فريضة العدل لإزالة التظالُم.

العاشر: التطلُّع إلى مُتجددات الأحوال وحوادث الأمور، واستعلام ما يتجدَّد منها مخافة طرئان مخوف ومحذور، بأن يجعل لها عيونًا بصددها، وثِقَاتًا يعتمدهم[٦٠ب] لرصدها[2].

---

(1) ث: "قد"، والتصويب من العقد الفريد ص١٤٠.

(2) ث: "لرصدهم"، والتصويب من العقد الفريد.

فهذه الأمور العشرة ينشأ منها شُعب مُتفرّعة، وقواعد رواسخ بُني عليها أحكام مُتنوعة[1].

فيجب عليه بعد مُلازمة التقوى وطاعة المولى، والعدل في الأحكام،[و]تعظيم أهل العلم الذين هُم هُداة الإسلام، والأخذ بخواطر الجُند، وتفقُّد أحوال الرَّعِيَّة، ويكون حُكْمُه مُوافقًا للشرع الشريف، فإنه إذا حكم بهِ وفعله وكان مُوافقًا لأحد مذاهب المُسلمين الأربعة جاز له، وأُثيب عليه، وإن كان مُخالفًا لها فغير جائز له، وأثِمَ بِه.

وأن يكون حليمًا، ولا يُعجِّل بعقوبة، ولا يُعطِّل الحدود، ويصون عقلَه كما تقدَّم من: العُجْب، وإعطاءهُ من السَّرَف، وإمساكه من البُخل، وذهنه من البلادة، ولفظه من السَّفاهة، ووقاره كما تقدَّم من الكِبْر، وأن لا يكون مُتوانيًا في أمور المملكة ومصالح الرَّعِيَّة، ولا مُتغفِّلًا عمَّا يُنقل إليهِ من أخبار رعاياه، وأن يفحص عن حقيقة ما يُنقل إليه، فيعتمد الصِّدق، ويردع الكاذب لئلا يحدث الفساد، فإنَّ عدل ساعة من المَلِك بعبادة سبعين سنة، إلى غير ذلك.

ويتعيَّن على المَلِك عرض الجيوش في كل حين، وعرض أسلحتهم وما يحتاجون إليهِ من اليَرق[2] في الإقامة والسفر ليصيروا مُحتفظين على أسلحتهم وأمتعتهم، ولا يتركهُم مُهملين يُضيِّعون غالب ذلك، فإنهم إذا كانوا ناقصين كان النقص في مملكته، ولا يولِّي أحدًا ولاية بسؤالهِ إلا أن يكون أهلًا لذلك بأن يكون كفؤًا كما تقدَّم ويُعلم ما بهِ من الخصال والأفعال، ولا يُفشي سِرَّه لأحدٍ من آدُره الشريفة ولو وثق بها، وكذلك لا يُفشي سِرَّه لأحدٍ من أرباب مملكته ولا من المُقرَّبين لخواطرهِ إلا أن يثق بهِ بعد امتحان واختبار مِرَارًا.

وإذا أراد فعل شيء تشاور بأركان مملكتِه، والإستشاره ورد فيها أشياء سيأتي ذكرها بعد، وإذا بدا له أمران: أحدهُما عن إظهار أُبَّهة وصرف أموال من غير ضررٍ لأحد، والآخر بأحمال وتحصيل مال فيفعل الأول، وإذا بدا له أمران: أحدهُما مصلحة نفسهِ وتغيُّر خواطر جُندِه، والآخر ضد ذلك، فيُقدِّم فعل

---

[1] من أول الفصل إلى هُنا ينقله المؤلِّف من العقد الفريد للنصيبي، ص١٣٣-١٤٠.

[2] يقصد باليرق تجهيزات السفر. انظر: محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص١٥٧.

الثاني، إلا أن يتوصَّل إلى فعل الأول باستجلاب خواطر الجُند، ويُبدي[٦١أ] لهم أمورًا توطِّن نفوسهُم على الرِّضا بذلك، وإذا لم يكن رضى فيكون عدم تغيرهم، ويكون في ظاهر الأمر مُوافقًا لعقولهِم وفي باطن الأمر مُوافق لمصلحتِه، وإذا أراد البطش بمن يتعيَّن عليه البطش بهِ يتوصَّل إلى ذلك بأسباب يقوم[١] بها الحُجَّة عليه، ويُظهر للناس أنَّ ما[٢] فعلهُ السُّلطان بهِ معذور فيه.

وأن لا يُشغل فكرته بأسباب المتجر، فيحصُل من ذلك مفاسد كثيرة منها: اشتغال ذاتهِ عن مصالح المملكة، ومنها تعطيل أحوال التُّجّار، وقطع رزق غالب المُتسبِّبين من أرباب كل آلة يتعلَّق بصنف ذلك المتجر.

وأن يكون سمحًا، رطب القلم، ولا يكون سريع الانفعال، ولا كثير التخيُّل، وأن يكون حَذِرًا، ولا يَثِق بقول مَن ظهرت منهُ خيانة لمَلِك غيره، إلا أن تكون تلك الخيانة صادرة منه لعدم إنصافهِ وهو أهل للانصاف، أو رجع عن تلك وتاب، وحسُنت سيرته وأناب، ودام على ذلك.

ولا يُقرِّب مَن أتاهُ هاربًا من عند مَلِك نظيره، ولا يُفشي له سِرَّه، بل يُكرمه ويبعده عنه، فإن كان هاربًا ممَّن بينهُ وبين المَلِك عداوة فلا يشك: إمَّا أن يكون قليل الخير ما حفظ خير مخدومِه، وإمَّا لمكرٍ ما ليطلع على أحوال المَلِك، فيُراسل من هرب منه في الباطن، فربما يبتغي أحوال بعض الجُند بكلامه، وإن كان هاربًا مِن صاحب المَلِك فيكون عدم تقريبهِ إمساكًا لخاطر صاحبه، فإن كان قد وجب على الهارب القتل من المهروب منه واستجار بالمَلِك المهروب إليه، فقد تقدَّم الكلام على ذلك، وإن كان قد أذنب ذنبًا واستغفر منه، فينبغي التشفُّع فيه وإعادتهِ إلى مخدومه.

وإذا أمَّن أحدًا فلا يُبدي له سوءًا، وإذا قدر عفى، ويقبل توبة من تاب، ويُجربه في الأفعال والأقوال، فإن صحَّ له ذلك أعادهُ إلى ما كان عليه قبل ذلك، أي قبل وقوعهِ في الذنب الذي تاب منه في الحقيقة، ولا يصير إلى ما كان عليه أولاً، وقد يُمكن أنه يتوصَّل إلى أسباب تزيدهُ رفعة عمَّا كان عليه، ولا يحُكم في طائفة أقلهم إلا أن يكون أقل طائفة غيرها ويظهر منه أشياء تقتضي السيادة أو

---

[١] لعل الصواب: يُقيم.

[٢] ث: انما.

يكون قد غاب عن طائفته مُدة إلى أن ساد ورجع[٦١ب] إليهم. قيل: "موت العُلماء والعُقلاء وإن كان عظيمًا فهو أهون من تقدُّم السَّفل على رقاب الأحرار".

وأن لا يَهزل ولا يُمازح، ولا يقول ما لا يفعل، إلا أن يكون أمرًا يُريد بقولهِ التوصُّل إلى أغراض، ولا يشكر نفسه إلا إذا ذكر بعض أوصافهِ عند من له ذوق وعقل، ويتحقَّق محبتهِ له، واطلع على بعضها، ولا يكفر النعمة، ولا يشكر زمانًا مضى، ويستحسنه على ما هو فيه، إلا أن يكون صالحًا لدينه، ولا يُظهر لأصحابهِ قلة قدرتهِ على أعدائه، ولا يأمر بما لا يُستطاع، ولا ينقل ما لا يتحققه فيُروى عنه، فيبحث عنه السامع فيجدهُ غير صدق، ويصير منسوبًا إليه لا إلى ذلك، ويحفظ المودَّة.

وإذا بدا من صديقٍ له ذَلَّة لا يُقاصصه في الحال بها، بل ينظُر ما يصدر منه بعد ذلك، فإنْ وجدهُ قد رجع فلا يظهرهُ على أنه اطلع على ذلك، وإن علم المُبدي أنه اطلع على ذلك فلا يظهرهُ المَلِك على أنه تأثر عنده، ويُبدي له أسبابًا يوطِّن بها نفسه.

وإن لم يحمل تلك الأمور قَلَّتْ أصحابُه وبقي فريدًا، ومن الأمثلة الجارية على ألسُن الناس: "نحس تعرفه خير من جيِّد لا تعرفه"، وأرادوا بذلك أنه إذا عُرِفَت حرزوا منه، والجيِّد فلا يُحترز منه، فربما يحصُل ما لا يُقاس عليه، وإن وجدهُ مُصِرًّا على ذلك، ولم يرجع عمَّا هو عليه، فليتركه ويحفظ له المودَّة في الباطن، ويُعزِّرهُ بحسب ما يليق به، فيكون تعزيرهُ فيه ردعًا لغيره واستيفاء منه، لكن يكون أخف من تعزير غيره، لأنه سبقت له مودَّة، ويُبعدهُ إلا أنه يحتاج إلى قوت يقرِّرهُ له بحسب ما سبقت له من الخدمة، وإذا ذكرهُ أحد في مجلسِهِ بسوء لا يُمكِّنه من ذلك، ولا يلتفت إلى قوله، فإنه قد حصل له التعزير، وإذا ذكرهُ أحد بخير فيفحص عن حقيقة ذلك في الباطن، وهذا على سبيل الاختصار من مكارم الأخلاق.

وأن يكون مُتزوِّجًا بأربع نسوة فإنهُنَّ من الكمال، وتكون كل واحدة بمعزل، بحيثُ أن لا يدخل على إحداهُنَّ أحد من جهة الأُخرى، ويحتاج إلى كثير من السراري، هذا إن عرف أنه يتخلص في ذلك، ومن المُلوك من اقتصر عن

التزويج وتسرَّى، والأحسن الأبكار، وأن لا يدخل آدُرهُ[1] الشريفة[٦٢أ] أحد من العجائز ولو كُنَّ صالحات، وأن لا يسلك مسلكًا يُتهم فيه، ويُنكر عليه الغير، وإن كان في الباطن على الحقيقة، فإنَّ للناس ما ظهر، ولا يتقرَّب إلى شيء لا يوافقه في دينه ودنياه، ويقول في نفسه: "هذا لغرض ما، وما أنا بواقع فيه"، فإنَّ من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

وأن لا يضرب مثلًا يقصد بهِ إصلاح شخص لا يفهم ذلك المثل، فيأخذهُ بالعكس فيحصُل منه مفسده، وإذا عَلِمَ أنَّ شخصًا مُذنب وهو خائف من ذنبه، فلا يذكر حكاية فيها عقوبة وهو قاصد معنى ما فيظُن الخائف أنه المُراد بذلك، فيحصُل منه مفسده.

وإذا أراد التوصُّل إلى غرضهِ من أحد فلا يكون مواجهة منه، بل يكون على لسان الغير، وإذا أراد أمرًا وقصد أن لا يطلع عليه غير الذي يُريد ذلك الأمر منه، وقصَدْهُ إخفاء ذلك، وأن لا يكون على لسان الغير ولا من لفظهِ، فليضرب له مثلًا بمعقول من ذاته يدل على وصول الغرض إلى ذهن المُخاطب.

مثاله: إذا كان يأكل من صحن، وبجانبهِ آخر يأكل من ذلك الصحن، ومدَّ يدهُ إلى قُدَّامِهِ، فيضرب له مثلًا عند مد المائدة مرَّة أُخرى قبل الأكل، فيقول: "كان زيد يأكل مع عمر، وكان يسأل عن كيفية الأدب في الأكل، فكان يوصيهِ بأشياء، من جُملتها أنه كان يقول له: "كُل ممَّا يليك"، ويستدل له على ذلك بالحديث الشريف النبوي، فيفهم العاقل معنى ذلك.

وإذا أراد عزل مَن هو مولِّيهِ شيئًا من أموره ولم يَظهر عيبه للناس، فيشرع في مذمَّة بعض أفعَالهِ حتى يليق بعقول الناس عزله، وأن يستعمل الرِّفق في جميع أمورهِ، ولا يكون حليمًا قطعًا فيهدر، ولا يكون بالضد فيُنفر منه، بل يكون أمرهُ وسطًا كما قال رسول اللهﷺ: {خير الأمور أوسطها[2]}، وقد أنشد بين يديهعليه السلام أبيات مُطوَّلة، من جُملتها هذين البيتين[3]:

---

[1] جمع دار، ويقصد بها هُنا دور الحريم، وسيأتي تفصيل ذلك.
[2] هامش ث: أوساطها.
[3] من بحر الطويل.

ولا خيرَ فـي حلـمٍ إذا لـم يكُـن لـه بـوادرُ تحمـي صـفوهُ إن تكـدَّرا

ولا خيرَ فـي جهـلٍ إذا لـم يكُـن لـه أريـبٌ إذا مـا أورد الـرأي أصـدرا

وإن زاد في الطاعة واجتهد في أمور يكتسبها ممَّا تُقَرّبه إلى الله تعالى وتُدنيه، فإنه[٦٢ب] يفوز بالدارين، ويصير أميز من غيرهِ من المُلوك، فإنه ليس خَافٍ عن ذوي الألباب ما مدح الله المُتقين به في الكتاب، ويكون مشكورًا عند الناس، وله مَقام ولو لم يحصل منه نتيجة، خصوصًا إذا كان مَلِكًا ونفعه عام، فأولًا يُحبه [الله][1] بإكرامه له، فإنه من لا يُحب لا يُكرم، ولا شك أنه يكون محبوبًا للهِ، لقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]، حتى إنَّ غالب من كان مُرتكبًا معصية وهو من جُهَّال الناس وله رفقة مُنهمكون معه في ذلك، ورأى من هو معروف بالصلاح فلا بُدَّ يتبرَّك بهِ، ويكون عندهُ أميز من رفقتهِ المذكورين ولو كان ميله الشيطان إليهم.

وورد في الحديث أنَّ الله تعالى إذا أحب العبد أمر جبريل عليه السلام أن يُنادي في سماء الدُّنيا: "إنَّ الله يُحب فُلانًا فأحبُّوه"، وإذا كان المَلِك مُتقيًا كان مُحبوبًا، ونودي له بذلك، فيَحيى في هذه الدُّنيا حياةً طيِّبة، ويفوز بالدار الآخرة، لقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾[3].

ويجب عليه أنه إذا ورد إليه قاصد ممَّن ليس له عليه ولاء فلا يخلو المُرسل إمَّا أن يكون عدوًّا أو صاحبًا أو مُداهنًا، فإن كان عدوًا فينبغي أولًا إظهار الأُبَّهةُ والشهامة وما يُرهِبَه، وقيام الناموس الشريف عليه، ولبعض ذلك صفة يأتي في موكب الإيوان، ثم ينزل بدار الضيافة، ويُرتَّب له ما يكفيه، وسيأتي جهة المُرتَّب في فصل الوزارة، ويوكَّل بهِ وبمن في خدمته من يعمل مصالحهم، ولا يُمكِّن أحدًا من الاجتماع بهم، وهذا من تعلُّقات المهمندارية، وسيأتي بيان ذلك.

ثم إنَّ المَلِك يستفهم في الباطن ما المُرسل عليه وما قصده وكيفية أفعاله، فإن كان ممَّا يُشينه فيكتم ذلك، وإن قُرئت الكتب فتكون إشارته لمن يقرأها بالألغاز، وينظر في أمر المُرسل، فإن كان جاهلًا فلا يُلتفت إلى كلامه، فإنْ شاء أعاد

---

(1) الإضافة من الزُّبدة، ق٢٦أ.
(2) سورة الحجرات، الآية ١٣.
(3) سورة القمر، الآية ٥٤.

عليه الجواب بما يليق بجهلِهِ، أو ترك جوابه جواب، وإن كان ذا عقل يدَّعي قوة فيتعيَّن عليه مُجاوبته، فإنه لا يُتصور أن يصدر من ذي عقل ضعيف القوة خشونة الكلام، فيكون ذلك حُمق مع [٦٣أ] علمِهِ به، وهذا من غاية المعرفة لا من الجهل، فإنَّ الجاهل يعتقد أنَّ الحُمق منه حُسن، والعاقل يراهُ على حقيقته، لكن يكون منه على سبيل النقص بالمُرسل إليه وغاية العظمة لنفسه، فيكون ترك جوابه أبلغ وأعظم ممَّا فعله وما يعتقدهُ لنفسه، وفي ذلك غاية الإهانة لقول أهل الفضل: "جواب الأحمق ترك جوابه".

وإن كانت المُكاتبة تتضمَّن سؤال شيء لا يُمكن من غير خُشونة، فيتعيَّن الاعتذار عنها بما يقبله عقل السائل، مع إظهارِهِ أنَّ القصد إجابته إلى ذلك، وإن كان السؤال بما يُمكن، فينبغي إجابته، ولا يلتفت إلى عداوته، فيكون من باب السيادة والسياسة كما قال بعضهم: "مَن أصلح الأضداد بلغ المُراد"، ولو حصل عليه مشقَّة في ذلك، فيُظهر أمورًا يظهر للناس بها أن ليس عليه مشقَّة في ذلك، ويتحمَّل المشقَّة في الباطن.

وأن يكون له جواسيس يثق بهِم يُطالعونه بأخبار المُرسَل، ما كان منها على الحقيقة وما كان بالإشاعة، فإنَّ الصحابة- رضي الله عنهم- فعلوا ذلك، وأن لا يُهمل ذلك ولو كان ذا قوة عظيمة، فقد قال أهل الفضل: "آفة القوي استضعاف الخصم".

وإن حضر صُحبة القاصد شيء من الهدايا، فيتعيَّن أن يَرُدَّ له أمثال ما أُرسل بهِ إليه ليكون أميز منه، وإن كان من صاحب قطعًا، فينبغي إكرام قاصدهُ بأنواع شتى وتُقربه، واستدعائه بالخلوات، والإجابة إلى كل شيء أراده، هذا إذا كان الأمر مُوافق له أو بعضه، وإذا كان مُحالًا فيُطالعه بأنَّ ذلك مُحالًا، ويُقرِّر له ما يصل إلى عقلِهِ حتى لا يصير له عتب عليه، سواء كان جاهلًا أو عاقلًا، فإن كان جاهلًا ويجهل أنه يَجهل فيتعيَّن مُداراته لأجل صَحابته، فإنه من عُدِمَ المُداراة عُدِمِ التوفيق، وليس مُصاحبته محمودة، فإنَّ أهل الفضل يقولون: "مُعاداة العاقل ولا مُصاحبة الجاهل".

وقد اتفق نُكتة في المعنى يُحكى أنَّ حَطَّابًا كان يسرح لجمع الحطب فوجد دِبَّة، فخاف منها حين أقبلت إليه، فصارت تتملَّق له، وكان معه رغيف أطعمها

إياه، فصارت تعاونه على جمع الحطب، فاستمر على ذلك مُدَّة، وحكى لأصحابِهِ، فجاء يومًا إلى الجبل على عادتِهِ، ورقد في ظل شجرة، ورقدت قدامه تحرسه، وله رفيق بالبُعد منه ينظُر إليه، وإذا بذُبابة طارت على وجهه، فجعلت الدِبَّة تنشها، فتطير ثم تحط [٦٣ب]، فحصل للدِبَّة بذلك الغُبن، وقصدت الشفقة على صديقها فحملت حجرًا ثقيلًا، وأرادت قتل الذُّبابة ليحصُل للحَطَّاب راحة، وألقت الحجر عليها فرضَّت رأسه فمات، ورفيقهُ ينظر ذلك، ثم إنه خاف وهرب وأعلم أهل المقتول، فهذه نتيجة صُحبة الجاهل.

وإن كان المُرسَل مُداهنًا مَلَّاقًا فينبغي أن لا يُلتفتُ إلى كلامهِ على أي وجه كان، ويُعامله بما يُعامل بهِ الناس، وما ضر الضحك على لمَّتِه[1]، ويتعيَّن الحذر منه، وإن قال أمرًا وظهر له صِحَّة، ونفعهُ عائد على المُرسل إليه، فينبغي التفحُّص عن ذلك من غيره، ويكون الاعتماد على ما ظهر من غيرهِ لا منه، ولو ظهر منه نتيجة، ولا ينسب النتيجة إليه، حتى إنَّ المَلِك والعياذ بالله تعالى لو اتبعه في أمر بان من غير تفحُّص لاعتمادهِ على ما تقدَّم يحصُل ضد ذلك، وذلك في جميع أحوالهِ وأفعالِه.

ويتعيَّن على المَلِك أن يعتبر حواصل نفسه، وأن يتفقد أحوال بيت المال، بحيثُ يكون مملوءًا من الأموال، ونفع ذلك عائد عليه، فإنه والعياذ بالله تعالى لو خرج خارجي أو حدث حادث وجد ما يُنفقه على نفسهِ وجُنده من بعض مُتحصِّله ذهابًا وإيابًا.

ويتعيَّن أن يكون حاصله الذي تركه بعد توجُّههِ إلى المُهم أمثال ما أنفقه لاحتمال أنَّ العدو مُطلع على جميع أحواله الباطنة، فيُغرِ به على أن يَظهر إليهِ بجمعهِ وجُنده، فيُنفق الأموال، فيرجع وما يقابله أول مرَّة، فيظُن المَلِك أنَّ العدو لا قوة له، فيعود العدو كذاك مِرَّارًا إلى أن يعلم أنَّ ما[2] عند المَلِك قد نفد فيسير عليه، فيصير عاجزًا عن صرف الأموال، والجيش لا يقوم إلا بالمال.

ويتعيَّن عليه عدم المُبادرة إلى الأمور إلا أن يكون صَرف أمرًا يحصُل بتأخيرهِ مفسدة بتحقق ثبت، فيبادروا إليه.

---

(١) تعني لحيته.

(٢) ث: أنما.

ويتعيَّن عليه أن لا يفعل كما كان بعض السلاطين يفعل، بأن يَلبِس أرذل القُماش ويترك الأحسن، قائلًا في نفسه: "إنني مُعروف بالمُلك، ومهما ألبسه كُنْتُ ذا مهابة"، فهذا من عين الغلط، وإنه مُتعيَّن على المَلِك أن يلبس أحسن القُماش على حسب ما يليق به على ما سيأتي في فصل الملبوس، وأن لا يركب إلا على الخيل العوال، حتى إنه لا يكون عند أحد من جُنده علوّه، فيصير إذا ركبه [٦٤أ] أعلى من الجميع، فيكون عاليًا حِسًّا ومعنى.

ويتعيَّن عليه أنه إذا أرسل جيشًا إلى جهة من الجهات، وأقام عليهم مُقدَّمًا، ومعنى المُقدَّم أن يكون الجيش تبعًا له فيما يأمر بهِ وينهي عنه، وتُسمَّى بالقاعدة التركية "باش" ومعناه "الرأس"، بأن يأمُر الجيش بحضرته[1] أن يكونوا تحت طاعته كما هُم في طاعة المَلِك، وسيأتي إن شاء الله تعالى كيفية تجهيزه وتجهيز الجيش في فصل التجاريد.

ويتعيَّن عليه أن يطلب المُقدَّم المذكور، ويكتُب له تذكرة بالقصد، وبما لعله يحدث إذا حدث، وأمثال ذلك ممَّا هو قصد المَلِك وممَّا هو ليس قصده، وأمَّا التفويض له فيما لا يتعيَّن فهو بحسب اختيار المَلِك: إن شاء فوَّض، وإن شاء عدَّ وبيَّن، وحدَّ له حُدودًا لا يتجاوزها، والأحسن هذا.

ويتعيَّن على المَلِك كشف أمور نُوَّابهِ وأرباب وظائفهِ كل وقت، وتحقيق ما هُم عليه على الصحة، فمن تحقق منه سلوك الطُّرُق الحميدة أبقاهُ على ما هو عليه، وإن كان المُتحقق عنه ناصحًا صدوقًا يُبالغ في الخدمة والاجتهاد والتقُّرب إلى خاطر المَلِك، وعَلِمَ أنَّ له ميلًا إلى العلو فيُرقِّيهِ إلى ما هو قصده وزيادة، ومن عَلِمَ وتحقق منه ضد ذلك فيكون الأمر بضده.

ويتعيَّن أنه إذا حضر جماعة لشكوى أحد من المذكورين، فلا يسمع الشكوى لئلا تتجاسر الرَّعِيَّة على الحُكَّام، وينتهكوا حُرمتهم فيفسد النظام، وأن يكون جوابه للشُّكاة أنه لا بُدَّ من الكشف عن هذه القضية وتحقيقها، ويأمرهم بسلوك طاعته وعدم الخروج عن أوامره، ويعرِّفهُم أنه إن كان وقع منه شيء من ذلك فالمُوجب له عدم سلوكهم طاعته. هذا إن وقع في حقِّهم بانتهاك حُرمة وما أشبه

---

[1] ث: تحضربه.

ذلك، وإن كانت الشكوى بسبب رشوة وما أشبه ذلك، فلا يزيد المَلِك في الجواب على قوله: "لا بُدَّ من كشف القضية"، ويُرسل إليه في الباطن إن كان بعيدًا أو قريبًا يُعرِّفه سلوك الطُّرُق الحميدة وإرضاء الخصوم ومُسايسة الأحوال مع الرَّعِيَّة، وأنه متى شكى عليه ثانيًا الشاكون بعينهم كان عليه الضرر بما يليق به.

وكذلك كل شُكاة يشكون يكون فعل المَلِك معهم نظير الأول، ولا يُعزِّر المشكي عليه بشكوى الشُّكاة الثانية بما سبق له [٦٤ب] أولًا، وكل شيء له حُكم، فإن تكرَّر شكوى الأولين، ولم ينفصل لهم أمر مُرضي ينبغي أن يعزِّرهُ بعض تعزير بحسب ما يراهُ المَلِك: إمَّا أن يكون مرسومًا على يد قاصد المَلِك بالكشف عن ذلك، أو المُكاتبة إلى من هو نظيرهُ أو دونه لمن له ولاية بتحرير أمره، ومُطالعة المسامع الشريفة، وهذا غاية التعزير لمن يكون حاكمًا أن يحكم فيهِ من هو دونه، فإن لم ينصلح بذلك عزله.

ويتعيَّن على المَلِك أنه إذا عزل مثل ذلك تفكَّر في أمره: إن كان ممَّن سبق له عليه خدمة ونصائح أن يوليِّهِ مكانًا غير ذلك، وإن كان دون ذلك فيُرتِّب له ما يكفيه، ويستمر بطالًا مُدَّة، وإن اختار المَلِك بعد ذلك ولَّاه جهة من الجهات، أو استمر بهِ على حاله بطالًا.

ويتعيَّن على المَلِك أنه إذا كان له قصد في إبقاء صاحب وظيفة على وظيفته ولا يعزله عنها، ورأى الناس مُجمعين على عزلهِ، ونفوسهم فارَّة[1] منه، فلا بُدَّ من عزلهِ مُدَّة، ثم تولية غيره، فبالضرورة أنَّ جماعة من الرَّعِيَّة يكرهون الثاني، لأنَّ الحَاكِم إذا حكم رضي المحكوم له وسخط المحكوم عليه، فيصير بعضهم يشكر الأول ويذم الثاني، ثم يُعيد الأول ويأمرهُ بسلوك الطُّرُق الحميدة.

ويتعيَّن أن لا يكون مماليكه طائفة واحدة، بل يكونون طوائف مُختلفة، وأجناسًا مُتنوعة، وسيأتي بيان معنى ذلك إن شاء الله تعالى في فصل أجناس المماليك.

ويتعيَّن عليه إن أمكنه أن يُجهِّز في كل سنة جماعة من الجيش المنصور، ولهُم مُقدَّم في فصل الربيع يتوجهون إلى آخر المملكة ويعودون، ليحصل بذلك

---

[1] الزُّبدة: "نافرة"، ولعله الصواب.

الإرهاب للأعداء، وأن يُجهّز بالبحر المُحيط[1] أغربة[2] مشحونة بالرِّجال والسِّلاح على حسب قُدرتِه يتفقدون السواحل، فمن وجدوه بالبحر من قُطَّاع الطريق قمعوه، فإن كان المُتوجِّهون بالبرِّ والبحر نافعين للمُهِمَّات الشريفة ومُقدَّمهُم يُقتدى به، فلابُدّ أن يظهر منهم نتيجة من قمعهم المُفسدين وتحصيل أموالهم، فتصير كُلفهِم من ذلك، وتعود السُّبُل برًّا وبحرًا آمنة مُطمئنة.

ويتعيَّن عليه المُبادرة والقيام بما يتعلَّق بهِ مصالح الرَّعِيَّة من: إصلاح الجسور، ودوران المحمل الشريف وتجهيزه، وأنواع القُربات والصدقات [٦٥أ]، وما أشبه ذلك.

ويتعيَّن عليه إقامة كُشَّاف التُّراب عند هبوط النيل على ما سيأتي في فصله.

والمُتعيَّن على المَلِك كثير، ليس له غاية فتُدرك، ولا نهاية فتتطرق الأفهام إليها فتسلك، فإنَّ الله سُبحانه قد افترض عليه أمورًا لا بُدَّ من القيام بوظائفها، فيُحَلِّي نفسهُ الشريفة مهما استطاع بصفات عوارفها من: عقيدة صالحة سويَّة، وطريقة هادية مهديَّة، وسيرة حميدة مرضيَّة، وأخلاق طاهرة رضيَّة، وأعمال صالحة زكيَّة، وهِمَّة موفَّقة عَلِيَّة، فإذا اتصف بهذه الصفات كان الله له عونًا وعضدًا، وأقام له من ملائكتهِ المُقرَّبين مَددًا، وسلك بهِ إلى بلوغ كل سعادة وزيادة منهجًا لا ينقطع أبدًا.

وفضيلة السُّلطان الذي هو بهذه المثابة لا يخفى على ذوي الألباب والبصائر، وشأن كل أحد من رعيته حُسن التوسُّل إلى الله بتأييدهِ، ودوام مُلكهِ بقلبٍ راضي ولسانٍ شاكر.

ومن نعوت السُّلطان- أيَّدهُ الله- المشهور بها في الآفاق، التي لا يُمكن غيره من المُلوك أن يوصف بها: المقدام، الشريف، الأعظم، مالك رقاب الأُمم، صاحب السِّكَّة والخُطبة والسيف والقلم، سيد مُلوك العرب والعجم، حاكم الأرض في الطول والعرض، القائم بما أوجب الله عليه من السُّنَّة والفرض،

---

(1) يقصد البحر المتوسط.

(2) جمع غراب، وهو مركب حربي شديد، ومنه الصغير والكبير، وهو يسير بالقلع والمجاديف، ويحدد حجمه وضخامته عدد المجاديف. انظر: درويش النخيلي: السفن الإسلامية، ص١٠٤-١١٢.

سُلطان الإسلام والمُسلمين، قامع الطُّغات والمُتمرِّدين، خاذل الكفرة والمُشركين، مُنصف المظلومين من الظالمين، كهف الأرامل والمُنقطعين، العَالِم العامل،الحَاكِم العادل، الناسك العابد، والورع الزاهد، ملجأ الفُقراء والمُساكين، وليّ أمير المؤمنين، صاحب الديار المصرية، والمملكة الشامية، والثغور السكندرية، والأرض الحجازية، والجزائر القُبْرُصيَّة، والحصون الرُّومِيَّة، والحِكَم اليونانية، والهِمَم العلوية، والعصائب المُحمدية، والبصائر النورانية، صاحب الرُّوم والأرمن والجزائر وعدن، حاكم البحرين، خادم الحرمين الشريفين، إسكندر الزمان، وارث مملكة يوسف وسُليمان، المُجاهد المُرابط المُغازي في سبيل الله مولانا السُّلطان، خَلَّدَ الله مُلكه وثبَّت قواعد دولته بمُحمدٍ وآله.

وقد أطلعتُ على أحوال مُلك مصر وسُلطانه[٦٥ب]، وضبطتُ أمورًا وأشياء شتى ما لم أُسبق إليها، وقد أوضحتُ بعض ذلك بهذه "الزُّبدة"، وأتيتُ بالأشياء الغريبة ما لم أُسبق على تنبيهها، ممَّا اقتُبِسَ من السُّنَّة النبوية والكتاب، وقرَّرتهُ العُلماء والعارفون ذوو(١) التجارب والألباب، ممَّن أبلى مُدَّته، وأبذل مُهجته في خدمة المُلوك ومُناصحتهم، وأطنب فيها غاية الإطناب.

---

(١) ث: ذوي.

[فصل]

[في إقامة أدلة بعض ما شُرِط وما ورد فيهِ من الكتاب العزيز بالألفاظ السنية، ثم ما نطقت بهِ السُّنَّة النبوية، ثم ما صرَّحت بهِ العُلماء في وقائعهم العليَّة، ثم ما رسمتهُ الحُكماء في حِكَمِهِم المَرضِيَّة، وما قيل في ذلك من النُّكت المرويَّة على وجه الاختصار بالألفاظ الجَلِيَّة]

[فضل العقل والعدل]

فما أوجبه الله تعالى فمُتضمِّن العقل والعدل، لأنَّ من لم يُطع الله تعالى ليس بعاقل، ومن ظلم ليس بمُطيع. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

وروي عن النبيﷺ أنه قال: {أول ما خَلَقَ الله العقل، فقال له: "أَقبِل"، فأقبَل، ثم قال له: "أدبِر"، فأدبَر، فقال: "وعِزَّتي وجَلالي ما خَلقتُ خلقًا أعزَّ عَلَيَّ مِنْك. بِكَ آخُذ، وبِكَ أُعطِي، وبِكَ أُحاسِب، وبِكَ أعاقِب}.

ويُستدل على عقل الرَّجُل بأمور منها: ميلهِ إلى محاسن الأخلاق، وإعراضهِ عن رذائل الأعمال، ورغبتهِ في إسداء صنائع المعروف، وتجنُّبِه عمَّا يُكسب عارًا ويورث سوء سُمعة.

وقيل لبعض الحُكماء: بِمَ يُعرف عقل الرَّجُل؟ قال: "بقِلَّة سقطهِ في كلامِه، وكثرة إصابتهِ فيه"، فقيل له: "فإن كان غائبًا"، فقال: "بأحد ثلاثة أسباب: إمَّا برسولهِ، وإمَّا بكتابهِ، وإمَّا بهديتِه، فإنَّ رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نُطق لسانه، وهديته عنوان هِمَّتِه".

---

[1] سورة الرعد، الآية ٤.

وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرَّجُل مُداراتهِ للناس، ولا يُستدل على عقل الرَّجُل بُحسن ملبسِه، وملاحة سمتِه، وتسريح لمَّتِه، وكثرة صَلفِه، ونظافة بزَّتِه، إذ كم من كنيفٍ مُبيَّض وجلد[1] مُفضَّض.

قال الأصمعي: رأيتُ بالبصرة شيخًا له منظر حسن، وعليه ثياب فاخرة، وحوله حاشية وهَرج، وعندهُ دخل وخرج، فأردتُ أن أختبر عقله فسلَّمتُ عليه، وقُلْتُ له [٦٦أ]: ما كُنية سيدنا؟ فقال: "أبو عبد الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين". قال الأصمعي: "فضَحِكتُ، وعَلِمْتُ قِلَّة عقلِه، وكثرة جَهلِه"[2].

وقيل: إنَّ كِسْرى كان من عُقلاء الناس، وكان يُقدِّم يونان الوزير على جميع وزرائه وأصحابه، ويُعظِّم أمره، ولا يعتمد مع بقيَّة الوزراء مثل ما يعتمد معه، فقالوا: ما السبب في أنَّ المَلِك يُرجِّح علينا يونان ويُقدِّمَه؟ فقال لهم ما معناه: إنَّ من خَصَّهُ الله بكمال عقلهِ وزيادة معرفتهِ يُقدَّم على نُظرائه وأبناء جنسه، وهذا يونان لمَّا أفضت إليَّ نوبة المُلك تشاغلتُ أيامًا بالصيد، فكتب إليَّ يقول: "يَعلم المَلِك أنَّ خمسة أشياء ضائعة: المطر في الأرض السبخة، والسراج المُشتعِل في ضوء الشمس، والمرأة الحسنة الصورة عند الرَّجُل الأعمى، والطعام الطَّيِّب عند المريض، والرَّجُل العاقل عند من لا يعرف قدره"، فعَلِمْتُ أنه قصد بهذه الحكمة أن يوقظني لتدبير المملكة، فلمَّا دخلتُ من الصيد أحضرتُه، وقُلْتُ له: "صِفْ لي مُلوك الدُّنيا في سيرتهم في رعاياهم لأختار ما أعمل بهِ منها".

فقال لي: "المُلوك ثلاثة: واحد ينتصف لرَعِيَّتهِ من نفسِه، ويتجاوز عنهم، فلا ينتصف منهم لنفسه، فذلك أعلاهم درجة، وأكملهم سيرة، وأقومهم عقلًا، وأدومهم مُلكًا، وأطوعهم رَعِيَّة، وأعمرهم بلادًا، وأملكهم لقلوب رعاياه، وواحد ينتصف منهم له، وينتصف لهم من نفسه، فهو أوسطهم درجة، فإنه عمل بالعدل ولم يصل إلى درجة الفضل، وواحد ينتصف منهم لنفسه، ولا ينتصف لهم، فهو أنزلهم درجة، وأقبحهم سيرة، وأخرب بلادًا، لا تقر قلوب رعاياه من الاضطراب، وألسنتهم من التضرُّع إلى الله تعالى لإزالة مُلكِه وتعجيل هلكه.

---

[1] ث: "وبعد"، والتصويب من المستطرف، ص٥١

[2] الغالب أنَّ المؤلِّف نقل من أول قوله "ويستدل على عقل الرجل" من كتاب المُستطرف في كل فن مُستظرف للأبشيهي(ت:٨٥٢هـ)، ج١، ص٥١-٥٦.

فهذه سيرة المُلوك في رعاياهم، فانظُر أيها المَلِك إلى هذه الثلاثة، واختر لنفسك ما أردت منها، وأنا أعلم أنَّ المَلِك لا يختار لنفسهِ إلا السِّيرة الأولى، لأنَّ نفس المَلِك شريفة، وهِمَّتِه عالية، فهو يرغب في ارتقاء أعلى الدرجات، ويميل إلى اقتناء حميد الذكر وجميل السيرة، ويؤثر عمارة نواحي بلاده وأقطار مملكته، ويُحب ما يُنمِّي به مواد أموالِه وجهات عُمَّالِه [٦٦ب]، ويود أن يتملَّك أحرار القلوب، ويُخلِّد بعدهُ سيرة تُضرب بحُسنها الأمثال".

فلمَّا سَمِعْتُ كلامه عَلِمْتُ أنه رُزِقَ عقلًا وفضلًا، فعملتُ بقوله، واهتديتُ بحُكمه، ولم أجد عند غيرهِ ما وجدتُّه عنده، فلذلك خصصتُه بالتقديم، وأنزلتُه بالمنزلة التي يستحقها".

ومن كلام بعض الحُكماء: "مَن قام من المُلوك بالعدل والحق ملك قلوب رعاياه، ومن قام بالجُور والقهر لم يملُك منهم إلا التصنُّع، وكانت قلوبهم تطلُب من يملكها".

وقال: "لينظر المَلِك في المُنتصح له، فإن دخل من حيثُ العدل والصلاح فأقبل نُصحه واستشره، وإن دخل من حيثُ مضار الناس فاحذرهُ وتحرَّز منه".

وقيل: "زمان الجائر من المُلوك أقصر من زمان العادل، لأنَّ الجائر يُفسِد، والعادل يُصلِح، والإفساد أسرع من الإصلاح".

[الصَّبْر وفضيلته]

وممَّا قيل في مدح الصبر والتثبُّتْ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[1]، وفيها قراءتان "فتثبتوا".

والصبر محمود العاقبة، يُثمر النجح، ويورث المقصود، ويكبت العدو، ويغيظ الحسود، ويُفضي لصاحبهِ بالسيادة، ويكسوه فضيلة الحزم، ويدفع عنه نقيصة الحرمان.

وقيل: "من صبر على ما يكره ولم يجزع، كبت عدوُّه وسَرَّ صديقه".

وقيل: "من صبر على عدوِّه إلى أن تلوح له الفُرصة عليه، أمكن نفسه من الانتقام منه وقطع دابره".

---

[1] سورة الحجرات، الآية ٦.

وقيل: "من استعجل في أمرٍ يُحاوله كان جديرًا إن ناله لا يدوم له، فإنَّ الخلل مُلازم العجل".

وقيل: "يجب على المَلِك أن لا يُعجِّل بالانتقام فيمن سُعِيَ بهِ إليه حتى يكشف عن أغراض السُّعاة، وما حملهُم على السعاية، فرُبَّ عدو يضع زورًا، ويلقيهِ إلى من يوقعه في مسامع المَلِك، ليُسَلِّطَهُ على المكذوب عليه".

وقيل: "الصبر والتثبُّت حسن، وهو في المُلوك أحسن، والسُّرعة والاستعجال في الانتقام قبيح، وهو في المُلوك أقبح، لاسِيَّما إذ كان في أمرٍ لا يُمكن تداركه".

وقيل: "كم مِن صَبرٍ أفضى بصاحبهِ إلى سرور، وكم من استعجالٍ أشرف بصاحبهِ لأمر يؤديهِ إلى ثُبور، وعنوان ذلك أنَّ الصابر يتوقع خيرًا، والمُستعجل يتوقع شرًّا".

وقد مدح الله تعالى الصبر، وأمر بهِ في القرآن العظيم في نيف وسبعين موضعًا [٦٧أ]، ويكفينا من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[(١)]، وأمر بنبيهِ عليه السلام فقال عز من قائل: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾[(٢)].

وقد ورد عن النبي ﷺ في ذلك أخبار كثيرة، منها قوله عليه السلام: {النصر في الصبر}، وقوله عليه السلام: {بالصبر يتوقع الفرج}، وقوله عليه السلام: {الأناةُ من الله، والعجلة من الشيطان}.

ونُقِلَ عن المسيح عيسى عليه السلام أنه قال للحواريين: "لا تدركون ما تُحبون إلا بصبر على ما تكرهون".

وقال الأشعث[(٣)] بن قيس: "دخلتُ على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كَرَّمَ الله وجهه، فوجدتُه قد أثَّر فيهِ صبره على العبادة الشديدة ليلًا ونهارًا، فقلتُ: "يا أمير المؤمنين إلى كم تصبر على مُكابدة هذه الشِّدَّة؟ فقال:

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٣.
(٢) سورة الأحقاف، الآية ٣٥.
(٣) ث: "الأشعب"، وهو الأشعث بن قيس الكندي(ت:٤٠هـ).

أصَبِر على مضض الأدلاج في السَّحَرِ   وفي الرواح على الطاعاتِ في البُكَرِ
إنّي رأيتُ وفي الأيام تجربة   للصبر عاقبة محمودةُ الأثَرِ
وقَلَّ مَن جَدَّ في شيءٍ يؤمِّلَهُ   فاستشعر الصبر إلا فازَ بالظَّفْرِ

ومن كلام إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه في المعنى حيث يقول:

أمَا والذي لا يعلمُ الغيبَ غيرُه   ومَن ليس في كل الأمورِ له كفوُ
لئن كان بدء الصبر مُرّ مذاقه   لقد يُجتني مِن بعدِهِ الثمرُ الحلوُ

ومن كلام الشيخ شمس الدين بن طلحة- صاحب التصانيف- رحمه الله تعالى:

ما أحسنَ الصبر في الدُّنيا وأجملهُ   عند الإلهِ وأنجاهُ من الجزعِ
مَن شَدَّ بالصبرِ كفّا عند مُؤلِمَةٍ   ألوتْ يداهُ بحبلٍ غيرَ مُنقَطِعِ

ومن كلام الشيخ جعفر بن نصير رضي الله عنه في المعنى:

على قدر فضل المرء تأتي خطوبهُ   ويُحمد منه الصبر فيما يُصيبُهُ
فمَن مَرَّ فيما يتقيهِ إصطبارهُ   لقد قَلَّ ممَّا يَرتجيهِ نَصِيبَهُ

[الشُّكر وفضيلته]

وأمَّا ما ورد في الشُّكر قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[2].

ورُوِيَ عن النبيﷺ أنه لمَّا تورَّمت [٦٧ب] قدماه من القيام في الصلاة قيل له: "قد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبكِ وما تأخر". قال: "أفلا أكون عبدًا شكورًا".

ولقد أنصف بعض بني أُمَيَّة حين سُئِلَ بعد زوال مُلكهم وانقضاء دولتهم: ما كان سبب هذا الحادث المُجحِف بكم والبلاء النازل عليكم؟ فقال: "قِلَّة شُكرنا للهِ تعالى على ما أنعم بهِ علينا، واشتغالنا بلذَّاتِنا عن النظر في مصالحنا، وتفويضنا أمرنا[3] إلى من لا دين له ولا أمانة، وظُلم نُوَّابنا لرعايانا[4] لغفلتنا عنهم،

(1) سورة النساء، الآية ١٤٧.
(2) سورة آل عمران، الآية ١٤٥.
(3) العقد الفريد ص٣٦: أمورنا.
(4) ث: "فظلم"، والضبط من الزُّبدة، ص٧٢، والعقد الفريد.

ففسدت[١] علينا النِّيَّات، واختلف علينا الجُند لقِلَّة عطائهم فاستدعاهم أعداؤنا فأجابوهم، وأعانوهم علينا، واستترت علينا الأخبار لقِلَّة الأنصار، فآل أمرنا إلى ما آل".

وجدير بمن شكر أن يشمله المزيد، وبمن رعى الإحسان أن يبلغ فوق ما يُريد، فإنَّ ربَّ العِزَّة- جلَّت قُدرَتُه وتعالت عظمتُه- مع استغنائهِ عن العالمين، لا ينتفع بكثرة شكرهِم، ولا تضرُّه زيادة كفرهِم، قد بذل المزيد لمن شكر، وأوعد العذاب الشديد لمن كفر، فقال سُبحانه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٢].

وممَّا نُقل من الحِكَم[٣]: إنَّ من قابل النِّعمة عليه بكُفرانِهَا، وجازى المُحسن بالإساءة فقد استفتح باب سخط العزيز ذي الانتقام.

وممَّا قيل في المعنى بيتان:

شَكرتكَ عنِّي كلُّ[٤] قافيةٍ ... تختالُ بين المدح والغزلِ
فلقد ملأتَ بما مَنَنْتَ بهِ ... كَفَّ الرجاءِ ونَاظِرَ الأملِ[٥]

والشُّكر يدل على كمال المعرفة وحُسن العمل، وما أحسن قول القائل في المعنى:

أوليتني نعمًا ملكتَ ببعضها ... رِقِّي فراقت مدحتي في شُكرِهَا
فلأشكرنكَ ما حييتُ وإن أمُت ... فلتشكرنكَ أعظَمِي في قبرِهَا

وكما أنَّ شُكر المُنعِم يَستَدِرُّ[٦] للشاكر أخلاف الأزياد، وتبعثُ على إمدادهِ بمعاودة الإسعاف والأرفاد، فكذلك كُفران النعم يُعرِّضها للزوال والنفاد، ويلبس جاحدها لباس سوء السُّمعة بين العِبَاد، ومن خاصية الشُّكر الازدياد، ويحل الانتقام بمن كفر النِّعمة.

---

(١) ث: "فسدت"، والضبط من الزُّبدة، والعقد الفريد.
(٢) سورة إبراهيم، الآية ٧.
(٣) ث: "الحلم"، والضبط من الزُّبدة، والعقد الفريد.
(٤) العقد الفريد: "شكرت نوالك"، وما ورد في المتن موافق لما أورده الصفدي في ترجمة أبي سعد أحمد بن واثق الأنباري. انظر: الوافي بالوفيات، ج٨، ص٢٢٩.
(٥) الوافي: فلقد ملأت بكل عارفة .. وجه الرجاء وناظر الأمل.
(٦) ث: "تستدر"، والضبط من العقد الفريد.

وفي قضية مَكَّة شرح طويل من مُلخَّصِه: لمَّا أفاض الله على أهلها سوابغ نعمهِ فكفروها، فحوَّلها الله عليهم نقمة، وضرب بهم المثل، فقال تعالى:[٦٨أ] ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[١].

ومن كلام الحُكماء: أشكُر لمن أنعَم عليك، وأنعِم على من شكرك، فإنه لا زوال للنِّعمة إذا شُكِرَتْ، ولا بقاء لها إذا كُفِرَتْ، وأيضًا: "من خَطَبَ النِّعمة بالشُّكر نكحها بالدوام".

حُكِيَ أنَّ فرعون لمَّا كان في مُبتدأ أمرهِ قبل إدعائهِ بالألوهية جاء إليه جبريلعليه السلام في صفة إنسان يستفتيهِ في عبد خَوَّلَهُ سَيِّدَهُ في نعمةٍ فكفرها وشاققه فما جزاؤه؟ فكتب له بخطِّه، وكان يدَّعي العدل والمعرفة: "جزاؤه أن يغرق"، فلمَّا آل أمره إلى ما آل، وأمر الله بغرقهِ أتاهُ جبريل، وناوله الورقة فعرف انحقَّ[٢] على نفسه.

وقال صاحب المقامات رحمة الله عليه[٣]:

سِمْ سِمَةً تَحسُنُ آثارُها   واشكُر لمن أعطى ولو سِمْسِمَهْ

والمكر مهما اسطَعْتَ لا تأتهِ   لتقتني السؤددَ والمكرمهْ

وقيل: "النِّعَم رزق يُدِيمَهُ الشُّكر، والشُّكر موهبة يهدي إليها العقل، والعقل فطنة يوقظها التوفيق، والتوفيق عناية ربانية يمنحها الله من يشاء من خلقِه، فمن زال توفيقُه رقدَ عقلُه، ومن رقدَ عقلُه فُقِدَتْ موهبتُه، ومن فُقِدَتْ موهبتُه قلَّ شُكرُه، ومن قلَّ شُكرُه حُرِمَ رزقُه".

وقُلْتُ: "من خاصية الشاكر: راحة البدن، ونيل الأمل، ورضى المُنعِم، ومن مَذَمَّة كُفران النعمة: الاستقلال في أعيُن الناس، وسُخط مُسديها إليه".

إذا شكرتَ لنعماءِ الإلهِ فقد   أرضيته ولئن أنكرتها[٤] سَخِطَا

---

[١] سورة النحل، الآية ١١٢.

[٢] كذا في ث، ولعلها اختصار: "أنَّ الحق".

[٣] ذكرها الحريري في المقامة الحلبية. انظر: المقامات، ص٤٠٦-٤٠٧.

[٤] هامش ث: "كفرتها" أصح".

[المشورة وفضيلتها]

وأمَّا ما ورد في المشورة: قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[2].

وقال النبيﷺ: {ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار}، وقالﷺ: {ما شقى عبد بمشورة، ولا سعد بالاستغناء برأيه}.

وفي التوراة: {من لم يستشر في أمرهِ يندم}.

وقال أبو هريرة: "ما رأيتُ أحدًا أكثر استشارة لأصحابهِ من رسول الله ﷺ".

وسُئِلَ: ما بال العاقل ذي اللُّبِّ مشورتُه على نفسهِ يُقصِّر بهِ عن إصابة الصواب وإدراك [٦٨ب] المطلوب، ومشورة غيرهِ له تُظفِره بذلك؟ فقال: "إنَّ مشورة الإنسان نفسهِ ممزوجة بالهوى، ومشورة غيرهِ سالمة من ذلك، ولا إصابة[3] مع الهوى".

وقيل: "سبعة لا ينبغي لذي لُبٍّ أن يُشاورهم: "جاهل، وعدو، وحسود، ومُرائي، وجبان، وبخيل، وذو هوى"، فإنَّ الجاهل يُضل، والعدو يُريد الهلاك، والحسود يتمنى زوال النِّعمة، والمُرائي واقف مع رضى الناس، والجبان من رأيهِ الهرب، والبخيل حريص على "جميع" كما كانت المال فلا رأي له في غيره، وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مُخالفته".

ومن بَرَكة الاستشارة ما حُكِيَ أنَّ الخليفة المنصور كان قد صدر من عَمِّهِ عبد الله بن علي بن عبد الله بن عبَّاس أمور مؤلمة لا يحتملها حراسة الخلافة، ولا يتجاوز[4] عنها سياسة المُلك، فحبسهُ عنده، ثم بلغه عن ابن عَمِّهِ عيسى بن موسى بن علي- وكان واليًا على الكوفة- ما أفسد عقيدته منه، وأوحشه منه، وصرف وجه ميلهِ عنه، فتألَّم المنصور من ذلك، وساء ظنّه وتأرَّق جفنه، وقلَّ أمنه، وترادف خَوفه وحُزنه.

---

[1] سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
[2] سورة الشورى، الآية ٣٨.
[3] ث: "الاطنابة"، والضبط من الزُّبدة، ص٧٣؛ العقد الفريد، ص٤٣.
[4] ث: "تجاوز"، والضبط من العقد الفريد، ص٤٦.

وقيل: من جاءته الإساءة من جانب توقُّع الإسعاف كان ألمه أشد، ونكاية قرحه أعظم، ومن خامر قلبه استشعار زوال مُلكه، وتوهمه تطلُّع القلوب إلى تدمير دياره ومُلكِه كان جديرًا بهِ مُجانبة الرُّقاد، ومُخالفة السُّهاد، ومُجافاة جِفْنهِ المهاد، وإعمال فكرهِ وتخيُّله في إصلاح ما عرا أمرهِ من الفساد".

فأدت فكرة المنصور إلى أمر دبَّره، وفكرٍ كتمه عن جميع حاشيتهِ وسيَّره، واستحضر ابن عَمِّهِ عيسى بن موسى، وأجراهُ على عادة إكرامه، وأخرج مَن كان بحضرته، ثم قال له ما معناه: "يا بن عمّ إنِّي مُطلعك على أمرٍ لا أجد غيرك من أهلِه، ولا أرى سواك مُساعدًا لي على حمل ثُقلِه، فهل أنت في موضع ظنِّي بك وعلى ما فيه من بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء مُلكي؟

فقال له عيسى: "أنا عبد أمير المؤمنين، ونفسي طوع أمرهِ ونهيه"، فقال: إنَّ عَمِّي وعَمَّكَ عبد الله قد فسدت بطانته، واعتمد ما في بعضهِ ما يُبيح دمه، وفي قتلهِ صلاح مُلكنا، فخذهُ إليك واقتله [٦٩أ] سِرًّا".

ثم سَلَّمَهُ إليه، وعزم المنصور على الحج، مُضمِرًا أنَّ ابن عَمِّه عيسى إذا قتل عمّه عبد الله ألزمه القصاص، وسَلَّمَه إلى أعمامهِ أخوة عبد الله ليقيدوه به، ويقتلوه قصاصًا، فيكون قد استراح من الاثنين: عبد الله، وعيسى.

قال عيسى: فلمَّا أخذتُ عمِّي فكَّرتُ في قَتلِهِ، ورأيتُ من الرأي أن أُشاور في[1] قضيته من له رأي أُصيب الصواب، فأحضرتُ يونس بن أبي فروة الكاتب، وكان لي حُسن ظنٍّ في رأيه، وعقيدة صالحة في معرفته، فآنستُه، وقلتُ له: "إنَّ أمير المؤمنين أمرني بقتل عَمِّهِ وإخفاء أمره، فما رأيك في ذلك؟ وما تُشير به؟

فقال يونس: "أيها الأمير احفظ نفسك بحفظ عمّك وعمّ أمير المؤمنين، فإنِّي أرى لك أن تُدخله إلى مكان داخل دارك، وتكتُم أمره عن كل من عندك، وتتولَّى بنفسك حمل طعامهِ وشرابِه إليه، وتجعل دُونه مغالق وأبوابًا، وتجعل بين كل مَن هو من بطانتك وبين معرفة هذا الحال حِجَابًا، وأَظهِر لأمير المؤمنين أنك قد أنفذتَ أمره، وانتهيتَ إلى العمل بطاعته، فكأنِّي بهِ إذا تحقَّق أنك فعلتَ ما

---

[1] ث: "من"، والضبط من الزُّبدة ص٧٤، والعقد الفريد ص٤٧.

أمركَ به، وقتلت عَمَّه أمركَ بإحضارهِ على رؤوس الأشهاد، فإنْ اعترفتَ أنك قتلته بأمرِه أنكر[1] أمرهُ لك، وأخذكَ بقتلهِ وقتلكَ به".

قال عيسى: فقَبِلْتُ مشورة يونس، وعَمِلْتُ بها، وأخليتُ لعمِّي خزانة في داخل داري، وأفردتُ له موضعًا، وتركت عندهُ ما يأكُله ويشربه أيامًا، وغَلَّقْتُ عليه أبوابًا وأقفالًا، وجعلتُ مفاتيحها معي، وأظهرتُ لأمير المؤمنين أنني أنفذتُ أمره، ثم حَجَّ المنصور.

فلمَّا قَدِمَ من الحج سألني سِرًّا عن عبد الله: ما فعلتَ في أمرِه؟ فقلتُ: "قد أراح الله أمير المؤمنين منه"، فلمَّا استقر في نفسهِ أنني قتلتُه دسَّ إلى عمومتهِ أخوة عبد الله، وحثَّهُم أن يسألوه في عبد الله ويستوهبوه منه، فأطمعهم في ذلك، فجاؤوا إليه وقد جلس والناس بين يديه على مراتبهم، فسألوه في عبد الله، فقال: "نعم حقوقكم تقتضي إمعانكم بحاجتكم. كيف وفيها صِلَة الرَّحِم وإحسان إلى من هو في مقام الوالد".

ثم أمر بإحضار عيسى بن موسى فحضر لوقتِه، فقال: "يا عيسى كُنْتُ دفعتُ إليك قبل خروجي إلى الحجِّ عبد الله عمِّي وعَمَّك ليكون عندكَ في منزلك [٦٩ب] إلى حين رجوعي"، فقال عيسى: "قد فعلتُ يا أمير المؤمنين"، فقال المنصور: "قد سألني فيه عُمومتك، وقد رأيتُ الصفح عنه، وقضاء حاجتهم، وصِلَة الرَّحِم بإجابة سؤالهم فيه، فأتنا به".

قال عيسى: فقُلْتُ: "يا أمير المؤمنين ألم[2] تأمرني بقتلهِ والمُبادرة إلى ذلك؟

فقال المنصور: "كذبت. ما أمرتك بذلك، ولو أردتُ قتله لسَلَّمْتُه إلى من هو بصدد ذلك".

ثم أظهر القهر، وقال لعمومتِه: "قد أمر بقتل أخيكُم مُدَّعيًا أنِّي أمرتُه بقتلِه، وقد كذب عَلَيَّ".

قالوا: "يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتُله ونقتص منه"، فقال: "شأنكُم به".

---

(١) ث: "وانكر"، والضبط من الزُّبدة، والعقد الفريد.

(٢) ث: "أما"، والزُّبدة: "أليس أمرتني"، والضبط من العقد الفريد ص٤٨.

قال عيسى: فأخرجوني إلى الرَّحبة، واجتمع الناس، فقام أحد عُمومتي، وسلَّ سيفهُ ليضربني، فقُلْتُ لـه: يـا عـمّ أفاعلٌ أنـت؟ فقـال: "إي والله، وكيـف لا أقتلك وقد قتلتَ أخي".

فقُلْتُ لهم: "لا تُعجِّلوا. رُدُّوني إلى أمير المؤمنين"، فرُدِدْتُ إليه، فقُلْتُ: "يا أمير المؤمنين إنما أردتَ قتلي بقتله، والذي دبَّرته عَلَيَّ عصمني الله من فعله. هذا عمَّك باقٍ حي سوى، وإن أمرتني بدفعهِ إليهم دفعتُه إليهم".

فأطرق المنصور، وعَلِمَ أنَّ ريح فكره صادفت[1] إعصارًا، وأنَّ انفرادهِ بتدبيره قارن خاسرًا.

وقيل: "من اتبع هواه، وشرع فيما يهواه، وقطع نظرهُ عن عواقب ما أتاه، واقتنع برأيهِ عن مُشاورة من سواه كان إخفاق مسعاه أقرب إليهِ من إدراك ما أمله ورجاه".

فقال المنصور لعيسى: "آتنا به"، فمضى عيسى فأحضر عبد الله، فلمَّا رآهُ المنصور قال لعمومتِه: "اتركوهُ عندي، وانصرفوا حتى أرى فيه رأيًا".

قال عيسى: فتركتُه وانصرفت، وقد سَلِمَتْ روحي وزالت كُربتي، وكان ذلك ببَرَكة استشارة يونس، وقبول قوله، والعمل بمشورتِه.

ثم إنَّ المنصور أسكن عبد الله في بيت أساسه ملح، ثم أرسل الماء حوله ليلًا، فذاب الملح وسقط البيت، ومات عبد الله، ودُفِنَ في مقابر باب الشام، وسَلِمَ عيسى من هذه المكيدة، ومن سهام مراميها البعيدة.

وقد وضح من غضون هذه القضية وأرجائها أنَّ ترك الخليفة استعانته بأنوار الأفكار[2] وآرائها قطع عنه مواد مُرادِه، وأضعف قوى[٧٠أ] قصده وإعضاده، فلم تظفر نفسه المُتألِّمة بشفائها، وأزال عنها ما خامرها من أدوائها[3] بما اعتمدهُ من طُرُق دوائها، وأنَّ استسقاء[4] عيسى بماء المشورة واستنزالها بين سحاب سمائها واستضائته بنور مشكاتها في دُجى الحيرة وظلمائها أروى صداه وأهدى

(١) ث: "فكر صادف"، والضبط من الزُّبدة، والعقد الفريد.
(٢) ث: "أفكار"، والضبط من العقد الفريد.
(٣) ث: "مواد مُرادِه في وقت نوى قصده واعضاده، فلم يطفر نفسه المُتأملة بشفائها، وأزال عنها ما خامرها من أدوابها"، والضبط من العقد الفريد.
(٤) ث: "استسقى"، والضبط من العقد الفريد.

إليه هُداهُ، فجرت الأقدار بسلامة نفسهِ وبقائها، وقلَّما رَغِبَ في المشورة وعمل بها إلا من غنم، ولا زهد فيها وأعرض عن قبولها إلا من ندم.

وقيل[1]: [الطويل]

تمسَّك بأهداب المشورة واستَعِن بحزمِ نصيحٍ أو فصاحةِ حازمِ
ولا تجعل الشورى عليكَ غضاضة فريشُ الخوافي قوةً للقوادمِ

قيل لرجل من بني عَبْس: ما أكثر صوابكم في مُباشرة ما تأتونَه ومُجانبة ما تعرضون عنه؟ فقال: "نحنُ اِلفُ رجُلٍ حازم، ذو رأي ومعرفة، فنحنُ نشاورهُ في الجليل والحقير من الأمر ونعمل برأيهِ، فكأننا إذا صدرنا عن رأيهِ ومعرفتِه في ألف حازم، وجدير بألف حازم أن يُصيبوا، وقيل في المعنى:

إذا ما عرا خطبٌ ورُمتَ وروده فشاور فكم نجحٍ هدته المُشاورة
وأنفَع من شاورتَ من كان ناصحًا شفيقًا فأبصِر بعدهُ مَن تُشاوره

وقيل: "مِن فضل المُشاورة إنها تكشف لك طِبَاع الرَّجُل، فمتى طلبتَ اختبار رجُل فشاورهُ في أمرٍ من الأمور يظهر لك من رأيهِ فكرة عدلهِ وجُورهِ، وخيرهِ وشَرِّه".

وقيل: "آفة الاستشارة إذا لم يُعمل بها الندم، وآفة من لم يستشر التكبُّر".

وقُلْتُ: "ولا بأس للمُستشير إذا استشار فأشير عليهِ بمشورة، ورأى ما هو أصوب منها بدليل فيفعل الأصوب:

ولأستشيرُ مِن الأصحابِ كل فتى جرَّبتُهُ في جميع القول والعمل
وأقتدي بالذي قد صَحَّ مِن خبرٍ لعلَّ أسلَم مِن هَفوي ومن ذَللِ

[العدل والإنصاف وفضيلتهما]

وأمَّا ما جاء في العدل والإنصاف. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

---

(1) من بحر الطويل.
(2) سورة النحل، الآية ٩٠.

قال قتادة: "إنَّ الله تعالى [٧٠ب] أمر عبادهُ في هذه الآية بمكارم الأخلاق ومعاليها، ونهاهُم عن سفسافها[١] ومذامِّها".

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: {عدل السُّلطان يومًا يعدل عند الله تعالى عبادة سبعين سنة}، وقال ﷺ: {أحب الناس إلى الله وأقربهم السُّلطان العادل، وأبغضهم إلى الله وأبعدهم السُّلطان الجائر}.

ورُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: {والذي نفس مُحمدٍ بيده ليُرفع عمل السُّلطان العادل إلى الله مثل عمل جُملة الرَّعِيَّة}، وقال ﷺ: {حَدٌّ يُقام في الأرض خيرٌ من أن تُمطَر أربعين صباحًا}.

ورُوِيَ أنه ﷺ قال: {ما من عبدٍ ولَّاهُ الله أمر رعيته فغشَّهُم، ولم ينصح لهُم، ولم يُشفق عليهم إلا حَرَّمَ الله عليه الجَنَّة}، وقال ﷺ: {رجُلان من أُمتي يُحرمان شفاعتي: مَلِكٌ ظالم، ومُبتدع غالٍ يتعدَّى الحُدود}.

وقيل: المُلك يدوم مع العدل وإن كان صاحبه كافرًا، ولا يدوم مع الظُّلم وإن كان صاحبه مؤمنًا".

وقيل: "من سعادة المَلِك مَحبتهِ للعدل، ومن علامة مَحبتهِ للعدل مُخالطته لأهل العلم ذوي الدين، ورغبته في مُحادثتهم ومُحاورتهم ليُذكِّروه بما يجب عليه من العدل، الذي بهِ سعادته في الآخرة، ودوام مُلكه في الدُّنيا، وحُسن سمعته في العَالَم، وميل القلوب إليه، وجريان الألسُن بالدُّعاء له.

قيل: إنَّ قيصر مَلِك الرُّوم سيَّر رسولًا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليُشاهد أحواله، ويكشف أفعاله، ويسمع أقواله، فلمَّا وصل الرسول المدينة قال لأهلها: "أين ملككم؟ قالوا: "ليس لنا مَلِك، وإنما لنا أمير قد خرج إلى ظهر المدينة"، فخرج الرسول في طلبهِ، فرآهُ نائمًا في الشمس على الأرض فوق الرمل، وقد وضع دِرَّته كالمِخَدَّة له، والعرق يجري من جبينه، فلمَّا رآهُ الرسول على هذه الهيئة وقع الخشوع في قلبه، وقال: "رجُل يكون جميع مُلوك الأرض لا يقر لهُم قرار هيبةً له ويكون هذا حالُه، ولكنك يا عمر عدلت فآمنت ونمت، ومَلِكنَا[٧١أ] يجور فلا جَرم لا يزال خائفًا ساهرًا. أشهدُ أنَّ دينكَ دين الحق، ولولا أنني رسول لأسلمت، ولكنني سأعود وأُسْلِم".

---

[١] العقد الفريد: سفساف الأخلاق.

حُكِيَ أنَّ يهوديًا وقف لعبد المَلِك بن مروان، فقال: "يا أمير المؤمنين إنَّ ابن هُرْمُز نائبك قد ظلمني فأنصفني منه، وأَذِقْني حلاوة العدل"، فلم تُقض حاجته، ثم عاد فوقف له مرَّة ثانية، ثم عاد فوقف له مرَّة ثالثة فلم يلتفت إليه، فقال اليهودي: "يا أمير المؤمنين إنَّا نجد في التوراة المُنزَّلة على موسى كليمُ الله أنَّ الإمام لا يكون شريكًا في ظُلم أحد ولا جوره حتى يُرفع إليه، فإذا رُفِعَ إليه ولم يُغيِّر شركه في الظُّلم والجُور"، فلمَّا سَمِعَ عبد المَلِك قوله فزع منه، وأنفذ في الحال إلى هُرْمُز فعزله، وأخذ حقّ اليهودي منه ودفعه إليه.

ورُوِيَ أنَّ رسول اللهﷺ قال: {إنَّ الله لا يُقدِّس أُمَّة لا يؤخذ الحق لضعيفها من قويِّها}.

ورُوِيَ أنَّ عمر بن الخطابﷺكان قاعدًا إذ جاءهُ رجُل من أهل مصر، فقال: "يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك"، فقال عمر: اقعد عُذتَ بمُجيب، فما شأنك؟

قال: سابقتُ على فرسي ابنًا لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر، فجعل يقنعني[1] بسوطه ويقول: "أنا ابن الأكرمين"، وبلغ ذلك عمرو أباه فخشي أن آتيك، فحبسني في السجن فانفلتُ منه، فهذا حين أتيتك".

فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: "إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان"، وقال للمصري: "أقم حتى يأتيك"، فقَدِمَ عمرو فشهد الحَجّ، فلمَّا قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصري، فرمى إليه عمرﷺ بالدِّرَّة.

قال أنس: "ولقد ضربهُ ونحنُ نشتهي أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه"، وعمر يقول: "اضرب ابن الأكرمين". قال: "يا أمير المؤمنين قد استوفيتُ واستشفيت". قال: "ضعها على صلعة عمرو". قال: "يا أمير المؤمنين قد ضربتُ الذي ضربني".

قال: "أما والله لو فعلت لما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تنزع"، ثم قال: "يا عمرو متى تعبدتُّم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"، فجعل عمرو يعتذر ويقول: "إنِّي لم أشعر بهذا يا أمير المؤمنين".

---

[1] ث: "يقنعني"، والضبط من الزُّبدة، ص٧٧؛ والعقد الفريد، ص٥٨.

وممَّا نُقل [٧١ب] في الآثار الإسرائيلية في زمان موسى عليه السلام أنَّ رجُلًا من ضُعفاء بني إسرائيل كانت له عائلة، وكان يصطاد السمك ويبيعه، ويقوت منه أطفاله وزوجته، فخرج يومًا للصيد، فوقع في شبكته سمكة كبيرة ففرح بها، فأخذها ومضى إلى السُّوق، ليبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله، فلقيه بعض العوانية، فرأى السمكة فأخذها منه، فمنعه الصياد فرفع خشبة كانت معه فضرب بها رأس الصيَّاد ضربة موجعة، وأخذ السمَكَّة منه غصبًا بلا ثمن فدعا[1] الصَّيَّاد عليه، فقال: "إلهي خلقتني ضعيفًا وجعلته قويًّا عنيفًا، فخُذ لي بحقِّي منه عاجلًا، فقد ظلمني، ولا صبر لي إلى الآخرة".

ثم إنَّ ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزلِه، وسلَّمها إلى زوجتِه، وأمرها أن تشويها، فلمَّا شوتها ووضعتها على المائدة ليأكل منها فتحت السمكة فاها ونكزت إصبعه نكزة أطارت قراره، فقام وشكا[2] إلى الطبيب يده، فقال: "إن لم تقطع الإصبع وإلا يسري الألم إلى الكف"، ففعل، وسرى إلى اليد فقطعها، ثم سرى إلى الزند فقُطِعَتْ، ثم إلى المرفق فقطع من الكتف، فصاح من الألم، فرأى في منامه: "إن لم يُحَالِلكَ الصَّيَّاد وإلا ما يسكن عنك الألم"، فقام وسأل عن الصَّيَّاد، وأرضاهُ إلى أن حالله، فتداركه الله بلُطفه، وردَّ يدهُ إليه.

وممَّا حُكِيَ أنَّ سُليمان بن أبي جعفر كان يُلازم المنصور، وكانوا بني هاشم أيضًا من جُلسائه، فذكروا عبد الله بن مروان[3]، وكانت له قضية عجيبة مع مَلِك النُّوبة مُطوَّلة، فمن مُلخصها أنَّ عبد الله عَمّ المنصور لمَّا قصدهُ واستملك أرضه فرَّ هاربًا إلى بلاد النُّوبة، واجتمع بمَلِكِهَا فعزَّره، وقال له: "لِمَ كُنتم إذا خرجتُم إلى الصيد تهجمون على القُرى، وتكلِّفون أهلها ما لا طاقة لهُم به، ومع ذلك لا بُدَّ لهُم من الإهانة، وأيضًا المشي في زرعهِم وإفساده لاصطياد طير لا قيمة له، وكُنْتُم تُراعون الأقوياء، وتُضيِّعون حقّ الضُّعفاء، وارتكبتُم المُحرَّمات، وأحببتُم المظالم، وقدَّمتُم السُّفهاء على الشُّرفاء، ولم تقوموا بالعدل، فسلبكم الله العِزّ، وألبسكم الذُّل، وأخرجكم من دياركم، وحوَّل نِعَمَهُ[٧٢أ] عنكم، ولله فيكم نعمة لم تبلغ بعد غايتها، وإنِّي أخافُ أن تنزل بِكَ النِّقمة فتشملني معك،

---

[1] ث: "دعى"، والضبط من العقد الفريد.

[2] ث: "شكى"، والضبط من العقد الفريد.

[3] بن محمد بن مروان بن الحكم، والد مروان آخر خلفاء بني أمية، والمقتول بمصر سنة١٣٢هـ.

فإنَّ النقمة إذا نزلت عمَّت، وإذا حلَّت شَملت، فأخرج من أرضي، فإنْ وجدتُك بعد ثلاثة أيام قتلتُك".

وقيل: إنَّ فيروز بن يزدجر بن بهرام جور كان مَلِكًا عادلًا، وكان يوصي عُمَّاله، فيقول: "سوسوا الناس بالمعدلة، واحملوهم على النَّصَفَة، واحذروا أن تُلبسونا جلودهم، وأن تُطعمونا لحومهم، وأن تسقونا دماءهم".

وما أحسن ما قيل في المعنى: "من استمسك بحبل حُب العدل ومال إليه سَهَّلَ الله سُبحانه سلوك سَنَنِه وسُنَنِه عليه، وأوضح بدليل التوفيق والهداية منهاجه لديه، وجعل له من عدلِهِ يوم القيامة نورًا يسعى بين يديه، وأكنفته عناية ربَّانِيَّة تُسدِّده في أحكامه وتُبصِّره بمرامي العدل لإصابة سهامِه، حتى يبلُغ بهِ إلى أن يرى الوقائع في منامِه، ويؤمر بإقامة شريعة العدل والإنصاف في أحلامِه، كما كان يتفق للخليفة المُعتمِد على الله أبي العباس أحمد بن المُتوكِّل، فإنه كان يُحب الارتداء بجلباب الإنصاف، ويأخذ نفسه بنشر شعار العدل في الجهات والأطراف، فاطلع الله تعالى منه على صفاء سريرته، وصدق ميله إلى المعدلة في ولايته، حتى إنه كان يُفرِّق بين الظالم والمظلوم في منامِه، ثم يثبت ذلك فيجريه بأحكامِه.

وممَّا قَرَّرَتْهُ الفُضلاء أن يُكتب في العهود والتقاليد "العدل طراز الدول، وخير سير المُلوك الأُول".

[فضل الاتفاق والائتلاف وذم الشِّقاق]

أمَّا ما ورد في الاتفاق والائتلاف وذم الشِّقاق والخلاف قوله تعالى مُخاطبًا نَبيَّه المُصطفى من الدرجة الهاشمية: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(٣)، والحبل والمُعتصَم بهِ هو القرآن الكريم [٧٢ب].

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٢- ٦٣.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٤٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

وقيل: ما مِن قوم وإن قَلَّ عددهم وضَعُفَ مددهم فارتضعوا رحيق أفاويق الاتفاق، ونزعوا مخاريق شقائق الشِّقاق، وقطعوا مواد أخلاف الاختلاف، وأشربوا في قلوبهم محبَّةَ إلف الائتلاف، وقابلوا بعددهم القليل قومًا كثيرين قد فشى بينهم الخلاف وعمَّهُم التنازع إلا أظهرهُم الله تعالى مع قِلَّتِهِمْ، ومَكَّنَهُم منهُم وإن كانوا أكثر عددًا وأشدَّ قوة ومددًا.

وفي قضية الخليفة الراشد بالله أبي جعفر المنصور بن المُسترشِد لمَّا قُتِلَ وهو في معسكر السُّلطان مسعود، وأراد الراشد وقد بويع له بالخلافة وهو ببغداد أن يأخذ ثأر أبيه ويقصد السُّلطان مسعود، فأخذ في جمع[1] العساكر وحشر الجنود، فأرسل الحاشرين واستدعى القادرين، وسيَّر فأحضر زنكي بن آق سُنقر من الشام، وداوود بن محمد من أذربيجان، وبوزلة[2] من بلاد فارس، فمالت العساكر إليه، واجتمعت الجيوش عليه، وتكمَّل ما يزيد على ثلاثين ألف فارس بين يديه.

فلمَّا عرف السُّلطان مسعود ذلك ولم يكن معه سوى سبعة آلف فارس، فسيَّر في الباطن أشخاصًا يثق بمعرفتهم ويعتمد على حسن توصلهم، فدخلوا بين عساكر الراشد ومُقدَّميهم وقدحوا بينهم زناد الخلف فورى، وأوقدوا بينهم نار التنازع فدب إحراقها وسرى،وشحذوا أسياف[3] الاختلاف والتبائن حتى قطع عُرى الائتلاف وبرى.

فلمَّا أحسَّ السُّلطان مسعود تبلُّج وجه سعيهِ المُسفر من أساريره، وتأرج ريَا[4] إصابة صُنعِه بنفحات إنتاج تدبيره، وتبرَّج مُخدّرات رأيهِ الصائب في حُلل الملابس المُوشَّاة[5] بتحسيره، وأماط عن مُحيًّا حزمهِ مُنسدل نقابِه، وماط بصائب عزمهِ نهج صوابِه، واستعذب في نيل مرامه وطلابه من مشاق[6] أوصابه مستكره صابه، واستصحب في أعوانه وأنصاره اتفاق أصحابه،

---

(1) ث: جميع"، والضبط من العقد الفريد، ص٦٩.

(2) ث: "من أذربابجان بوزله"، والعقد الفريد: "من أذربيجان بورله"، وسيذكر المؤلِّف بعد قليل بأنه "بوزله".

(3) ث: وسجدوا شيئا من"، والضبط من العقد الفريد.

(4) العقد الفريد: ربا.

(5) "ث: "المواساه"، والضبط من العقد الفريد.

(6) "ث: "مساق"، والضبط من العقد الفريد.

فأركبهم وقد ضرب الليل سُرادق ظلمائهِ مُمتد أطنابِه، ورتبهم ترتيب من قضت له التجربة من الاستيقاظ بتكميل نصابِه، وعرَّفتهُ الوقائع والحروب كيفية ترتيب أطلابِه.

وساق وقد جُمِعَتْ [٧٣أ] قلوب جُندِهِ في سلك المُسارعة المُتسق نظامها، والمُتابعة المُتفق بيد الألفة التئامها، والطاعة المُفوَّقة لإصابة الأغراض سهامها، والضراعة إليهِ في اقتدارهم إلى نفوس أعدائهِ فقد استعجلهم حِمَامها، فأجاب بسرعتهِ داعي البدار وأصاب بمبادرتهِ مواقع الأقدار، وصاب بذلك سحاب صوابهِ الدرَّار، واستجاب له كمين الانتصار وضمين الاستظهار، وساق سوقًا حثيثًا، واتخذ من اتحاد كلمة جُندِهِ واتفاقهم بعد توفيق الله سُبحانه وتعالى مُعينًا ومُغيثًا.

فمُذ قرب من ذلك الجمع الجمّ، والعسكر الذي عمَّ وطمّ، اضطربوا اضطراب أمواج اليمّ، وأُشربوا الخوف ولكن لا ينزل عليهم أمَنَة بعد الغمّ، فأظهر الاختلاف، وأكثر الانحراف، واستبصر الانصراف، فولَّى زنكي بن آق سُنقر طالبًا طريق الشام مُسرعًا في ذهابِه، واقتفاهُ داوود بن محمد راكبًا طريق أذربيجان موضعًا فرّه خيله وسبق ركابه، واتبعهما بوزله، سالكًا سُنن السلامة إلى بلاد فارس في زُمرتهِ وأصحابه، ولم يبق عند الخليفة الراشد سِوَى ثلاثة آلاف من خواص حَضرتهِ وخدم سُدَّتِه، فبقي بعد هؤلاء المُتفرِّقين أشتاتًا، المُتمزِّقين بيد المُخالفة رفاقًا، المعدودين في حبال حتوفهم[1] لاختلافهم أمواتًا، الشاربين من الملام لفشلهم مع كثرتهم ماءً أُجاجًا لا فُراتًا، وبات تلك الليلة راكبًا مطايا حيرة اعترته لتفرُّق الأنصار، طالبًا وطاء قدرة يخمد بها ضرام هذه النار، فلم نجد له أحزم من مُجانبة المقام والاستقرار، ولا أسلم من الاقتداء لتنازعهم بموسى- صلوات الله عليه وسلامه- فيما اعتمده عند المخافة من الخروج والفرار.

فلم يثبت سِوىَ ليلة واحدة بعد الجمع المُفرَّق والجُند المُمزَّق، ثم رحل مُتوجِّهًا إلى الموصل، فركب متن طريقها، ودخل السُّلطان مسعود بغداد، واستحوذ على البلاد، وأجرى الناس على الرُّسُم المُعتادة، وخلع الراشد نفسه من الخلافة خلعًا

---

[1] "ث: "حال حتوتهم"، والضبط من العقد الفريد.

سلك طريقه، وسدَّد إليهِ تفويقه، وأخرج أبا عبد الله محمد بن المُستظهر بالله أمير المؤمنين، وبايعه بالخلافة، وجمع الناس لبيعتِه، وشدّ وسطه بنطاق إخلاص عبوديته [٧٣ب]، وقام بين يديهِ بمُفترض طاعته وواجب خدمته، ولازم نُصرتِه، وهو المُقتفي لأمر الله أمير المؤمنين والد الإمام المُستنجد بأمر الله أمير المؤمنين والد الإمام المُستضئ بأمر الله أمير المؤمنين والد الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين والد الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين والد الإمام المُستنصر بالله أمير المؤمنين والد الإمام المُستعصم بالله أمير المؤمنين.

وآل أمر الراشد إلى قضايا لا يجري شرحها في مضمار مقصود هذا الكتاب، ولا حاجة إلى استيفائها واستقصائها مخافة الإطالة والإطناب، كان آخرها أنه قُتِلَ بأصفهان، بعد تفاجُئه بيد الأقدار في أطوار الزمان.

وفي ظهور سبعة آلاف مُتفقين على ثلاثين ألف مُختلفين أقوى دليل على أنَّ الاتفاق ناصر لا يُخذل، والاختلاف خاذل لا يُنصر، وأنَّ طالب الموافقة أبدًا لا يُعذل، وطالب المُخالفة أبدًا لا يُعذر.

وقيل: كم من قوم عزُّوا باتفاقهم فلم يُطمع فيهم، فلمَّا اختلفوا سُلِبَ عِزَّهم ووهى[١] رُكنهم، وكَلَّ حدَّهم، وذاقوا وبال أمرهم".

وقيل: "الاتفاق للأيادي سلاح عتيد، وعون حاضر، وقوة تصول بها النفوس على المُخالف لها".

وقيل: "عليكم بالاتفاق والتعاضُد، فإنَّ العِزَّ والانتصاف مع الاتحاد[٢] والاجتماع، واجتنبوا الاختلاف والتبايُن، فإنَّ الذُّل والخُذلان في التنازع والافتراق".

[مدح الوفاء وذم الغدر]

وأمَّا ما ورد في مدح الوفاء وذم الغدر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ

---

[١] "ث: "ووها"، والضبط من العقد الفريد، ص٧٧.
[٢] ث: "الاتخاذ"، والضبط من العقد الفريد.
[٣] سورة المائدة، الآية ١.
[٤] سورة الأنعام، الآية ١٥٢.

اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[3].

وقوله عليه السلام لمَّا سُئِلَ عن صفات المُنافِق: {وإذا وعد غدر}.

ومن أعجب الوقائع وغرائب البدائع قضية الطائي وشَريك نديم النُّعمان بن المُنْذِر، وتلخيصها أنَّ النُّعمان كان قد جعل له يومين: يوم بؤس، مَن صادفه [٧٤أ] فيه قتله وأرداه[4]، ويوم نعيم، مَن لقيه فيه أحسن إليه وأغناه.

وكان هذا الطائي قد رماهُ الدَّهر بسهام فاقته وفقره، وأدناه وقرَّبه القدر من قُرب عُسرِه وبُعد يُسرِه، بما أنساهُ جميل صبره وأغراهُ بشكوى ضُرِّه، هذا إلى أطفال وعيال صحتهم من القلة سقم، وجباههم عليها من أثر الطوى وشم، وقدودهم كالقسي من الضعف وما لها في شِبْعَةٍ[5] سهم، ولا فيما يمد به الأجوفان قِسْم ولا قَسَم، فأحوجتهُ الحاجة إلى مُزاملة قراره، وأخرجتهُ الفاقة عن محلّ استقراره، فخرج يرتاد بُلغة لصغاره، ويُحاول ممَّا دَبَّ ودرج شِبْعَة يخمد بها من الجُوع شُعلة ناره.

فبينما هو في اضطراب تطوافه واغتراف منبع الانتجاع ومصطافه، وقد فتح له من القوت ما هو حامله على أكتافه، إذا أوقعه القدر في شَرك النُّعمان في يوم إهلاكِهِ من رآهُ وإتلافه، فلمَّا رآهُ الطائي عَلِمَ أنه مقتول وأنَّ دمهُ مطلول، فقال: "حيَّا الله المَلِك إنَّ لي صبيانًا صغارًا وأهلًا جياعًا، وقد أرقتُ ماء وجهي في حصول هذه البُلغة الحقيرة لهم، وأعلم أنَّ سوء الحظ أقدمني على المَلِك في هذا اليوم العَبوس، وقد قربتُ من مقرِّ الصبية والأهل، وهُم على شفا تلف من الطوى، فلن يتفاوت الحال في قتلي بين أول النهار وآخره، فإن رأى المَلِك أن يأذن لي أوصِّل إليهم هذا القوت، وأُوصي بهم أهل المروة من الحي، لئلا يهلكوا ضياعًا، وعليَّ عهُد الله أنِّي إذا أوصيتُ بهم أرجع إلى المَلِك مساءً، وأُسلِّم نفسي بين يديهِ لنفاذ أمره".

---

[1] سورة النحل، الآية ٩١.
[2] سورة الرعد، الآية ٢٠.
[3] سورة الإسراء، الآية ٣٤.
[4] ث: "من صادفه فيه وارداه"، والضبط من العقد الفريد.
[5] ث: "سبعة"، والضبط من العقد الفريد.

فلمَّا سَمِعَ المَلِك نُعمان صورة مقاله، وفهِمَ حقيقة حاله، ورأى تلهُّفهِ من ضياع أولاده وأطفاله رَقَّ له، فقال: "لا آذن لك إلا أن يضمنك رجُل معنا، فإن لم ترجع قتلناه"، وشَريك بن عَدِي بن شرحبيل نديم النُّعمان، فالتفت الطائي إلى شَريك، وقال:

يا شَريك بن عَدِي	ما مِن الموت انهزامي
بل لأطفالٍ صِغارٍ	عُدِمُوا طعمَ الطعامِ
بين جوعٍ وانتظارٍ	وافتقارٍ وسِقامِ
يا أخا كل كريمٍ	أنتَ مِن قومٍ كِرَامِ
يا أخا النّعمان جُد لي	بضَمانٍ والتزامِ
ولكَ اللهُ بأنّي	راجعٌ قبل الظَلامِ

[٧٤ب] فقال شَريك بن عَدِي: "أصلح الله المَلِك عَلَيَّ ضمانه"، فمرَّ الطائي مسرعًا، والنُّعمان يقول لشَريك: "إنَّ صدر النهار قد ولَّى ولا يرجع"، وشَريك يقول: "ليس للمَلِك عليَّ سبيل حتى يأتي المساء".

فلمَّا قرب المساء قال النُّعمان لشَريك: "جاء وقتك فتأهب للقتل"، فقال شَريك: "هذا شخص قد لاح مُقبلًا، وأرجو أن يكون الطائي، فإن لم يكن فأمر المَلِك مُمتثل".

فبينما هُم كذلك وإذا الطائي قد اشتد في عَدوهِ مُسرعًا، فقَدِمَ وقال: "خَشيتُ أن ينقضي النهار قبل وصولي فعدوت"، ثم وقف وقال: "أيها المَلِك مُر بأمرك"، فأطرق النُّعمان، ثم رفع رأسه، وقال: "والله ما رأيتُ أعجب منكُما. أمَّا أنت يا طائي فما تركت لأحد في الوفاء مقامًا يقوم فيه، ولا ذكرًا يفتخر به، وأمَّا أنت يا شَريك فما تركت لكريمٍ سماحة يُذكر بها في الكرم، فلا أكون أنا ألأم[1] الثلاثة. ألا وإنّي رفعتُ يوم بؤسي عن الناس، ونقضتُ عادتي كرامةً لوفاء الطائي وكرم شَريك"، فقال الطائي:

ولقد دعتني للخِلَافِ عشيرتي	فعددتُ قولهُم من الإضلالِ
إنّي إمرءٌ مِنّي الوفاءُ خَليقة	وفِعَالُ كل مُهَذّبٍ مِفْضَالِ

---

[1] ث: "مثل"، والضبط من العقد الفريد، ص٧٩.

ثم قال النُّعمان: "يا طائي ما حملك على الوفاء وفيه تلف نفسك". قال: "دِيْني أيها المَلِك، فإنه مَن لا وفاء فيه لا دين له"، فأحسنَ إليه النُّعمان، ووصله بمال أغناه، وأعادهُ إلى أهلِه.

وقيل: "الوفاء من كرم السجايا، والغدر من لؤم الطِّباع، فمن عُرِفَ بالوفاء خصَّتهُ القلوب بصِدْق الوداد، وكستهُ الألسُن مطارف الأحماد، ومن عُرِفَ بالغدر عُومِلَ بالمَقت والإبعاد، واتسم بأقبح السِّمات بين العِبَاد".

وقيل: "من اتخذ الوفاء شعارًا أَمِنَ عقوبة الغادرين، ومن ارتدى برداء الغدر أبقى له ذكر سوء في الآخرين، ومَن عامل الناس بالوفاء قولًا وفعلًا فقد استخدم ألسنة الشاكرين".

وقيل: "من غدر في عهدِه، واستخلف في وعدِه، ونقض عُرى عقدِه، فقد قضى على نفسهِ بخِسَّة أرومتِه وسوء عقيدتِه، وقِلَّة مُروءتِه، وترك له بين الناس ذكرًا قبيحًا وسُمعة سيئة، وزهد الناس فيه، ونفرت القلوب عنه[٧٥أ]، وأرتعت ألسنة الذَّامِّينَ في عِرْضِه".

[مدح التيقُّظ وانتهاز الفُرصة وذم التواني والغفلة]

وأمَّا ما جاء في مدح التيقُّظ وانتهاز الفُرصة وذم التواني والغفلة قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۞ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٢].

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: "التواني رأس خُسران الدُّنيا والآخرة".

ورُوِيَ أنَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذل جهده في تسديد الأمور، وسد الثغور، وسياسة الجمهور، واعتمد بعهد الله تعالى على يقظتهِ التي فيها شفاء لِمَا في الصدور، حتى قيل إنَّ علمه بمن نأى من عُمَّالِه ورعيته كعلمهِ بمن بات معه على مهاده، فلم يكن له في قطر من الأقطار ولا مصر من الأمصار ولا ناحية من النواحي والي ولا عامل ولا أمير إلا وله عليه عين لا يُفارقه، فكانت أخبار الجهات كلها عندهُ كل صباحٍ ومساء، حتى إن العاقل كان يتوهم في أقرب الناس إليه وأخصـهُم به أنه عين عليه، فساس سياسة أردشير في

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٣٣.

(٢) سورة النحل، الآية ١٠٨- ١٠٩.

الكشف عن الأسرار والتطلُّع إلى حقائق الأخبار، وسيرتهﷺ في تفاصيل الأسباب تُغني باشتهارها عن الإطناب في هذا الباب، حتى إنه كان يطوف بنفسهِ في كثير من الليالي سِكَك المدينة، ليقف على قضايا الرعايا، خوفًا أن يتجدَّد حالة لا تصل إليه فيؤاخذ بالتقصير فيهاﷺ.

ورُوِيَ عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطابﷺ في ليلةٍ من الليالي في الظُّلمة يطوف لافتقاد أحوال المُسلمين، فرأى بيتًا من الشَّعَر مضروبًا لم يكن قد رآهُ بالأمس فدنا[١] منه، فسمع فيه أنين امرأة، ورأى رجُلًا قاعدًا فدنا[٢] منه، وقال له: مَن الرَّجُل؟ فقال: "رجُل من البادية، قَدِمْتُ إلى أمير المؤمنين أُصيب من فضلِه". قال: فما هذا الأنين؟

فقال: "امرأة تمخض[٣] قد أخذها الطلق". قال: فهل عندها أحد؟ قال: "لا".

فانطلق عمر، والرجُل لا يعرفه، فجاء إلى منزله، فقال [٧٥ب] لامرأتهِ أُم كلثوم بنت علي بن أبي طالب كَرَّمَ الله وجهه: هل لكِ في أجر قد ساقهُ الله تعالى إليك؟ قالت: وما هو؟

قال: "امرأة تمخض وليس عندها أحد". قالت: "إن شئت". قال: "خُذي ما يصلح للمرأة من الخِرَق والدُّهن، وجئيني بقِدْر وشحم وحُبوب"، فجاءت به، فحمل القِدْر، ومشت خلفه حتى أتى البيت، فقال: "ادخُلي إلى المرأة"، وجاء حتى قعد إلى الرَّجُل، وقال: "أوقد لي نارًا" ففعل، فجعل عمر ينفخ النار، ويُضرمها تحت البِرْمَة حتى أنضجها، وولدت[٤] المرأة، فقالت أم كلثوم رضي الله عنها: "يا أمير المؤمنين بَشِّر صَاحِبَكَ بغُلام".

فلمَّا سَمِع الرجُل "يا أمير المؤمنين" كأنه ارتاع لذلك، وقال: "يا أمير المؤمنين واخجلتاهُ منك، أهكذا تفعل بنفسك؟

فقال: "يا أخا العرب من ولي شيئًا من أمور المُسلمين ينبغي أن يتطلَّع على صغير أمرهم وكبيره، فإنه عنها مسؤول، ومتى غفل عنهم خسر الدُّنيا والآخرة".

---

[١] ث: "فدنى"، والضبط من العقد الفريد، ص٩٦.
[٢] ث: "قد دنى"، والضبط من العقد الفريد.
[٣] العقد الفريد: تتمخض.
[٤] ث: "وولد"، والضبط من العقد الفريد.

ثم قام عمرﷺ، وأخذ القِدْر من النار، وحملها إلى باب البيت، فأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة، فلمَّا استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال للرَّجُل: "قُم إلى بيتك، وكُل ما بقي في البِرْمة، وفي غدٍ تأتي إلينا"، فلمَّا أصبح جاءه، فجهَّزهُ بما أغناهُ بهِ وانصرف.

وكان من شِدَّة حرصِهِ على تعرُّف الأحوال، وإقامة قسطاس العدل، وإزاحة أسباب الفساد، وإصلاح الأُمَّة يَعِسُّ بنفسِه، ويُباشر أمور الرَّعِيَّة سِرًّا في كثير من الليالي، حتى إنه في ليلةٍ مُظلمة خرج بنفسِهِ فرأى في بعض البيوت ضوء سراج، وسمع حديثًا، فوقف على الباب ينظُر، فرأى عبدًا أسود قُدَّامه إناء فيه مِزر وهو يشرب، ومعه جماعة، فهَمَّ بالدخول فلم يقدرمن الباب، فتسور على السطح، ونزل إليهم من الدرجة ومعه الدِرَّة.

فلمَّا رأوهُ قاموا وفتحوا الباب وانهزموا، فأُمسك الأسود، فقال: "آهٍ يا أمير المؤمنين إنني قد أخطأتُ فأقبل توبتي"، فقال: "أُريد أن أضربك على خطأك"، فقال[١٧٦أ]: "يا أمير المؤمنين إن كُنْتُ قد أخطأتُ فأنت أيضًا أخطأتَ في ثلاثة أشياء: أولها قال الله تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾[١] وأنت تجسست، وقال الله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾[٢] وأنت أتيتنا من السطح، وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾[٣] وأنت دخلت وما سلَّمت، فهب هذه لهذه، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أنني لا أعود"، فتَوَّبَه، واستحسن كلامه، ولهﷺ وقائع كثيرة مثل هذه تشهد على حرصهِ على معرفتهِ بالأمور.

وكان مُعاوية بن [أبي][٤] سُفيان قد أخذ نفسهُ بالتطلُّع إلى استعلام بواطن أمور الرعايا، وسلك طريق أمير المؤمنين عمرﷺ في ذلك، وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك مُعاوية في ذلك، حتى نقل عنه أنَّ رجُلًا كلَّمهُ في حاجة له، وجعل يتعرَّف إليه، ويظُن أنَّ زيادًا لا يعرفه، فقال: "أنا فُلان بن فُلان"، فتبسَّم زياد، وقال له: أتتعرَّف إليَّ وأنا أعرف مِنْكَ بنفسك، والله إنِّي لأعرفك وأعرف أباك

---

[١] سورة الحجرات، الآية ١٢.

[٢] سورة البقرة، الآية ١٨٩.

[٣] سورة النور، الآية ٢٧.

[٤] إضافة من العقد الفريد.

وأعرف أُمَّك وأعرف جَدَّك، وأعرف هذا البُرْد الذي عليك، وهو لفُلان، وقد أعارك إيَّاه"، فبُهِتَ الرَّجُل وأرعد، حتى كاد يُغمى عليه.

ثم جاء من بعدهم من اقتدى بهم: عبد المَلِك بن مروان، والحجَّاج، ولم يسلك بعدهما أحد ذلك إلى أن ولي المنصور(١) فنصب العيون، وأقام المُتطلِّعين، ورصد المُخبِرين، وبثَّ في البلاد والنواحي من يكشف له حقائق القضايا وخبايا(٢) أمور الرعايا، فاستقامت له الأمور، ودانت له الجهات، ولقد ابتُلي في أيام خلافتهِ بأقوام لا يبرد شرارهم، ولا تُردّ أشرارهم، ولا تفل شفارهم(٣)، ولا تقل أنصارهم، ولولا أنَّ الله تعالى أعانه بيقظة لا يهجع جفن سدادها ولا يقطع عزائم إمدادها لما ثبتت له في الخلافة قدم، ولا رفع له مع بعض أولئك عَلَم، لكنه بثَّ العيون فعرف من انطوى على خِلَافهِ فعاجلهُ بإتلافِه، وأطلع على عزائم المُعاندين فقَطَّ رؤوس عنادهم بأسيافِه، وصار بكمال يقظته [٧٦ب] يتلقى المجدور بدفعهِ دون رفعِه، ويُعاجل المُخوِّف بتفريق شملِه قبل جمعِه، فذلَّت له الرقاب ودانت لخلافتهِ الصعاب، وقرَّر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب.

وقيل: "مَن أيقظ نفسه، وألبسها لباس التحفُّظ آيس عدوهُ من كيده له، وقطع عنه أطماع الماكرين به".

وقيل: "اليقظة حارس لا ينام، وحافظ لا يسأم، وحاكم لا يرتشي، فمن تدرَّع بها أمن فيما استيقظ له من الاختلال والضياع، وإن يُجار فيه عليه".

وقيل: "ما استظهر عدو المرء عليه بأعظم من توانٍ دائم يجدهُ فيه، وغفلة مُستمرة يأنس بها، واستقبال عياء التحرُّز والتحفُّظ، وإهمال الفُرَص في أوقات انتهازها".

وقيل: "من احتجب عن وفود اليقظة أذن في ورود النِّقم، ومن استعذب راحة الغفلة تجرَّع مرارة الندم، ومن استقرب شقة التواني فسيستطيل مشقة الألم، ومن استصوب مُصاحبة الإهمال فسوف تَذلُّ بهِ القَدَم".

---

(١) ثاني خلفاء بني العباس.
(٢) ث: جبايا.
(٣) ث: "لا يبرد سرارهم ولا تُردّ أشرارهم ولا تفل سفارهم"، والضبط من العقد الفريد.

[العفو واصطناع المعروف وفضيلتهما]

وأمَّا ما ورد في العفو واصطناع المعروف قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]، وقال ﷻ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]، وقال سُبحانه وتعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[5]، وقال عَزَّ وعلا: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[6].

ورُوِيَ عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: "قال رسول اللهﷺ: {رأيت قصورًا مُشرِفة على الجَنَّة، فقُلْتُ: يا جبريل لمن هذه؟ قال: "للكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس}.

ورُوِيَ عن أبي هريرة أنه قال: "بينما رسول اللهﷺ جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه، فقيل له: مِمَّ تضحك يا رسول الله؟ قال: "رجُلان من أمتي جثايا بين يدي ربي، فقال أحدهما: "يا رب خُذ لي مظلمتي من أخي"، فقال الله تعالى: "أعط أخاك مظلمته"، فقال: "يا رب ما بقى من حسناتي شيء" [٧٧أ]، فقال: "يا رب فليحمل من سيئاتي [و]أوزاري"، ففاضت عينا رسول اللهﷺ وقال: إنَّ ذلك اليوم يوم يحتاج الناس إلى أن تُحمل عنهم أوزارهم". ثم قال: قال الله تعالى للطالب بحقِّه: "ارفع بصرك إلى الجَنَّة"، فرفع رأسه فرأى ما أعجبه من الخير والنعمة، فقال: لمن هذا يا رب؟ قال: "لمن أعطاني ثمنه". قال: "من يملك ثمنه يا رب". قال: "أنت". قال: كيف ذلك؟ قال: "تعفو عن أخيك". قال: "يا رب قد عفوت عنه". قال: "خذ بيد أخيك وادخل به إلى الجَنَّة". ثم قال رسول اللهﷺ: "فاتقوا الله، وأصلحوا ذات بينكم".

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[7].

---

(1) سورة البقرة، الآية ٢٣٧.
(2) سورة النور، الآية ٢٢.
(3) سورة آل عمران، الآية ١٣٤.
(4) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
(5) سورة الأعراف، الآية ١٩٩.
(6) سورة الشورى، الآية ٣٧.
(7) سورة الشورى، الآية ٤٠.

ورُوِيَ أيضًا أنَّ أبا هريرة ﷺ نقل أنَّ أبا بكر الصديقﷺ كان مع رسول الله ﷺ في مجلس، فجاء رجل فوقع في أبي بكر ﷺ وهو ساكت، والنبي ﷺ يبتسم، ثم ردَّ عليه أبو بكر ﷺ بعض الذي قال، فغَضِبَ النبي ﷺ ثم قام، فلحقهُ أبو بكرﷺ فقال: "يا رسول الله شتمني وأنت تبتسم، ثم رددتُ عليه بعض الذي قال، فغَضِبْتَ وقُمت"، فقال ﷺ: "حين كُنْتَ ساكتًا كان مَلَك يرد عليه، فلمَّا تكلَّمتَ وقع الشيطان، فلم أكُن لأقعد في مقعد فيه الشيطان. يا أبا بكر ثلاثة حق: أنه ليس عبد يُظلم بمظلمة فيعفو[1] عنها إلا أعزَّهُ الله ونصره، وليس عبد يفتح باب مسئلة يُريد بها كثرة إلا زادهُ الله قِلَّة، وليس عبد يفتح باب عَطِيَّة أو صِلَة إلا زادهُ الله بها كثرة".

ورُوِيَ عن مُعاوية أنه كان يقول: "إنِّي لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعهُ حلمي، وذنب لا يسعهُ عفوي، وحاجة لا يسعها جودي".

ونُقِلَ عن المأمون أنه لمَّا خرج عمّه إبراهيم بن المهدي عليه، وبايعهُ العبَّاسيون بالخلافة ببغداد، وخلعوا[2] المأمون، وكان المأمون إذ ذاك بخُراسان، فلمَّا بلغهُ الخبر قصد العراق، فلمَّا دخل بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي، وعاد العبَّاسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون، ولم يزل المأمون مُتطلِّبًا لإبراهيم، حتى أُخِذَ وهو مُتنقِّب مع نسوة فحُبِسَ[3]، ثم أُحضِرَ حتى وقف بين يد المأمون، فقال: "السلام عليك يا أمير[٧٧ب] المؤمنين ورحمة الله وبركاته"، فقال له المأمون: "لا سَلَّمَ الله عليك ولاقرَّب دارك.أستغواك الشيطان حتى حدَّثتَ نفسك بما ينقطع دونه الأوهام؟

فقال إبراهيم: "مهلًا يا أمير المؤمنين، فإنَّ وليّ الثأر[4] مُحكَّم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول اللهﷺشرف القرابة، وعدل السياسة، ومن تناوله الاغترار[5] بما مُدَّ له من أسباب الرجاء أمِنَ عادية الدَّهر على نفسِه، وهجمت بِهِ الأيام على التلف، وقد جعلكَ الله فوق كل ذي ذنب كما جعل كل ذي

---

[1] ث: فيعفوا.
[2] ث: "جعلوا"، والضبط من العقد الفريد، ص١٠٩.
[3] ث: "فجلس"، والضبط من العقد الفريد.
[4] ث: "البار"، والضبط من الزُّبدة، ص٨٣، والعقد الفريد.
[5] ث: "الاعتزاز"، والضبط من العقد الفريد.

عفو دونك، فإن أخذتَ فبحقك، وإن عفوتَ فبفضلك، والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين". ثم قال[١]:

ذنبي إليكَ عظيمُ وأنتَ أعظمُ منهُ
فخُذ بحقِّكَ أو لا[٢] فاصفح بفَضْلِكَ[٣] عنهُ
إن لم أكُن في فعالي مِن الكرامِ فكُنْهُ

فلمَّا سمع المأمون كلامه وشِعرَه ظهرت الدموع في عينيه، وقال: "يا إبراهيم القُدرة تُذهِب بالحفيظة، والندم توبة، وبينهُما عفو الله تعالى، وهو أعظم ممَّا يُحاول وأكبر ممَّا يؤمل، ولقد حُبِّبَ إليَّ العفو حتى خِفْتُ أن لا أُجَر عليه. لا تثريب عليك"، ورَّدَ أمواله جميعها عليه، فقال فيه مُخاطبًا[٤]:

رَدَدْتَ مالي ولم تبخل عَلَيَّ بهِ وقبلَ رَدِّكَ مالي قد حقنتَ دمي
فإنْ جَحدتُكَ ما أوليتَ من كرمٍ إنِّي لباللوم أولى منكَ بالكرمِ

حُكِيَ أنَّ مُعاويةﷺ استحضر ليلة خواص أصحابهِ المُنتظمين في مُلك مساعدته على محابة، وذاكرهم وقائع أيام صِفِّين، ومن كان يتولَّى كبر الكريهة فيها من المعروفين، وانهمكوا في القول الصحيح والمريض، وسكلوا شُعَبه في اليفاع والحضيض، وآل حديثهم بعد التصريح والتعريض إلى مَن كان يجتهد في إنفاذ نار الحرب عليهم بزيادة التحريض، فقالوا: "امرأة من أهل الكوفة تُسمى "الزرقاء بنت عَدِي" كانت تعتمد الوقوف بين الصفوف، وترفع صوتها صارخة بأصحاب علي مُسمِعة إياهم كلامًا كالصوارم، مُستحثة لهم".

يقول: "لو سمعهُ الجبان لقاتل[٧٨أ]، والمُدبر لأقبَل، والمُسَالِم لحَارب، والفَارّ لكَرّ، والمُزلزَل لاستقر"، فقال لهم معاوية: أيُّكُم يحفظ كلامها؟ قالوا: كلنا نحفظه". قال: فما تشيرون عَلَيَّ فيها؟ قالوا: "نُشِيرُ بقتلها، فإنها أهلٌ لذلك".

فقال لهم مُعاوية: "بئس ما أشرتُم، وقبحًا ما قُلْتُم، أيحسُن أن يُشهر عنِّي أنِّي بعدما ظفرتُ وقدرت أقتُل امرأة وفَّت لصاحبها إنِّي إذًا للئيم، لا والله لا فعلتُ

---

(١) من بحر المجتث.
(٢) ث، وكوكب الملك ق٦٥ب: "اولى"، والضبط من الزُّبدة والعقد الفريد.
(٣) العقد الفريد: بعفوك.
(٤) من بحر البسيط.

ذلك"، ثم دعا بكاتبه، وكتب كتابًا إلى واليهِ بالكوفة أن أوفد إلى الزرقاء بنت عَدِي مع نفر من عشيرتها وفُرسان من قومها، ومهّد لها وطئًا ليّنًا، ومركَبًا ذلولًا".

فلمَّا ورد عليهِ الكتاب ركب إليها، وأقرأها الكتاب، فقالت: "ما أنا بزائغة عن الطاعة، فإن كان أمير المؤمنين فوَّض الاختيار إليَّ لم أبرح من مكاني، وإن كان حتم الأمر فالسمع والطاعة"، فحملها في هودج، وجعل غشاءهُ خَزًّا مُبطَّنًا، ثم أحسن صُحبتها، وسارت مع رجال، فلمَّا قَدِمَتْ دمشق دخلت على مُعاوية، فقال لها: "مرحبًا وأهلًا خير مُقدِمٍ قَدِمهُ وافد. كيف حَالِك يا خالة، وكيف رأيتِ مَسيرِك؟

قالت: "خير مسير، كأنّي كُنْتُ ربيبةُ بيتٍ أو طفلًا في مهد"، فقال: "بذلك أمرتهم، فهل تعلمين لِمَا بعثتُ إليكِ؟ قالت: "لا يعلم الغيب إلا الله". قال: "ألستِ راكبة الجمل الأحمر يوم صِفّين وأنت بين الصفَّين توقدين نار الحرب، وتحرِّضين على القتال؟ قالت: "بلى".

قال: فما حَملكِ على ذلك؟ قالت: "يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس، وبُتِرَ الذَّنَبْ، والدَّهر ذو غِيَر، ومَن تفكَّرَ أبصر، والأمر يحدثُ بعد الأمر"، فقال: "صَدقتِ، فهل تحفظين كَلامِك؟ قالت: "لا والله".

قال: "للهِ أبيكِ لقد سمعتك تقولين: "أيها الناس إنكم في فتنة غشيتكم جلابيب الظُّلم، وجارت بكُم عن قصد المحجَّة، فيا لها فتنة عمياء صماء، لا تسمع لقائلها ولا تنقاد لسائقها. أيها الناس إنَّ المصباح لا يُضيء في الشمس، وإن الكوكب لا يُنير مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يُقطع الحديد إلا بالحديد، إلا من استرشد أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه أنَّ الحق كان[٧٨ب] يطلب ضالته فأصابها، فصبرًا يا معشر المُهاجرين والأنصار، فكأن قد التأم شعب الشتات، وظهرت كلمة العدل[١]، وغلب الحق باطله، فإنه لا يستوي المُحِقّ والمُبطِل. أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يستوون، فالنزال النزال، والصبر الصبر، فعن كثب يُحمد الإقدام ويُذمُّ[٢] الإحجام، ولا يَعجِلنَّ أحدكم يقول: كيف ذلك؟ ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا. إنَّ خضاب النساء بالحناء، وخضاب الرجال

---

[١] ث: "اعدل"، والضبط من العقد الفريد، ص١١١.

[٢] ث: "يخمد الاقدام ويدم"، والعقد الفريد: "يمدح الإقدام ويذم".

بالدماء، والصبر خير الأمور عاقبة. أيهًا إلى الحرب قِدَمًا غير ناكصين، فهذا يوم له ما بعدهُ يا زرقاء". أليس هذا قولكِ وتحريريك؟

قالت: "لقد كان ذلك". قال: "لقد شاركتِ عليًّا في كل دمٍ سفكه"، فقالت: "أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامتك، مثلكَ من بَشَّرَ بخير وسَرَّ[1] جليسه"، فقال لها: "وقد سَرَّكِ ذلك؟ قالت: "نعم، والله سرَّني قولك، وأنَّى لي بتصديقه".

فقال مُعاوية: "والله لوفاؤكم له بعد موتهِ أعجب إليَّ من حُبكم له في حياته. اذكُري حاجتكِ لتُقضى"، فقالت: "يا أمير المؤمنين إنِّي آليتُ على نفسي أن لا أسأل أحدًا أعتب عليه شيئًا". قال: "فقد أشار عليَّ بعض من عَرفَكِ بقتلِكِ"، فقالت: "لؤم من المُشير ولو أطعته لشاركته". قال: "كلا. بل نَعفُ عَنكِ، ونُحسِنُ إليكِ ونرعاكِ".

فقالت: "كرمٌ منك يا أمير المؤمنين، ومثلك من قدر فعفى، وتجاوز عمَّن أسى، وأعطى من غير مسألة، وجاد من غير طلب". قال: "صَدقتِ"، وأمر لها بمال وكسوة، وأقطعها ضيعة تغلّ في كل سنة عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها.

وقيل: كان لعبد الله بن الزُّبير أرض بمَكَّة، وله فيها عبيد، ولمُعاوية إلى جانبها أرض وله فيها عبيد يُعمِّرونها، فدخل عبيد مُعاوية في أرض عبد الله بن الزُّبير، فكتب عبد الله كتابًا إلى مُعاوية يقول فيه: "أمَّا بعد، فإنَّ عبيدك قد دخلوا في أرضي فأنههُم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن والسلام"، فلمَّا وقف مُعاوية على كتابهِ قرأهُ، ودفعهُ إلى ابنه يزيد، فلمَّا قرأه قال: ما ترى يا بُنيّ؟ قال: "أرى أن تبعث إليه جيشًا يكون أولهُ عنده وآخرهُ عندك[٧٩أ] يأتونك برأسِه". قال: "أو خيرٌ من ذلك يا بُنيّ".

ثم أمر كاتبه أن يكتب جواب كتاب عبد الله: "وقفتُ على كتاب ابن حواري رسول الله ﷺ وساءني ما ساءه، والدُّنيا بأسرها عندي هَيِّنَة في جنب رضاه، وقد كتبتُ على نفسي صَكًّا بالأرض والعبيد، وأشهدتُ على نفسي بذلك، فأضف ذلك إلى أرضك وعبيدك والسلام".

---

[1] ث: "شر"، والضبط من العقد الفريد.

فلمَّا وقف عبد الله بن الزُّبير على كتاب مُعاوية كتب إليه: "وقفتُ على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحلَّه من قُريش هذا المحلّ والسلام".

فلمَّا وقف مُعاوية على كتاب عبد الله وقرأه رماهُ إلى ابنهِ يزيد، فلمَّا قرأهُ اصفر وجهه، فقال له مُعاوية: "يا يزيد من عفا ساد، ومن حَلِمَ عظُم، ومن تجاوز استمال القلوب".

وحُكِيَ أنَّ الرشيد بن المهدي خرج عليه خارجي، رام زوال مُلكِه وإفساد دولته، فجهَّز إليه جيشًا، وأنهض الناس والجُند للخروج لقتالِه، فلمَّا توجَّه الجيش إليه ظفروا بهِ وأحضروهُ إلى دار الخلافة، فلمَّا دخل على الرشيد. قال له الرشيد: ما تُريد أن أصنع بك؟ قال له: "اصنع بي ما تُريد أن يصنع الله بِكَ إذا وقفتَ بين يديه، وهو أقدر عليك مِنّي عَلَيَّ"، فأطرق الرشيد مَلِيًّا ثم رفع رأسه، وأمر بإطلاقِه.

فلمَّا خرج قال بعض الحاضرين: "يا أمير المؤمنين يَقتل رجالك، ويُفني أموالك، وتظفر بهِ وقد خرج عليك، وأفسد في بلادك، وتُطلِقَه بكلمةٍ واحدة. تأمَّل يا أمير المؤمنين هذا الأمر، فإنه يُخرج عليك أهل الفساد". فأمر الرشيد بردِّه، فلمَّا مثل بين يديهِ عَلِمَ أنه قد سُعي به، وأُشير على الخليفة بقتلِه، فقال: "يا أمير المؤمنين لا تُطع فيَّ مُشيرًا يمنعك عفوًا تدخر بهِ عند الله يدًا، ويبعثك على الانتقام الذي ليس من مكارم الأخلاق، واقتد بالله تعالى، فإنه لو قبل فيك مُشيرًا لما استخلفك لحظة واحدة، وأحسن كما أحسن الله إليك"، فأمر بإطلاقِهِ، وأحسن إليه.

وحُكِيَ عن الحَجَّاج بن يوسف الثقفي أنه[٧٩ب] قتل في مُدَّة ولايتهِ ألف ألف وسِتمائة ألف مُسلم، ومات في حُبوسهِ ثمانية عشر ألف إنسان، وكان لا يُرجى عفوه، ولا يُتوقع خيره، وكأنه قد ضُرِبَ بينهُ وبين الرحمة والرأفة بسور من فظاظة وغلاظة وقساوة، هذا مع ما اشتمل عليه من دمامة الصورة، وقُبح المنظر، ولؤم النفس، وشراسة الأخلاق، وقِلَّة الدين، والإقدام على انتهاك

حُرمات الله، ومع ذلك فقد رقق الله قلبه وألان عريكته وألهمهُ ما خالف سجيته وباين عادته، فإذا أراد الله تعالى أمرًا هيَّأ أسبابه، وفتح أبوابه، ومنح اكتسابه، وقَلَّبَ لهُ القلوب النافرة عنه، وجذب إليهِ النفوس الحاذرة منه، فباشرته حتى يصدر ذلك المقدور على خلاف طبائع مُصدِّريه، كما فعل الحَجَّاج مع رجُل من جهة يزيد بن شبيب الشيباني لمَّا ظفر بهِ، وكان مُصمِّمًا على قتله، وحكايته مُطوَّلة.

فلما هَمَّ بقتلِهِ سمع ضَجَّة بالباب، فقال لحاجبه: ما هذا الضجيج؟ فقال: "نسوة بالباب يستأذنَّ الدخول على الأمير"، فقال الحَجَّاج: إئذن[1] لهُنَّ بالدخول"، فدخلنَ وهُنَّ ثلاث وعشرون امرأة، كلهُنَّ أهل بيت هذا الرجل الذي هَمَّ الحَجَّاج بقتلِه، فقالت إحداهن[2]:

أ حجَّاجُ إمَّا أن تَمُنَّ بتركهِ ... علينا وإمَّا أن تقتُلنا معا
أ حجَّاج لو تشهد مقام بناتهِ ... وعمَّاتهِ يندبنهُ الليل أجمعا
أ حجَّاج كم تفجع بهِ من نسائهِ ... ثمانًا وتسعًا واثنتين وأربعا
فمن رجُل دانٍ يقوم مقامهُ ... علينا فمهلًا لا تزدنا[3] تضعضُعا

فرَّقَ لهُنَّ الحَجَّاج، وأطلق سبيله، وهذا العفو من مثل الحَجَّاج من أعجب العجائب، وإذا توقع المُسيء العفو ممن يرجو عفوه فليس بعجيب.

ورُوِيَ عن القاضي يحيى بن أكتَم[4] أنه قال: دخلتُ يومًا على الخليفة الرشيد ابن المهدي، وهو مُطرق مُفكِّر، فقال لي: تعرف قائل هذا البيت[٨٠أ]؟[5]

الخيرُ أبقى وإن طالَ الزمانُ بهِ ... والشّرُّ أخبثُ ما أوعيتَ مِن زادِ

---

(1) ث: "ايؤذن"، والضبط من العقد الفريد، ص١١٧.
(2) ث: إحديهن.
(3) ث: "تردنا"، والضبط من العقد الفريد.
(4) توفي سنة٢٤٢هـ. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٨، ص٧٠-٨٠.
(5) من بحر البسيط.

فقُلْتُ: يا أمير المؤمنين إنَّ لهذا البيت شأنًا مع عُبيد[1]، فقال: "عليَّ بعُبيد"، فلمَّا حضر بين يديهِ قال: "أخبرني عن قصة هذا البيت". قال: "كُنْتُ يا أمير المؤمنين في بعض السنين حَاجًّا، فلمَّا توسَّطتُ البادية في يومٍ شديد الحر سَمِعْتُ ضجَّة عظيمة من القافلة ألحقت أولها بآخرها، فسألتُ عن القصة، فقال لي رجُل من القوم: "تقدَّم حتى ترى ما بالناس"، فتقدَّمتُ إلى أول القافلة، فإذا أنا بشُجاعٍ[2] أسود فاتحًا فاه كالجذع يخور كخوار الثور، ويرغو كرغاء البعير فهالني أمره، وبقيتُ لا أهتدي إلى ما أعمل في أمرِه، فعدلنا عن طريقهِ إلى ناحية أخرى، فأعرضنا ثانيًا، فعلِمتُ أنه لسبب، ولم يجسر أحد من القوم يقربه، وإذا رُمِيَ بسهم ينأي عنه ولم يعمل فيه، فقُلْتُ في نفسي: "أفدي هذا العَالَم بنفسي، وأتقرَّب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا"، فأخذتُ قِربةً من الماء فتقلدتها وسللتُ سيفي وتقدَّمتُ، فلمَّا رآني وقرَّبتُ منه سكن، وأنا مُتوقع منه وثبة يزدردني فيها، فلمَّا رأى القِرْبَة من الماء فتح فاه، فجعلتُ فم القِرْبَة في فيه، وصببتُ الماء كما يُصبُّ في إناء، فلمَّا فرغَت القِربَة تسبسب في الرمل ومضى، فعجِبْتُ من تعرُّضهِ لنا وانصرافُه عنَّا من غير سوء لحقنا منه، ومضينا لحَجِّنا، وعُدنا في طريقنا ذلك، وحططنا في منزلتنا[3] تلك في ليلةٍ ظلماء مُدلهمة مُخيفة، فأخذتُ سطيحةً من ماء، وعدلتُ إلى ناحية من الطريق، فقضيتُ حاجتي، وفرغتُ من صلاتي، وجلستُ مكاني، والقافلة على حالها، فأخذتني عيني فنِمْتُ مكاني، فلمَّا استيقظتُ من النوم لم أجد للقافلة حِسًّا، وقد ارتحلوا وبقيتُ مُنفردًا، فلمَّا لم أر أحدًا، ولم أهتد إلى ما أعمل، أخذتني حيرة، وجعلتُ اضطرب، وإذا بصوت هاتف يقول ولم أره[4]:

---

(1) العقد الفريد، ص١٢٣؛ المُستطرف للأبشيهي، ج٢، ص١٢٩: "عبيد بن الأبرص"، وهذه القصة مُختلقة، لأنَّ عُبيد هذا شاعر جاهلي، قتله النعمان بن المنذر يوم بؤسه. انظر: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج١، ص٢٦٧.

(2) هو الثعبان.

(3) ث: "منزلنا"، والضبط من العقد الفريد.

(4) من الرجز.

يا أيها الشخصُ المُضِلُّ مَركبُه ... ما عندهُ مِن ذي رشادٍ يصحبُه
دونكَ هذا البَكْر مِنّا فاركبه[1] ... وبَكْرُكَ الميمون أيضًا فاجنُبُه[٨٠ب]
حتى إذا الليل أزيل غيهبُه ... فحُطّ عنَه رَحْلَهُ وسَيِّبُه[2]

فنظرتُ فإذا أنا ببَكْر[3] قائم عندي، وبكري إلى جانبه، فانختُه وركبتُه، فلمَّا سِرْتُ قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة، وانفجر الفجر، ووقف البكر، فعلمتُ أنه قد حان نزولي عنه، فتحولتُ إلى بَكْري، وقلتُ[4]:

يا أيها البَكْر قد أنجيتَ مِن كربٍ ... ومِن فيافي[5] تُضِلُّ المُدلج الهادي
ألا تُخبرنا باللهِ خالقنا ... مَن ذا الذي جاد بالمعروف في الوادي
وارجع حَميدًا فقد أبلغتَ مأمننا[6] ... بوركت مِن ذِي سِنَامٍ رائحٍ غادي

فالتفت البَكْر إليَّ، وسَمِعْتُ الصوت يقول[7]:

أنا الشُّجاع الذي ألفيتني رمضًا ... واللهُ يكشفُ ضُرَّ الحائر الصادي
فجُدتَ بالماءِ لمَّا ضَنَّ[8] حَامِلُهُ ... تكرُّمًا منك لم تُمنن بانكادِ
فالخيرُ أبقى وإن طالَ الزمانُ بهِ ... والشّرُّ أخبثُ ما أوعيتَ مِن زادِ
هذا جَزاؤكُ منِّي لا أمُنَّ بهِ ... فاذهب حميدًا رعاكَ الخالقُ الهادي

فعَجِبَ الرشيد من قولِه، وأمر بالقضية والأبيات فكُتِبَتْ عنه، وقال: "لا يضيع المعروف أين وضع".

وقيل في المعنى: "ليس من عادة الكرام إسراع الانتقام، فلا يأخذ بالتُهمة، ولا ينتقم مع القُدرة، ولا يزهد في العفو، وارحم من دونك يرحمك من فوقك".

وقيل: "أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه".

---

(١) المُستطرف: تركبه.
(٢) المُستطرف: عند الصباح في الفلا تسيبه.
(٣) هو الجمل.
(٤) من بحر البسيط.
(٥) ث: "فياف"، والضبط من العقد الفريد، وفي المستطرف: ومن همومٍ.
(٦) المُستطرف: فقد بلغتنا مننًا.
(٧) من بحر البسيط.
(٨) ث: ضر.

وقيل: "مَن أحب الله تعالى يعفو عن سيئاتهِ فليعفُ عن هفوات المُذنبين، ويتجاوز عن سيئاتهم، ما لم يكن فيه إسقاط حد من حدود الله، أو حق من حقوق الإسلام،أو تجاوز إلى الوقوع في حِمَى الحرام".

وقيل: "الانتقام من المُذنب عدل، والعفو عنه فضل، ومحل الفضل أعلى، والتحلي بهِ أولى، وذو الهِمَّة العليَّة والنفس الأبيَّة الزكيَّة يرغب في الحظ الأوفر والنصيب الأكثر".

وقيل: "اصطناع المعروف يقي مصارع [١٨١أ] السوء، ويزرع المحبَّة في القلوب، ويكتب الشُّكر على الألسنة، وينشر حُسن السُّمعة في الدُّنيا، ويستميل الناس إلى مدح فاعلهِ عند استغنائهم عنه، وإلى تلبية دُعائهِ وإجابة ندائهِ عند استعانتهِ بهم، وإلى الأخذ بيدهِ إن أحوجته حوادث الأيام إليهم، ويورث حميد الأجر، ويُخلِّد جميل الذِّكر".

ورُوِيَ أنَّ جارية من جواري الخُلفاء كان على كفِّها قصعة فيها سكباج، فعثرت على طرف البِّساط، فقطرت على الخليفة قطرة من مرقها، فغضب عليها، فقالت: "يا مولاي اذكر قول الله ﷻ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. قال: "قد عفوت". قالت: اذكر ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]. قال: "أنتِ حُرَّة لوجه الله تعالى".

ورُوِيَ أنه يُنادي مُنادٍ يوم القيامة: "أين الذين كانت أجورهم على الله؟ فلا يقوم إلا من عفا"، وعن ابن عيينة أنهُ رواهُ للرشيد وقد غضب على رجل فخلَّاه.

[مدح الصِّدق وذمّ الكذب]

وأمَّا ما جاء في مدح الصِّدق وذمّ الكذب: "الصِّدق مجلبة لنجح كل طلب، ومرتبة تُنيل مُفترعها مرغوب كل إرب، وهو على التحقيق إلى كل خير أقوم سبب، فكذلك الكذب يُفضي بصاحبهِ إلى كل دمار وعطب، ويُسوِّد وجههُ في العاجلة ويُوردهُ في الآجلة شر موردٍ ومُنقلب.

وفي القصة التي ذكرها رسول الله ﷺ، المشهود لها بالصِّحَّة إجماعًا، والمسعود بها من رُزق تيقُّظًا وانتفاعًا، المقصود منها معرفة شقاوة الكاذب

---

[1] سورة آل عمران، الآية ١٣٤.

وسعادة الصَّادق عيانًا وسماعًا، ما يقوم بالمقصد الأقصى في ذلك ونُشير إليه، ويُقيم للصِّدق زيادة وللكذب نقصًا ويُسجِّلُ عليه، وهي قصة الأقرع والأبرص والأعمى، وصورتها على ما ورد بهِ لفظ رسول الله ﷺ[1]:

إنَّ ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله تعالى يبتليهم، فبعث إليهم مَلكًا، فأتى الأبرص فقال: أيُّ شيء أحبَّ إليك؟ قال: "لون حسن، وجلد حسن، وأن يُذهب عنِّي الذي قذرني الناس"، فمسحه فذهب عنه قذره، وأُعطِيَ لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا. قال: فأيُّ المال أحب إليك؟ قال: "الإبل"، فأُعطِيَ ناقة عشراء، فقال: "بارك الله لك فيها".

قال[٨١ب]: فأتى الأقرع، فقال: أيُّ شيء أحبُّ إليك؟ قال: "شعر حسن، ويُذهب عنِّي هذا الذي قد قذرني الناس". قال: فمسحه فذهب عنه، وأُعطِيَ شعرًا حسنًا. قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: "البقر"، فأُعطِيَ بقرة حاملًا، وقال: "بارك الله لك فيها".

قال: فأتي الأعمى، وقال: أيُّ شيء أحبَّ إليك؟ قال: "أن يردَّ الله عَلَيَّ بصري فأُبصر به الناس". قال: فمسحهُ فردَّ الله إليهِ بصره. قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: "الغنم"، فأُعطِيَ شاةً والدًا، فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

قال: ثم إنه- يعني المَلَك- أتى في صورتِه وهيئتِه، فقال: "رجلٌ مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي أعطاكَ اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال بعيرًا أتبلَّغ بهِ سفري"، فقال: "الحقوق في المال كثيرة"، فقال له: "كأني أعرفك. أم تكُن أبرص يقذرك الناس، فقيرًا، فأعطاك الله؟ فقال: "إنما ورثتُ هذا المال كابرًا عن كابر"، فقال: "إن كُنْتَ كاذبًا فصيرك الله إلى ما كُنْتَ".

قال: ثم أتى الأقرع في صورتِه، فقال له مثل ما قال لهذا، وردَّ عليه مثل ما ردَّ على هذا، فقال: "إن كُنْتَ كاذبًا فصيرك الله إلى ما كُنْتَ".

---

[1] روى الصفدي هذه القصة بسنده عن ابن سيد الناس إلى رسول الله، وذلك سماعًا من ابن سيد الناس بالمدرسة الظاهرية بين القصرين في رمضان سنة٧٢٨هـ، وأورد على هذا تعاليق له ولغيره. انظر: نكت الهميان، ص٣٣-٣٦.

قال: فأتى الأعمى في صورتِه، فقال: "رجلٌ مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسلك بالذي ردَّ عليك بصرك شاة أبلغ بها سفري". قال: "قد كُنْتُ أعمى فردَّ الله عليَّ بصري، فخُذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم شيئًا أخذته للهِ تعالى"، فقال: "امسك مالك، فإنما ابتليتُم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك، وعادا إلى ما كانا".

ولهذا يُقال: من شيمته الصِّدق يجتلي عروس السلامة، ويجتبي غروس الكرامة، ومن سمتُهُ الكذب يحتسي كؤوس السَّآمة، ويكتسي لبوس الندامة.

وقيل: الصِّدق ميزان العقل، وعنوان المروءة، وعلامة الكرم، وسجية النفس المُستعِدَّة لاقتناء الفضائل، والكذب[١٨٢أ] مكيال الجور، ومعدن اللؤم، وقرين سوء العقيدة، وشاهد على النفس الباعثة عليه باتصافها بالرذائل.

وقيل: لو لم يكن الصِّدق سببًا للثواب والثناء لتعيَّن على العاقل فعله لحُسنِه، ولو لم يكن الكذب سببًا للعقاب والندم لتعيَّن على العاقل تركه لقُبحِه، فكيف والصِّدق سبب المرغوب، والكذب سبب المرهوب.

وقيل: الصِّدق عِزّ، والكذب ذُلّ، والنفوس الزكيَّة تميل إلى العِزّ، وتنفر عن الذُّلّ، فلهذا يُؤثر الصِّدق، ويُجتنب الكذب.

وقيل: لا مروءة لكذوب، ولا أمانة لغادر، كما أنه لا وفاء لملوك، ولا رياسة لضجور.

وقيل: الصِّدق لصاحبِهِ سيفٌ فاصل، وحاكمٌ فاصل، وعِزٌّ حاصل، وحمدٌ مُتواصل، والكذب لصاحبِهِ لومٌ عاجل، وعارٌ شامل، وسُمٌّ قاتل، وذمٌّ آجِل[١].

فهذا فصلٌ مُلخَّص ممَّا ينبغي أن يتحلَّى به السُّلطان، وما يعتمدهُ لإصلاح الرَّعِيَّة والزمان.

وكما يجب عليه أشياء، فكذلك يجب له، فممَّا يجب له أيَّدهُ الله تعالى:

---

[١] ث: "ودم أجهل"، والضبط من العقد الفريد ص١٣١.

حُسن الطاعة، وامتثال أوامرهِ الشريفة حسب الطاقة والاستطاعة، وصفاء النِّيَّات، وإخلاص السرائر والطويَّات، والنصيحة التي قال فيها سيد الأولين والآخرين: "الدينُ النصيحة"، ووردت فيها الآثار البَيِّنَة والأخبار الصحيحة، واجتماع الكلمة، وأن يكونوا على قلب رجل واحد وهو السُّلطان أيَّدهُ الله تعالى، ولو كان ظالمًا، وليس لأحد أن يخرج عن أوامرهِ الشريفة لِمَا ورد في ذلك من الكتاب والسُّنَّة، وأن لا يتعدى أحد طوره، لِمَا ورد في ذلك: "رَحِمَ اللهُ امرءًا عَرَفَ قَدْرَه، ولم يَتَعَدَّ طَورَه"[1]، وقد نُهِيَ عن الدُّعاء على السُّلطان الجائر.

هذا الواجب على العموم، وأمَّا المُخصَّص فسيأتي ما يجب على كل أحد في فصلهِ على انفرادِه.

---

[1] هذا من كلام سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ لا النبي ﷺ.

[فصل]

في مقامة السيف والقلم

المعروفة بالجوهرة الفاخرة فيما بينهما من المُفاخرة

تأليف الشيخ الإمام العالم العلَّامة القدوة المُحقِّق

سراج الدين عمر بن يوسف(1) البسلقوني السكندري نفع الله بعلومِه

ورَتَّبَ ذلك، وأقام كل شيء من الآلة، مُتكلِّمًا عن المقصود، وأوضح ما يحتاج المُلوك إليه، وبيَّن فضيلة السُّلطان- نصرهُ الله- وتمييزهُ على سائر ملوك الأرض[٨٢ب]، وسَبَكَ الكلام فجاء على أحسن النظام، فقال:

"الحمدُ للهِ الذي شَرَّفَ السيف وفَضَّلَ القلم، وجعل هذا للحُكم وهذا للحَكم، وجمع بين فضيلتهما فيمن كرمه في الناس كالعلم، وغرس محبته في قلوب الرعايا كما غرس أصله في النِّعَم. أحمدهُ حمد من رقى لكل مقامٍ جليل، فتمسَّك به تمسُّك كل خليلٍ بخليل، وصلَّى الله على سيدنا محمد وسلِّم أعدل من حكم، وأعظم الخلق أخلاقًا وشيم، الرسول إلى سائر الأُمم وسيد العرب والعجم، صلَّى الله عليه وعلى آلهِ أولي العزائم والهِمَم، وأصحابهِ المعروفين بوفاء العهد والذِّمَم، صلاة كل من صلَّى عليهِ وسَلَّم.

---

(1) بن عبد الله القبائلي اللخمي السكندري المالكي، ويُعرف بالبسلقوني لإقامته بها مُدَّة، شيخ الفقراء الأحمدية، عُرِف بمهارتهِ في النظم، وله مؤلفات في القراءات والتفسير، ومنظومات كثيرة، منها: الجوهرة الثمينة في مذهب عالم المدينة في ستمائة بيت، وأرجوزة في العبادات في نحو خمسين بيتًا، كان حيًّا سنة٨٤٤هـ، وذكر ابن عزم أنه توفي سنة٨٤٢هـ. انظر: البقاعي: عنوان الزمان، ج٤، ص١٢٨-١٣٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص١٤٢-١٤٤.

وبعد، فقد حكى بعض الأخيار والعارفين بالتواريخ والأخبار، وحنَّكتهُ تجاريب الأسفار، وأسفرت لهُ عن وجهها أيَّ إسفار، وعاشر البُّلغاء والفُصحاء، وباشر النُّبغاء والنُّصحاء، ونادم اللُّطفاء والظُّرفاء، واختلط بالشُّرفاء والحُرفاء، ودخل في كل قضيَّة، ولم يبق عليه من أمور الدُّنيا بقيَّة. قال:

بينما أنا ذاتَ يوم ببغداد مع جماعة من العُبَّاد يتذاكرون فضائل البلاد، وفضل[1] الرِّباط والجهاد، فذكروا ما جاء في فضائل الإسكندرية عن أفضل البريَّة، فمن ذلك ما نقلوهُ عن الحافظ السِّلفي والعلَّامة النَّسفي، فشوَّقني ذلك إلى رؤياها وضواحيها ورُباها، فقوَّيتُ سهم عزمي إليها، ووفقتُ حزمي عليها، فسِرتُ إليها أجُدُّ السير، ولم ألتفت في سيري إلى غير، حتى وصلتُ إلى بساتينها الزاهرة وقصورها العامرة، فرأيتُ أحسن بساتين رأيت في البلاد، وقصور عاليات كإرم ذات العِمَاد، فتقدَّمتُ عن تلك البساتين والقصور إلى أن وصلتُ إلى خندقها والسور، فرأيتُه عالي البُنيان، مُشتد الأركان، شراريفه عليها أنوار العدل منشورة، وقلاعُه عليها رايات البذل مشهورة.

فدخلتُ إليها من باب رشيد فوجدتُها على قانونٍ سديد، فأعجبني بُنيانها وما فيها من الترتيب، وما في أزقتها من كل أسلوبٍ عجيب، ورأيتُ أعلام السعادة على دُورها لائحة، وسَمِعْتُ ألسنة أهلها بالثناء على أميرها[٨٣أ] كالمسك فائحة، ناطقين بأنهُم منه في أمان وإطمان، وعدل منه وإحسان، وكيف لا وهو لا يعرف الخَنا، ولا الخُمور ولا الزِّنا، نيِّر البهجة، صادق اللهجة:

[أ]قسِم بأنَّ سَكندرية ما رأت　　مثلًا له في سائرِ الأزمانِ

فالله يُبقيهِ ويحرس ذاتهُ　　بمُحمَّدٍ ما عاش والقُرآنِ

فلم أزل سائرًا إلى دار السُّلطان، التي ليس مثلها في الأوطان، وإذا بشابَّين كالأقمار، نظيفي الوجوه والأطمار، ظاهرة عليهما حشمة الآداب، كأنهما من رؤساء الكُتَّاب، فأتيتُ إليهما، وسلَّمتُ عليهما، وسألتُهُما عن اسميهما، فقال أحدهما: "اسمي السيف الحامي للديار في الشتاء والصيف، والمعروف بالحَدِّ، الذي هزلي جِدّ وجِدِّي حَدّ"، وقال الآخر: "أنا القلم المخدوم بالممالك والخدم، والمعروف بالإحسان والكرم".

---

[1] ث: فصل.

فقُلْتُ لهُما: هل لكُما في المُرافقة؟ فأجابا بالموافقة، فأخذنا في الحديث والمُنادمة بعد التسليم والمُسالمة، وما جرى للأُمم البالية والبلاد وغير ذلك من الأخبار، وما جرى في الأقطار، ومكثنا على ذلك زمانًا طويلًا في أرغد عيش بُكرةً وأصيلًا.

فبينما نحنُ ذاتَ يوم نتذاكر ما جرى للصحابة إذ جلس إلينا رجُل كأنه سخطة من سحابة، فتحدَّث مع الرجُلين، ورمى بينهما فقرَّب بونهما، وقال لكلٍّ منهُما: "بينكَ وبين رفيقك بون، فلا تعتقد أنهُ لك على كل بلوى عون".

فعند ذلك تخاصما وتفاخرا، وتشاتما وتشاجرا، فأخذ كل واحد يتفاخر على رفيقه، ولم يرع ما كان بينهُ وبين صديقه من المودة، والصُّحبة والمُعاشرة والمحبَّة، فبدأ السيف بالمُقابحة، وتقدَّم بالمُكافحة، وقال للقلم: "أما تستحي يا قطاعة القصب، وآلة الطرب، وأخس البوص، وقاعدة اللصوص، يا مَن بِكَ تسرق الأقباط الأموال، وتُغيِّر القواعد والأحوال، وتسد الأوراق بالباطل والمُحال [٨٣ب]، كما قال الشاعر:

بنو الأقباط أقوامٌ لئام حلالُ الشَّرع عِندهُمُ حَرام
ترى القبطي في الزُّنّار يحكي حِمَارًا فوق سُرَّتهِ حِزَام

فأموال التُّرك بِكَ منهوبة، وتجارات التُّجَّار منحوبة، وديار الرعايا بظُلمك مخروبة، لكنك مُحبٌّ للنصارى حتى صَيَّرتَ المُسلمين معهم كالأسارى، بِكَ تطاولوا في البُنيان، وشيَّدوا على رؤوسهم الأركان، وسطوا عليهم بالسواعد وكل بَنان، وملكوا السراري والعبيد، وقوي منهم كل جبَّارٍ عنيد، وشيطانٍ مَريد، ولصٍّ عتيد، بِكَ نصارى الإسكندرية كل واحدٍ خلفهُ عبدان، ولم يكن ذلك في قديم الزمان، وصار لهم في زعمهم أُبَّهة على المُسلمين، وصولة على الموحدين، ليت شعري من أين لهُم هذه الصولة إلا بأموال هذه الدولة. هذا حالهم في الإسكندرية، فكيف بهم في مملكة الشام والديار المصرية، وما يفعلوا في أموالها من الأذيَّة والأفعال الرديَّة. أفيكَ خير يا من تجمَّع فيهِ كل ضَير".

فلمَّا سَمِعَ القلم كلامه ونثرهُ ونظامه قال للسيف: "يا أصل كل فتنة ومُشاققة ومحنة، إليَّ تقول وعليَّ تطول، ما أنا من الرجال الذي تَهِزُّهُ الرياح، ولا ينطربُ لضرب الصِّفاح. أمَّا قولك أنِّي "قعيدة اللصوص، وأخَسّ البوص" فكلانا في الحرام سواء، وما لعِلَّتِنَا في ذلك دواء. أمَا بِكَ يُقطع الطُّرُقات،

وتُخاف السُّبُلات، يا قاسي القلب وعاصي الربّ؟ لكنّي أعلا منك مقامًا، وأغلا منك إكرامًا، لأنَّي بِي النقض والإبرام، والفضل والاحترام، ولأنّي كُتِبَ بي الكتب السماوية، والصحف الإلهية، ودُوِّنَتْ بي العلوم الدينية، ونُقِشَتْ بي المنافع الدنيوية والأخروية، فعلى كل حال لي عليك مَزيَّة".

قال له السيف: "أنا بي تُفتح الحصون المنيعة، والقلاع الرفيعة، والمُدن العاصية، والقُرى القاصية. مدحني الله[٨٤أ] في كتابهِ العزيز ولم يمدحك، وذكرني ولم يذكرك، فقال في كتابهِ العاري من الشك والإلباس: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[1]".

فقال له القلم: ما رأيتُ منك أجهل، ولا أبلد ولا أغفل، ولاسِيَّما جهلكَ بالقرآن الكريم، وما أُنزل على النبي عليه الصلاة والتسليم، حين أقسم الله بالقلم في كتابه، ونوّه بي في لذيذ خطابه، فقال تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[2]، مع أنهُ سُبحانه ذكر في أول سورة نُزلت، وعلى خير البريَّة تُليت، فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3]، فقدَّمني في الكتاب المجيد، للاهتمام بي لا بالحديد، ولو كُنْتَ عالمًا بالعلوم لما فاتك هذا المعلوم، لكن غلب عليك الطيش يا خائن الصُّحبة والعيش، فتعدَّيتَ طورك ونسيتَ جورك، وأتبعتَ هواك فكَثُرَ أذاك، فارجع عمَّا أنت عليه، وتُب إلى الله وأَنِب إليه، تُسدَّد في أقوالكَ وتسعد في أحوالك".

فقال السيف: "أتنسبني للقساوة والجهل والغباوة، وتجعلني من المُغفَّلين، والحمقى المجانين، وأنا سلاح الأنبياء والمُرسلين، وصلاح الأصفياء والمُتقين، قاتل بي النبي صلى الله عليه وسلَّم، وهَزَم بي كل جيشٍ عرمرم، ونُصِرَ بِي على أعدائهِ الكافرين، وقَطع بي دابر الظالمين، فلو كان بِكَ خير كتب بك النبي عليه السلام، وشاع ذلك بين الأنام".

فقال القلم للسيف: "يا تابع كل حيف أما تعلم أنَّ عدم كتابة النبي- عليه السلام والتحية والإكرام- بِي من أعظم المُعجزات، وأتم الكرامات، وأبلغ النهايات،

---

[1] سورة الحديد، الآية ٢٥.
[2] سورة القلم، الآية ١-٢.
[3] سورة العلق، الآية ٣-٥.

وغاية الغايات. إذ لو كان يَكتُب لقال الكافرون: "يُطالع كُتب المُتقدمين، فهو يتلوها في كل حين".

أما ترى إلى أنهم قالوا في سلمان الفارسي أو بِلعَام وغيرهما ما ليس له صحة في الكلام، مِن أنهُم كانوا يعلمون النبيﷺ القرآن، فأكذبهم الله تعالى فيما قالوا من البُهتان، وقال وهو القوي المتين: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[1] [٨٤ب]، مع أنه ورد أنه كَتَبَ في غزوة الحُديبية حين أمر عليًّا أن يمحو اسمه، فأبى علي ذلك تأدُّبًا معه وأبقى رسمه، فمحا النبيﷺ ما طلبوا محوه، وكَتَبَ ما أرادوا نحوه، فهذا من غاية المُعجزات فيمن لا كَتَبَ ولا دخل مكتبًا، ولا تعلَّم من آدمي أدبًا، إنما عَلَّمَهُ ربَّهُ وأدَّبَه، واصطفاهُ من بين خلقهِ وقرَّبَه، فيا للهِ العجب ما رأيتُ منك أقلّ أدب. تأمرني بالتوبة وأنت في وسط المعاصي كالحوبة، فمتى كان اللِّصُّ واعظًا، والبليدُ حافظًا؟

أما تستحي أن تقول ما لا تفعل، وعن كل معروفٍ تنبأ له وتتغفَّل، أما سمعت قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾[2]، ولو كُنْتَ عاقلًا لاتبعت قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾[3]، أما لي عليك مزيَّة وفضل يدٍ عليَّة.

أما سمعتَ أُولي الفضل والجد: "القلمُ لسانُ اليد"، "القلم أصم يسمع النجوى، وأخرسُ يفصحُ بالدعوى"، "القلم صانع الكلام يفرغ ما جمعهُ اللُّب ويصوغ ما سبكهُ القلب"، "القلم يُدبِّر الأُمم والسيف خَادِم القلم"، "القلم يكتبُ ما يُقرأ في كلِّ مكان ويوجد في كل زمان"، "القلم ترجُمان النظر وآلة الفكر"، وكان يُقال: "العقول رُسل الله إلى أهلها، والأقلام هي المُترجمة عنها"، وكان يُقال: "عقول الناس في ألسنتها وأطراف أقلامها".

فلمَّا سَمِعَ السيف ما قالهُ القلم تحرَّك وتكلَّم، ثم قال: "يكفيك تتعاجب وتتعاظم، وتمدح نفسك وتتفاخم، وتُعدِّد لنفسك ما لا تُحيط بهِ خبرًا ولا تملك له أمرًا، وسأُبيِّن لك خطأك من صوابك، وأوضِّح لك ما أنت فيهِ من إعجابك، أمَّا استدلالك عليَّ بقولهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ

---

(١) سورة النحل، الآية ١٠٣.

(٢) سورة البقرة، الآية ٤٤.

(٣) سورة المائدة، الآية ١٠٥.

ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُم﴾[1]، فهذا شيء نَسخَته آية السيف وما جاء من النبيﷺ في الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، فمن ذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ﴾[3] [٨٥أ]، وعن النبي ﷺ: {من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه}.

وأمَّا إعجابك بنفسك ونسيانك يومك من أمسك، فقد قال بعض الحُكماء: "عُجب المرء بنفسهِ أحد حُسَّاد عقله"، "العُجب آفة الرأي"، "العُجب في الشريف عجز، والتواضع له عِزّ"، "ليس لمُعجَبٍ رأي ولا لمُتكبِّرٍ صديق"، "العُجب شرُّ آفات الصديق"، "من لم يُعجب بنفسهِ نصحها، ومن تكبَّر بها فضحها"، "من رضي عن نفسهِ كثر الساخطون عليه، ومدُّوا ألسنتهم إليه"، وقالوا: ثمرة العُجب المقت، ولا ارتفعت الأقدار إلا بالتواضع، ولا وضِعَتْ إلا بالتكبُّر والترافع"، "رحم الله امرأ عرف قدر نفسه ولم يتعدَّ طوره".

لكن يجب عليك أيُّها القلم أن تعرف مقامك، ولا تتعدَّى إكرامك، وتعرف حقوق الناس، وما يجب عليك للأكياس، أما تعلم أنك خادم السيف، وغُلامه في الشتاءِ والصيف، بِكَ يَجمع الأموال ويُفرِّقها، ويمنحها ويُصدِّقها، والحُكم له عليك من سالف القِدَم، كما قالوا: "الحُكم للسيف ليس الحُكم للقلم"، فبسك[4] عليَّ تعبس، وبقرنيك تصوب وتحبس، والغالب عليك إتباع هواك، وهو في الحقيقة أذاك، فاترك هذا الهوى واتبع التقوى، فقد قيل: "من كان هواهُ أذاه، فترك هواه دواه"، وقالوا: "ثمرة الهَوى الندامة، وعاقبة عصيانهِ السلامة"، "الهوى هو الهوان"، "أفضل الجهاد جهادك هواك"، "الصبر عن الهوى يوجب الصحة والعافية"، و"الهوى يورث الأسقام الخافية"، "مَن لم يملُك نفسه لم يكن أهلًا أن يملُك غيره"، وأبلغ من هذه الكلمات ما قاله رب الأرض والسماوات، حيثُ قال لداوودعليه السلام: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا

---

(١) سورة المائدة، الآية ١٠٥.
(٢) سورة النحل، الآية ٩٠.
(٣) سورة التوبة، الآية ٥.
(٤) أي حسبك أو يكفيك.

تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[1][٨٥ب]".

فقال القلم الآتي في كلامهِ بالحِكَم: ليتك تعمل بما تعلم، وتترك الزيوف، وتُقبل على المعروف، فإنه فرض على كل إنسان اصطناع المعروف والإحسان، وتُعرض عن الجاهلين، وتُحسن للمُسيئين، كما قال أرحم الراحمين: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[2]، وقد قالت الحُكماء أولو الفضل والعُلماء: "صنائع[3] المعروف تقي مصارع الحتوف"، و"مَن زِيْدت نعمة الله إليه وجب اصطناع المعروف عليه"، وقالوا: "لا شيء أحسن من المعروف إلا ثوابه عند الرؤوف، صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع يجد مُتكأً فارتفع"، و"حوائج الناس إليك نعمة من الله عليك، فلا تمل النِّعم فتتحول من الله نِقَم"، و"أفضل المال ما أكسبك حمدًا، وأعقبك أجرًا ومجدًا"، "المعروف دق، والمكافأة عبق"، "خير المعروف من لم يتقدمه مُطل، ولم يتبعه مَنّ ومَحل"، "ما من أحد أوجد الله عليه نعمة إلا وللناس عليه مؤنة، فإن ضجر بهم تعرَّض لزوال النعمة"، "من اجتمعت له النِّعمة اجتمعت هذه الرغبة والعظمة"، "العاقل يتبع طريق المعروف حيثُ كان"، "الشفاعات[4] من أعظم الطاعات".

فقال القلم: "أيها السيف، المُفتخِر عليَّ بلسانهِ والحيف، أمَّا قولك لي: "إنَّ الحُكم لكَ في سائر الأُمم". أما قال قائلهم في بعض صفاتي ما يدل على رفع ذاتي: هل رأيتم ضربةً مِن ضيغمٍ قطعت في مَرَّةٍ ألف قلم؟ بل رأينا مَدَّةً مِن قلمٍ نَكَّسَت في مُدَّةٍ ألف عَلَم".

فلمَّا سَمِعَ السيف هذا الكلام وما فيه من الشِّعر والنظام قال له: "أيها القلم الذي لا يُحاسِب نفسه بندم، هل لا يكون عندك علم بوازنة عقل وحكم؟ ولكن طبعك الحقة والفحّة[5] والسفه، فأنت على كل حال من بعض خُدَّامِي وعبيدي وغُلامِي، فإنِّي سُلطان السلاح المُعظَّم، والمَلِك المُكرَّم، فالواجب عليك أن تدخل تحت الطاعة، وتترك السفه والرقاعة. إذ طاعتي واجبة عليك، وعلى كل من

---

[1] سورة ص، الآية٢٦.
[2] سورة الأعراف، الآية ١٩٩ .
[3] ث: صناع.
[4] ث: الغافل يتبع طريق المعروف حيثُ كانت الشفاعات.
[5] كذا في ث، وكُتِبَ تحت حاء "الحقة" حاء صغيرة للتأكيد.

ينتمي إليك. قالت العقلاء: "طاعة السُّلطان مقرونة بطاعة الله"، وقالوا: "إياكم والخروج من أُنس الطاعة[٨٦أ] إلى وحشة المعصية"، وقالوا: "مِن إجلال الله إجلال السُّلطان عادلًا كان أو جائرًا"، "الطاعة أحصن قلاع السلامة، وأرفع منازل السعادة"، "الطاعة عصمة من كل فتنة، ونجاة من كل محنة"، "الخارج من الطاعة مُنقطع العصمة، مُتعرِّض للنِّقمة وزوال النِّعمة"، فيجب عليك أيها القلم أن لا تخرج عن طاعتي، وحرزي وعنايتي، وتنصنحي غاية النصيحة، وتدع عنادك والفضيحة، وقد ورد عن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام: {الدين النصيحة، قالوا لمن يا رسول الله؟ قال: للهِ ولرسولهِ وللمؤمنين ولأولي الأمر ولعامة المُسلمين وخاصتهم}. أما تلزم أيها القلم أدبك لتبلغ منِّي إربك.

أما تعلم أنهم قالوا: "السُّلطان كالجبل الوعر، فيه الثمار الطيِّبة والسِّباع العادية، فالارتقاء إليه شديد، والمُقام فيه عتيد"، وقالوا: "السُّلطان صبي الرِّضا، كهل الغضب. يأمر بالقتل وهو يضحك، وتُستأصل شافه القوم وهو يمزح"، "السُّلطان يصول صولة الأسد، ويغضب غضب الصبي"، "سخط المَلِك سيف مسلول، ورضاهُ يفك المغلول". وقالوا: "مِن كمال سياسة المَلِك ألا يهزل في أمرٍ ونهي، ولا وعدٍ ولا وعيد، وأن يستكفي أهل الكفاية، وأن يستعمل أهل العناية، وأن يودع القلوب هيبة لا يشوبها مقت، ووُدًّا لا يَشُبْهُ جُرأة"، وقالوا: "لا يصلُح لعظيم الرُّتبة إلا عظيم الأخلاق والنخبة، يوسِّع خُلقه رضًا، ويجعل نخب إحسانهِ فرضًا"، فاعلم أيها القلم بذلك، واسلُك بنفسك أحسن المسالك، ووالله لئن لم تنته عمَّا تقول لأعجلن عليك بما دمارهُ عليك يؤول".

فقال القلم: ما رأيتُ مثلك أيها المَلِك- كما زعمت- رجُلًا، تصف نفسكَ بالسلطنة وليس أنت لها أهلًا، ولأنَّ السُّلطان لا يُعجِّل بالعقوبة على من عصاه، ولا يتعدى فوق حُكمه وقضاه، بل يعمل بمُقتضاه، ولو كُنْتَ سُلطانًا كما[٨٦ب] تقول لنصحتك نصيحة أولي العقول، لأنهم قالوا: "نُصح السُّلطان يزيد الأمن والأوطان"، وأنا كل حين أخشى ما يصدر لي منك ويبلغني عنك، لأنهم قالوا: "إذا عاديت من يَملُكك فلا تأمن أن يُهلِكك"، وقالوا: "صاحب السُّلطان ولو استفرغ نفسه في النصيحة، فليحذر بطشه والفضيحة"، وخيرتك أن تترك نفسك مكانها، ولا تحمِّلها فوق إمكانها، لأنك تدَّعي ما لا تصل إليه ولا قُدرة لك عليه،

وما أنت في يد كل أحدٍ إلا نتفة من حديدة، ومقامك مقام جريدة، فنزِّل نفسكَ منزلتها وقُواها وبطشها".

فقال له القلم: "إن كان ولا بُدَّ من المُفاخرة، فأنا أعَزُّ منك في الدُّنيا والآخرة، إذ بي في الدُّنيا تُجمع الأموال، وفي الآخرة تُعرف الأحوال، فلا شرف لك على أحد من الناس، ولو كان فيك كما تزعم شِدَّة وباس، إذ جعل الله أشرف الناس النبيين، ثم الخُلفاء، ثم الوزراء، لأنَّ بالأنبياء قوام الدين، وبالخُلفاء التمكين، وبالوزراء التحصين، والوزراء في هذه الأيام هُم المُلوك وسلاطين الأنام، فالوزير من الخليفة بمنزلة سمعهِ وبصرِه ولسانهِ وقلبِه، وأيضًا فإنَّ بي تشرَّف الكُتَّاب وذوي[1] الألباب، لأنهم قالوا: "كاتب الملك مُستقر أسراره[2]، ولسانهِ الناطق في آفاق مملكته، والمخصوص بقُربه ولزومه دون نُظرائه".

فقال له السيف: "أيها القلم الحقير والنزر اليسير أما تعلم أنَّ بِي فُتحت البلاد، واطمأنت العِبَاد، وأنَّ الجهاد بي أفضل مِن زُهد الزُّهَّاد. ألا ترى أنَّ دماء المُجاهدين كالمسك عند ربّ العالمين، لونها لون دمّ، وريحها ريح مسك يُشمّ، وسواء كان الدم من مُسلم مُخطِي، أو كافر مُسطِي، وقد أظهر الله بِي الإسلام بعد أن كان خفيًّا، وبعد أن كان ضعيفًا صار بِي قويًّا، وهذا غاية الشرف لي عليك، ومزيَّة أُهديت لي من الله لا إليك".

فقال له القلم: "أيها السيف المُعتدِّي طوره، ولا يدري حِسَّهُ وغوره[٨٧أ] أما تعلم أنه ورد في الآثار عن النبي المُختار- صلى الله عليه وسلِّم وشَرِّف وكَرِّم- أنَّ مِدَاد العُلماء أفضل من دماء الشُّهداء، لأنَّ دم الشهداء يذهب بذهابهم، ولا يبقى بعد إيابهم، ومِدَاد العُلماء باقٍ إلى يوم القيامة، وناهيك من هذه الكرامة كرامة، وحسبي أنَّ جُندِي أهل الفقه والأدب والجود والحسب، فقد قيل: "الأدب مادة العقل وآلة النقل"، "الأدب دليل على المروءة، وزيادة في الفتوة، وصاحب في الغُربة، ومؤنس في الوحدة عند الكُربة، بهِ يُتوصل إلى العلوم، ويُعلم المكتوم، فكُن ذا أدب وعالمًا، ولا تَكُ ظالمًا غاشمًا"، ويكفيك أيها السيف رقاعه وطلب ما لا يستطاعه. أيسمع قوي من ضعيف، أو شريف من خسيف؟

---

[1] ث: ذوا.

[2] ث: أسواره.

فلمَّا سمع السيف امتلأ حَنقًا وازداد حُمْقًا، ثم إنه جلس في دار مملكته، وجمع جنوده وأرباب دولته، ثم دعا بالرُّمح بعد أن اتخذهُ وزيرًا وعونًا وظهيرًا، وقال له: ما تُشير علينا فيما وقع من القلم، وخروجهِ عنَّا عمَّا يلزمه من الخدم؟

فقال له الرُّمح: أيها المَلِك المُعظَّم والسُّلطان المُكرَّم ما لك إلا أن تجمع عليه الجموع، وتُضيّق عليه المسالك والبقوع".

فحينئذ جلس المَلِك على السرير، وجمع أُمراءه أميرًا بعد أمير، وجعلهُ مُشير دولته ومُدبِّر مملكته، وكان الرُّمح يُكاتب القلم فيما بينه وبينه، ومُخامرًا على السيف بعد أن كان يُظهر عونه، فجمع القلم من الرُّمح كُتبًا كثيرة وعِدَّة غزيرة.

فسَمِعَ القلم بما رامهُ السيف من الجموع وقتاله وقع في يدهِ وبَاله، ثم قال: ما بقي في هذا إلا مُشاورة أصحابي وأخلائي وأحبابي، فإنَّ مع المُشاورة تنتجح المُحاورة، ولذلك قال الله تعالى لنبيهﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1]، مع علمهِ تعالى أنه أوفى الناس عقلًا، وأوفرهم رأيًا ونقلًا، وقد قال عليﷺ: "لا صواب مع ترك المشورة"، وقالوا: "سُلطان الرأي في المُشاورة، وسُلطان الهوى مع الاستمداد والمُكابرة"، "خاطر مَن استغنى برأيه، وضلَّ من اهتدى بعقلِه" [٨٧ب]، "لا ظهير أعون من مشورة من استنبط الرأي مثل المُشاور، ولا خصبت النِّعم بمثل المواساة"، "الرأي بالرأي يقدح الصواب".

وأرسل إلى أخصائهِ وأقربائهِ ونُصحائهِ فحضروا عنده، وراموا نُصحَه وودَّه، فقال لهُم: "قد علمتُم ما رامهُ السيف من قتالنا وحربنا ونزالنا، فما ترون فيما نفعل؟ أنُقاتله أو نتركه ونتغفَّل؟ فقالوا: "إنْ تركته بلا قتال هجم عليك وأذاقنا النكال". ثم استرجع عند ذلك، وقال: "إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعون"، وتأسَّى بقول النبيﷺ لابن عبَّاس: {ليقِلّ هَمَّكَ، ما قُدِّرَ سيكون}[2]، ويقول الشاعر[3]:

ما لا يكونُ فلا يكونُ بحيلةٍ   أبدًا وما هو كائنٌ سيكون

ثم قال هذا بغى علينا بسطوته، وطغى علينا بقوته، مُدعيًا أنه يقهرنا في الحرب بكثرة الطعن والضرب، أما يعلم أنهم قالوا:

---

[1] سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
[2] النصيحة لابن مسعود لا ابن عبَّاس، وفيها: "لا تُكثر همك، ما يُقدر يكن، وما تُرزق يأتيك".
[3] منسوب لسيدنا علي بن أبي طالبﷺ.

لله أول مَخلـــــوقٍ وآخـــــرهُ والحمــــــدُ للهِ أولاهُ وأقصـــــاهُ
مــا كـل مَـن يـدَّعي دعـوى تصحّ لـهُ كـم مُـدَّعٍ بطلـت بـالحقِ دعـواهُ
وهـــذا تُمنّيــهِ نفسُـــه بالأمـــاني وتعـــدُه بالحيـــاة والتهـــاني
فـرُبَّ تَمَـنٍّ سـائق إلـى الفـوت ورُبَّ تـوقٍ سـابقٍ إلـى المـوت
مـا كـل مـا يتمنـى المـرء يُدرِكَـهُ فـرُبَّ حتـف امـرءٍ فيمـا تمنّـاهُ

وهو مُصِرّ على الغضب، لا يندب عواقب العطب، أو لم يدر أنهم [قالوا](1): "الغضب جهول، والسيف مجنون"، "احذروا الغضب، فإنَّ فيهِ العطب".

ثم إنه جمع إليه سائر الأقلام من الراوبي والأكام، وقال لهم: "أصعب ما يكون على الرِّجال الحرب والقتال، والخدائع فيه من أبلغ المنافع وأعظم المدافع، فقد قال النبيﷺ: "الحرب خُدعة"، وقالوا: رُبَّ خديعة أنفع من طليعة، ورُبَّ حيلة أنفع من قبيلة"، والرأي عندي أن أرمي بينهُ وبين أعوانه[١٨٨أ]، وأُفرّق بينهُ وبين إخوانِه".

وقال لقلم الثُّلثين: مُرادي منك يا قُرَّة العين أن تفعل ما أُشير بهِ عليك، وتقبل ما أُلقي إليك. هذه كُتب الرُّمح عندي تشهد عليه بالمُخامرة، وأنه مع صاحبهِ في الرَّخاء لا في المُصابرة، فخُذها وانصرف إليه، وبيِّن لهُ ما خامر به عليه".

فقال له: "أُريد منك أن توجعني ضربًا، وتكلفني مُرتقًا صعبًا، وتُشهرني لتعلم بي البادي والحاضر والمُقيم والمُسافر، ليبلُغ ذلك السيف ويتحققه، وتكون هذه حيلة مُحققة"، ففعل بهِ ما أراد ليبلغ بحيلتهِ المُراد".

ثم قال له: "إذا وصلت إليه، وأقبلت بكُليَّتِكَ عليه، فأخبرهُ بما جرى لك معنا، وما اتفق عليك منَّا، ثم أخرج له كُتب الرُّمح فيظهر له ما فيها ويقصد الصلح، وربما توقع بالرُّمح ما يختار من أليم العذاب وشديد العقاب، فحينئذٍ يتغيَّر عليه قلوب الأجناد، ويريدون غدره في كل بادٍ وناد، فإنه رجُل قليل السياسة، بعيد الحراسة، كثير الطيش فينفر عنه الجيش، ولا يدري آداب الحروب، ولا الغالب من المغلوب، عديم التدبير، بعيد التحرير، فإنهم قالوا: "ليس من القوة التورُّط في الهوَّة".

---

(1) إضافة لضبط السياق.

ثم قال له: "أيها الرسول إنَّ السيف مُغترّ بقوته، مُفترٍ بصولته، ولا لأحد عندهُ شيئًا من البشر، وهكذا من كثرة الغدر. ألم يعلم أنهم قالوا: "من استضعف عدوه كبابهِ جواده وعثر"، وقالوا: "عليك بالحرب بالمكيدة، فإنها أبلغ من يجده مفيده"، وقالوا: "رُبَّ كلمة هزمت عسكرًا وأثنت دَسْكرًا"، فنحنُ نعلم أنَّ هذا السيف باغٍ علينا، ومادّ يد المُعاندة إلينا، وهو على كل حال هذا البغي مكسور غير منصور. قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾[1]، وقالوا: "لا ظُفر مع بغي، ولا راحة مع نَعي".

ثم قال له بعد أن ضربه: "سِر إلى السيف، وأعلمه بما لقيتَ مِنَّا من الحيف، ولا تخلي فينا ما يقول من إصابه وفصول".

فسارَ الرسول من وقتهِ سُرعة للسيف، وقد امتلأ بكل غشٍّ وزيف، حتى وقف بين يديه بعد أن أدى الخدمة إليه[٨٨ب]، ثم أخذ في البكاء، وعَرَّفَ المَلِك بحالِهِ وتشكَّى، ثم قال له: "إنَّ الرُّمح من أكبر أعدائك، وهو في وجهك بخلاف ما هو عليه من ورائك، فيكون ذلك على بالك"، فقال له: من أين لك ذلك؟

فقال له: "كُتبه إلى القلم بالمُخامرة عليك صباحًا ومساءً وغُدوةً وعشاءً"، ثم ألقى إليهِ الكُتب المذكورة بما فيها من الأمارات المشهورة، فلمَّا قرأها السيف أقبل على الرُّمح، وقال: "يا غدَّار تفعل معي فعائل الأشرار"، ثم أمر بقتلهِ، والحوطة على مالهِ وأهله، فحينئذ تغيَّرت على السيف عساكره، ونفرت قلوب دساتره.

فلمَّا عَلِمَ منهُم المُخالفة أخذ يسوسهم للمؤالفة، حتى طيَّب مِن بعضهم الخواطر، واستجلب المُعرِض والنافر، وكان الرسول حاضرًا فهوَّن إلى صاحبه، بعد أن اطلع على أحوال السيف وعَلِمَ ما عنده، وأخبر بجميع ما جرى، وما كان ممَّا اتفق بذلك المكان.

ثم أمرهُم بالرحيل إلى ظاهر باب البحر ليلقى هُناك القلم ويُذيقه الذبح والنحر، فركبت الجيوش الخيول، وضربت الأنفرة والطبول، وخرجوا بالدروع السابلة والعِدَد الكاملة، ونزلوا بظاهر الثغر بالميدان، وطلب القتال بذلك المكان.

---

[1] سورة الحج، الآية ٦٠ .

فلمَّا سَمِعَ القلم بخروج السيف في جموعه، فأمر جيشهُ بالتهيؤ[1] للحرب ووقوعه، ثم نادى بالظهور إليهم، والإقدام عليهم، فألهم عسكرهُ عليه، وسار للخروج إليهِ، حتى نزل مُقابلًا لخصمهِ، غير فَزِع مِن جِدِّهِ ووهمِه، ورتَّب عسكرهُ في منزله، ولم يأمر أحدًا منهم بقتال ولا منازله، وقال: "اِعلموا أنَّ قلب الحرب التدبير، وجسمها الشجاعة والتبيير، وعينها الحذر، وجناحها الطاعة، ولسانها المكيدة، وقائدها الرِّفق، وسائقها النصر، وقد جمع الله آداب الحرب في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2]، وقالوا[١٨٩أ]: "النصر مع التدبير"، وقالوا: "لا تطلب القتال إلا إن فرغ منكم الاحتيال"، وقالوا: "اجعل قتال عدوك آخر حيلتك"، ورتَّبهُم وأصلحهم ووصَّاهم ونصحَهم.

فلمَّا ترتب الجيشان للقتال، وتعبئا للطعن والنزال، طلب السيف المُنازلة، والسرعة في الحرب والمُناضلة.

فأرسل إليه القلم وهو يقول: "أما تعلم أيها الغدَّار الجهول أنَّ لنا مَالِك ضيغم وأمير مُعظَّم[3]، الحَاكِم على السيف والقلم وبالثغر على سائر الأُمم، نائب السلطنة المُعظَّمة، وناظر الخواص الشريفة الأُخرى، وله حجوبية الحُجَّاب الكُبرى، لم يَرِث ذلك عن كلالة، إذ كان أبوه نائب السلطنة المُعظَّمة ذي الجلالة، بالقُدس الشريف وما معه من الأعمال، فهو أصل عن أصل على كل حال، رحم الله سلفه وأبقى خلفه أمير، هلُمَّ بنا إليهِ لنعرض أمرنا عليه".

فبينما هُما على هذا الحال في المُجادلة والجدال، إذ سَمِعَ الأمير بخروجهُما إلى الحرب، وطلبهما للطعن والضرب، فاستدعاهُما فحضرا مُسرعين، أسرع من طرفة عين، فلمَّا استقر بهما الجلوس، وفي النفوس ما في النفوس، أزال ما عندهما من البؤس عينهما على ما كان، وقال: "ما هكذا فِعَال الإخوان. أما تعلما أنَّ اعتقاد الإخوان عُدَّة الزمان، وأنَّ أفضل الكنوز العمل الصالح والإخوان الصالحون، وإنه محتمل للأخ ثلاث: "ظُلم الغضب، وظُلم الزَلَّة، وظُلم الهفوة"،

---

(1) ث: بالتهئ.
(2) سورة الأنفال، الآية ٤٥-٤٦.
(3) الكلام في هذه الفقرة يُقصد به المؤلِّف.

وإنه من ظَنَّ أنه مُستغن بنفسهِ وُكِّلَ إليها، وأن حق الصداقة: "حفظ الصديق في غيبتِه، وعند نكبتِه، وبعد وفاتِه، وفي تِرْكَتِه"، وإنَّ عند نوائب الحدثان تظهر سرائر الإخوان، وإنهم قالوا: "أَغْضِ الصديق عن القَذَى والألم ترض أبدًا"، و"إنَّ الرَّجُل بلا إخوان كالسُّلطان بلا أعوان"، وقالوا: "ثلاث خصال تُجلب بهِنَّ المحبَّة: الإنصاف في المُعاشرة، والمواساة في الشِّدَّة، والبقاء على المودَّة".

فلمَّا سَمِعَا كلام الأمير- أعزَّ الله أنصاره وضاعف اقتداره- قال السيف: "يا قُرَّة العين، والجامع لهذين[٨٩ب] الخصمين، إنَّ هذا القلم يغيب عَنِّي أيامًا لا أراه، ولا أعرف مقرَّه ولا مأواه، ويمكُث المُدد الكثير لم يدر [شيء][1]، ولا يسأل عَنِّي".

فقال له الأمير: "لعلَّهُ يُريد بذلك عنك التخفيف، وعدم التكلُّف والتكليف، لتزداد في حُبِّهِ، ولا تضجر من وداده وقُربِه، أما تعلم أنَّ شِدَّة الأُنس بالناس تكسب الملالة وتنفي الجلالة، اغتباب الزيارة أمن من الملالة والضجارة، ولا يحتاج بالزيارة يذهب إليها عند أُولي المجد والنُّهى".

فلمَّا سَمِعَ القلم مقال الأمير- أيَّدهُ ونصره، وحقَّر عدوَّهُ ودثره- فقال: "الذي قاله مولانا الأمير حقيق عند ذوي التحقيق. أنا أخشى أن يكثر عليه الزيارة فيضجر ويملَّني فتحقر، فإنه ورد: {زُر غِبًّا تزدد حُبًّا}، وقالوا: "إنَّ ممَّا يُقل الهيبة دوام المؤانسة، وكثرة المُجالسة"، وقد قيل لرَجُل كان يقتل الأسود: "بِمَ اجترأتَ عليها؟ قال: "بطول وقوع نظري عليها"، وقالوا: "دومَان العتب أدوم للحُبّ".

فلمَّا سمع الأمير كلام الاثنين قال: "والله إنكما لحَسنان ونِعْمَ الإخوان، فإنَّ بلاء ما عندكما ممَّا كان قبل هذا الزمان، واسمعا منِّي ولا تُعرِضَا عن قولي وعَنِّي، ولا يظلم بعضكما بعضا، ولا يأخذ له عرضا، فقد قالوا: "يدُ الظالم أوله ذميم وآخرهُ وخيم"، وقالوا: "أخوف الظُّلم عقوبة مَن لا ناصر له إلا الله"، وقالوا: "للبغي رواجع، وللظُّلم مصارع"، وقالوا: "الظُّلم مردود على الظالم"، "الأعمال مُجازاة فاتقي العواقب"، وقالوا: "الغالب بالشر مغلوب".

---

[1] طمس في ث.

وليحذر كُلٌ منكُما أن يسمع في صاحبهِ كلام غيبة[1] أو نميمة، فإنَّ ذلك صفة ذميمة لا يقبلها عاقل ولا يقولها إلا أحمق وجاهل، فإنهم قالوا: "النمائم تزرع[2] الضغائن"، وقالوا: "نزِّه سمعك عن سماع الغيبة كما تُنزِّه لسانك عنها، فإنَّ المُستمِع شريك القائل"، وقالوا: "الساعي بالنميمة قاتل ثلاثة: نفسه، ومن سعى إليه، ومن سعى به"، وقالوا: "مَن بلَّغ إليكَ عن قائل فقد قابلكَ بما استحى القائل فيك أن يُقابلك به، فحينئذٍ هو[٩٠أ] القائل". قال عليه السلام: {لا تُبلغوني عن أصحابي إلا خيرًا، فإنِّي أُحب أن أخرج إليهِم وأنا سليم الصدر}.

ولو وكَّل واحد منكما لصاحبهِ بعهده وودِّه، ولا يغدرهُ في هزلهِ وجِدِّه، فإنهم قالوا: "الغدر ضامن[3] العثرة، قاطع يد النُّصرة"، وقالوا: "ما نقض قوم عهدهم إلا ظهر عليهم عدوهم"، ولا تجورا في أحكامكما، وأعدلا في قضاياكما، فإنهم قالوا: "الجُور يوجب الافتراق، والعدل يوجب الاجتماع"، وقالوا: "أعدل الناس مِن أنصف مِن نفسِه، وأجورهم مِن ظلم لغيره"، وقالوا: "البِر والعدل والإنصاف والإنفاق[4] من الاقتار من اليقين ومكارم الأخلاق"، وقالوا: "العدل ثبات الدُّنيا، والجور زوالها"، و"العفو والانتصار لله من شيم الأحرار"، وقالوا: "من لم يعف عن المكروه لا فرق بينه وبين المعتوه"، وقالوا: من لم يعف عن الصديق عري عن التحقيق" وقالوا: "اِعف عن صديقك تنجح في طريقك"، وقالوا: "من لم يتصدَّق بعِرضه، فإنه ما يروم من غرضه"، وقالوا: "صديقكَ رزقك، فارضَ بهِ يحُصل أملك":

ومَن لم يُغمض عينهُ عن صديقهِ وعن بعض ما فيهِ يمُت وهو عاتب
ومن يتبع جاهدًا كل[5] عَثْرَةٍ يحير ولا يبقي له الدَّهر صاحب[6]

فعليكما بأحسن الخِلَال في الحال والمآل، ولا يتغير أحد منكُما على صاحبهِ بسماع قيل ولا قال، واتركا المِرَاء والجِدَال حَلَّاكُما الله بأحسن الأحوال، وكونا مِن الكاظمين الغيظ والعافين، وأحسنا إنَّ الله يُحب المُحسنين".

---

[1] ث: "عيبة"، وكاتب النص كثيرًا ما يُهمل نقط بعض الحروف.
[2] ث: يزرع.
[3] ث: رضامن.
[4] ث: الاتفاق.
[5] ث: ومن يتبع جهدا هوا كل.
[6] من قصيدة للشاعر كثير عزة بعنوان "أشاقكَ برقٌ آخرَ الليلِ واصبُ".

ووصَّاهُما بأحسن سير في الرَّعِيَّة، وبالغ لهُما في ذلك في النُّصح بأعظم وصيَّة، وما ذاك إلا من أخلاقهِ الرضيَّة، وجميل فعالهِ المرضيَّة، فيا لها من وصيَّة لهُما وصَّاها، حمدها له من حضرها لديه وارتضاها، مِن أولي الحَلّ والعَقْد والعلم والنقد:

منهم من اشتهر بالمعروف والكرم وشاع جودهُ في العرب والعجم، المُسدَّد في أحكامِه، المؤيَّد في نقضهِ وإبرامِه، فريد عصره ووحيد دهرِه، أوحد العُلماء والأعلام، ومُنفِّذ الأقضية والأحكام، قاضي قُضاة الإسلام[٩٠ب] والمُسلمين، سيف المُناظرين، والمُرتضي لشرع سيد المُرسلين، أبو محمد عبد الله جمال الدين، المالكي مذهبًا، المخزومي نسبًا[١]، أدام الله أيامه كما سدَّد أحكامه

ومنهم الإمام العلَّامة والحَبْر المُحقق الفهَّامَة، شيخ مشايخ الصالحين، كنز الفُقراء الزاهدين، فخر العُبَّاد والناسكين، شرف الدين، حاكم المُسلمين، المعروف في سائر الآفاق، أبو المفاخر عبد القادر بن عبد الرزَّاق الأنصاري المالكي[٢]، أجَلَّ الله مقداره، وحمد تحميدهُ وأركانه، ومن حضرهما من قُضاة الثغر وعُلمائه، وموقِّعي الحُكم وفقهائه.

فلمَّا سَمِعَ القلم والسيف هذه الوصيَّة قالا: "نِعْمَ ما أمرتَ بهِ في كل قضية، فعلى رؤوسنا السمع والطاعة لأوامرك المُطاعة.

فقال الأمير أعزَّ اللهُ أنصاره وضاعف اقتداره: "كُلٍّ منكُما يُقبل على أخيه، ويترك ما قاله فيه، ويجعل غايته الأسف، ويتمسَّك بقولهِ تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾[٣]".

ففعلا ما أمرهُما به، وقام كُلٍّ منهُما إلى صاحبه، وتعانقا وتحاللا وتعاهدا، وتخاللا على أن لا يعود أحد منهما إلى ما كان بينهما من المُشاقة والمُجادلة والمُحاققة، فحينئذ أرسلا إلى عسكرهما أن قد اصطلحنا فكونوا من ذلك على يقين، واتركوا الحرب وأتوا مسرعين، وبَلَّغَ الرسول الرسالة، وأدى كل عسكر

---

[١] قاضي المالكية بالثغر، لم أهتد لترجمة، وسيذكره في ق ١٧٩أ.

[٢] قاضي الإسكندرية وشيخ الشيوخ بها، أخذ عنه البقاعي، وتوفي في حادي عشري رجب سنة٨٤٤هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص٢٧١.

[٣] سورة المائدة، الآية ٩٥.

مقاله، فدخل العسكران مُستبشرين فرحين، ولفعلهِ شاكرين، داعين ببقاء هذه الدولة العادلة خَلَّدَ الله مُلك مَالِكهَا، وبألطافهِ الخفيَّة ونصره يُداركها آمين.

ثم إنه قال لهُما: "مُرادي أن أعرف ما سبب تشاحنكُما، وأصل تحاوركُما؟

فقالا له: شخص جلس بيننا الاثنين فأخذنا بالعين، ورمى بيننا بالبين، فكل مِنَّا قبل مقاله، ولم نَدرِ ما حاله".

فقال الأمير: لِمَ لا تثبتُّما ولأنفسكُما مَلكتُما، أما علمتُما أنَّ الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[1]، وقُرِأَتْ"فتثبتوا"، وكان الواجب أن تُحقِّقا صدقه من كذبه[١٩١أ] أو افتراءه بما جاء به، فإنِّي لا أشك أنه كاذب فيما قال لكم من قبيح المقال، فهل لا تأسَّيتُم بفعل مولانا السُّلطان- أعزَّهُ الله تعالى في سائر الأقطار والأوطان- لمَّا وُشِيَ[2] إليهِ أنَّ بالإسكندرية بغايا وخمورًا وفِسْقًا وفجورًا، وغير ذلك من المُحرَّمات والأمور المُنكرات، فأرسل- أعزَّ الله أنصاره- بالكشف عن ذلك فلم يوجد شيء هنالك، وهذا بعد أن تثبَّت فيما قيل له، فعَلِمَ أنَّ الوشي باطل وقلقلة، فأسبل على مَن قال سِتْرًا سابلًا، وعفوًا شاملًا، وذلك مِن تثبُّتِه وتمكُّن عقله، إذ هو المُسدَّد في قولِهِ وفعله، فلذلك مَلَّكَهُ الله تعالى البلاد، وأطاع له العِبَاد، وأتته مُلوك الأرض طائعة وسلاطينها خاضعة، لا زال مُطاع الأوامر، وفي الخلائق دائمًا ناهيًا وآمر:

مَلِكٌ يَهِبُ النصر مِن أعطافهِ ... ويُبين في حركاتهِ التأييد
نشأت عُلاه مع النجوم وقبلها ... ولهُنَّ مِن بعد النجومِ خُلود
مُتكامل الأوصاف طود مهابة ... ودراية وديانة مسعود
ويُريك مِن آرائهِ ورويِّهِ ... تحرير نحرير عَلاهُ الجود
مَلِكٌ ينور الفجر مِن وجناتهِ ... فكأنما هو للصباحِ عمود
فالله يُخلِّد مُلكَهُ ويُديمَهُ ... بمُحمَّدٍ خير الورى المحمود

وقال الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجلة المصري صاحب كتاب "سكردان السُّلطان" رواية عن صاحب كتاب "البُستان الجامع لتاريخ الزمان"[3] في

---

(1) سورة الحجرات، الآية ٦.
(2) ث: رشي.
(3) منسوب لعماد الدين الأصفهاني(ت:٥٩٧هـ)، وهو منشور بتحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري.

وصف ملوك الدُّنيا: "إنه كان للتُّرك مُلوك يُقال لهم "الخاقانية"، وللديلم مُلوك يُقال لهم "الكاشانية"، وللفُرس مُلوك يُقال لهم "الأكاسرة"، وللرُّوم مُلوك يُقال لهُم "القياصرة"، وللأنباط مُلوك يُقال لهم "النماردة"، وللعرب مُلوك يُقال لهُم "التبابعة"، وللقبط مُلوك يُقال لهُم "الفراعنة"، هُم أعظم ممَّن ذُكر من المُلوك جميعًا، وهُم أصحاب الديار المصرية".

قال[٩١ب] صاعد في "طبقات الأُمم": أهل مصر كانوا أهل مُلك عظيم في الدهور الخالية والأزمنة الماضية"[١].

فلمَّا كانت سلطنة مصر والشام بهذه الرُّتبة العليَّة التي فاقت جميع مُلوك الأرض بمدائحها السنيَّة، اختار الله تعالى المَقام الشريف نصرهُ الله وأيَّدهُ وبلَّغهُ مقصده ومسئوله، وأجناهُ من شجرة سؤاله ثمرة سؤله، ومنحهُ سلطنة تقصر عن تأميل إدراكها الطالبون، ولا يقدر على منالها بجهدهم واجتهادهم الراغبون، بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾[٢].

وقيل في الآثار الإسرائيلية: إنَّ الله تعالى أنزل في كتابهِ على بعض أنبيائه، وقيل إنه أرميا: "إنَّ قلوب المُلوك بيدي أُقلِّبها كيف أشاء، فمن أطاعني جعلتهُم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهُم عليه نِقْمَة، وتفاخم ذنبه في النفوس، فلا يُرجى له عفو، ولا [يُـ] توقع عنه صفح، فإذا أُقيم مقام الانتقام منه، وتحكمت يد الاقتدار عليه، أنطق الله تعالى لسانه بما يرغب المُنتقِم منه في العفو عنه، ورُبما يزيد على الصفح والعفو عن جريمتهِ بالإحسان إليهِ والرعاية له".

---

(١) سكردان السلطان، ص١٥١.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٢٦.

[فصل]
في صفة الملبوس
لكل مَن يُنسب إلى المُلك الشريف من الخاص والعام(١)

[ذكر ملبوس السُّلطان]

فأول ما نبدأ بجميع ما يليق بالسُّلطان من الملبوس، وتفصيله يأتي في فصل المواكب إن شاء الله تعالى.

فيليق به أن يلبس الشاش(٢) الملفوف على الكُلفتة، وصفاتها ملفوفة، وهي من قُدامها مُملَّسَة، ومن خلفها مُضَلَّعَة، وبها كلبندين من فضة أو من ذهب، وخيط حرير أسود مشبوك بالكلبندين، ويُعرف عند اللفَّافين بـ"البَند"، يدور من تحت اللحية؛ خوفًا أن تقع الكلفتة فيكون حافظًا لها، والكلفتة من صوف أحمر

(١) هذا الفصل أوردهُ المؤلِّف مختصرًا في الزُّبدة ص٨٨، فقال: "... من الخاص والعام، وهم طوائف عديدة، لكل طائفة قماش لا يوافق طائفة أخرى، ولولا خشية الإطالة لذكرتُ قماش كل طائفة على عدته كما وضعته في مصنفي الأول، ولكن يكفي من إظهار الأُبَّهة إعلام ذلك، حتى إنه إذا لبس أحد من طائفة قماش أحد من طائفة غيرها خرج عن الهندام، وصار منسوبًا إلى تلك الطائفة، وقد ضبطتُ الطوائف فكانت نيف عن مائة طائفة، كل طائفة لها شُغل بذاتها، وهذا في غاية العظمة، واتفقت نُكتة أحببتُ ذكرها...".
وتحدَّث ابن فضل الله عن زِيِّ أعيان المملكة بصورة مُختصرة، وعلى كلام ابن فضل الله اعتمد القلقشندي في حديثه عن زِيِّ أعيان المملكة، وقسَّمهُم على أربع طوائف: أرباب السيوف، وأرباب الوظائف الدينية، ومشايخ الصوفية، وأرباب الوظائف الديوانية، والمقريزي في حديثه عن زي الأمراء والعساكر في الدولة التركية، وكلام هؤلاء جميعًا مُقتضب، والمؤلِّف مُتفرِّد بتفاصيل هذا الباب على حد علمي حتى اليوم. انظر: مسالك الأبصار، ص٢٧-٢٩، ٤٧-٤٩؛ صبح الأعشى، ج٤، ص٣٩-٤٣؛ الخطط، ج٣، ص٧٠٣-٧٠٥.
(٢) ث: الشاس.

مضرب ملصوق على ورق، وبأعلى وسطها زرّ أحمر، ولا بُدَّ من الكرَّاثة، وصفتها أن يكون طرف الشاش بارزًا بوسط اللف، والكرَّاثة تكون بشاش السُّلطان خاصة[٩٢أ]، ولها صانع ولفَّاف مُختص بها، يلفها على القالب الخشب بالضلوع العظم والإبر، وهي من أحسن الملابس وأجملها.

ويليق بهِ لبس التخفيفة الملفوفة على الطاقية الخضراء خاصة، فإمَّا أن يكون خبيرًا بلفِّها تُركي، أو يحتاج إلى من يلُفُّها له ممَّن له خبرة، ولا يشترط حصرها في شخص مُعيَّن.

ويليق بهِ لبس القبع السُّلطاني، وصفته: مطفور عرض ثُلث ذراع من القُطن، وعليه قُنْدُس عرض ثُلث ذراع، وبوسطهِ شرابه مجفر بزر.

ويليق بهِ لبس الكوامل الطاش، سواء[١] كان مَخملًا أو صوفًا أحمر أو أخضر، والكوامل جمع كاملية، صفتها طويلة الكُمّ، وبكل كُمّ عند العضد باذهنج، وبصدرها حنيني غير لونها مُفرى بوشق، وجميع الكاملية مفرية بسمور، ولها مقلب سمور طوله ذراع ونصف، ومعنى الطاش أي ظاهرها المقلب، وهي من أجلِّ القُماش، حتى إنه لا يُمكن أن يلبسها إلا السُّلطان ونُوَّاب السلطنة الشريفة- وسُنبيِّن ذلك- والأُمراء مُقدَّمو[٢] الألوف بالديار المصرية.

ويليق بهِ لبس الفوقانيات الصوف الأبيض، كل صنف في أوانه، والفوقانيات جمع فوقاني، وصفته: أمَّا الصوف بوجهين أحمر وأخضر، والأخضر من ظاهره، وهو قصير كُمّ، مفتوح من قُدَّامِه، يُزرَّر عند اللِّبس، وله مقلب ذراع وثُلث، وبصدرهِ جَيب، وبذيلهِ فقيشات، والفقيشة في كل ذاملة تفريجة قدر شبر، وأمَّا الأبيض من بعلبكي رفيع، تفصيله نظير الصوف، غير أنَّ على كتفه طِرازين باهي من الحرير الأسود، عرض سُدس ذراع.

ويليق بهِ لبس الكوامل بالأطواق العجمي، وصفتها ما تقدَّم، وأمَّا الأطواق العجمي فهو على صنفين: صنف مُركَّب عليه جلد سمور، سابلة على الصدر، وصنف بطَوق خاصة، بغير جلدين.

---

[١] ث: فسواء.

[٢] ث: مقدموا.

ويليق بهِ لبس الطَطَريَّات الصوف والأبيض، أمَّا الصوف فهو على ثلاثة أصناف: صنف قصير كُمّ، وصنف طويل كُمّ، وله طوق عجمي بجلد سمور مسبولة كما تقدَّم، وصنف صَنَّفَهُ المَلِك الأشرف بَرسْبَاي قصير كُمّ بمقلب طاش سمور، ولم يُسبق إليه[٩٢ب]، وقيل: "فعله غيره"، والططريات جمع ططري، صفته بُشت، وذيل البُشت مفري، والذيل بوجه حرير بأربعة بنود: بندان يُشدان في الوسط، وبَندان يُشدَّان تحت الإبط الأيسر، وأمَّا الططريات البيض من بعلبك طويل الأكمام بغير طوق على الصِّفة المُتقدِّمة.

ويليق بهِ لبس السَّلاريَات القصيرات الأكمام، سواء كانوا بوجهين، أو بوجه وفروة، وسَجْف وفروة، ويُسمى "ملكي"، وأمَّا الفِرَاء التي تُركَّب على السَّلاريَات إمَّا أن يكون سمورًا أو وشقًا أو قاقومًا أو سنجابًا، والسَّلاريَات جمع سَلار، وصفته صفة الفوقاني، إلا أنه بغير طَوق، وليس بهِ فقيشات، وكذلك السَّلاريَات البعلبكي الأبيض.

ويليق بهِ لبس القرضيَّة، وصفتها صوف أزرق طويلة الكُمّ، بكُمَّيها بواذهنج كما تقدَّم، وبصدرها جَيْب، وهي مفتوحة، ومُركَّب عليها فرو وفرض أبيض، ولها مقلب سابل ذراع وثُلث.

ويليق بهِ لبس الملاليط البيض، وصفتهم مفهومة، ويُشدّ وسطه عليها بالشدود البيض المطوية، ويُغرس في الشَّدِّ على وسطهِ من قُدَّام منديل مسبع سَكندري يُعرف بـ"منديل السيف".

ويليق بهِ لبس الكبورة الرفاع المضربة الأكتاف، والأشرفيات الصوف والبعلبكي بغير أكمام، تصنيف المَلِك الأشرف.

ويليق به لبس الكاملية الأكرة، وهي من بعلبكي بمقلب، وقد تقدَّم وصف الكاملية، وعلى كتفيهِ طُرز من زركش بريش، بوسطهِ بند أصفر مشدود عليها.

ويليق به لبس الأخفاف البيض مع القُماش الأبيض والأصفر، وهو في الشتاء مع القُماش الصوف، وهيئة الخُفّ مشهورة، ويكون الخُفّ ببطانة بعلبكي وتزكاوات، وصفتهم بأزرار وعُرى وأُكر، إمَّا عنبر أو لؤلؤ أو ذهب أو فضة أو حرير مُقصَّب، ولفائف يُلف بهِم الرِّجْل عند لبس الخُفّ، والأليق أن يكونوا بيضًا سدجًا.

ويُلبس فوق الخُفّ المهاميز، وصفة المهماز: إمَّا أن يكون قالبه ذهبًا أو فضة، وسقطه ذهبًا، وإمَّا أن يكون حديدًا مُكفَّتًا[١٩٣أ] بالذهب مطلي وسقطه فضة، ولا بُدَّ من السِّير السرداقي، والمهاميز أصناف عديدة منها: البركاوي وهو بغير حَدّ، ومنها الشيخوني وهو كُتلة، ومنها وبه حُزّة، ومنها صنف بهِ عُقدة، ومنها صنف أشرفي.

وأمَّا لبس السراويل يليق بالسُّلطان، وبكل من يُنسب إلى المُلك.

ويليق بهِ لبس سراميج الخُفّ عند لبس الخُفّ، وصفتها بُرغالي سُود ببطانة من الحور الأحمر، ولها ميالة من ظاهرها وكعب مظفورين، ونعلها من الآدم المدبوغ بالعَفْص، والبُرغالي يُصنع من أكفال الحمير، يُصنع على دخن ليصير كهيئة الحب من غير نونة.

ويليق به لبس المشَّايات بغير خُفّ، والمشَّاية بنونة مُستوية في التفصيل.

ويليق بهِ لبس المداس الناصرية، وصفتها من الجلد الطائفي، ببطانة حمراء، مكسورة الكعب.

ويليق بهِ لبس القُبقاب في أماكن مخصوصة، يأتي بيانها إن شاء الله تعالى.

[ذكر ملبوس الخليفة]

وأمَّا ما يليق بلبس أمير المؤمنين: يليق به لبس شاش الخلافة، مُدوَّر[1] على كوفيَّة، وبهِ عَذبة مسبولة من خلفِه، وفيها قولان: هل هي عَذبة أو كرَّاثة؟ وقد تقدَّم وصف الكرَّاثة في شاش السلطنة، وأمَّا العَذَبَة فمشهورة في غالب عمائم الصوفية، وربما تُسمَّى بغير هذين الإسمين.

ويليق به لبس التخفيفة، وصفة لفها بين الفقيهي والتُّركي على كوفيَّة بارزة قدر شِبْر من اللفة.

ويليق بهِ لبس الفُوقانيات الصوف الأبيض، وصفة الفوقانيات تقدَّمت، لكن في الصوف تغيُّر، وهو أن يكون بوجهين: وجه مسكي، ووجه أخضر، والمسكي مِن ظاهر، وبقية ملبوسِهِ بين التُّركي والفقيهي.

---

[1] كتب فوقها في ث: ملفوف.

ويليق بهِ ملبوس الأخفاف، أمَّا القاعدة بغير مهاميز، وأمَّا الآن: فتارة يلبس المهاميز، وتارة يتركهم.

[ذكر ملبوس قُضاة القُضاة والعُلماء]

وأمَّا ملبوس قُضاة القُضاة والعُلماء أئمة الدين: يليق بهِم لبس الكودبانات، ويُشترط فيهم العَذَبات السابلة من خلفهم كما تقدَّم لقُضاة القُضاة خاصة، ويليق بقُضاة القُضاة لبس الجُبَب من الصُّوف الأبيض المَلطي، وفتحة الطَّوق[٩٣ب] على الكتف من غير مقلب، وكذلك الجُبَب البعلبكي على هذه الهيئة.

ويليق بالجميع لبس الطيلسانات، خلا قاضي قُضاة الحنفية، ويليق بهم لبس الجَنْدات، وهُم جمع "جَنْدة"، وصفتها مفتوحة بأكمام، طول ذراعين في عرض ذراع، بمقلب طوله ثُلث ذراع، سواء كانت صوفًا أو بعلبكًا، وأمَّا الصوف الأحمر فلا يليق لهُم لبسه جُملة كافية.

ويليق بهِم لبس الفَرجِيَّات، وصفتهم صِفَة الجَنْدات غير أنهم أرق كُمّ، وهُم بغير أطواق، ويليق بهم لبس الملاليط سواء كانوا صوفًا أو بعلبكيًا، وبقية ملبوسهم معروف، أمَّا عند التُّرك لفظ "الملوطة" إنما هي البعلبكي خاصة.

[ذكر ملبوس الوزير والمُباشرين]

وأمَّا ملبوس الصاحب الوزير والسادة المُباشرين:

أمَّا الوزير على القاعدة القديمة، يكون ملبوسه كهيئة ملبوس المَلِك، وملبوس المَلِك قديمًا فلا يحتاج إلى وصفهِ هاهُنا، وأمَّا الآن إذا كان تُركيًّا يليق بهِ أن يلبس كما يلبس الأُمراء، ولمَّا كُنْتُ وزيرًا كُنْتُ ألبس على هذه الهيئة.

وأمَّا إذا كان الوزير مُتعمِّمًا يليق بهِ أن يُناسب رفقتهِ السادة المُباشرين في الملبوس، وهم: ناظر الإنشاء الشريف، وناظر الجيوش المنصورة، وناظر الخواص الشريفة، وناظر الدولة الشريفة، وأمَّا الأُستادَّار فملبوسه كملبوس الأُمراء.

ويليق بهِم لبس جُبَبْ الصُّوف الملون، وصفة الجُبَّة: بوجهين، وهي مشدودة، وبها مقلب طول ذراع ورُبع، ويليق بهِم لبس الجَنْدات الصوف الملون خلا الأحمر، وصفة الجَندة تقدَّمت، ويليق بهِم لبس الجُبَب والجَنْدات البعلبكي، وبقية قُماشهم معروف.

ويُشترط لبسهم الأطواق والعمائم الكتايات، وصفة العمامة الكتاية أنها مُضلَّعة، وهي صنعة من أحسن الملابس، وربما الآن البعض يختصرها، وهو غلط، ويليق بهم لبس الأخفاف والمهاميز.

وأمَّا بقيَّة الدواوين فنذكر ما يليق بهم من الملبوس.

أمَّا ناظر ديوان الجيش، وناظر ديوان المُفرد، وناظر الخزانة[٩٤أ] الشريفة، وناظر الإصطبلات، وكاتب المماليك الشريفة فلبسهِم نسبة كهيئة لبس السادة المُباشرين المُقدَّم ذكرهم، لكن مُختصَر لبس الكتاية، وأطواقهم بحُكم النصف.

وأمَّا بقيَّة الدواوين والموقعين الآتي ذكرهم في باب وصف السادة المُباشرين أركان الدولة الشريفة فلبسهم واحد، وتفصيلهم من القُماش كما تقدَّم، إلا أنَّ الذي بهِ مقلب طولُه ثُلث ذراع، سواء كان صوفًا أو أبيض، ولا يليق بهِم الأطواق، والقاعدة القديمة أنهم لا يلبسون أخفافًا، وأمَّا الآن فمنهُم من يلبس.

[ذكر ملبوس الأُمراء]

وأمَّا ملبوس الموالي الأُمراء: جُملة ملبوسهم واحد كما تقدَّم في وصف ملبوس السُّلطان، سواء كانوا بالديار المصرية أو بالممالك الإسلامية، وكذلك نُوَّاب السلطنة الشريفة.

[ذكر ملبوس أرباب الوظائف المُفردة]

وأمَّا ملبوس أرباب وظائف مُفردة. أمَّا ملبوس الإمام فتخفيفة بين التُّركي والفقيهي، ويليق بهِ لبس الفَراجي الصوف والأبيض خلا الأحمر، ويليق بهِ لبس الطوق والأخفاف والمهاميز.

وأمَّا ملبوس المُحتَسِب فعلى حسب هيئتِه، فإن كان تُركيًّا فليلبس ملبوس الأُمراء، وإن كان فقيهًا يلبس ملبوس القُضاة.

وأمَّا الحُجَّاب يليق بهِم أن يلبسوا ملبوس الأُمراء.

وأمَّا أمير شكار، والمهمندار، والوالي، ونقيب الجيش فملبوسهم ملبوس الأُمراء، إلا أنَّ بأوساطهِم بنود من حرير أحمر، مظفور بأُكر: إمَّا فضَّة، وإمَّا بلُّور بشراريب.

وأمَّا بقيَّة أرباب الوظائف المُفردة الآتي ذكرها في الثامن عشر، الذي يُذكرون بهِ بحسب اختيار المَلِك، فمَن كان منهُم تُركيًّا يقتضي لبس الأُمراء، ومن كان فقيهًا يقتضي لبس القُضاة، ومن كان غير ذلك فيصير سَمِجًا خارجًا عن الهندام، فلا يُذكر هاهُنا.

وأمَّا البريدية فملبوسهِم ملبوس الأُمراء، إلا أنهم يستعملون في الأسفار تعليق الشَّرَّابة الصفراء من خلفه، والجِرَاب الذي بهِ الأوراق بوسطه.

[ذكر ملبوس أعيان الأجناد والمماليك]

وأمَّا ملبوس أعيان الأجناد القرانيص، وسُقاة الخاص الشريف، والخاصكية[٤٩ب]، والسُّقاة، والسلاحدارية، والجمقدارية، والطبردارية، والجكندارية، والششنكيرية[١]، وأُمراء مشوي بغير إمرة، والمُشرفين، وأُمراء [آ]خُوريَّة أجناد بغير إمرة، والزدكاشية، والبجمقدارية، والسواقين، والجمدارية، وبقية المماليك السُّلطانية والكتابية[٢].

أمَّا أعيان الأجناد القرانيص فيليق بهِم أنهم يلبسوا نظير ملبوس الأُمراء كما تقدَّم.

وأمَّا سُقاة الخاص فيليق بهِم أن يلبسوا الحوائص[٣] وأقبيتها، والطُرز الزركش بالريش، وصفة الحياصة حرير بوجهين أحمر وأخضر من ظاهر، وبأوساطهم سير سرداقي، ومُركَّب عليها قصاطل من ذهب، العادة القديمة أنها ستة عشر قصطلًا، وأمَّا الآن فربما يُزيدونها وينقصونها محشوة شمعًا، وكل قصطلة مُركَّبة بثلاثة مسامير صغار جدًا مطلية، نافذة إلى السير، وبها طرف وإبزيم، والإبزيم مُركَّب على قطعة مُركَّب عليها، ولها محبس، وزوج تعاليق بسقط ذهب يمينًا وشمالًا، يُعلَّق باليمين السولق، وصفته بُرغالي أبيض بسقط فضة في قطع الطلحية الورق، ويُعلَّق بالشمال بدلة سكاكين وأنصبتهم صندل، وأغلفتهم بُرغالي أبيض، ويُعلَّق من جهة السولق منديل معروف بـ"الحياصة"، طوله ذراعان مُطرَّز، وأمَّا قَباء الحياصة فهو من بعلبكي أبيض مفتوح من قُدَّامِهِ يُزر عند اللبس، وبصدره جَيْب، وأكمامه بين الطويل والقصير، حتى إنها

---

[١] أي الجاشنكيرية.

[٢] ث: الكتانية.

[٣] ث: الخوابص.

عند اللبس تصل إلى المِرفَق من الطيّ، لا يُمكن أن يُلبس إلا فوق الطَطري، وقد تقدَّم وصف الططري.

ويليق بهم لبس الأقبية الصوف بالفرو القاقم، والأقبية جمع قَبَاء، وصفته مفتوح من قُدَّامِهِ بأكمام طويلة رقيقة، وبها بواذهنج ومقلب من قاقم مسبول من خلفهِ طول ذراع وثُلث، ويليق بِهِم لبس الأقبية السنجاب، وتفصيلها كما تقدَّم، غير أنَّ المقلب السنجاب أقل من المقلب القاقم.

ويليق بِهِم لبس السلاريات الصوف الطويلة الأكمام، وتفصيلها تفصيل الأقبية إلا أنها بغير مقلب، ويليق بهم السلاريات البيض البعلبكي القصيرة الأكمام[١٩٥أ]، ولا يليق بالمذكورين لبس شيء قصير كُمّ غير ذلك.

ويليق بهم لبس الططريات الصُّوف الطويلة الأكمام، سواء كانت بطوق عجمي أو بغير طوق، ويليق بِهِم لبس القرضيات، وقد تقدَّم ذكر أوصافها، ويليق بِهِم لبس الملاليط وما أشبه ذلك، ويليق بهم لبس الطواقي بالقُنْدُس، وصفتها رُبع ذراع صوف ملون غير الأحمر ورُبع ذراع قُنْدُس، ويليق بهم لبس الأقباع السُّلطاني؛ وصفتهم تقدَّمت، ويليق بهم حمل مناديل السيف في الوسط.

وأمَّا ملبوس الخاصكية فنظير المذكورين.

وأمَّا ملبوس السُّقاة، والسلحدارية، والجمقدارية فنظير المذكورين، غير أنهم لا يليق بِهِم لبس الطرز الزركش، ولا الأقبية القاقم، ولا السلاريات البعلبكي، ولا الأقباع السُّلطاني.

وأمَّا الطبردارية، والجكندارية، والششنكيرية، والأُمراء أخورية الأجناد، والزردكاشية فملبوسهم على حسب اختيار المَلِك، فمنهُم من يلبس كسوة السُّقاة والسلحدارية والجمقدارية، ومنهُم من يلبس كسوة الحُجَّاب المُقدَّم ذكرهم.

وأمَّا البجمقدارية فيليق بهِم ما يليق بالخاصكية من الملبوس.

وأمَّا الجمدارية فيليق بِهِم ما يليق بالسُّقاة ورفقتهم المُقدَّم ذكرهم من الملبوس، وبقية المماليك السُّلطانية كذلك.

وأمَّا الكتابية فيليق بهم لبس الملاليط واليابنجيَّات، وصفتهم: جوخ بوجهين، مفتوح من قُدَّام، ويُشترط على كل من كان تُركيًّا أن يكون عندهُ يابنجيًّا برسم أيام المطر خاصة من السُّلطان إلى الكتابي، والكتابي هو المملوك الذي مُقيم بالأطباق بغير خدام ولا قُماش، ويليق بهِم لبس الفِرَاء الكباشيات، والطواقي بالقُنادس، وأمَّا[1] الآدُر الشريفة والطواشية[2].

[ذكر ملبوس الخوندات والسراري]

أمَّا ملبوس الخُوندات فكان في الزمان المُتقدِّم يلبسون الشاش، والزكينات، والشربوش، والمارداني، وقد بطل لبس ذلك في هذه الأيام، فلا يُحتاج إلى وصفه.

وأمَّا الشربوش[3] فيستعملوه العرائس عند الأفراح، وصفته على قطع اللبَّاد الذي يلبسوه الحيادر: إمَّا أن يكون زركشًا وريشًا[٩٥ب]، وإمَّا أن يكون لؤلؤًا.

ويليق بالخُوندات لبس القمصان بالأكمام الوساع، وقد تقدَّم ذكر طرف شيء من ذكر القُمصان في فصل ذكر الإسكندرية[4].

ويليق بهِم لبس القَنادير المزركشـ[ـة]، وكل قَندورة بها ما ينيف عن ثلاثة آلاف مثقال ذهب، ويليق بهِم لبس القَنادير النخ والمخمل، ويُركَّب عليها تراكيب مزركش وريش ولؤلؤ بحول القندورة.

ويليق بهم لبس العصائب، وهي من ورق ملصوق، تُلفّ بها مناديل النخ والحرير، يُشد على الطواقي.

ويليق بهِم لبس اللوامين الزركش والريش، المُرصَّعة بأصناف الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والبلخش وما أشبه ذلك، التي تُشد على الورق، وكذلك الردَّات المُرصَّعة، وهي بحقِّ النصف من الليمونة، وكذلك الأقراص المُرصَّعة التي تُشد على العصابة.

---

(١) ث: وأمَّا وأما.
(٢) كذا في ث، وغير موجود في ب، وسيأتي الحديث عن ملابس الطواشية.
(٣) ث: السربوس.
(٤) انظر ق٤٤ب.

ويليق بهِنَّ لبس الحِلَق التي تُعلَّق بالكلاليب في العُصابة، فإنَّ الأُذن التي تحملها يُقاوَم كل زوج عشرة آلاف دينار.

ويليق بهِنَّ لبس القُماش المخمل المُذهَّب على حُكم ما يخترنه من التفصيل، وكل ذراع منه يسوى أربعين أفلوريًّا[1]، ويليق بهِنَّ لبس القُماش السكندري الخاص، وتفصيل شرحه يطول.

ويليق بهِنَّ لبس الأسورة المُرصَّع، ولبس التسادنيق، ولبس السلاسل المُزمَكَّة والمُكلَّلة، ولا بأس بلبس السلاسل المُؤلَّفة بالسَّبج واللؤلؤ، فإنه يليق بهِنَّ، وأمَّا بقية ملبوس الخوندات إن أردنا ذكره يطول الشرح.

وأمَّا السراري فيليق بهِنَّ لبس جميع ما ذكرناه بحسب الاتصال بالمُلك، لكن يكون لبس الخوندات أغلى[2] ثمنًا ولو شابه ملبوسهُنَّ، ويليق بالجميع لبس السَّمُور، والوشق، والقاقم، والسنجاب، ولا يليق بهم لبس الصوف، وأمَّا تميُّز قُماش الخوندات من قُماش غيرهنَّ يأتي بعضه في فصول ديوان الخاص الشريف.

ولو أردنا ذكر جميع ما يتعلَّق بملبوس الآدُر الشريفة لاحتجنا إلى مُجلَّدات، وما القصد ذلك، لكون أنَّ الحريم لهُنَّ اختيار في ملبوسهن، وهُنَّ محجوبات لا يظهر[نَ] لأحد إلا عند بعضهِنَّ بعضًا.

ولا بُدَّ يأتي في وصف الآدُر الشريفة ببعض ما يَظهر بهِ أُبَّهتِهَا، وبعض ما يشتمل عليه[٩٦أ] من الأمتعة الحسنة التي يلتذ السامع بذكرها، وليس يليق بهذا المكان ذكر ذلك؛ لكونهِ فصل الملبوس خاصة.

وأمَّا ما يليق بالأمير الزمَّام من الملبوس، ويُسمَّى "الزمندار"، وفي الحقيقة هو زِمامُ الآدُر الشريفة، يليق بهِ أن يلبس جميع ما يلبسه الأُمراء، غير أن كُلفته التي يُلفّ عليها الشاش تكون بيضاء خاصة.

---

[1] هي عملة ذهبية ضربتها فلورنسا سنة١٢٥٢م، وأُطلق عليها اسم أفلورين، وعُرفت في الأسواق الشرقية بأفلوري. انظر: رأفت محمد النبراوي: النقود الإسلامية في مصر، ص٣٤٠.

[2] ث: أعلى.

وأمَّا الطواشية والجمدارية فيليق بهم ما يليق بالزمَّام[1]، غير أن يكون مُختصَر الكُلفتة البيضاء.

وأمَّا بقية الطواشية فيليق بهِم لبس ما يلبسه المماليك الكتابية، وأمَّا إذا كان فيهم من هو صاحب وظيفة كالسواقين وما هو مذكور في فصل أرباب الوظائف المُفردة، فتقدَّم الجواب عن ملبوسهِم.

[ذكر ملبوس مُباشري البيوتات السُّلطانية]

وأمَّا ملبوس غلمان البيوتات:

ففرَّاش الخزانة يليق بهِ أن يلبس القماجين من الصوف الملون والأبيض، وصفته: فتحته مُطاولة، وطوقه العادة، وهو واسع الكُمّ.

وأمَّا خُدَّام السلخحاناه فكذلك.

وأمَّا الشربدارية فوصف ملبوسهم أليق من ذلك، إلا أنَّ عمائمهُم مُدوَّرة، ولا بُدَّ من الشُّدود الحرير.

وأمَّا ملبوس البابية فيُقارب ذلك، غير أنهم أطول في التفصيل.

وأمَّا ملبوس مهتار الركبخاناه الشريفة: قَباء صوف، وقَباء حياصة، وحياصة وطرز، وتقدَّم وصف ذلك، غير أنَّ برأسهِ عمامة كهيئة الكنانة، ملفوفة صنعة لفَّاف، ويليق بهِ الأخفاف والمهاميز من دون المهاترة، ويليق بمهاترة السلطنة خاصة.

وأمَّا لبس الرَّكَّابين فهو بداوي أكمام كبار وأزرار، ومقالب نصف ذراع سائلة، ويليق بهم لبس الصوف الملون والبياض، ويشدوا أوساطهم بالمناديل الحرير، ويليق الرئيس[2] الصُّفر الحسنة.

وأمَّا ملبوس الهَجَّانة فيُقارب ذلك، إلا أنَّ لهُم هيئة تُعرف بهِم في الملبوس، وهو أنَّ لهُم عَذَبات.

---

[1] ث: فرسم يليق به أن يلبس جميع ما يليق" ثم ضرب على ذلك، وكتب على الهامش "فيليق بهم ما يليق" صح"، وفي ب: "فيليق بهم أن يلبسوا جميع ما يليق للزمَّام".

[2] ث: الرائس.

ويليق بالجميع لبس الزُّموط، ولفّ العمائم البداوي، ويليق بجميع غلمان البيوتات لبس السراميج البُرغالي الأسود، خلا غلمان الركبخاناه.

وأمَّا الكنانية فملبوسهم لبس القُماش نظير البابية، غير أنَّ زيادة لبسهِم الكوامل بالأطواق، ويشدوا بأوساطهم[٩٦ب] البنود الحرير، **وكذلك الخازندارية ونُقباء البرددارية**.

وأمَّا الطَّبَّاخين فلا يُحتاج إلى ذكر أقمشتهم فإنها قبيحة، غير أنَّ مُعلِّمهُم يلبس حسنًا، مُقاربًا ملبوس الفرَّاشين.

وأمَّا البرددارية فأقمشتهم نَحِسَة، وربما غالبهم يلبس الفِرَاء والغيار.

وأمَّا الركبدارية فملبوسهِم شبه ملبوس المهتار، خلا الكنانة والقَباء والحياصة، ويلبسون القمجون.

وأمَّا البوابون فملبوسهم عجب، يميل إلى بلاد الواحات[1]، وربما غالب ملبوسهم الملحم، ويصنعونه أخضر.

وأما ملبوس السَّقَّائين فمن أقبح شيء يكون، **وكذلك المشاعلية**.

ومثل هؤلاء كثير لا يُحتاج إلى ذكر ملبوسهم، وأمَّا ذكرهم فلا بُدَّ منه في ترتيب المملكة في أبوابهم ما يختصره بحسب الاستطاعة.

وأمَّا الأوجاقية فيليق بهِم بعض ملبوس التُّرك، ولا بُدّ من لبس الططريات، وطواقي الأوجاقية نسبة صفتهِم: بيض مضرب من بعلبكي، محشوات قطنًا: النص قُنْدُس، والنصف أبيض، والقُرص جميعه كهيئة الكماجة.

[ذكر ملبوس رجال الحلقة بمصر]

وأمَّا ملبوس رجال الحلقة المنصورة بالديار المصرية- كثَّرهُم الله تعالى- فيليق بهِم ملبوس الأجناد القرانيص كما تقدَّم، وهُم الأعيان، وأمَّا البقيَّة فلا حرج عليهِم، وسيأتي بيان قاعدتهِم، وما كانوا عليهِ قديمًا.

---

(1) ث: الوحات.

[نكتة]

ووقعت نُكتة أحببتُ ذكرها، وهي أنه في أيام السُّلطان المَلِك الظاهر برقوق حضر قاصد من تمُرلنك، وأنزلهُ بدار الضيافة فجلس في شُبَّاكِها، فمَرَّ بهِ جماعة من الأجناد، وجماعة من الأوجاقية، وجماعة من الشربدارية، وجماعة من الفرَّاشين، وجماعة من البرددارية، وجماعة من السقَّائين، وجماعة من البابية، وجماعة من الغلمان، وجماعة من السُّوَّاس، وجماعة من الملقدارية، وجماعة من البطائقية، وجماعة من الكنانية، فسأل عن هذه المُختلفة الأشكال، فسمَّاهُم له من يعرف أسماءهم فتعجَّب.

ورأى جماعة مارين بالطريق من القُضاة، والفُقهاء، والتُّجَّار، والنواتية، وغير ذلك من جميع سُكَّان الديار المصرية[٩٧أ]، فقال: "والله إنَّ هذا مُلك عجيب، الذي ملبوس الخلق لا يُشبه بعضهم بعضًا، فإنَّ كل صنف من الناس له صنف من الملبوس، وهذا غاية ما يكون من الأُبَّهة".

فبلغ المهمندار ذلك، فطلع [أ]علم السُّلطان بما ذكرهُ القاصد، فأعجبَ السُّلطان ذلك منه، ورأى في نفسهِ أنه أعظم من غيره، فلمَّا أراد التوجُّه إلى مُرسلهِ أحضرهُ السُّلطان، وسأل منه عن كيفية ملبوس بلاده، فذكر له أنَّ السُّلطان يلبس مثل الفلاح، والفلاح مثل الأمير، الجميع ملبوس واحد، لا يُفرَّق بين أحد في ملبوسِه، فأعجبَ السُّلطان ذلك منه، وأنعم عليه، فهذا[١] أمر ظاهر شُوهِد بالعَيان[٢].

---

[١] ث: فهذا فهذا.

[٢] انظر: الزُّبدة، ص٨٨، وهو يأتي فيها بعد فصل المواكب.

[فصل]

في المواكب الشريفة

[موكب استقرار السُّلطان على العرش]

أول ما نبدأ بموكب[1] السُّلطان عند الاستقرار[2] على كرسي المُلك الشريف. يحضر أمير المؤمنين وهو لابس شاش الخلافة وفوقاني الخدمة، إن كان شتاءً فصُوف، وإن كان صيفًا فأبيض، ويلبس بقيَّة القُماش اللائق به في يوم الموكب، وقد تقدَّم وصف جميع ذلك، وقُضاة القُضاة أهل الحَلِّ والعَقْد، ويكون ملبوسهم الكودبانات والطيالسة وجُبب الصُّوف الملطي في أيام الشتاء، والبعلبكي في أيام الصيف، وقد تقدَّم أوصاف ذلك.

وإنِّي رأيتهُم تارة بعَذَبات بغير طيالسة، وتارة بالطيالسين بغير عَذَب، والظاهر أنَّ الأمر في ذلك راجع إلى اختيارهم.

والعُلماء أئمة الدين والقُضاة ملبوسهم الكودبانات والعمائم والطيالسة والجَندات على حُكم الأوقات والأزمنة، وقد تقدَّم وصف جميع ذلك، والسادة الموالي الأُمراء بأجمعهم يلبسون الكُلفتات والطرطريات البيض والفوقانيات على حُكم ما يقتضيه ذلك الفصل من صوف وأبيض، وبقيَّة ما يليق بهِم في المواكب، ويشُدُّون بأوساطهم السيوف، وقد تقدَّم وصف جميع ذلك.

والسادة المُباشرون- الصاحب الوزير وأركان الدولة الشريفة[٩٧ب] المُقدَّم ذكرهم- يلبسون الكتايات، وجُبب الصُّوف المُلوَّن بوجهين، وبقيَّة ما يليق بهِم،

---

(١) ث: "بمواكب"، وما ورد في المتن من ب.

(٢) الزُّبدة ص٨٦: أما موكب السلطان عند الاستقرار، فكان قديمًا بالصالحية، والآن بالقصر الأبلق.

وقد تقدَّم وصف جميع ذلك خلا الأُستادار[١]، فإنه يلبس أُسوة الأُمراء، أمَّا الوزير والمُشير فتقدَّم الكلام عليهما أنهما إذا كانا تُركيين يلبسان لبس الأُمراء، وإذا كانا مُتعممين فملبوس المُباشرين، والجُند يلبسون الكُلفتات، وأمَّا القرانيص ومَن هو من أصحاب الوظائف المُفردات، فمن يكون من الأتراك يلبس لبس الأُمراء في الخدمة على ما ذكرنا.

وأمَّا بقيَّة الأجناد على ما فصّلناهُم في الباب التاسع عشر[٢] في فصل الملبوس، فمنهم من يقتضي لبس الأقبية الصوف بالقاقم في أيام الشتاء، وأقبية البعلبكي وحوايص[٣] الذهب وطُرُز الزركش في أيام الصيف، وبقية ما يليق بهم من الملبوس في المواكب.

وأمَّا بقيَّة الأجناد المذكورين في الباب المذكور أيضًا يلبسون الأقبية السنجاب، وأقبية الحوائص[٤] البعلبكي، والحوائص الفضة على حسب ما قدَّمنا تفصيله، وبعضهم يلبس نظير القرانصة كما ذكرناه في الباب المذكور مُفصَّلًا.

وأمَّا بقية أرباب الوظائف المُفردة، فقد تقدَّم الكلام عليهم أنه: تارة يستقر في بعض الوظائف التُّركية مُتعمِّمًا، وفي الوظائف المُختصَّة [بـ]ـالمُتعمَّمين تُركيًّا، فيكون ملبوسهم على حسب ما هُم عليه.

فإذا اجتمع جميع من ذكرناهم، واتفق رأيهم على الطاعة لمن اقتضت سلطنته، واتفقوا على ذلك، فلا يخلو الأمر:

إمَّا أن يكون المُتسلطِن ولد سُلطان، قد تُوفِّيَ والده، وعهد له قبل وفاتِه.

وصفة العهد: جمع أئمة الدين أهل الحَلِّ والعَقْد، وأكابر من ذكرناهم، ويأخذ عليهم العهد أنه إذا تُوفِّيَ يستقر ولده، فإن كان الولد بالغًا رشيدًا فلا يحتاج إلى من يُدبِّر مُلكه، وإن كان غير ذلك فيُحتاج إلى مُدبِّر مُلكه ممَّن يختارهُ المُتوفِّي على حسب اختياره ومعقوله، ويُسمَّى "نظام المُلك"، وسنُبيِّن أحواله في بابهِ إن شاء الله تعالى، فحينئذ يُفوِّض إليهِ أمير المؤمنين ما عَهِدَهُ والده، ويُحلِّف مَن

---

[١] ث: أُستادار.
[٢] يقصد في أصل الكتاب أي "كشف الممالك".
[٣] ث: الحوابض.
[٤] ث: الحوابص.

يقتضي تحليفه على طاعتِه، ثم يكتب أئمة الدين سجلات بالعهد والتفويض والحلف[٩٨أ]، ويحكمون بصحته.

وإمَّا أن يكون ذا شوكة، واستضعف المَلِك، وأقام له دليلًا بطريقٍ شرعي يقتضي خلع المُتولِّي، واستقراره عوضًا عنه.

وإمَّا أن يُتوفَّى المَلِك فجأة، ويكون المُتسلطِن صالحًا للمُلك، مُتميزًا دون غيره، فيُبايعه أمير المؤمنين، ويُفوِّض إليهِ السلطنة، ويحكم أهل الحَلّ والعَقد بصحة التفويض، وإذا لم يحصل المُبايعة والتفويض فلا تصح سلطنة، فمع ذلك جميعه لا بُدَّ من رضى المذكورين وقوة شوكته.

فإذا اجتمع ما ذكرناه يُلبسه أمير المؤمنين شعار المُلك، وصفته تأتي مع جُملة التشاريف في فصل ذكر ديوان الخواص الشريفة.

ويكون جميع من ذكرناهم موكبين بالقصر الأبلق المُقدَّم ذكره، فحينئذ يطلع من الباب الذي بإيوان القصر الأعظم، الذي يفتح إلى الغرب بجوار الشُّبَّاك المُقدَّم ذكره، ويجلس على كُرسي المُلك المُقدَّم ذكره، ويُعرَض عليه الكُنية واللقب، فمهما اختاره يُسمَّى به، مثاله "المَلِك الصالح أبو المعالي"، وتُشال على رأسِ القُبَّة والطير بيد الأتَابِك، وبجانب الكُرسي الجمقدار بيده دبوس بولاد[١] مُكفَّت بذهب، فأول مَن يبدأ بمُصافحتِهِ أمير المؤمنين فينهض إليه واقفًا، ثم قاضي القُضاة الشافعية فينهض إليه أيضًا، وليس ينهض السُّلطان لأحد في مُلكِهِ شرقًا وغربًا سِوى هذين الاثنين، ثم بعد ذلك يأتي بقية قُضاة القُضاة وأئمة الدين، والقُضاة يُقبِّلون يده.

ثم بعد ذلك يجتمع الموالي الأُمراء ويُقبِّلون الأرض أولًا فأول، ويُقبِّلون رُكبته وهو جالس على الكُرسي، الأصغر يتقدَّم ثم يليهِ الأكبر إلى حين انتهائهم، ثم السادة المُباشرون جُملة، ثم من حضر ممَّن ذكرناهم يُقبِّلون الأرض جُملة، والشبابات السُّلطانية تُشبِّب، والجاويشية يُكرِّرون القول من أول الموكب إلى آخره، والأوزان تضرب والشُّعراء، ثم يُفوِّض لكل أحدٍ ما هو عليه، ويُنعِم على

---

[١] ث: "بولاذ"، وقد رسم كاتب النص هذه اللفظة على أربع صور: (بولاد) في ق١٠٢ب، ١٥٦ب، و(بولاذ) في ق٩٨ب، ١٠٢أ، ١٠٣أ، و(فولاذ) في ق١٠٤ب، و(فولاد) في ق١٠٣أ، وقد وحَّدتُ النص على "بولاد" فيما كُتب بالباء، و"فولاذ" فيما كُتب بالفاء. انظر: الدراري اللامعات، ص١٥٧.

من يقتضي الإنعام عليه بالتشاريف الشريف على ما يأتي بيان ذلك في فصل ديوان الخواص الشريفة، ثم ينصرفون إلى حال سبيلهم.

ثم يتوجَّه السُّلطان من مكان خرج أو من باب القصر ومن يتعيَّن توجُّهِهِ بخدمتهِ[٩٨ب] إلى الدهيشاة، ويُبرز مرسومه الشريف بتعيُّن خاصكية بما على أيديهم من المراسيم والتشاريف الشريفة إلى نُوَّاب السلطنة الشريفة بالاستمرار أو غير ذلك من التنقُّلات، وصفة كتابة المراسيم تأتي في بعض فصول باب ديوان الإنشاء الشريف، وصفة التشاريف يأتي في بعض فصول باب ديوان الخاص الشريف، وأمَّا بقية النُّوَّاب وأرباب الوظائف الذي يقتضي استمرارهم بإلباس التشاريف، والعادة القديمة أنها تُعيَّن على يد أمير من الأُمراء المُتعينين، وبقيَّة نُوَّاب السلطنة الشريفة كل واحد على يد أمير أو خاصكي مُعيَّن، وما ذكرنا الخاصكي إلا لِمَا رأيناهُ في هذا الزمان، وبقية المذكورين أعلاه يُرسل لهُم صُحبة كل خاصكي يتوجَّه إلى مملكة. هذا ما شاهدناه الآن.

فعند نهاية ذلك المجلس من التعيين وعرض التشاريف يتوجَّه المُباشرون جُملة صُحبة الصاحبي الوزيري إلى أن يوصِّلوه[1] إلى منزلِه، وينصرفون إلى منازلهم.

وأمَّا أمير المؤمنين فحين دخول السُّلطان يتوجَّه إلى منزلِهِ وهو لابس تشريف شريف، وصُحبته قُضاة القُضاة، والعُلماء أئمة الدين والقُضاة، فيقفون صفوفًا عند باب منزلِه، ويجوز عليهم، ويُسلِّم على طائفة طائفة وهُم يردون السلام، ثم ينصرف كلٍّ منهم إلى منزلِه، ونُوَّابه صُحبته وجماعته، والقاعدة القديمة كانوا يتوجَّهون بعد انصرافهم من خدمة أمير المؤمنين صُحبة قاضي القُضاة الشافعي، والآن: تارة إذا اجتمعوا لمثل ذلك أو غيره يتوجَّهون صُحبتِه، وتارة لا يتوجَّهون.

وأمَّا نظام المُلك الشريف إذا كان ينزل، فينزل جميع الأُمراء بخدمتِه إلى أن يوصِّلوه منزلِه، وينزلون عن خيولهم الغالب يُقبِّلون يده، وينصرفون صُحبة نائب السلطنة الشريفة بالديار المصرية إن كان، ويفعلون معه ذلك، وإذا لم يكن فيتوجَّهون صُحبة الأتَابِكي- وهو الأمير الكبير- فيفعلون معه كذلك، وإذا لم يكن

---

[1] ث: توصلوه.

[لـ]نظام المُلك ولاية بالديار المصرية فيتوجَّهون صُحبة الأتَابِكي خاصة، ويتوجَّه كلٌ من الأُمراء المُقدَّمين بمُفرده، إلا أن يكون أحد من الأُمراء جاره فيتوجَّهان جُملة، ويتوجَّه بعض[١٩٩أ] الأُمراء الصِّغار صُحبة الأُمراء الأعيان إذ كان بينهم صُحبة، ولا يُشترط ذلك عليهم.

وكذلك ينصرف جميع الحُجَّاب صُحبة حاجب الحُجَّاب إلى أن يصلوا منزلِه بعد أن يوصِّلوا من ذكرناهم، وكذلك الأميرآخورية الأُمراء، والذي بغير أمره ينزلون من الحلزون[١] صُحبة أمير آخور الكبير، وكذلك رؤوس النُّوب ينزلون صُحبة رأس نوبة النُّوب إلى أن يوصِّلوه منزله، وكذلك الدوادارية ينزلون صُحبة أمير دوادار الكبير إلى أن يوصِّلوه منزله وينصرفوا[٢]، وجميع الأجناد الأعيان وغيرهم يتوجَّهون، من لهُ صاحب يُقبِّل يده، ومن لم يكن له يتوجَّه إلى منزلِه.

[موكب يوم عيد الأضحى وليلتِه]

وأمَّا موكب يوم عيد الأضحى وليلتِه: يركب السُّلطان بالشاش والقُماش، ويجلس على كُرسي المُلك- المُقدَّم ذكره- بالقصر الأبلق الكبير بعد صلاة العصر من يوم عرفة بعد أن يتوضأ.

وصفة وضوءه أن يجلس على مُدوَّرة، ثم يفرش له سُفرة الطشت، وهي من حرير أصفر أطلس، ثم يوضع الطشت عليها، وهو من نحاس أصفر أسبادرية مُكفَّت بالذهب والفضة، ثم يجلس قُدَّام السُّلطان على رُكبتيهِ جمدار صاحب نوبة، ثم يأخذ الإبريق، وهو من نحاس أصفر مُكفَّت، وقد يُعملان[٣] من ذهب وفضة، ورأس نوبة الجمدارية واقف بجانبهِ، فيطرح منشفة الرِّجل تحت قدميه، وعلى رُكبتيهِ فوطة كافوري أو معنيز، ثم يُخرج المسواك من كيسهِ، ثم يمد المهتار يده، ويسكب على المسواك من الإبريق في يدهِ ويشربه، ويكون بين أخذ ششني للماء وللمسواك، ثم يتوضأ الوضوء المشروع، وعند انتهاء ذلك يَفرِد رأس نوبة الجمدارية منشفة الوجه على يديهِ، ثم يفرش السِّجَّادة ليُصلِّي عليها، ثم ينهض قائمًا، فيُقدَّم له القُماش مُناولة، فيلبسه على الترتيب بعد أخذ الششني.

---

[١] يقصد بئر الحلزون بالقلعة، والمعروفة ببئر يوسف. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص٦٤٨-٦٤٩.

[٢] وينصرفون.

[٣] يقصد الطشت والإبريق.

ويجتمع جميع من ذكرناهم لابسين قُماشهم على ما تقدَّم، كهيئة الموكب المذكور، خلا لبس التشاريف، ويتوجَّه السُّلطان من المجاز المُقدَّم ذكره، ويركب الفرس عند مسلك الحلزون، ويتوجَّه إلى الحوش[٩٩ب] راكبًا، ومعه من جماعتهِ الأخصاء مَن يأتي بيانه في الخصوصية، ويُتضحَّى هُناك، [على][١]ما سنذكره في فصل [ديوان الخاص الشريف][٢].

وبقيَّة الأُمراء والمُباشرين يتوجَّهون كما ذكرناه أولًا، ويُقبِّلون الأرض إلا أربعة، ويُقبِّلون جانب الكُرسي الذي المَلِك جالس عليه، فأول من يبدأ مُقدَّم المماليك السُّلطانية، ولبسه تقدَّم وصفه، غير أنَّ لهُ زيادة في الشاش عَذَبة كهيئة عَذَبة القُضاة، ثم يبتدئ بعدهُ أعيان الأجناد، ومن ذكرناه من أرباب الوظائف إلى نهايتهم، ثم الأُمراء الخمسات، ثم العشروات، ثم أُمراء الطبلخاناه، ثم أركان الدولة، ثم المُقدَّمين الألوف، ثم الأمير الكبير، وإذا كان نائبًا بالديار المصرية يليه، وإذا كان نظام المُلك يليه، ثم قُضاة القُضاة وأمير المؤمنين.

ويكون جلوس أمير المؤمنين، وقُضاة القُضاة، والقُضاة، والعُلماء بالإيوان الذي بالقصر على اليد اليمنى عند الدخول قبل تقبيل اليد، والمُباشرون جالسون بالإيوان الذي يُقابله إلى حين ينتهي الجُند والأُمراء، وبعد مُصافحة أمير المؤمنين ينصرفون إلى حال سبيلهم على حُكم ما ذكرناه أولًا، وكذلك الجميع ينصرفون كما ذكرناه أولًا بعد انصراف السُّلطان من الدهليز الذي ذكرناه أولًا إلى الدهيشاة[٣] أيضًا.

ثم يأتي الموالي[٤] الأُمراء والسادة المُباشرون والجُند نهار العيد في الغَلَس، فيستمر الأُمراء جالسين على باب الآدُر الشريفة المعروف بباب الستارة- المُقدَّم ذكره- إلى حين يظهر المَقام الشريف السُّلطان، فيستمرون بخدمتهِ وهو راكب إلى أن يصل إلى باب سر الجامع المُقدَّم ذكره، فينزل هُناك ويُعضِّده الأتَابِكي، ويدخل المقصورة المُقدَّم ذكرها السُّلطان والأتَابِكي خاصة، وأمَّا بقيَّة الأُمراء الأعيان فيدخلون المقصورة الثانية، وأمَّا الجُند ومن يليهم من المماليك

---

[١] إضافة لضبط السياق.

[٢] بياض في ث، والإضافة ممَّا سيرد في المتن في آخر وصف الموكب.

[٣] ث: الدهشاه.

[٤] ث: المولى.

السُّلطانية يكونون في الخركاة الحديد، وأمَّا بقيَّة الناس كأمثال مماليك الأُمراء وما أشبه ذلك فيُصَلُّون في رواقات الجامع[١٠٠أ] والصحن المُقدَّم ذكرها.

وقد تقدَّم(١) الكلام أنَّ من كان قاضي القُضاة الشافعية يكون خطيب الجامع المذكور.

وأمَّا السادة المُباشرون يكونون في الإيوان الأعظم- إنشاء المَلِك الناصر المُقدَّم ذكره- إلى حين فراغ الصلاة، فيركب السُّلطان من باب الجامع الشمالي ويتوجَّه إلى القصر الأبلق المُقدَّم ذكره، وصُحبته جميع الأُمراء والجُند، فيُلاقيهِ المُباشرون من المكان الذي يصلون بهِ، فيدخلون جميعًا القصر، ويُقبِّلون أياديهِ كما تقدَّم، وعند نهاية(٢) ذلك يلبس الأمير الكبير تشريفًا يأتي بيانه في فصلِه، وإذا كان نائبًا وإذا كان نظام المُلك يلبسون أيضًا، وينصرفون إلى الأُضحية، سيأتي بيانها في فصل ديوان الخاص الشريف.

[موكب يوم عيد الفطر وليلته]

وأمَّا موكب ليلة عيد الفطر فيوكب السُّلطان بالشاش والقُماش، فيكون ملبوسه على حُكم الأزمنة(٣)، ويظهر بعد صلاة العصر، ويكون جميع ترتيبه كترتيب ليلة عيد النحر المُتقدَّم، وكذلك صلاة يوم العيد المذكور يكون كصلاة عيد الأُضحية، لكن يحضر في يوم العيد المذكور أمير المؤمنين وقُضاة القُضاة والعُلماء أئمة الدين والقُضاة، ويكون جلوسهم بالإيوان الصغير المُقدَّم ذكره بعد الصلاة بالقصور الثانية المُقدَّم ذكرها، وسبب حضورهم في اليوم المذكور بسبب لبسهم التشاريف، فعند نهاية الصلاة يظهر السُّلطان من باب الجامع، فيركب ويتوجَّه إلى القصر على الهيئة المُقدَّم ذكرها، وينزل ويدخل القصر، ويجلس على كُرسي المُلك.

ويكون السِّماط مُجهَّزًا جميعه بالإيوان القبلي فيُمد، وعند نهاية الأكل يُقدَّم المشروب، وسيأتي بيان كيفية السِّماط وجهات مصروفه في فصل المطبخ، وكذلك بيان المشروب وكيفيته في فصل الشربخاناه.

---

(١) لعله وهم من المؤلِّف، فإنه سيذكر ذلك عند الحديث عن قاضي القضاة الشافعية في ق١٠٩أ.

(٢) ث: نهايت.

(٣) أي على حسب وروده في الفصول الأربعة.

ويكون التشاريف الشريفة التي تُفرَّق لِلُبس ذلك اليوم لأرباب الوظائف أعلاها وأدناها مُجهَّزة، البعض يُفرَّق ليلة العيد، والبعض في نهاره قبل انفضاض السِّماط، وسيأتي بيان ذلك وكيفيته في فصل ديوان الخاص الشريف[١٠٠ب]، ثم يلبس المذكورون تشاريفهم، ويُقبِّلون جانب الكُرسي الشريف أولًا فأولًا كما تقدَّم، والجمقدار لابس تشريفة، واقف بجانب الكُرسي من الجهة اليُسرى، وبيده دبوس، وقد تقدَّم وصفه، وعند النهاية ينصرفون كما تقدَّم أيضًا إلى حال سبيلهم.

وفي ليلة العيدين المذكورين تُزيَّن أبواب الأُمراء المُقدَّمين، وتَدُق الطبلخاناه بالأبواب الشريفة والأُمراء المذكورين مِرَارًا إلى الصُّبح.

[موكب يوم الجُمعة]

وأمَّا موكب يوم الجُمعة المُبارك لمَّا أن يُذكر[١] بالمآذن يلبس الأُمراء والأعيان من الأجناد المذكورين قُماش الخدمة كما تقدَّم على حسب الأزمنة، ويحضرون عند باب الستارة- المُقدَّم ذكره- ينتظرون السُّلطان إلى أن يبقى من الوقت نصف درجة، والمؤقِّت جالس بالرديني[٢]، فيُطالع الزَّمَّام فيُطالع السُّلطان فيظهر، فعند وصولهِ المقصورة يؤذِّن المُؤذِّن، ويكون ملبوس السُّلطان شاش وقُماش، وربما أنَّ السُّلطان ليس يلبس الشاش والقُماش إلا في خدمة العيدين، وخدمة الجُمعة، وعند توجُّههِ إلى السرحات، وركوب الميادين، وموكب الريدانية.

ويكون الصلاة بالجامع المذكور كما تقدَّم في صلاة العيد، وعند انتهاء الصلاة يعود إلى باب الستارة، وينصرف الأُمراء بعد أن يمشوا في خدمة السُّلطان إلى باب الستارة، فيدخل السُّلطان من الطريق السالك إلى الدهيشاة، ويقلع قُماشه كما تقدَّم، وتارة يستمر من باب الجامع راكبًا إلى باب الدهيشاة والأُمراء قُدَّامه، فينزل هُناك وينصرف الأُمراء، وهو في ذلك بحسب اختياره وما يليق به، وإذا نزل الأُمراء لا يُشترط خدمة أحد منهم أن ينزل مع أحد إلى بيته، بل هُم في ذلك بالاختيار، وأمَّا بقية الأعيان الذي لم نذكرهم هاهُنا فالصلاة ليس شرطًا عليهم في جامع القلعة.

---

(١) يُقصد به ما يسبق الأذان من القرآن والأذكار.
(٢) يُقصد به جامع الرديني بالقلعة.

[موكب الإيوان]

وأمَّا موكب الإيوان المُقدَّم ذكره كانت العادة القديمة أنَّ المواكب بالإيوان في كل جُمعة يومان[١]، وهُما: "الخميس والإثنين"، وصفة الإيوان تقدَّمت.

وأمَّا صفة الموكب به أنَّ السُّلطان يلبس الشاش والقُماش كما تقدَّم، وكذلك جميع الأُمراء والسادة المُباشرين ومن تقدَّم[١٠١أ] ذكرهم بحسب الأزمنة، ويجلس السُّلطان على المرتبة المُقدَّم ذكرها، ويجلس الصاحب الوزير بمرتبة دون مرتبة السُّلطان بشبر قُدَّامه كما تقدَّم.

وأمَّا جميع الأُمراء والمُباشرين وقوف صفَّين بحسب المنازل كما تقدَّم، وجميع المماليك السُّلطانية مصفوفون من سلالم الإيوان إلى باب المدرج الكبير، والحُجَّاب وقوف والدوادارية، وأول ما يبدأ الصاحبي الوزيري بقراءة القصص إلى أن ينتهي، ثم يحضر القُصَّاد، وسيأتي كيفية ذلك، ثم السِّماط، وأمَّا نائب السلطنة الشريفة بالديار المصرية، وأمير حاجب الحُجَّاب يسيرون إلى الرملة، وكذلك جميع مُقدَّمي الجيش المنصور وغالب أجناد الحلقة المنصورة، وعند نهاية ذلك ينصرف كلٍّ إلى حال سبيلِهِ كما تقدَّم.

وأمَّا يوم السبت ويوم الثلاثاء لها أماكن مخصوصة في أوقات مخصوصة.

أمَّا أيام الشتاء يحكُم فيها بالإسطبل، وأمَّا أيام الربيع يسرح فيها للصيد بأماكن مخصوصة ستُذكر في باب السرحات، وأمَّا أيام الصيف فيلعب بالصولنجان، وأمَّا أيام الخريف فركوب موكب الريدانية ومصطبة السُّلطان، وسيأتي إن شاء الله تعالى كيفية ذلك في فصلِه، ورمايات البِرْكة[٢].

وأمَّا الآن فالموكب يوم الخميس والإثنين والسبت والثلاثاء بالقصر الثالث- المُقدَّم ذكره- والخرجاه، وبعض أيام السبت والثلاثاء بالإسطبل في أيام الشتاء، وسيأتي كيفية ذلك.

وأمَّا موكب الإيوان الآن فما يُعمل إلا إذا حضر قاصد من بلاد بعيدة مِن مَلِك مُعظَّم، يكون ليس لسُلطان مصر عليه ولاء، وكيفية خدمتهِ تقدَّمت.

---

(١) ث: يومين.

(٢) يُقصد بِرْكة الحاج.

وأمَّا صفة خدمة القصر الآن: يتوجَّه السُّلطان من الدهيشاة[1] مُخفَّف إلى القصر الثالث بين الظُّهر والعصر، ويَطلع ناظر الإنشاء الشريف ونائبهِ والدوادارية لأجل العلامة الشريفة، سيأتي بيانها في فصل ديوان الإنشاء الشريف، وعند نهاية ذلك إن كان ثَمَّ أمر من تعلُّقات الإسطبل وحُكومته وما أشبه ذلك فيجلس السُّلطان بالشِّبَّاك الغربي لقضائه.

ثم يؤذِّن[2] العصر فيجتمع الأُمراء والأعيان من الأجناد[١٠١ب] وأصحاب النُّوب مُخفَّفين، فتُقام صلاة العصر فيُصلُّون، ثم يُمدّ الصِّماط، وعند نهاية ذلك يدخل السُّلطان الخرجاه للمبيت، ويتفرَّق الأُمراء بالقصور المذكورة للمبيت بها.

ويُصبحون في نهار المواكب من الأيام المذكورة بعد صلاة الصُّبح يلبسون قُماش الخدمة، ويجلس الأُمراء المُقدَّمون الألوف وأتَابِكهم على حافة الإيوان الكبير الشمالي الذي بهِ كُرسي المُلك، وناظر الإنشاء الشريف وناظر الجيوش المنصورة والدوادارية وموقعي الدَّسْت أصحاب النُّوب يجلسون بالإيوان الصغير الشرقي، ورؤوس النُّوب يجلسون بالإيوان الصغير الغربي، وبقية الأُمراء والجُند يجلسون مُتفرِّقين بالقصور المذكورة، ومُقدَّمو[3] البريدية والمهمندارية وشاد القصر وبريدية الخاص والتراجمة يجلسون بالإيوان الجنوبي، والموكبيات بحول الفسقية تُضيء.

ثم يأتي الصاحب الوزير وأُستدار[4] العالية وناظر الخواص الشريفة وناظر الدولة الشريفة فيجلسون بقاعة العرب، وأمَّا كُتَّاب[5] المماليك الشريفة السُّلطانية يجلسون بظاهر الباب، وأمَّا دواوين الجيوش المنصورة يجلسون بالمصطبة

---

(١) ث: الدهشاه.

(٢) ث: يذن.

(٣) ث: ومقدمي.

(٤) ذكرها القلقشندي على هذه الصورة لكن بكسر الهمزة، وهي مركبة من لفظتين فارسيتين: "إستذ" بمعنى الأخذ، و"دار" بمعنى ممسك، فأدغمت الذال الأولى في الدال الثانية، فصار "إستدَّار"، وتعني المتولي للأخذ، لأنه المتولي لأخذ المال، والمُتشدقون من الكُتَّاب يضمون الهمزة في أوله، ويُلحقون ألف بعد التاء، فيقولون: "أُستادار"، وربما قالوا "أستاذ الدار"، ظنًّا منهم أنَّ المُراد حقيقة لفظة "الدار" في العربية، وأنَّ "أستاذ" بمعنى السيد أو الكبير، ولذلك يقولون: "أُستادار العالية"، أو "أستاذ الدار العالية"، وهو خطأ صريح لما تقدَّم، والعامة تنطق به على الصواب، وقد يُزاد لفظ الصُّحبة فيصير "إستدار الصُّحبة"، ويكون لقبًا على مُتولي أمر المطبخ، وكأنه لُقِّبَ بذلك لمُلازمته الباب سفرًا وحضرًا. انظر: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٥٧.

(٥) ث: الدواوين كتاب المماليك.

التي بجانب الباب الشمالي بظاهر القصر، والأمير المُقدَّم ونائبه يجلسون بالمصطبة التي بظاهر الباب تجاه الإيوان المُعظَّم، وأمَّا نائب القلعة والجندارية يكونون بباب المدرج، وأمَّا زَمَّامُ الآدُر الشريفة والكنانية وخُدَّام الستارة يكونون بباب الستارة الشريفة، وأمَّا: الوالي وأعوانه، وابن زقلم المشهور بأفعالِهِ الفضيحة، ستأتي نُبذة من بعض أوصافِهِ القبيحة[1]، ونقيب الجيوش المنصورة، وجماعة النُّقباء، والسلاخورية، والأوجاقية، والقراغلامية، وما أشبه ذلك يكونون مُجتمعين بالحلزون يعلوه الشِّبَّاك الغربي الذي يجلس بهِ السُّلطان بعد أكل السِّماط المُقدَّم ذكره.

فإذا اجتمع وكمل من ذكرناهم بعد الصُّبح يكون السُّلطان انتهى من صَلاتِهِ، وجلس على مرتبته بصدر الخرجاه، وبجانبه: مُدوَّرة، وفوطة كافوري مطويَّة، وتقلدان من بولاد[2] مُكفَّت بالذهب، ونمجة المُلك[١٠٢أ] مُسقَّطة بالذهب، وقوس بولاد مُكفَّت ومُسقَّط بالذهب.

فحينئذ يخرج الدستور الأول وهو جمدار صاحب نوبة بإذن رأس نوبة الجمدارية بإشارة السُّلطان عاديًا مُسرعًا، فحين ينظرهُ المماليك السُّلطانية والخاصكية يدخلون الأصغر يُقدِّم الأكبر أولًا فأولًا، والأمراء الصغار والأجناد القرانيص، ثم يُشير الجمدار المذكور بيدِهِ لرؤوس النُّوب فيدخلون جُملة يُقدِّمون رأس نوبة النُّوب، فحينئذ يخرج مَن بالخدمة ثم يدخل الحُجَّاب.

ثم يخرج الدستور الثاني ويفعل كالأول، فيدخل الأُمراء الطبلخانة والدوادارية وناظر الجيوش والأُمراء المُقدَّمين الألوف والأمير الكبير، وإن كان للسُّلطان ولد فيدخل صُحبتهم، فيخرج مَن بالخدمة ويجلس ناظر الإنشاء بالشُّبَّاك الشرقي، ثم يتلقى الجمدارية أصحاب النُّوب أربعة[3] مقاعد من مخمل بوسطهم سنجاب، وإن كان في الصيف فيكون موضع السنجاب أنطاع، فيبسطونها يمينًا ويسارًا، فيجلس الأُمراء المُقدَّمون الألوف عليها، ويكون الأمير الكبير رأس الميمنة، وولد السُّلطان رأس الميسرة إن كان، وإلا فأمير سلاح، ثم بقيَّة المُقدَّمين على حسب منازلهم الأقدم أعلى.

---

[1] انظر ق١٤٩أ.
[2] ث: بولاذ.
[3] ث: أربع.

وأمَّا القاعدة القديمة: أمير مجلس يلي أمير كبير ثم أمير آخور ثم رأس نوبة النُّوب، ثم نصف الأُمراء المُقدَّمين المُتقدِّم في الإمرة يجلس فوق من استقر بعده، والدوادار الكبير يلي أمير سلاح ويليه حاجب الحُجَّاب، ويليه نصف أُمراء المُقدَّمين كما ذكرنا، وربما يكون الدوادار الكبير يلي أمير مجلس، وللسُّلطان الاختيار في ذلك، وكان قديم الزمان عِدَّة الأُمراء المُقدَّمين الألوف بما فيهم من أصحاب الوظائف أربعة وعشرون أميرًا، ويجلس ناظر الجيوش المنصورة قُدَّام السُّلطان، والدوادار الكبير إلى جانبه الآن.

ثم ينهض بقيَّة المُباشرين الذين هُم جلوس بقاعة العرب من مكانهم بعد دخول الأُمراء، ويأتون الشُّبَّاك الذي بهِ ناظر الإنشاء، ثم يطلع أمير آخور كبير وصُحبتِه أعيان الأميرآخورية[1]، ويدخل الخرجاه، فيقوم له جميع الأُمراء الذين هُم جلوس بالحضرة الشريفة إلى أن يجلس مكانه[١٠٢ب]، وأمَّا بقية الأميرآخورية فيقفون ساعة ثم يخرجون، فعند ذلك يُخرِج ناظر الجيوش المنصورة القِصَص، ويقرأ على السُّلطان قِصَّة قِصَّة بصوت جهر، وسيأتي كيفية ذلك.

فعند النهاية من القراءة يقوم هو والدوادار الكبير ورأس نوبة النُّوب والدوادار الثاني ورأس نوبة الجمدارية صاحب النوبة، فأول ما يتناول رأس نوبة الجمدارية الفوطة للدوادار الثاني، وهي معنيزسَكندري عَال، فيطرحها على رُكبة السُّلطان، ويجلس رأس نوبة الجمدارية على رُكبتيهِ ويفتح الدواة، وصفتها بولاد[2] طول ذراع ونصف مُكفَّت بالذهب والفضَّة في عُرض ثُلث ذراع، وبها حِبْر مُركَّب ملوكي، وسيأتي كيفيته في فصل ديوان الإنشاء الشريف، وبها أقلام من البوص الأبيض مبريَّة على قاعدة قلم الطومار، فيُمسِك الدوادار الكبير جميع القصص بيدهِ، والسُّلطان يكتُب عليها اليكتبات الشريفة، وصفتها صفة رِجْل الغُراب، وأكثر كُتَّاب المصريين يُسمُّونها "رِجْل غُراب"، وكلما كتب على شيء ناولهُ الدوادار إلى رأس نوبة النُّوب يُرمِّله، وصفة الرمل

---

[1] كذا في ث، ولعل الأصوب: "الأمراء آخورية".
[2] ث: بولاذ.

أحمر عال، وصفة المِرْمَلة فولاذ[1] مُكفَّت بالذهب، وناظر الجيوش والدوادر الثاني واقفين بجانب المذكورين.

فعند نهاية العلامة على "اليكتُبات" خاصة يخرج جمدار يُعلِم ناظر الإنشاء، فيدخل ويجلس بجانب الدوادار، ومعه فوطة بها العلامة ممَّا سيأتي ذكره في فصله، فيُقدَّم للسُّلطان أولًا فأولًا، وهو يُعلِّمه كما يُقدَّم، والدوادار ماسك، ورأس نوبة النُّوب يُرمِّل إلى حين النهاية.

هذا وجميع من خرج من الخدمة قاعدون بالقصر الثالث ظاهر الخرجاه، ينتظرون خروج السُّلطان، والصِّماط مُجهَّز بالقصر الأبلق الكبير كما تقدَّم.

فعند نهاية العلامة يخرج رؤوس النُّوب الذين هُم وقوف بالخرجاه المُقدَّم ذكرهم، ويقولون بأعلى أصواتهم: "حَاشاك"، فينهض الجميع قائمين، ويخرج جميع الأُمراء ومَن صُحبتهم والسُّلطان؛ ويجلس على مرتبتهِ بصدر القصر المذكور نظير المرتبة المُقدَّم ذكرها بالخرجاه[١٠٣أ]، ويتوجَّه المُباشرون إلى الشُّبَّاك الذي كانوا به، ويقف جميع الأُمراء ميمنة وميسرة، فإن ذلك المكان لا يقتضي قعود أحد ولا أتَابِك العساكر، فإذًا يتوجَّه الأتَابِك وأعيان المُقدَّمين إلى منازلهم، فيُمدّ الصِّماط بمشورة شاد الشربخاناه بإذن السُّلطان إن كان يجلس على الصِّماط أولًا، فإن جلس يُمدّ بكمالهِ فيتقدَّم مهتار الطشتخاناه بالفوطة الكافوري، ويطرحها على حِجْر السُّلطان، ويكون جُلوسِهِ مُربَّعًا، وكذلك جميع جلوسهِ ما لم يكن على مُدوَّرة، ويتقدَّم سُقاة الخاص والفرَّاش حامل الصِّماط، واثنان من السُّقاة المذكورين أيديهما على كتفي الفرَّاش إلى أن يصل إلى السُّلطان، فيطرح الصِّماط من بين أياديهِ إلى أسفل الإيوان، ويدخل البابا ويمدّ الحجر، ثم يمدّ الأواني.

ثم يأخذ الششنكيرية الششني يتقدَّم أحدهم وبيدهِ سُكُرُّجَة نحاس تُعرف بـ"الششني"، وجُمجمة نحاس أيضًا، فيأخذ من كل إناء شيئًا ممَّا فيه، ويضع الجميع بالسُّكُرُّجَة[2] المذكورة، ويُناوله إياها فيفعل هو أيضًا كما فعل، ويقطع بالسكين قطعًا من الأرغفة الكماج، ويتوجهان إلى أسفل الصِّماط، ويضع

---

(1) ث: فولاد.

(2) ث: الاسكرجه.

أحدهما يدهُ على كتف الطبَّاخ والآخر يدهُ على كتف الفرَّاش، ويقول الذي بيده السُّكُرُّجَة[1] ويكون من الجهة اليُمنى: "كُل"، فيأخذ الطبَّاخ بالجُمجمة من ذلك، ويأخذ الفرَّاش من قطعة الكماج ويأكلان، ويُقدَّم طبق السكردان، ويأخذ شاد الشرابخاناه الششني منهُ أيضًا ويضعه على المُدوَّرة إلى جانب السُّلطان من جهتِهِ اليُمنى، فعند ذلك يقعُد جماعة جماعة، فإذا انتهى جماعة من الأكل قاموا جُملة واحدة، وقعد جماعة غيرهم، هكذا إلى حين نهاية الصِّماط، وكل من فرغ من الأكل وقام يمسح يدهُ بالفوط بأيدي البابية، ويُرش عليهم ماء الورد.

فلمَّا يفرغ السُّلطان من أكل الصِّماط يتقدَّم مهتار الطشتخاناه وبيدِهِ تشطيف صفته طاسة مُكفَّتة، ويفرش تحتها فوطة، ويُقدِّم بروة صابون، ويأخذ الششني كما تقدَّم، ويَصُبّ على يدِهِ الشريفة من إبريق معه، فعند نهاية ذلك يرفع الطاسة والإبريق، ويُعطيهِ فوطة كافوري ليمسح يدهُ بها، ثم يَصُبّ عليهِ من ماء الورد المُمسَّك، ثم[١٠٣ب] ينصرف.

ويُشال الصِّماط، فيأخذ منه كل من يقتضي أنه يأخذ ويؤذن له مثل: السُّقاة، وأُستادار الصُّحبة، وغيرهم، ويكون أُستادار الصُّحبة والمُشرفون بأيديهم العُصِي.

والآن في ذلك تغيُّر واختلاف، وهذا على القاعدة القديمة، حتى إنَّ الجاشنكيرية كانوا من خواص المَلِك المُقرَّبين عنده، فإنَّ بيبرس الجاشنكير تنَّقل إلى أن صار سُلطانًا، ولُقِّبَ بالمَلِك المُظفَّر[2] بعد المَلِك الناصر محمد بن قلاوون.

ورأيتُ بكتاب "سكردان السُّلطان" أنَّ صِمَاط كافوري الأخشيدي كان يُمدّ بهِ ألفان وسبعمائة لحم، وعشرين خروفًا، وثلاثين جديًا، وعشرة فراخ، سمك طبري، وثلاثمائة صحن حلوى، واحتياج الطعام سبعة أحمال، وألف كماجة، وألف كوز فقاع، ومائة قرابة أشربة[3].

وأوصاف صِمَاط السُّلطان كثيرة سيأتي نُبذة منها، ووصف الأطعمة في فصل المطبخ الشريف، وعند انتهاء الصِّماط يقوم السُّلطان، ويجلس على

---

(١) ث: الاسكرجه.
(٢) تولى دون السنة، وقتله الناصر محمد لمَّا عاد لسلطنته في شوال ٧٠٩هـ. انظر: ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ج٢، ص٥٩-٦٣.
(٣) ص١٨١.

المُدوَّرة بالشِّبَّاك الغربي، ويحضر المُباشرون من المكان الذي كانوا جالسين به، وينصرف بعض الأُمراء والجُند، ويستمر بعضهُم والسُّلطان ينظر من الشُبَّاك، وكاتب السر واقف قُدَّامه يقرأ القصص التي تطلع[1] له من سطح الركبخاناه المُقدَّم ذكره، والسُّلطان يُجاوبه بالقصد ويحكم، ثم يعرض ما يقتضيهِ رأيه من الخيول، ومهما رسم بهِ يُعمل، ويكون جميع القصر مفروشًا بالبُسُط عمل الشريف الخاص[2].

فعند نهاية ذلك يقوم السُلطان من الشُبَّاك المذكور وبيدهِ نمجة المُلك المذكورة، وأمَّا التِّرس والفوطة فيحملهُم خاصكي خصيص بالمَلِك، ويتوجَّه إلى الدهيشاة من الدهليز المُقدَّم ذكره هو وجماعة[3] مخصوصة، وكذلك السادة المُباشرون.

فلمَّا يصل إلى الباب الذي يُقابل مسجد الرديني يقف جميع من صحبه صفًّا واحدًا، ويتوجَّه من باب سر الدهيشاة المُقدَّم ذكره، ويجلسون ساعة إلى أن يخرج إليهم طواشي بالإذن بالدخول، فيدخلون[١٠٤أ] ويجدون السُلطان جالسًا على التخت المُقدَّم ذكره، فيستمرون وقوفًا ساعة، وكل من كان له ضرورة يُشاور عليها، وإذا ورد قاصد ولم يلحق السُلطان بالقصر فيحضر هُناك، ثم يحضر صماط الطاري فيأكل السُلطان إن شاء والجماعة الحاضرون إذا أراد، وإلا فيرسم بمَدِّهِ فيأكل من أراد الأكل من المذكورين، وعند نهاية ذلك ينصرفون كما تقدَّم.

وأمَّا جميع من بالقصر المُقدَّم ذكره عند نهوض السُلطان عن المُدوَّرة وتوجُّهِ إلى الدهيشاة يتوجَّهون إلى حال سبيلهم كما تقدَّم.

هذه صِفَة المواكب، والخدم بالقصور المُقدَّم ذكرها.

[موكب الريدانية]

وأمَّا موكب الريدانية[4] في سابع عشر بابه- وهو من شهور القِبْط الموافق لسابع عشرِ ثاني أشهر الخريف، وقيل بابا باقي شهر الخريف- يدور نُقباء

---

[1] ث: يطلع.
[2] يقصد ديوان الخاص الشريف.
[3] ث: وجماعة وجماعة.
[4] الزُّبدة ص٨٦: أما موكب الريدانية فهو عند لبس السلطان الصوف، وهو في السنة مرة واحدة.

الجيش المنصور يُعلِمون الأُمراء والأجناد بذلك، ويكون جميع الناس بالقُماش الأبيض، فيحضرون إلى باب القلعة المنصورة المعروف بالمدرج، وبعد ساعة يظهر السُلطان راكبًا بسرج ذهب وكنبوش زركش وريش، وهو لابس فوقاني صوف أو مخمل بوجهين كما تقدَّم بمُفردِه خاصة، ويكون ذلك اليوم أول لبسه الصُّوف من أيام السنة، ويجتمع لذلك أهل الديار المصرية، فإنه من المواكب الضخام.

فحين ظهور السُلطان تصيح الجاوشية، ويُضرب بالشبابة والأوزان والشُّعراء، والقُبَّة والطير محمولين على رأسِهِ بيد أتَابِك العساكر المنصورة، والشطفة مرفوعة بيد سلحدار خاص، والطبردارية رافعون الأطبار حول السُّلطان وقاية له، وعِدَّتها ستة عشر طبرًا من فولاذ، كل طبر عرضه نصف ذراع في طول ذراع، يبري العظم، والغاشية تُلعب قُدَّام السُّلطان، وهي من أطلس أصفر، والجفتاوات يسيرون قُدَّام مركوب السُّلطان، لا يتجاوز أحد من بينهما ولا من خلفهما، وصفتهم: فَرسان بوزان قوطاسيان، ليس بهم شامة، مشدودين بسروج وكنابيش وبدلات ذهب، وعليها غواشٍ من أطلس أصفر، وراكب عليهما بدويان من ركابِهِ الخاص بهيئة حسنة، يسيرون مُتقارنين لا يتقدَّم واحد على رفيقه قدر[١٠٤ب] أُنْمُلة، وبحول السُّلطان أربع بقج أطلس أصفر بها قُماش على رؤوس الطشدارية، وأطباق المشروب مُغطَّاة بالسفر الحرير الأصفر المُقصص بالأحمر على رؤوس الشربدارية.

فحينئذ يسير الجيش إلى أن يأتي إلى مسطبة السُلطان التي بالريدانية المُقدَّم ذكرها، ويترجَّل الجميع على حسب منازلهم، ويصعد السُلطان من حَدْرَة إلى المسطبة راكبًا، وينزل على كُرسي وُضِعَ هُناك بدرجتين، مُلبَّس بالأطلس الأصفر، ويعضده الأتابِك، ثم يجلس على مُدوَّرة تحت سحابة منصوبة له، صفتها من مخمل منقوش مُذهَّب، طول اثني عشر ذراعًا في عرض خمسة أذرع، ويجلس الأُمراء مُقدَّمو الألوف على مقاعد كما تقدَّم.

ويكون جميع من يُنسب إلى الشكرخاناه حاضرين صفوفًا، فيُحضَر للسُلطان كف مُزركش فيلبسه، وتُقدَّم له أُمراء شكارية الطيور الجوارح، وتُطيِّر الحاوندارية التطايير من طيور الواجب، والسُّلطان يُطلِق عليها أولًا فأولًا وهي تصيد، وسيأتي بيان ذلك في فصل الشكرخاناه، ثم تُطلَق الكلاب على الوحوش.

فعند نهاية ذلك يلتفت السُّلطان، ويُقدَّم الصِّماط كما تقدَّم، وعند نهايته يُقدِّم ناظر الخواص الشريفة البُقج التي بها الفوقانيات الصُّوف ملبوس الشتاء، برسم الأُمراء المُقدَّمين الألوف فتُلبس، ثم يركب السُّلطان بعد الإنعام على الأُمراء شكارية بالتشاريف، ويتوجَّه إلى القلعة المنصورة، فعند وصولهِ إلى القلعة يكون المُقدَّمون[1] الألوف صفوفًا، فيُسلِّم عليهم السُّلطان وينصرفون.

فيكون ذلك اليوم إذن للعساكر المنصورة في لبس القُماش الصوف، فيستمرون على لبس ذلك إلى سابع عشر بشنس، ثم يلبس السُّلطان القُماش الأبيض في يوم الجُمعة، فيكون إذنًا منه في البياض، هذا على القاعدة القديمة، ورأيتُ ما يدل على تغيير وتبديل في ذلك.

[موكب الإسطبل الشريف]

وأمَّا موكب الإسطبل الشريف في الأيام والأوقات المُقدَّم ذكرها[2]: يجتمع الأُمراء المُقدَّمون وأتَابِكهم، ويجلسون بمسطبة داخل باب السلسلة الثاني، وأمَّا[١٠٥أ] بقيَّة الأُمراء والجُند ومن يقتضي دخوله الخدمة من المُقدَّم ذكرهم يجلسون بالمقعد المعروف بإنشاء المَلِك الظاهر برقوق، وأمَّا السادة المُباشرون فيجلسون تحت المقعد المذكور على مساطب، وناظر الإنشاء يكون جلوسه على دكة بشرقي السُّلطان من أسفل المقعد، ومُقدَّم المماليك السُّلطانية واقف بجانبه، وبيده عصا، والجُند والمُتولِّي وأعوانه والنُّقباء يقفون جُملة مُقابل المقعد.

فعند تكملة هذه الأوصاف يركب السُّلطان من الحوش وينزل، وتارة ينزل من الحلزون والشبابة قُدَّامه إلى أن يأتي المقعد المذكور، ويجلس على الكُرسي المُقدَّم ذكره، ويخرج الدستور الشريف فيدخل الأُمراء المُقدَّمون وأتابِكهم، فتُفرش المقاعد الأربع المُقدَّم ذكرها، ويجلس الأمير الكبير وأمير سلاح ومن يقتضي جلوسه بيمنته، ويجلس أمير مجلس ومن يقتضي جلوسه بالميسرة، ولم يجلس أمير سلاح بجانب الأمير الكبير سوى في هذا الموكب خاصة، والدوادار الكبير وأمير آخور كبير وحاجب الحجاب يجلسون بمساطب تحت المقعد، وبقية الأُمراء وقوف بالمقعد.

---

[1] ث: المقدمين.

[2] الزُّبدة ص٨٦: "وأمَّا موكب الإصطبل فيكون في الجُمعة مرَّتين في أوقات مُعيَّنة: يوم الخميس ويوم الإثنين بالقصر، والسبت والثلاثاء بالإصطبل في أواخر الشتاء وأوائل الربيع، وصفة الموكب...".

فأول ما يبدأ كاتب السر الشريف بالبسملة، ثم بالصلاة على النبيﷺ، ثم يقرأ القِصَص، وكل مَن يقرأ اسمه يطلع من وسط الحلقة، ويقف بجانب نقيب الجيوش المنصورة والمُتولِّي، فعند نهاية قراءة القِصَّة يحكُم له السُّلطان بما يراه، وإن أُشكل عليه الأمر يدفعه إلى أحد الحُكَّام ليفصل أمره، وعند نهاية القراءة من جميع القِصَص المذكورة يلتفت السُّلطان، وينهض ناظر الجيوش المنصورة وناظر الإنشاء الشريف ويصعدان المقعد، وكذلك الدوادارية لأجل العلامة الشريفة، فيُعلِّم السُّلطان.

وعند نهاية ذلك يُمد الصِّماط، وعند نهايته ينهض السُّلطان، ويركب من مكان نزل، ويصطف الأُمراء المُقدَّمون والأتَابِك، ويُسلِّم عليهم السُّلطان ثم ينصرفون، ويتوجه السُّلطان إلى الحوش وصُحبته المُباشرون ومن يقتضي توجُّهِه، فمن تأخر له شغل يُنهيهِ هُناك، ثم ينصرفون.

وأمَّا يوم الأحد والأربعاء فليس فيهما مواكب، وإنما بُكرة[١٠٥ب] النهار يجلس السُّلطان إمَّا بالحوش على الدِّكَّة أو بالدهيشاة على التخت، ويدخل من يقتضي دخوله مثل: السادة المُباشرين، والدوادارية، والخازندارية، وشاد الشربخاناه، وبعض رؤوس نوب، وأُمراء آخورية، ومن يؤذن له في مثل ذلك، وأمَّا بعض الحُجَّاب والمهمندارية ومُقدَّمي البريدية والمُتولِّي ونقيب الجيش يلازمون الحوش في مثل ذلك الأوقات.

وبُكرة نهار الجُمعة كان مُسامحة، لا يجتمع السلاطين فيه على أحد إلا أن يكون ضرورة، والآن فهو مثل بُكرة نهار الأحد والأربعاء، لا ينقطع من ذكرناهم عنه، وعند نهاية تقاضي الأشغال في بُكرة هذه الثلاثة أيام يُمد الصِّماط، ويجلس عليه مَن يقتضي جلوسه، وعند نهاية ذلك ينصرفون، وللسُّلطان أماكن مخصوصة لا يدخلها إلا من يؤذن له، وهو في ذلك بالاختيار.

وأمَّا عرض الرَّماحة عند نهايتهم فليس يُطلق عليها مواكب، ورأيتُ الآن من يتخذها مواكبًا، فإنها تأتي في فصل الصيف بعد تمام لعب الكورة في يوم السبت والثلاثاء، وسيأتي بيان ذلك في فصل لعب الرُّمح[1].

وثَمَّ في المواكب المذكورة أمور وأشياء مفهومة اختصرتها.

---

[1] انظر ق٢١٦أ.

الباب الثالث

في وصف أمير المؤمنين وبيان أحواله،
وكان حقُّه أن يُقدَّم، لكن مُرادنا تضخم المُلك،
حيثُ صار بالمُبايعة منه إلى السُّلطان
ووصف قُضاة القُضاة أهل الحَلِّ والعَقْد،
والعُلماء أئمة الدين والقُضاة.

فصل

في وصف أمير المؤمنين

إذا استقر أمير المؤمنين لا يخلو إمَّا أن يكون عن أحد الخُلفاء بحُكم وفاته، وأنه المُتعيَّن بعدهُ للخلافة، أو بالخلع والتولية، كل ذلك بعد ثبوت ما يقتضي ثبوته، ولا مُطاعنة في عهد الخليفة للخليفة، سواء كان في حياته أو بعد وفاته حيثُ ما كان ثابت الخلافة.

[ذكر الخُلفاء الرَّاشدين]

وأول من سُمِّيَ بالخلافة الإمام أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، فإنه كان يُقال له: "يا خليفة رسول الله"، وأول من سُمِّيَ بـ"أمير المؤمنين" الإمام عمر الفاروق رضي الله عنه، ثم عُثمان بن عفَّان رضي الله عنه، ثم الإمام علي كَرَّمَ الله وجهه، ثم الحسن.

[ذكر الخُلفاء الأمويين]

ثم مُعاوية، ثم يزيد، ثم مُعاوية، ثم مروان، ثم عبد المَلِك، ثم عبد الله بن الزُّبير[1]، ثم الوليد، ثم سُليمان، ثم عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد[١٠٦أ]، ثم هشام، ثم الوليد بن يزيد، [ثم يزيد بن الوليد، ثم إبراهيم][2] بن الوليد، ثم مروان بن محمد.

[ذكر الخُلفاء العبَّاسيين]

ثم السفَّاح، ثم المنصور، ثم المهدي، ثم الهادي، ثم الرشيد، ثم الأمين، ثم المأمون، ثم المُعتصم، ثم الواثق، ثم المُتوكل، ثم المُنتصر، ثم المُستعين، ثم

---

(١) كان ينبغي أن يُقدَّم عبد الله بن الزبير على مروان وعبد الملك، لأن خلافته صحيحة، ولم يُعتد بخلافة عبد الملك إلا بعد مقتل عبد الله بن الزبير.

(٢) إضافة لضبط السياق.

المُعتز بالله، ثم المُهتدي، ثم المُعتمد، ثم المُعتضد، ثم المُكتفي، ثم المُقتدر، ثم القاهر[1]، ثم الراضي، ثم المُتقي، ثم المُستكفي، ثم المُطيع، ثم القادر[2]، ثم القائم، ثم المُقتدي، ثم المُستظهر، ثم المُسترشد، ثم الراشد، ثم المُقتفي، ثم المُتقي، ثم المُستنصر بالله، ثم الحكم بن هشام، ثم المُستنجد، ثم المُستضي، ثم الناصر، ثم الظاهر، ثم المُستعصم[3].

[ذكر الخُلفاء الفاطميين]

ثم المهدي، ثم القائم[4] بأمر الله، ثم المنصور، ثم المُعِزّ، ثم العزيز، ثم الحَاكِم، ثم الظاهر، ثم المُستنصر[5]، ثم المُستعلي، ثم الآمر، ثم الحافظ، ثم الظافر، ثم الفائز، ثم العاضد.

[ذكر الخُلفاء العباسيين بمصر]

ثم انتقل حُكم الخلافة إلى السلاطين العادلة كما تقدَّم، وصار كل من يتسلطن يكون قائمًا مقام الخليفة بالمُبايعة منه، وكل من يتوارث الخلافة يفعل مع السلاطين كذلك، ويكون هو في الخلافة مُنزويًا عن الحُكم إلى أيام المُستعين بالله، فإنه تولى الحُكم بعد المَلِك الناصر فرج.

وقد تقدَّم بيان ذلك في باب وصف السلطنة الشريفة، وبيان انتقال السلطنة من المَلِك المُعزّ إلى عشرة خُلفاء أولهم العزيز بالله وآخرهم العاضد، ثم انتقلت إلى السلاطين من أسد الدين ابتداءً إلى أيام المَلِك الناصر فرج المذكور، ثم عادت إلى المُستعين المذكور، ثم انتقلت إلى المَلِك المؤيَّد، واستمر الأمر على ذلك إلى يومنا هذا.

وصارت الخُلفاء مُنزويين عن الحُكم أيضًا بحُكم المُبايعة، لكن لهُم الولاء في مُبايعة ملوك الأرض، وكل من كان بغير عهد من الخليفة فليس بسُلطان، فإن

---

(1) الصواب: المقتدر ثم الراضي ثم القاهر، ولعله أسقطه لأنه لم يتول الخلافة سوى يوم واحد.

(2) المطيع ثم الطائع ثم القادر.

(3) خلط كاتب النص بين الخلفاء العباسيين وخلفاء بني أمية بالأندلس فأدخل فيهم الحكم بن هشام، فضلاً عن اضطراب الترتيب، والتكرار كذكر "المتقي" مرتين، والصواب: ثم المقتفي ثم المستنجد ثم المستضئ ثم الناصر ثم الظاهر ثم المستنصر ثم المستعصم.

(4) ث: القاهر.

(5) ث: المنتصر.

شاقَّه يكون خارجيًا، وأكثر ملوك زماننا غير سُلطان مصر ممَّن لم يعهد لهم الخليفة فهُم مُتغلِّبون(١).

وصارت الخلافة على هذا الحُكم تتوارث للذرية كما تقدَّم، إلى أن صارت إلى مولانا أمير المؤمنين المُعتضد بالله أبي الفتح داوود(٢)[١٠٦ب]، ثم لمَّا دنت وفاته عهد لأمير المؤمنين المُكتفي بالله أبي الربيع سُليمان ابن أخيه، وهو الآن- أعزَّ الله به الدين- بعد وفاة عمِّهِ المذكور(٣)، سقى الله عهده صواب الرحمة والرضوان، فإنه كان من ألطف الناس وأحسنهم، ولي فيه اعتقاد حسن.

فقُلْتُ: خلافة داوود تقدَّم فضلها من الله بالتوفيق دون الأقارب، إلى أن أراد الله إظهار سِرِّه فأظهرها فيه ومنها لها خبى وأولاهُ رب العرش فضلًا ونعمة ورقَّاهُ في الدُّنيا لأعلى المراتب، وشرَّف أهل البيت منه برحمة وبيت رسول الله أهل المناقب، لقد جاهدوا في الدين حق جهاده وأفنوا الأعادي بالقنا(٤) والقواصب، وسادوا وشادوا للعُلا وتقدموا بهم يقتدي في الدين أهل المذاهب.

[ذكر رسوم الخلافة]

ومِن عادة الخلافة لبس الشعار عند الاستقرار، بعد استجماع العُلماء وأعيان الديار المصرية، وله أُبَّهة في ذاته ووقار، وله أرباب وظائف وموقعون لكتابة العهود، وله جهات وأرزاق، ويتعيَّن عليه في كل غُرَّة شهر أن يجتمع بالسُّلطان، ويهنئه بالشهر، وكذلك بالأعياد، وكلما دعت الضرورة إلى حضوره لأمر ديني أو دنيوي فلا بُدَّ من حضوره، وإذا سافر السُّلطان إلى مُهم من المُهِمَّات يكون صُحبته.

---

(١) الزُّبدة، ص٨٩: "... ورأيتُ في بعض الأوقات كتب عهود بتفويض سلطنات لعدة ملوك من ديوان الخلافة: أحدهما للملك الكامل خليل صاحب حصن كيفا، والآخر لصاحب اليمن، وآخر لصاحب الهند، وآخر لصاحب مكة، ولم أحرره".

(٢) داوود بن المتوكل محمد بن المُعتضد، تولى الخلافة من سنة ٨١٥هـ حتى مات في رابع ربيع الأول سنة٨٤٥هـ. انظر: السيوطي: تاريخ الخُلفاء، ص٧٦٩.

(٣) وقع المؤلِّف أو كاتب النص في عِدَّة أخطاء، فالخليفة هو المُستكفي بالله- وليس المكتفي بالله- أبي الربيع سُليمان ابن المتوكل محمد، تولى بعد أخيه- وليس ابن أخيه- داوود في ربيع الأول سنة٨٤٥هـ، وظل حتى توفي في آخر ذي الحجة سنة٨٥٤هـ. انظر: السيوطي: تاريخ الخُلفاء، ص٧٧٣-٧٧٤.

(٤) ث: القبى.

وأمَّا أعلام الخلافة ورنوكها فسود، مكتوب عليها بالأبيض "لا إله إلا الله محمد رسول الله، عِزّ لمولانا أمير المؤمنين أبو كذا فلان، أعزَّ الله به الدين".

وله النظر على مقام السَّيِّدة نفيسة، ويتعيَّن أنه إذا رأى شيئًا يُنافي الشريعة المُطهَّرة يأمر بإزالة ذلك، لإبراء ذمته، ولا بُدَّ من الخطبة باسمه قبل اسم السُّلطان على رؤوس المنابر ببلاد الإسلام، ثم يُذكر الدُّعاء للسُّلطان(١).

وأوصاف أمير المؤمنين عديدة اختصرتها.

(١) الزُّبدة، ص٩٠: "ومن شرائط أمير المؤمنين وواجباته ما ذكرناه في حق السلطان، ولكن يتعين اشتغاله بالعلم، ويكون عندهُ خزائن كتب، وإذا سافر السلطان إلى مهم يكون صُحبته لأجل مصالح المُسلمين، وله جهات عديدة تقوم بكلفته ومساكن حسنة، ويُقال إنَّ ببلاد المغرب بعض ذرية الخلفاء الفاطميين يُبايعون ملوك الغرب، ولم أُحرِّر ذلك، وهل يجوز أم لا، وللعلماء في ذلك نظر".

فصل
في وصف قُضاة القُضاة
والعُلماء أئمة الدين،
وجماعة من أهل الفضل والقُضاة

القضاء من أعظم الأركان وقعًا، وأعمَّها نفعًا، وعليه مدار مصالح الأُمَّة عقلًا وشرعًا، والقصد به نصب ميزان المُعدلة في الأحكام، وفصل القضايا بين الأنام عند الخِصَام، وبسط بساط التناصُف بين الخاص والعام في النقض والإبرام.

[شروط القضاء]

ولن يتم هذا المقصد عن مُباشره، إلا إذا كان كثير من أخلاق النبوة من صفاتِهِ ومآثره، من متانة دين تَنزعه عن موارد الهوى ومصادره، وغزارة علم يهتدي بنوره في باطن كل أمر وظاهره، وعِفَّة نفس تحميه عن مواقف التُّهم، وشرف هِمَّة تحمله على اكتساب مكارم الشِّيَم، ونزاهة تقي عِرْضَه أن يُتهم فيما حَكم، وأن يكون[١٠٧أ] مُتضلِّعًا من معرفة آداب القضاء، مُتحلِّيًا بتحرية قد كشفت له حقائق الأشياء، رحب الصدر ثابت الرأي لا يتزعزع حصانه إذا طاشت ثوابت الآراء، مُرتديًا بجلباب الوقار، والتدرُّع بشعائر النزاهة عن الأكدار، والتجنُّب لفعل كل ما يُحوج إلى الاعتذار، وسلوك السَّنن القويم عساهُ يكون أحد القُضاة الثلاثة الذي في الجَنَّة وإلا فيكون أحد الآخرين الذين في النار.

أمَّا الأوصاف المشروطة في القضاء فعديدة، منها: الإسلام، والحرية، والبلوغ، والعقل، والذكورة، والسلامة في السمع والبصر واللسان، وصحة التمييز، والفطنة لا يخالط ذلك سهوًا ولا غفلة، والعدالة وهي أصل في ذلك، ومدارها على: اجتناب الكبائر، وترك الإصرار على الصغائر، وحفظ المروءة، والكبيرة من الذنوب ما توجب حدًّا[1]، وقيل: "ما لحق الوعيد بفعاله بنص الكتاب والسُّنَّة"، والصغيرة ما ليس كذلك من الذنوب.

ويندرج في ذلك على رأي بعض الأصحاب أنَّ من ترك فريضة واحدة من الفرائض مع العلم حتى خرج وقتها من غير عذر فلا عدالة له، وكذا من اعتاد ترك السُّنن الرواتب، وتسبيحات الركوع والسجود.

وأمَّا المروة فهي حُسن السيرة، ومُجانبة الدنايا، فيتلخص[2] من ذلك أن يكون: صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفًا عن المحارم، مُتوقِّيًا للمآثم، بعيدًا من الريب، مأمونًا في الرِّضا والغضب، مُعتمدًا لمروة مثله في دينه ودُنياه، وأن يكون عارفًا بالكتاب، والسُّنَّة، والإجماع، والاختلاف، والقياس، ولغة العرب.

ولا يشترط معرفة جميع ذلك، بل يعرف من الكتاب والسُّنَّة ما تفتقر الأحكام إليه، بحيثُ أنه يُقدِّم المُحكم على المُتشابه، والخاص على العام، والمُبيَّن على المُجمل، والناسخ على المنسوخ، ويبني المُطلق على المُقيَّد، ويقضي بالتواتر دون الآحاد، وبالمُسند دون المُرسل، والمُتصِل دون المُنقطع، وبالإجماع دون الاختلاف.

ويعرف أنواع الأدلة وما يتعلَّق بها لترجيح بعضها على بعض.

ويعرف أقسام الأقيسة ليتوصل بها إلى الأحكام، فإنه ليس كل حُكم منصوصًا عليه، وأقسام القياس المُعتبرة ثلاثة: جلي وواضح وخفي، فالجلي ما يقع السامع عليه بأول وهلة من غير إعمال فكر، وهو أنواع[١٠٧ب] بعضها أجلى من بعض، وأمَّا القياس الواضح فهو أن يستنبط عليه الحُكم من محل الحُكم المنصوص عليه، ويُؤخذ معنى الأصل في الفرع بكماله، وأمَّا القياس الخفي وهو قياس الشَّبَه، فهو أن تكون[3] الحادثة الواقعة تُشبه أصلين مُختلفي

---

[1] ث: "حذًا"، والضبط العقد الفريد، ص١٦٣.

[2] ث: "فيتخلص"، والضبط العقد الفريد.

[3] ث: "يكون"، والضبط العقد الفريد.

الحُكم، ويكون بأحدهما أكثر شبهًا بها من الآخر، فيلحق بالأصل الذي شبهه أكثر، وهذه الأقسام الثلاثة أرجحها القياس الجلي، فإنه لا يحتمل إلا معنى واحدًا فأشبه النص، ولهذا يجوز نقض الحُكم إذا وقع على خلافه، بخلاف القسمين الآخرين.

ومن شرط القضاء: تنفيذ أحكام الله، وعدم الالتفات إلى لومة لائم، وإذا رُفِعَ له أمر فيأمر باستدعاء الخصم، سواء كان من الخاص أو العام، ولا إنكار عليه، فإن حضر إلى مجلس الشرع الشريف أو يُوكِّل من يقوم مقامه.

قال الزُّبير بن بَكَّار: حدَّثني عمِّي مُصعب، قال: "كان عُبيد بن ظبيان قاضي الرشيد بالرَّقَّة، وكان الرشيد إذ ذاك بها، فجاء رجُل إلى القاضي فاستعدى إليه على عيسى بن جعفر، فكتب إليه القاضي ابن ظبيان: "أمَّا بعد، أبقى الله الأمير وحفظه وأتم نعمته، أتاني رجُل فذكر أنه فلان بن فلان، وأن له على الأمير- أبقاهُ الله- خَمسمائة ألف درهم، فإن رأى الأمير أن يحضر مجلس الحُكم أو يُوكِّل وكيلًا يُناظر خصمه أو يُرضيه فعل".

ودفع الكتاب فأتى باب جعفر، فدفع الكتاب إلى حاجبه فأوصله إليه، فقال: "قُل له يأكل هذا الكتاب"، فرجع الرَّجُل إلى القاضي وأخبره، فكتب إليه: "أبقاكَ الله وأمتع بك حضر رجُل يُقال له فُلان بن فُلان، وذكر أنَّ عليك حقًّا، فصِرْ معه إلى مجلس الحُكم أو وكيلك إن شاء الله"، ووجَّه الكتاب مع عونين من أعوانه، فحضرا باب عيسى بن جعفر ودفعا الكتاب إليه، فغضب ورمى به، فانطلقا وأخبراه، فكتب إليه: "حفظك الله وأمتع بك لا بُدَّ أن تصير أنت أو وكيلك إلى مجلس الحُكم، فإن أبيت أنهيتُ أمرك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى".

ثم وجَّه الكتاب مع رجُلين[١٠٨أ] من أصحابه، فقعدا على بابه حتى طلع، فقاما إليه ودفعا إليه كتاب القاضي، فلم يقرأه ورمى به، فعادا فأبلغاه ذلك، فختم قمطره وأغلق بابه وقعد في بيته.

فبلغ الخبر إلى الرشيد فدعاهُ، وسأله عن أمره فأخبرهُ الخبر، وقال: "يا أمير المؤمنين اعفني من هذه الولاية، فوالله لا أفلح قاضٍ لا يُقيم الحق على القوي والضعيف"، فقال له الرشيد: ومَن يمنعك من إقامة الحق؟ فقال: "هذا عيسى بن

جعفر"، فقال الرشيد لإبراهيم بن عُثمان: "صِر إلى دار عيسى بن جعفر، واختم أبوابه كلها، ولا يخرج منها أحد، ولا يدخل إليه أحد حتى يخرج إلى الرَّجُل من حقِّه أو يصير معه إلى مجلس الحُكم".

فأحاط إبراهيم بداره بخَمسمائة فارس، وأغلق الأبواب كلها، فتوهم عيسى بن جعفر وظنَّ أنَّ الرشيد قد حدث عندهُ رأي في قتله، ولم يعلم الخبر، فجعل يُكلِّم الأعوان من خلف الباب، وارتفع الصراخ في منزله، وضج النساء فجعل يُسكِتهن، ثم قال لبعض الأعوان من غلمان إبراهيم: "اِدْعِ لي أبا إسحاق لأُكلِّمه"، فاعلموهُ فجاء حتى وقف بالباب، فقال له عيسى: "ويلك ما حالنا"، فأخبرهُ بخبر القاضي ابن ظبيان، فأمر بإحضار خَمسمائة ألف درهم من ساعته فأُحضرت، وأمر بأن تُدفع إلى الرَّجُل، فجاء إبراهيم إلى الرشيد وأخبره، فقال: "إذا قبض الرَّجُل ماله فأفتح أبوابه، وعَرِّفه أنَّ القاضي من عمل حُكمه فيك ما رأيت، فإياك ومُعاصاته[1]".

والقضاء أمرٌ هائل، لا يقوم به إلا كل قوي أمين، وهذا قليل الوجود الآن، فإنه قد قيل: "قد يَضعُف عصام التقوى في بعض الأوقات، ويَعُمّ ظهور الفساد لمُتابعة الشهوات، ويُدفع الإنسان إلى الحُثالة الموعود بها على ألسنة الرُّواة الثقات، وتذهب[2] القرون المشهود لها بالخيرية لتطاول المُدد وامتداد الفترات، فيقل وجود مَن يقوم بفصل الأحكام، وينتصب لقضايا الأنام، ويتولَّى هذه الحالة من الحُكَّام ممَّن يحمي[١٠٨ب] الشريعة عن إضاعتها، ويرعاها حق رعايتها، ويتصف بصفات يستحق بها تقلد ولايتها، ولا يراقب إلا الله تعالى في إقامة وظيفتها، فمتى جرت بذلك الأدوار الأقدار، وتحقق هذا النبأ العظيم، واتصل الهوى المُتبع فانقطع الصراط المُستقيم، وضعف الحق حتى لو نطق لقال من غير نظرة في النجوم "إنِّي سقيم"، فلا يُعتقد أنَّ ذلك مع تفاقمه يُجوِّز ترك الرعايا سُدًا، أو يُبيح إغفال أحوال القضايا أبدًا، بل يتعيَّن العمل بقدر الإمكان من الجانبين مُقلَّدًا ومُقلِّدًا، ويطلب مَن فَوَّضَ الله تعالى إليه أمر بلاده وعباده

---

[1] العقد الفريد ص١٧٠: مُعارضته.

[2] ث: "يذهب"، والضبط العقد الفريد ص١٧٤.

الأصلح لذلك إذا لم يجد على سيرة المُتقدِّمين أحدًا، وممَّا[1] قيل قديمًا: "إنَّ الميسور لا يسقُط بالمعسور، إلا إذا كانت الأمور طرائق قدادًا".

[قضاء المذاهب الأربعة]

وللقضاء مراتب أربع على المذاهب الأربع: الأول الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي.

هؤلاء هُم أهل الحَلّ والعَقْد، وهُم على الحقيقة قُضاة القُضاة، ولهم أُبَّهة وحشمة ووقار وطرائق وتراتيب، وسنُبيِّن نُبذة من ذلك.

أمَّا قاضي القُضاة الشافعية: تقدَّم أنه أجلّ القُضاة فإنه صدر المجلس، وأدناهم إلى السُّلطان وإن كانوا أشباهه حيثُ يجلس، وذو[2] الطيلسان الذي يخضع له رب كل سيف وينكس، والناظر على بيت المال المعمور، والناظر على الأوصياء والأيتام بقول الجمهور، وخطيب جامع القلعة المنصورة، وإمام الكل بمُقتضى رُتبة صاحب مذهبِ المشهورة، ويُقال في حَقِّهِ: "مَلِك العُلماء".

ومِن عادتهِ أنَّ له ثمانية نُوَّاب يحكمون بمصر والقاهرة، كل واحدٍ منهم يُضاهي قاضي قُضاة مملكة من الممالك، وأمَّا الآن فرُبَّما أنَّ له ما ينيف عن عشرين نائبًا، وعِدَّة موقِّعين لتسجيل الأوراق، وحاجب، ودوادارية، ونقيب، ورُسُل.

وله النظر العام على الأوقاف الحكمية[3]، وله التفويض بأن يولِّي قُضاة بجميع أقاليم الديار المصرية، وله رنوك تُضرب، وبشتميخ يُعلَّق، ويليق به ركوب البغال بالزنانير والآلات[١٠٩أ]، وتقدَّم وصف ملبوسه في فصل وصف الملبوس، وله حشم وخدم.

وخصائصه وأوصافه اللائقة به دون غيره كثيرة، يعسر حصرها، ويعجز عن الألسن ذكر عُشر عُشرها، لكن هذه نُبذة من بعض أوصافه، وما مُيِّزَ بهِ من الفضائل على خلافه.

---

[1] ث: "ما"، والضبط العقد الفريد ص١٧٥.

[2] ث: ذوا.

[3] هي أوقاف الحرمين الشريفين. انظر: محمد محمد أمين: الأوقاف، ص١١٣-١١٦.

وبالوظيفة المُشار إليها الآن أوحد الزمان، عين العُلماء العاملون[1] الأعيان، شيخ الإسلام، بهاء الأنام، حسنة الأيام، سيد عُلماء مصر والعراقين والشام، صدر المُدرِّسين، مُفيد الطالبين، قاطع المُناظرين، قامع الخوارج والمُلحدين، مؤيِّد شريعة سَيِّدِ المُرسلين، شيخ الفُقهاء والنُّحاة والقُرَّاء والمُحدِّثين، تاج العُلماء، أوحد الفُضلاء، عُمدة الفُصحاء والبُلغاء، خطيب الخُطباء، فريد عصره، وحيد دهره، صاحب العلوم العديدة، والتصانيف المُفنَّنة المُفيدة، موضح المُشكلات، مُزيل الشُّبُهات، مُنقِّح العبارات، أعجوبة الدَّهر، حائز غايتي النظم والنثر، سيدنا ومولانا أبو العبَّاس شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الشافعي العَسْقَلاني[2]، أبقاهُ الله عن مِلَّة الإسلام مُناضلًا، وسدَّد عزمه على كل من رامها بسوء مُبارزًا ومُجادلًا.

وفضائله وعلومه لا يستطيع عدَّها الألسن، بل غاية كل أحد أن ينقاد لشرفها ويُذعِن، والمسئول من كَرَّمَ الله إبقاؤه للمُسلمين دهرًا طويلًا، وإعطاؤه من خير الدُّنيا والآخرة عطاءً جزيلًا، فإنه من أحسن الناس وأجملهم هيئة ووقارًا، فاختارهُ الله تعالى حاكمًا بين عباده اختيارًا.

ولي إليهِ ميل كُلِّي، ومحبته عندي مؤكدة، لقول النبيعليه السلام: {جُبِلَت القلوب على حُب مَن أحسن إليها}، وله عليَّ أفضال، وأجازني فيما يجوز له وعنه نقلًا، وفي علم العروض وتصانيف الكتب وغير ذلك، وبيني وبينه مُذاكرات في العلم الشريف، وحفظتُ عنه أحاديث جمَّة، ورويتها عنه بإسناد صحيح، وكلما قدمتُ من سفر يتفضل بالزيارة وجبر الخاطر، مُمتثلًا بقولهعليه السلام: {القادم يُزار}، وقال بعضهم: "إن زارني فبفضله، ولئن أزر فلفضله[١٠٩ب]، فالفضل في الحالين له".

وقد قُلْتُ فيهِ هذه الأبيات، وكتبتها بخطِّي، وأرسلتها إليه[3]:

---

[1] ث: العاملين.

[2] استقر ابن حجر في القضاء عوضًا عن علم الدين البُلقيني يوم السبت ثاني عشري المحرم سنة٨٢٧هـ، وظل بين عزل وتولية حتى أُعيد للقضاء في سادس عشري المحرم سنة٨٤٤هـ، ثم صُرف في خامس عشر ذي القعدة سنة٨٤٦هـ، ثم استمر بين عزل وتولية حتى عُزل في جمادى الآخرة سنة٨٥٢هـ، وبعدها زهد في المنصب. انظر: السخاوي: الذيل على رفع الإصر، ص٨٠-٨٥.

[3] انظر: السخاوي: الجواهر والدرر، ص٧٨٨-٧٨٩؛ والضوء اللامع، ج٣، ص١٩٦-١٩٧؛ عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج٤، ص١٠١.

وقائلـةٍ مَـن فـي القُضـاة جمـيعهم يُـلازم تقـوى الله طَـرًّا بـلا ضَـجَرْ
ويـرأف فـي الأحكـام بـالخَلقِ كلهـم ويـدعو لهُـم فـي كـل ليـلٍ إلـى السَّـحَرْ
فقُلْتُ لهـا فهـو الإمـام أولـي[1] النّهـى وذاك شـهابُ العَسْقَلاني بنـي[2] الحَجَـرْ
لــه كُتــبٌ فــي كــلِّ فــنٍّ لقــارئٍ وشـرحٌ عجيـبٌ للبُخـاري مِـن الخَبَـرْ
وفـي النحـوِ والتصـريفِ لـم يُـر مثلـهُ كـذا فـي المعـاني والبيـان وفـي الأثـرْ

فلاق ذلك بخاطرِهِ المُبارك، وأحسن وتفضَّل بإرسال التُّحف والهدايا، وكتب أبياتًا بخطِّهِ الكريم، وجهَّزها صُحبة ذلك جوابًا لما تقدَّم، مُضافًا لسابق أفضاله قوله:

قَبِلْـتُ بِـرَّك إذ قبَّلْـتُ خـط يـدٍ سـادت فجـادت بـلا مَطـلٍ يُـرى وعَـده
جَـزاكَ عنِّـي الغنـي البـر صـالحه مـا أنجـز الحـرُّ بالتعجيـل مـا وعَـده

وأيضًا:

أيـا غـرسَ فضـلٍ أثمـرَ العلـم والنّـدى فللــهِ مــا أزكــى ومــا أطيــب الثمــر
يجــودُ ويُنشــي بالغًــا مــا أرادهُ فمُســتطلع دُرًّا ومُســتنزلُ الــدُّرر
لـكَ الخيـر قـد حرَّكـتَ بـالنظم خـاطرًا لـه مُـدَّة فـي العُمْـرِ ولّـت ومـا شَـعَر
فقلّـدتَ جيـدي طـوق نعمـاكَ جائـدًا فِعَـالًا ونُطقًـا صـادق الخُبْـرَ والخَبَـر
مناســبة اســمينا خليــل وأحمــد لـرأسِ أولـي الـنّظمِ الإمـام الـذي غَبَـر

يعني الخليل بن أحمد صاحب العَروض، ولمحتُ معنى أيضًا أنه كالوالد لي وأنا كالولد له بقوله: "خليل بن أحمد"، وكم له من فضل وإحسان، فالله تعالى يرفع درجاته في أعلى الجنان.

وأمَّا قاضي القُضاة الحنفية: تقدَّم أنه في الرُّتبة بعده، وله من التراتيب والأُبَّهة ما يُقاربه كما تقدَّم، لكن باختصار.

وبها الآن بركة المُسلمين، لسان المُتكلِّمين، رحلة الطالبين، أوحد العُلماء العاملين، خالصة أمير المؤمنين الشيخ سعد الدين سعد ابن الشيخ شمس الدين

---

[1] ث: أولو.
[2] ث: بنو.

الديري المقدسي[1]، نفع الله ببركاته[١١٠أ]، وأمتع المُسلمين بحياته، فإنه من عباد الله الصالحين.

وكان والده من أكبر العُلماء، ولي فيه اعتقاد، وكُنْتُ صغير السن بالقُدس الشريف اجتمع عليه، وأتبرَّك به فيمُدني بدعائه، ويلمح فيَّ أمورًا، فيقول لوالدي عليها، وقد جرى ذلك، رحمه الله تعالى[2].

وأمَّا قاضي القُضاة المالكية: فقد تقدَّم أنه في الرُّتبة بعد قاضي القُضاة الحنفية، ويليق به ما يليق بالمذكور من الترتيب لكن باختصار.

وبالوظيفة المذكورة بقية السلف الصالحين، صاحب الفوائد الجَمَّة، والعلوم التي استضاءت بنورها الأُمَّة، وأزاحت ببركتها عن الإسلام كل غُمَّة بدر الدين ابن التنسي[3]، أيَّد الله أحكامه، فإنه من ألطف أهل مذهبه.

ولي به صُحبة أكيدة من مُدَّة مديدة، وجرى بيننا مُذاكرات في العلم الشريف، وله عليَّ أفضال، وكان أخوه القاضي شمس الدين[4]- رحمه الله تعالى- أكبر أصحابي، وكان يتردد إليَّ بثغر الإسكندرية بالتُّحف والهدايا.

وأمَّا قاضي القُضاة الحنابلة: فقد تقدَّم أنه في الرُّتبة بعد قاضي القُضاة المالكية، ويليق به ما يليق به في جميع الترتيب لكن باختصار.

وهو الشيخ الإمام، العَالِم العامل العلَّامة، الورع الزاهد، الناسك العابد، شيخ الإسلام، سيد العُلماء ذوي المحابر والأقلام، صاحب المعقول والمنقول، مُتقن

---

(1) هو سعد بن محمد بن عبد الله بن سعد، كان شيخ المذهب في وقته، تولى قضاء الحنفية في محرم سنة٨٤٢هـ عوضًا عن البدر العيني، وله عدة مصنفات، توفي سنة٨٦٧هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٢٥١-٢٥٣.

(2) يُعرف بابن الديري، كان شيخ المذهب في وقته، تولى قضاء الحنفية، وتوفي في شوال سنة٨٢٧هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٨، ص٨٨-٩٠.

(3) هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد الزبيري السكندري، ويُعرف بابن التنسي، تولى القضاء بعد وفاة شيخه البساطي في رمضان سنة٨٤٢هـ، وتوفي سنة٨٥٣هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٩٠-٩٢.

(4) برع في علم الشروط ونحوها، وناب في الحكم مدة، توفي سنة٨٤٤هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٩٠.

العلمين الفروع والأصول مُحب الدين أحمد بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن عمر البغدادي(١)، نفع الله المُسلمين ببركاته، فإنَّ خيره وصلاحه مشهور.

ولي فيه اعتقاد حسن، وجرى بيننا مُذاكرات، وقرأتُ عليه شيئًا من أصول الدين، وكاشفني في أمور صح وقوعها، وله القيام في الليل، ووِرْد يقرأهُ بصوت جهر، وتفيض أعينه من الدمع، بحيثُ أنَّ كل من سمع ذلك يحصل له رِقَّة، وهو:

يا مَن يرى ما في الضمير ويسمع   أنت المُعدّ لكل ما يُتوقعُ
يا مَن يُرجَّى للشدائد كلها   يا من إليهِ المُشتكى والمَفزعُ
يا مَن خزائن رزقهِ في قول كُن   امنُن فإنَّ الخير عندكَ أجمعُ[١١٠ب]
ما لي سوى فقري لديكَ وسيلةٍ   فبالافتقار إليكَ فقري ادفعُ
ما لي سوى قرعي لبابكَ حيلةٍ   فلئن رددتُ فأيُّ بابٍ أقرعُ
ومَن الذي أدعو وأهتفُ باسمهِ   إن كان فضلكَ عن فقيرك يُمنعُ
حاشا لجُودكَ أن تُقنِّط عاصيًا   الفضل أجزلُ والمواهبُ أوسعُ

وهذه الأبيات منسوبة للسهيلي(٢) صاحب كتاب "الروض الآنف" في سيرة رسول الله ﷺ. رُوِيَ أنَّ ابن دِحْيَة قال: "أنشدني السهيلي هذه، وقال أنه ما سأل الله تعالى بها حاجةً إلا أعطاهُ إيَّاها، وكذلك كل من استعمل إنشادها".

فلمَّا تحقَّقتُ بَرَكتها، وجرَّبتُ قضاء الحوائج بإنشادها خمَّستُها، وجعلتُ التخميس بين المصراعين منها، وأظُن أنني لم يسبقني أحد في ذلك على هذا النمط، وأرجو من كرم الله غُفران الذُّنوب، وهي:

يا مَنْ يَرى ما في الضميرِ ويسمعُ   ويزيدُ في حسناتِ مَن يتخضَّعُ
ويُجيبُ مَن في سِرِّهِ يتضَّرعُ   ويُحب مَن في فعلهِ يتخشَّعُ
أنت المُعدُّ لكل ما يُتوقعُ

---

(١) تولى القضاء مرتين، والثانية من صفر سنة٨٣١هـ حتى وفاته في جمادى الأولى سنة٨٤٤هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٢٣٣-٢٣٩.

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي الأندلسي، توفي سنة ٥٨١ه. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٣.

يـــا مَـــن يُرجَّـــى للشـــدائدِ كلهـــا   وهـــو المُريـــد لعَقـــدها ولحلِّهـــا
فـــالنفسُ فـــي قَـــبحٍ تُريـــدُ بفعلهـــا   فـــاغفر ذنـــوبي قلهـــا مـــع جلهـــا
يا مَن إليهِ المُشتكى والمَفزعُ
يـا مَـن خـزائنُ رزقـهِ فـي قـول كـن   احفـظ علـيَّ الـدين يـا مـولى وصُـن
وأنـا بفعـل الـنفس مـا أرضـى فكُـن[1]   لـي راحمًـا يـا سـيدي واغفـر ومُـن
أمنُن فإنَّ الخير عندكَ أجمعُ
مـا لـي سـوى فقـري لـديكَ وسـيلة   وبضـاعتي مِـن طـاعتي لقليلـة
وجـــوارحي مُعتلّـــة ونحيلـــة   ومِـن المعاصـي والـذنوب ثقيلـة
وبالافتقار إليك فقري أدفعُ[١١١أ]
مـا لـي سـوى قرعـي لبابـكَ حيلـة   يـا مَـن مواهبـه العِظَـام جزيلـة
وسـوابغ الأنعـام منـه جميلـة   لا تـرددن الـنفس فهـي ذليلـة
ولئن رددتُ فأي بابٍ أقرعُ
ومَـن الـذي أدعـو وأهتـفُ باسـمهِ   غيـر الـذي رزق العِبَـاد بقسـمهِ
يـا ويـل روح العبـد فـي طلسـمهِ   وفِراقـه وبعـاده عـن جسـمهِ
إن كان خيركَ عن فقيرك يمنعُ
حاشـا لفضـلكَ أن تُقـنِّط عاصـيًا   أو أن تُفنِّـد فـي عطائـكَ قاصـيًا
يومًـا يُسـاق الخلـق فيـهِ صياصـيًا   وأشـابَ طفـلًا هولـهُ ونواصـيًا
فالفضلُ أجزل والمواهب أوسعُ

---
[1] ث، ب: فهن.

فصل

في نُبذة من وصف العُلماء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين

العُلماء هُم القائمون بالشريعة الواضحة التي جاء بها رسول اللهﷺ وشرعها، والحُجَّة القاطعة التي دحض بها شُبَه المُبطلين وقطعها، والطريقة المُثلى التي بناها على قاعدة الوحي والتنزيل ووضعها، والحقيقة العُليا التي أعلاها الله تعالى على جميع الشرائع والمُلك ورفعها، فهي سبيل يُفضي بسالكيه إلى الصراط المُستقيم، ودليل يهدي مُتبعيه إلى الفوز العظيم، لها حُماة وحَمَلَة، فحُماتها المُلوك، وحَمَلَتها العُلماء.

فأمَّا المُلوك الذين أقامهم الله تعالى لحراسة الدين، وحفظ المِلَّة، وحماية الشريعة، فقد تقدَّم القول في تفاصيل بعض صفاتهم، وفيما يتعيَّن اعتمادهُ من صنوف تصرفاتهم.

وأمَّا العُلماء فهم القائمون لحملها، المُعتنون بنقلها، الحاملون أعباء ثُقلها، ففي الحقيقة هُم بإحكام أحكامها مُعتنون، يعتدُّونها دخرًا ليومٍ لا ينفع مال ولا بنون، وقد رفع الله تعالى بعضهم فوق بعضٍ درجات، واختص من يشاء منهم من لُطفهِ بمزايا وصفات، فأقدارهم مُعتبرة بالصفات دون الذوات، ومراتبهم بالعلم مُتفاوتة بحسب ما رُزِقوا[١١١ب] من الثمرات، فلا جرم منهم ظالمٌ لنفسه، ومنهم مُقتصِد، ومنهم سابقٌ بالخيرات.

أمَّا الظالم لنفسه فهو الذي لا يعمل بعلمه، ولا يقف عند واجب الشرع وحتمه، فهو على الحقيقة تابع هواه بائع هُداه، فينبغي أن لا يُفوَّض إليه أمر

ديني ليتولَّاه، فإن من لم ينصح نفسه خليق به أن لا ينصح من سواه، وأمَّا الآخران فجدير بهما آداء أمانة ما تحمّلاه، وحقيق لهُما النهوض بأعباء ما تقلداه، فإنَّ الأعمال الدينية هي أبدًا مبدأ الاهتداء إلى طرق الحلال والحرام، والاقتفاء فيما تُعرض من الوقائع والأحكام، والقضاء بين المُتنازعين لفصل الخصام، والاعتناء بأمور المُستضعفين من الأيامى والأيتام.

وأميز العُلماء من دأبوا لحمل العلم في صدورهم، وتعبوا في اكتسابهِ حتى حصَّلوا منه غاية مُستطاعهم ومقدورهم، بحيثُ إذا عُرِفوا خُصُّوا بالرعاية والعناية، ومُيّزوا بمقدار ما عندهم من المعرفة والدراية، فيكون ذلك داعيًا إلى انبعاث النفوس إلى تحصيل العلم الذي هو مادة الهداية، وتوفير الدواعي على الاشتغال به وفي ذلك كفاية ونهاية إلى الغاية.

وإذا كانت أنواع العلوم وصنوفها مُختلفة الشعوب، مُتباينة الأسلوب، مُتعدِّدة الضروب، لا تُضبط بكاتب ولا تُحصر بمكتوب، وقع الاقتصار منها على النوع الذي هو العلم الحقيقي شرعًا، الذي هو في المِلَّة الإسلامية والشريعة النبوية أكبر نفعًا وأكثر جمعًا وهو "علم الأحكام ومعرفة الحلال والحرام"، ومتى أُطلِقت لفظة "العلم" حُمِلَت على علم الشريعة دون غيره من العلوم المُتعدِّدة الأنواع والأقسام، حتى لقد صَرَّحَ الأئمة- رضي الله عنهم- بأنه لو وصَّى رجُل بثُلث مالهِ للعُلماء، فإنه يُصرف إلى عُلماء الشريعة دون غيرهم.

وقد كشف الإمام عَالِم العراق أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي رضي الله عنه غطاء الاضطراب عن وجه الصواب، وذكر في كتابهِ المُسمَّى بـ"الحاوي في الفتاوي" أنَّ الرَّجُل لو قال: "أعطوا ثُلث مالي لأعلم الناس"، فإنه يُصرف إلى الفُقهاء لقيامهم بعلم الشريعة، الذي هو بأكثر[١١٢أ] العلوم مُتعلِّق، ثم إنَّ حاجة الناس داعية إليه، ومصالحهم منوطة به، ووقائعهم موقوفة عليه، والمُدَّعي أنه من جُملته كثير، وهذه الوسيلة مُفضِية إلى معرفة الفرق بين الفرقتين، كاشفة عند استعمالها كُنه الحقيقتين[1].

وبالديار المصرية عُلماء جَمَّة، ولهم فضائل شَتَّى على المذاهب الأربع ما لا يوجد في غيرها قط، وقد حصل الاجتماع بجماعة منهم، وقرأتُ عليهم علومًا

---

[1] من أول الفصل إلى هُنا نقله المؤلِّف من العقد الفريد للنصيبي، ص١٦٠-١٦١، ١٨١-١٨٢.

شَتَّى، وسَمِعْتُ منهم، وأذِنوا لي بالرواية عنهم، فمنهم من هو باقي الآن، ومنهم من اندرج بالوفاة إلى دار الكرامة، نفعنا الله بهم في الدُّنيا والآخرة، فمنهم:

١- شيخ الإسلام، قُدوة العُلماء الأعلام، صدر المُدرِّسين، بقية السلف الصالحين، علم الدين صالح ابن شيخ الإسلام أبو حفص سراج الدين عمر ابن البُلقيني الشافعي[(١)]، مَتَّعَ الله المُسلمين بوجوده، فإنه من بيت أصالة، وقد حوى من جميع الفنون، وله عليَّ أفضاله، وأمَّا جبره للخواطر أو تقرُّبهِ إلى الناس فشيء لا يُقاس.

٢- ومنهم الشيخ عبد الرحمن التفهني الحنفي[(٢)] رحمه الله تعالى.

٣- ومنهم الشيخ الصالح الورع الزاهد شمس الدين محمد بن حسن الحنفي[(٣)]، أمتع الله تعالى ببقائه.

٤- والشيخ شمس الدين البِسَاطي المالكي[(٤)] رحمه الله.

٥- والشيخ بدر الدين القُدسي الحنفي[(٥)]- شيخ مدرسة الشيخونية[(٦)]- رحمه الله، فإنني سَمِعْتُ منه "البُرهانية"[(٧)] مُختصر الإرشاد في الأصول. قال:

"اِعلم أرشدكَ الله أنَّ العالم كله موجود سوى الله تعالى وسوى صفات ذاته، ثم العالم على قسمين: جواهر وأعراض، فالجوهر المُتحيِّز، والعَرَض هو المعنى القائم بالجوهر، والدليل على ثبوت الجواهر تناهي الأجسام في انقسامها إلى حد يستحيل انقسامه، فذلك هو الجوهر، لأن القسمة هي الافتراق، والشيء

---

(١) توفي سنة٨٦٨هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٣١٢-٣١٤.

(٢) هو عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن التفهني، انتهت إليه رئاسة مذهبه، توفي في شوال سنة٨٣٥هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص٩٨-١٠٠.

(٣) لم أهتد لمُراد المؤلف، ولعله محمد بن حسن بن حمزة الحلبي الحنفي، توفي سنة٨٦٢هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٢٢١.

(٤) محمد بن أحمد بن عُثمان البِساطي القاهري المالكي، توفي سنة٨٤٢هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٧، ص٥-٨.

(٥) هو بدر الدين حسن بن أبي بكر بن أحمد، تولى تدريس الشيخونية سنة٨٣٣هـ، وتوفي سنة٨٣٦هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٩٦-٩٧.

(٦) أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمري سنة ٧٥٦هـ، وانتهى من عمارتها سنة ٧٥٧هـ، وتقع اليوم بشارع الصليبة. انظر: المقريزي: الخطط، ج٤، ص٧٦٠-٧٦٤؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية، ج٥، ص٨٣-٨٨.

(٧) تُسمى بـ"العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية" لأبي عمرو عثمان بن عبد الله القيسي المعروف بالسلالجي المغربي(ت:٥٧٤هـ)، وهي منشورة، وعليها عِدَّة شروح مطبوعة ومخطوطة.

الواحد لا يُفارق نفسه، وكلما تآلف معه فهو على حُكمه، وبه تفضُلُ الأجسام بعضها على بعض في الكِبَر والصِّغَر كالذَّرَّة والفيل، لأنَّ ما لا يتناهى لا يفضُلُ ما لا يتناهى، وأيضًا فإنَّ ما لا يتناهى يستحيل دخوله في الوجود.

وقال: الدليل على ثبوت الأعراض مناوب الأحكام الجائزة الطارئة، وتعاقبها على الجواهر، إذ لو كانت واجبة لها لاستحال تبدلها، ولتساوت الجواهر فيها، واختصاص كل جوهر بحُكم يجوز على مُماثله دليل على معنى يُخصِّصه به ويتعيَّن قيامه به، إذ لو لم يقُم بهِ لما كان بإيجاب الحُكم له أولى من إيجابه لغيره.

وقال: الدليل على حدوث الأعراض طريانُها على محالِّها، وانتفاؤها بعد وجودها دليل على حدوثها، إذ لو ثبت قدمها لاستحال عدمها.

وقال: الدليل على حدوث الجواهر أنَّ الجواهر لا تعرى عن الاجتماع والافتراق والحركة والسكون، والاجتماع والافتراق والحركة والسكون حوادث، وما لا يعرى عن الحوادث لا يسبقها وما لا يسبقها كان حادثًا مثلها.

وقال: الدليل على ثبوت الصانع أنَّ العَالَم جائز وجوده وجائز عدمه، فليس وجوده بأولى من عدمه، ولا عدمه بأولى من وجوده، فلمَّا اختص بالوجود الجائز بدلًا من العدم المجوز افتقر إلى مُقتضٍ وهو الفاعل المُختار.

وقال: الدليل على قِدَم الصانع أنه لو كان حادثًا لافتقر إلى مُحدِث، وكذلك القول في مُحدِثه، وذلك يؤدِّي [إلى][1] التسلسُل، والتسلسُل يؤدِّي إلى نَفينا، ونَفينا مع وجودنا مُحال، وما أفضى إلى المُحال كان مُحالًا.

وقال: الدليل على أنه[١١٢ب] تعالى قائم بنفسه وجوب اتصافه، فوجب أن يكون قديمًا بأنه تعالى حي عالم قادر، والصفة لا تتصف بالأحكام التي توجبها المعاني، فلمَّا وجب اتصافه تعالى بهما حتمًا وجب أن يكون قائمًا بنفسه.

وقال: الدليل على أنه تعالى مُخالف للحوادث هو أنَّ المثلين كلٌّ موجودين مُتساويين في جميع صفات النفس، والرب تعالى تقدَّس عن سمات الجواهر والأعراض، فوحب[2] أن يكون مُخالفًا لها، وذلك أنَّ الجوهر حقيقة المُتحيِّز، والمُتحيِّز يجوز عليه الاختصاص ببعض الجهات والمُتحاذيات، وذلك يدل على

---

(١) الإضافة من العقيدة البرهانية، ص٢٥.

(٢) ث: "وجب"، والضبط من العقيدة.

حدوثـه، وأيضـًا فـإنَّ الجوهر يجوز عليـه التـأليف والتركيب، وذلـك يـدل علـى حدوثـه، والموصـوف بالقِدَم لا يتصـف بمـا يـدل علـى حدوثـه، وأمَّـا العَـرَض فحقيقته ما يقوم بالجوهر، وذلك يدل على افتقاره إلـى محل، والرب تعـالى عن الافتقار على الإطلاق، والعَرَض لا يبقى زمانين والرب تعـالى قديم، ومـا ثبت قِدَمه استحال عدمه، والعَرَض لا يوصف بالأحكام التي توجبها المعاني، والرب تعالى موصوف بها حتمًا، فتقرَّر بمجموع ما ذكرناه تقدُّس الرب تبارك وتعـالى عن سمات الجواهر والأعراض، فوجب أن يكون مُخالفًا لها.

وقـال: الـدليل علـى أنـه تعـالى عَـالِمٌ قـادر استحالة صـدور الفعل الرصـين، المُحكم المتـين مـن غيـر عَـالِم قـادر، وثبـوت لطـائف الصُّـنع ومـا تتصـف بـه السموات والأرض وما بينهما من الانتظـام والاتقـان دليـل علـى أنـه تعـالى عَـالِم قـادر، ثـم اختصـاص الأفعـال بأوقاتهـا واختصـاص صـفاتها بـدلًا مـن نقائضـها الجائزة عليها دليل علـى أنـه تعـالى مُريد، وثبـوت هـذه الصـفات دليـل علـى أنـه تعالى حي لاستحالة ثبوت الشروط مع انتفـاء الشـرط، ثـم الحـي يجـوز أن يكـون سميعًا بصـيرًا، فلمَّـا استحالت النقـائص علـى الله تعـالى وجـب أن يكـون سميعًا، وكـذلك القـول فـي الكـلام والإدراك، إذ كـل قابـل لنقيضـين لا واسـطة بينهمـا يستحيل أن يعري عنهما، فلمَّا استحالت النقائص على البـاري تعالى قطعًا وجب أن يكون سميعًا بصيرًا مُتكلِّمًا مُدركًا.

وقـال: الـدليل علـى ثبـوت الصـفات الأزليـة العِلَّـة والحقيقـة، فمهمـا ثبـت حُكـم مُعلَّل بعِلَّـة وجـب طردهـا شـاهدًا وغائبًـا، ولـو جـاز ثبـوت الحكـم مـن غيـر علـة لوجوبـه لجـاز ثبـوت العِلَّـة مـن غيـر حُكمهـا لوجوبهـا، وقـد تقـرَّر فـي الشـاهد أن يكون العَالِم عالمًا مُتعلِّل بالعلم، وكذلك القول في الحقيقة، فمهما ثبتت حقيقـة فـي مُحقَّق وجب طردها، وقد تقرَّر فـي الشـاهد شـاهدًا أو غائبًـا أنَّ حقيقـة العَـالِم مـن قام بهِ العلم، [إذ][1] لو لم يقُم به لما كان بإيجاب الحُكم له أولى من إيجابهِ لغيره، لغيره، وكذلك القول في جُملـة الصـفات، فثبت بـذلك أنَّ البـاري سُبحانه وتعـالى حي بحياة قديمة، عَالِم بعلم قديم، قـادر بقُدرة قديمـة، مُريـد بـإرادة قديمـة، سـميع بسمع قديم، بصير ببصر قديم، مُتكلِّم بكلام قديم، مُدرِك بإدراك قديم[١١٣أ]، إذ الموصوف بالقِدَم لا يتصف بما يدل على حدوثه.

---

[1] الإضافة من العقيدة، ص٢٧.

وقال: الدليل على وحدانيته تعالى أن لو قدَّرنا إلهين اثنين، وقدَّرنا من أحدهما إرادة حركة محل واحد في وقت واحد ومن الثاني إرادة تسكينه في ذلك المحل بنفسه لم يخل: إمّا أن ينفذ إراداتهما معًا، أو لا تنفذ إرادتهما، أو تنفذ إرادة أحدهما دون الثاني، ومُحال أن تُنفَّذ إرادتهما لاستحالة عُرُوِّ المحل عن الشيء ونقيضه، ومُحال أن ينفذ إرادة أحدهما دون الثاني إذ في ذلك تعجيز لمن لم تنفذ إرادته، والعجز يُنافي الألوهية، لأنَّ العجز لا يكون إلا عرضًا، وقيام الأعراض بالقديم مُحال، وما يُفضي إلى المُحال فهو مُحال، وكذلك القول في الاتفاق، لأنَّ اتفاقهما مشروط بجواز عدمهما، وما يثبت قِدَمه استحال عدمه، فثبت بذلك أنَّ الفعل يُنافي الإثنينية على نعت الألوهية كما قال تبارك وتعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3].

وقال: الدليل على استحالة تناهي المقدورات جواز وقوع أمثال ما وقع، والجائز لا يقع بنفسه، وفي قصر القدرة عليه استحالة وقوعه، وذلك يؤدي إلى وقوع الاستحالة والإمكان فيما عُلِمَ فيه الإمكان، وكذلك القول في المعلومات والمُرادات ومُعلَّقات الكلام.

قال: وجواز رؤية الله تعالى أنَّ الإدراك شاهد يتعلق بالمُختلفات، والمُختلفات لا يؤول اختلافها إلى أحوالها، والإدراك لا يتعلَّق بالأحوال إذ كل ما يُرى ويُميَّز عن غيره في حُكم الإدراك فهو ذات على الحقيقة، والأحوال ليست بذوات فإذا رأي موجود لزم تجويز رؤية[4] كل موجود.

وقال: ومن الجائزات خلق الأعمال، فلا يجب عليه جواب، ولا يتحتم عليه عقاب، والثواب من فضل، والعقاب منه عدل، يخص من شاء بما شاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

وقال: ومن الجائزات انبعاث الرُّسُل عليهم السلام، وتأييدهم بالمُعجزات، ولها شروط منها: أن يكون فعلًا لله تعالى خارقًا للعادة، وأن تكون موافقة

---

(1) سورة الأنبياء، الآية ٢٢.
(2) سورة غافر، الآية ٦٢.
(3) سورة الشورى، الآية ١١.
(4) ث: "لزم رؤية تجويز"، والضبط من العقيدة.

للدعوى، وأن يقع التحدِّي بها، وأن يعجز المُتحدُّون عن المُعارضة والاتيان بمثلهما.

وقال: ومن أحكام الأنبياء عليهم السلام وجوب العصمة عمَّا يناقض مدلول المعجزة عقلًا وعمَّا سِوى ذلك من الكبائر إجماعًا، وقد تحدَّى سيد الأولين والآخرين محمدﷺ بضروب من المُعجزات، منها: القرآن العظيم، وانشقاق القمر، ونُطق العجماء، وتكثير القليل، ونبع الماء من بين أصابعه، وإنباؤه بالغيوب التي لا يتوصل إليها إلا بالوحي، فظهرت موافقة لدعواهﷺ، وامتنعت المُعارضة عن الخلائق أجمعين، وكل ذلك معلوم ضرورة، فوجب الإيمان بما جاء بهﷺ من الحشر والنشر، وعذاب القبر، ومُنكر[١١٣ب] ونكير، والصراط، والميزان، والحوض، والشفاعة، وأنباء الآخرة جُملةً وتفصيلًا.

وإنَّ جملة أحكام التكليف، وقضايا التحليل والتحريم، وقضايا التحسين والتقبيح مُتلقاه منهعليه السلام، لا مجال للعقل فيها، وإنَّ أصول الأحكام بالكتاب والسُّنَّة والإجماع، وما اجتمعت عليه الأُمَّة وعلماؤها فهو حق لا يجوز أن يعدل عنهما،ومشاقتهم فسق وضلال.

وممَّا اجتمعت عليه الأُمَّة وجوب التوبة عند مُقارفة الذنب، وهو على الفور لا يجوز الفُسحة فيها بحال، وحقيقتها الندم على ما فات من رعاية حقوق الله تعالى، فإذا توفرت شروطها فقد وعد الله تعالى سُبحانه بقبولها، ومن مات له مؤمنًا وقد فارق كبيرة ولم يوفَّق للتوبة، فأمره إلى الله تعالى: إن شاء عفا عنه، أو شفع فيه شُفعاء، أو عاقبه مُدَّة وأدخله الجنة، وأنَّ الإيمان هو التصديق[1]، فمن صدق الله تعالى بعقيدة فهو مؤمن.

وقال: ومن الجائزات عقد الإمامة، ولها شرائط منها: أن يكون قُرشيًّا مُجتهدًا مُفتيًا ذا كفاية ونجدة عند نزول الدواهي والمُلِمَّات، وليس من شرطها أن يكون معصومًا، إذ لا معصوم إلا الأنبياء عليهم السلام، وليس من شرطها أن تثبت نصًّا، بل تثبُت نصًّا واجتهادًا. هذا ما اجتمعت عليه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين وأفضل الناس من بعد نبينا محمدﷺ أبو بكر ثم عمر، ثم يتعارضت الظنون في عُثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين، فهُم الخُلفاء الراشدون المهديون.

---

[1] ث: "الإيمان والتصديق"، والضبط من العقيدة، ص٣١.

فهذه عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، تلقاها الخلف عن السلف، والله المُستعان على التمسُّك بها، والقيام بحقِّها، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآلهِ أجمعين".

ومنهم:

٦- الشيخ عز الدين الحنبلي[١] رحمه الله.

٧- والإخنائي المالكي[٢] رحمه الله، فإنه ودَّعني حين توجُّهي إلى الحجاز الشريف سنة أربعين وثمانمائة، وأنا إذ ذاك أمير الحاج الشريف، وروى لي حديثًا عن النبيﷺ أنَّ الله يغفر للحاج، ولمن استغفر له الحاج بقيَّة ذي الحجة والمُحرَّم وصفر وعشر[٣] ليالي من ربيع الأول، وأذن لي أن أرويهِ عنه.

٨- ومنهم الشيخ تقي الدين المالكي[٤] نفع الله به.

وبالديار المصرية أُناس كثيرون مُشتغلون في جميع العلوم، وقد أحاطوا بكل معلوم ما لا يوجد في غيرها قط: منهم من هو مُشتهر، ومنهم من هو مخفي، وقد اجتمعتُ على جماعة منهم، ووقفتُ على كُتب جَمَّة، واستفدتُ من ذلك أشياء مُفيدة، منهم:

٩- الشيخ زين الدين عبد[١١٤أ] الرحمن بن الخرَّاط[٥]، فإنه أَمَّة في علم العَروض.

وقد أنشد فيَّ أبياتًا كثيرة، ومن جُملتها[٦] هذان البيتان وهي:

خليل الصَّفا أمَّا مقامكَ في الورى ... عليٌّ وأمَّا الفضلُ منك جزيل

مقامكَ بيتٍ فيه أقصى تعبُّدِ ... فلا تُقصني منه وأنت خليل

---

[١] لم أهتد إليه، لكنه توفي قبل سنة ٨٤٥هـ.

[٢] لم أهتد إليه، وهو شخص مُتوفى بين سنتي ٨٤٠- ٨٤٥هـ، لكن أقرب ترجمة للمراد هي ترجمة البهاء محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر الإخنائي المالكي، ناب في القضاء زمنًا طويلاً، وكان حافظًا لفروع المذهب، وتوفي سنة ٨٥٦هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٩، ص٣٨؛ ج١١، ص١٨٣.

[٣] ث: عشرة.

[٤] لم أهتد إليه.

[٥] ذكر المؤلِّف في ق١٣١أ أنه عين موقعين الدست الشريف وشيخ الأُدباء، وترجمتُ له هناك.

[٦] ث: جملها.

ولقد جاد لمُناسبة بيت المَقْدِس والأقصى والخليل، لكوني وُلِدتُ ببيت المَقْدِس، واسمي خليل.

١٠- ومنهم الشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أحمد بن زين الدين عبد المُحسن المالكي[١] أمتع الله ببقائه، فإنه أُمَّة أيضًا في علم العَروض.

وقد أَلَّفَ لي كتابًا يشتمل على مولدي ومَرباي ومنشأي، وما وُلِّيتُ من الوظائف، وما اتفق لي من الوقائع، وما نظمتهُ لي الشُّعراء، وذكر أبائي وأجدادي، وسمَّاهُ "الدُّرر السنيَّة في المحاسن الغرسيَّة"[٢]، وضمنه عِدَّة قصائد من نظمهِ[٣]، تشتمل على ما ينيف عن ألف بيت، ورتَّبهُ ترتيبًا عجيبًا على الستة عشر بحرًا، وهي: الطويل، والمديد، والبسيط، والوافر، والكامل، والهزج، والرجز، والرمل، والسريع، والمُنسَرِح،والخفيف، والمُضارع، والمُقتضَب، والمُجتث، والمُتقارب، والمُتدارك.

أقول في بيان أوزان الأبحر المذكورة:

الطويل أصله "فعولن مفاعيلن" أربع مرَّات تقديره.

طويلٌ عليَّ الليل إذ بِتَّكالئًا   جُنوح الدُّجى والنجم ينقادُ للجُنح

والمديد أصله "فاعلاتن فاعلاتن" أربع مرَّات تقديره.

مَدَّ باعًا في التجنِّي ولَجَّا   وانثنى يُثنيهِ تيهًا وزهو

والبسيط أصله "مُستفلعن فعلن" أربع مرَّات تقديره.

أبسط رَجاك بالأيام مُبتهجًا   واغنم مِن الأنس قبل الشيب ما سنحا

والوافر أصله "مُفاعلتن"ست مرَّات تقديره.

توافرت المُنى وجَنيتُ رطبًا   جني مواصلاتك غير ذاوي

---

[١] لم أقف على ترجمته، لكنه مات بعد سنة٨٤٥هـ، لأنه قال عنه "أمتع الله ببقائه"، ولعله هو شمس الدين بن محيسن السكندري المالكي، محتسب المحمل.

[٢] من الكتب المفقودة حتى اليوم.

[٣] الزُبدة ص٩٦: ولمَّا وُلِّيتُ الوزارة في الأيام الأشرفيَّة قصدتني الشُعراء، وتغالوا في الأقوال، حتى جمع بعض أصحابي أوراق أشعارهم، وكانت جُملة، ونسخ منها كتابًا، وسمَّاهُ "الدُّرر السنيَّة في المحاسن الغرسيَّة"، وقد أعجبني منها ما نظمهُ الشيخ شمس الدين بن الخرَّاط، وهي قصيدة مُطوَّلة، من جُملتها: ..."، والأبيات أوردتها في الدراسة فانظرها.

والكامل أصله "مُتفاعلن" ست مرَّات تقديره.

وكملــت لا أحــد يفوقــك فــانتهج   طَـرُق السـيادة فــي علـوك واســتوي

والهزج أصله "مفاعلين" ست مرَّات تقديره.

هــــزجتم إذ دنــــا نــــاءٍ   بَــــرى جُثمانــــهُ الوجــــدُ

والرجز أصله "مُستفعلن" ست مرَّات تقديره[١١٤ب].

رجَـز[1] فـإن مـالوا لنـا عـن موعـدٍ   هاجــت بلابيــل الفــؤاد المُنطــوي

والرمل أصله "فاعلاتن" ست مرَّات تقديره.

مُرْمــل مِــن وصــل عِــزٍّ واثــبٍ   وثبــة الليــث مُحــبٌ فيــهِ ثــاوي

والسريع أصله "مُستفعلن مُستفعلن مفعولات" مرَّتين تقديره.

أســرعتُ فــي آثــارهم جاهــدًا   وأخيْــتُ صــبرًا يســتميل المُنــاوئ

والمُنسرِح أصله "مُستفعلن مفعولات مُستفعلن" مرَّتين تقديره.

ســرحتُ طرفــي فــي حُســن ذي غنــج   جُنّــتُ بهِألبــاب الــورى وهــوى

والخفيف أصله "فاعلاتن مُستفعلن فاعلاتن"مرَّتين تقديره.

خــف حمــل أبعــاد وغــرٍّ لجــوج   هــاج لا يثنــي مــن عنــان المنــاوي

والمُضارع أصله "مفاعلين فاعلاتن مفاعلين" مرَّتين.

ضَــــرعنا لعــــزٍّ نَــــاءٍ   أعــــاد الكــــرى سُــــهادا

والمُقتضَب أصله "مفعولات مُستفعلن مُستفعلن" مرَّتين.

اقتضــــبتُ مِــــن رشــــاءٍ   إن وهبتــــه خلــــدي

والمُجتث أصله "مُستفعلن فاعلاتن فاعلاتن"مرَّتين.

اجتــــث إن لاح ضــــوء   أجلــــو بــــهِ ليــــل بُعــــدي

والمُتقارب أصله "فعولن" ثمانية مرَّات تقديره.

تقاربــت إذ شــمَّروا للــذهاب   وحُبِّــي لهــم مــا لــه مِــن بَــراح

---

[1] ب: زجر.

والمُتدارك أصله "فاعلن" ثمانية مرّات تقديره.

دارك القوم تطفئ غرامًا وَضَا إذ دريـر الهوى بالمغنى جمح

ولمَّا ولِّيتُ ثغر الإسكندرية جميعًا على انفرادي، ولم أُسبق لجمع النيابة والنظر والحُجوبية، فقال في ذلك أبياتًا مُطوَّلة، من جُملتها هذان البيتان، وهي:

نائب السُّلطان كُن لي ناظرًا حاجبًا عن كل سُوءٍ فيه غيّ

فعيون السعد إذ هي أحرست نَم سعيدًا آمنًا من كل شيء

فلمَّا نظر ذلك الشيخ العَالِم العلَّامة أبو الفرج سرور بن عبد الله المالكي المغربي[١]- أحد مشايخي في العلم والحديث، نفع الله بعلومه- أراد امتحانه، فقال له: "أنظُم لنا لُغزًا في الشطرنج على وزن هذه اليائية المجزومة وقافيتها"، فقال[١١٥أ]:

يا إمامًا في الورى في عصرهِ شيخ علمٍ لشيوخ الثغر أي

أنت فرحي وسُروري والمُنا مِنْكَ أصلي وفروعي صارحيّ

سَلتني في نظم شيء مُلغزًا بحره مِن رمل مجزومٍ أي

في جيوشٍ دأبها حرب ولا قتل فيها فأعجبوا مِن ذاك شَيء[٢]

ذاك خمس من حروف شأنها عند كلٍّ مِن ذوي اللهو فتي

إن لخمسيها الأولى أفردتها صار بَرًّا واصلًا مِن كل فيء[٣]

أو لخمسيها الأخير صاحفًا صار طيرًا من طيور الجوحيّ[٤]

أو لخمسيها الأولى أسقطها صار نوعًا يابسًا أخشاهُ زي

أو لخمسيها الأخير مُسقطًا صار مقروءًا أو قسمًا يا أخي

ذاك مع تصحيف مامنه بقى بعد سقطٍ من جميعٍ فيه غيّ[٥]

إن تكُن لي سائلًا مُستفهمًا فجوابي هَاك هو مِن ذا الفتى

---

[١] القرشي العلبي المغربي التونسي، نزيل الإسكندرية، مهر في القراءات، وأخذ من ابن حجر وغيره، وقعت له محنة، ولم يُعلم له خبر بعدها، وجاء خبر وفاته في شعبان سنة٨٤٥هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٢٤٥؛ عبد الباسط الحنفي: الروض الباسم، ج١، ص٣٢٧-٣٢٨.

[٢] على هامش ث: شطرنج.

[٣] على هامش ث: شط.

[٤] على هامش ث: بج.

[٥] على هامش ث: سطر.

ولقد أجاد في نظم هذه الأبيات بديهًا، وهو من ألطف الناس، وله عليَّ حقوق خدم من سالف القِدَم، وجرى بيننا مذاكرات في علوم شتى.

١١-ومنهم الشيخ العَالِم العلَّامة شمس الدين الكاتب[١].

أحد جُلساء الحضرة الشريفة، فإنه مُفنَّن في علوم شتى، ودأبه أن لا يروم بمجالستهِ إلا التوسط للخير، وقضاء حوائج الناس، وأن يُذكر ويُفهم بأشياء، وقد جرى بيننا مُذاكرات، ورأيته في وقت يكتب الأبيات التي هي منسوبة للزمخشري صاحب الكشَّاف، وهي:

يا مَن يرى مدَّ البعوض جناحها   في ظَلمةِ الليلِ البهيمِ الأليَلِ
ويَرى عُروق نياطها في نَحرِها   والمُخَّ في تلك العِظَامِ النَّحَّلِ
اغفر لعبدٍ تاب عَن فرطاتهِ   ما كان منه في الزمانِ الأوَّلِ

فقال لي: "كتبتُ هذه الأبيات للسُّلطان، لأنه طلبها مني ليقرأها في خلواته".

قُلْتُ له: "إن أشار سيدي الشيخ خمَّستُها"، فأشار بذلك، فقُلْتُ:

يا مَن يرى مدَّ البعوض جناحها   وغدوها من وكرها ورواحها[١١٥ب]
وطنينها وأنينها وصياحها   وهدوها بمقيلها ومراحها
في ظَلمةِ الليلِ البهيمِ الأليَلِ
ويرى عُروق نياطها في نَحرِها   في هامِ نمرود وغاية فكرِهَا
وهو العليم بحمدها وبشُكرها   ويرى المفاصل والعظام بأسرها
والمُخَّ في تلك العِظَامِ النَّحَّلِ
اغفر لعبدٍ تاب عَن فرطاتهِ   وأسالَ دمعًا مِن على وجناته
وتذكَّر الأهوال بعد وفاتهِ   يرجُو الرِّضا[٢] والصفح عن عَثراتهِ
ما كان منه في الزمانِ الأوَّلِ

---

[١] لم أهتد إليه.
[٢] ث: الرضى.

١٢- ومنهم الشيخ الصالح شهاب الدين أحمد بن الشيخ شمس الدين محمد المُغيربي[١] نفع الله ببركته، فإنه من ذرية الصالحين، وهو أحد جُلساء الحضرة الشريفة أيضًا.

ولي فيه اعتقاد، وأخذ العهد عَلَيَّ، وبيني وبينهُ صُحبة أكيدة، ولم يزل يُكرّر في أقواله هذه الأبيات المنسوبة إلى ابن الراوندي[٢] على ما قيل، وهي:

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيت مذاهِبُهُ ... وجاهلٍ جاهلٍ تلقاهُ مرزوقَا

هذا الذي ترك الأوهامَ حائرةً ... وصَيَّرَ العَالِمَ النحريرَ زِنْدِيقًا

وأيضًا الأبيات التي يُقال أنها تُنسب للإمام الشافعيﷺ، وهي:

كم مِن قويٍ قويٍ في تقلّبِهِ ... مُهذَّبُ الرأي عنهُ الرِّزق مُنحرفُ

وكم ضعيفٍ ضعيفٍ في تقلّبِهِ ... كأنه مِن خليج البحر يَغترفُ

هذا دليلٌ على أنَّ الإله له ... في الخَلق سِرٌّ خفيٌّ ليس يَنكشفُ

وأيضًا:

قد يسلم الأطمس من حفرةٍ ... يسقطُ فيها المُبصِرُ الناظر

ويسلم الكافر مِن لَفظةٍ ... يَهلكُ فيها العَالِمُ الماهر

ويُعسر المؤمن في قوتهِ ... ويُرزقُ الكافر والفاجر

لا يعجبُ الإنسان مِن أمرهِ ... هذا الذي قدَّرهُ القادر[١١٦أ]

وأيضًا:

إنَّ الذي رزق اليَسارَ ولم ينل ... حَمدًا وشُكرًا فهو غيرُ موفَقِ

لو أن بالحيل الغِنَى لرأيتني ... بنجوم أسباب السماء تعلّقي

لكنَّ مَن عُطيَ الحُجى حُرِمَ الغِنَى ... ضدان مُقترنان لم يتفرَّقِ

وإذا سمعتَ بأن مسعودًا أتى ... واخضر عودٌ في يديهِ فصَدِّقِ

---

(١) هو أحمد بن محمد بن فُهيد، ويُعرف بابن المغيربي، تولى في عهد السلطان جَقْمَقْ مشيخة المقام الدسوقي، وتوفي سنة٨٤٦هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٢١٥.

(٢) هو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي الفارسي، اتهم بالإلحاد والطعن في الدين، توفي سنة٢٤٥هـ. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٩٤.

وإذا سـمعت بـأنَّ معكوسًـا أتـى   بئـرًا ليشـرب منـه غـار فحقـقِ

ومِـن الـدليل علـى القضـاء وكونـهِ   بـؤسُ اللبيـب وطيـبُ عـيش الأحمـقِ

١٣- ومنهم الشيخ محمد الإخميمي الرَّمَّال[١].

أُمَّة في علم الرمل، وقد تكلَّم بأمور صح وقوعها، لكنني لم أعتقد ذلك، ولم أذكرهُ إلا لفضيلة في أشياء يطول وصفها.

وقد اشتغلتُ عليه في علم الرمل، وحفظت منه الأشكال الستة عشر، فالأصل منها اثني عشر شكلًا، والزوائد أربعة، وهي: اللحيان[٢]، قبض الداخل، قبض الخارج، جماعة، فرح[٣]، عقلة، انكيس، حمرة، بياض، نصرة الخارج، نصرة الداخل، عتبة الخارج، نفي الخد، عتبة الداخل، اجتماع، طريق، وترتيب هذه الأشكال على هذا الوضع لحُكماء الهند على قول طمطم الهندي.

وقد ورد في الصِّحاح ما يدل على أنَّ هذا العلم من علم دانيالعليه السلام، وأنه كان مُعجزة له، ولا يجوز مُعجزة نبي في شخص غير نبي، فلأجل ذلك لم أعتقد صحة قول الرَّمَّالين وإن وافق الصواب، وإنما تعلَّمتُ هذا العلم لئلا أكون عاريًا منه، واطلع على حقيقته.

وقد ضربتُ الرمل، واستخرجتُ منها هذه الأشكال فدلَّتني على الضمير، وبيَّنتُ ما قد وقع من الأمور، والله سُبحانه وتعالى أعلم بالصواب[٤].

١٤-١٦: ومنهم الشيخ الصالح أوحد الدين عبد اللطيف الدِّمْياطي، والشيخ محمد الفرعوني[٥]، والشيخ يوسف الكريوني[٦].

فإنهم أُمَّة في علم التعبير، وقد قرأته عليهم، واكتسبتُ منهم مسائل جَمَّة، وألَّفتُ[١١٦ب] كتابًا في ذلك، وسمَّيتُه "كتاب الإشارات في علم العبارات"،

---

[١] لم أهتد إلى ترجمته.

[٢] ب: الحيان.

[٣] هامش ث: تسمى جودلة.

[٤] هامش ث: كلامه في هذا الموضع مُتناقض، فتأمل فيه تجده، والله أعلم.

[٥] ث: "القرعوني"، والضبط من الإشارات.

[٦] لم أهتد لترجمة أحدٍ منهم، لكنه نصَّ على أسمائهم في مقدمة كتاب "الإشارات"، ونقل عنهم فيه- كما قال في المتن- كثير من أقوالهم.

وخطبتُ في أولـهِ خطبـة، بيَّنتُ فيها أنـه علم شريف، ولـه أصل فـي الشريعة، فقُلْتُ:

"الحمدُ للهِ الذي خلق آدم من حَماٍ مسنون ونفخ فيه روحًا، واصطفاهُ للرسالة كما اصطفى إدريس من بعدهِ ونوحًا، واتخذ إبراهيم خليلًا، وموسى كليمًا، وإسماعيل ذبيحًا، ونصر هودًا على عاد، وألان الحديد لداوود، ووسع لسُليمان في الأرض روحًا، وسخر لـه ريحًا، وأيد صالح بآياتـه، وهارون برسالاته، وجعل المسيح آية وروحًا، ونجَّى يوسف من الجُب وعلَّمهُ من تأويل الأحاديث فكان في أمورهِ نجيحًا، وأسعف لقُمان في الأنام، وآتاهُ الحكمة في المنام، فاستيقظ حكيمًا فصيحًا، وخصَّ مُحمدًاﷺ بالحوض المورود وبوأهُ من الجنة مقعدًا فسيحًا، وأنزل عليه في مُحكم كتابهِ الكريم ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[١]، وجعل علم التعبير من العلوم الشرعية ولم يظهر لها مُنازعًا ولا مزيحًا.

أحمدهُ على كل حال، وأشكرهُ على نعمهِ التي ليس لها زوال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له شهادة خالصة في السر والإعلان، مقر بها القلب واللسان، وأشهدُ أنَّ مُحمدًا عبدهُ ورسولُه الذي حاز من المكارم والمفاخر الرُّتبة العُليا، وجاهد في سبيل الله بقلبهِ وقالبه فما أبقى بقيًّا، وكانﷺ في كل يوم يقول لأصحابه: "أيكم رأى رؤيا"، صلَّى الله عليه، وعلى آلهِ الأطهار وأصحابه الأخيار، صلاةً دائمةً آناء الليل وأطراف النهار.

ثم إنني أتيتُ بأدلة من الكتاب والسُّنَّة بثبوت ذلك، ورتَّبتُه ترتيبًا عجيبًا، يشتمل على ثمانين بابًا، مُجلَّدين ضخمين.

واعتمدتُ في ذلك على كُتب المُتقدِّمين وأقوال المشايخ المُعتبرين، مثل: كتاب "الأصول" لدانيال، وكتاب "التقسيم" لجعفر الصادق، وكتاب "الجوامع" لمحمد بن سيرين، وكتاب "الدستور" لإبراهيم الكرماني، وكتاب "الإرشاد" لجابر المغربي، وكتاب "التعبير" لإسماعيل بن الأشعث[٢]، وكتاب "كنز الرؤيا"للمأموني، وكتاب "بيان التعبير" لعبدوس، وكتاب"جُمل الدلائل"، وكتاب "مبادئ التعبير"[١١٧أ]، وكتاب "كافي الرؤيا"، وكتاب

---

[١] سورة النجم، الآية٣-٤.

[٢] ث: "الأشعب"، والضبط من الإشارات.

"التعبير"[لـ]ـلطاموسي، وكتاب "مقرمط[1] الرؤيا"، وكتاب "تُحفة المُلوك"، وكتاب "منهاج التعبير" لخالد الأصفهاني، وكتاب "مُقدِّمة التعبير"، وكتاب "حقائق الرؤيا"، وكتاب "الوجيز" لمحمد بن شامويه، وكتاب "التعبير" لأبي سعيد الواعظ، وكتاب "كامل التعبير" لأبي [الـ]ـفضل حبيش[2]، وكتاب "الإشارة إلى علم العبارة" لأبي عبد الله السالمي[3]، وكتاب "الدُّرُّ المُنظَّم في السِّرِّ الأعظم" لمحمد القُرشي[4].

وسَمِعْتُ مسائل جَمَّة من مشايخ مُتعدِّدة فأضفتُها إلى ذلك، وأضفتُ أيضًا ما اتفق لي ولغيري من المرائي الصحيحة التي ظهرت كفلق الصبح، فما اتفقوا عليه اكتفيتُ بقول واحدٍ منهم، وما اختلفوا فيه بيَّنتُ تعبير كل أحد على حِدَة، وما ظهر لي معناه وأولته بدليل أو معنى واضح أشرتُ في أوله بقولي: "قال بعض المُعبِّرين"، "قال بعضهم"، ثم أتيت به على الترتيب".

قال مشايخنا المذكورين أنه منذ مائة وستين سنة لم يؤلَّف كتاب في هذا المعنى على هذا النمط، فلأجل ذلك ذكرتُ مُقدمته هذه، وأُجِزتُ على ذلك.

وقد ألَّفتُ أيضًا كتابًا مُختصرًا، وسمَّيتُه "الكوكب المنير في أصول التعبير"، وبيَّنتُ فيه أنَّ البحار تُأوَّل بالمُلوك، والأنهر بدونهم، والنباتات بالناس، والفرح بالحُزن، والبُكاء بالفرح، والغائط والروث والذرق بالمال، فما يؤكل لحمُه فمال حلال، وما لم يؤكل فمال حرام، والظُّلمة بارتكاب المعاصي، والنُّور بالصلاح، والشمس بالمَلِك، والقمر بالوزير، والنجوم بأرباب المناصب، والذهب بالهم، والفضة بالقضاء، وضرب الملاهي بالمُصيبة، والحديد بالقُوة، والرمل والتُّراب بالمال، والطين والوحل بالهم، والعَراء بالإقلاع عن الذنوب ولأهل الفساد

---

(١) كذا في ث، ب، والإشارات نسخة أحمد باشا رقم١١٦، وفي مخطوطات الإشارات: راغب باشا رقم٦٤٦: "مقرمط الروياني"، وفي باريس رقم٢٧٥٢عربي، وعاطف أفندي١٩٧٣، والظاهرية رقم٦١٩١: "مفرط"، وفي مطبوع الإشارات: "تقريظ".

(٢) تتمة اسمه في الإشارات: بن إبراهيم بن محمد التفليسي.

(٣) الإشارات: "لأبي عبد الله بن أحمد بن عمر السالمي".

(٤) النصيبي، وقد أسقط المؤلِّف بعد ذلك فقرة فيها شيوخ التعبير الذين اعتمد عليهم، وهم: "الشيخ أوحد الدين عبد اللطيف الدمياطي، والشيخ عبد القادر الأشموني، والشيخ يوسف الكريوني السكندري، والشيخ محمد الفرعوني، والشيخ حسن الرملي، والشيخ نور الدين الغزاوي، والشيخ تقي الدين القُدسي، والشيخ شرف الدين الكركي، والشيخ شمس الدين حمدون الصفدي". انظر: الإشارات، ص٢٥.

بالفضيحة، والبول بالفرج من الهم، والشُّقق والحبال بالسفر، والحصون بقوة الدين، والمُدُن بالأمن، والقُرى بالخوف، والأواني والمواعين بالنِّسوة، والخشب بالمُنافقين، والحجارة بقساوة القلب، والمُتحيز بالكلمة، والسيف باللسان، والتيجان بالمناصب، وكل ارتفاع محمود، وكل انهباط مذموم، والصُّوف والوبر والقُطن والكتَّان أموال، ومِن هذا[1] المعنى وأمثاله.

وما ذكرتُ البعض إلا ليُنبئ عن الباقي، وما قاله الشهرزوري[١١٧ب] في شرحهِ لأربعين حديثًا، وكذا زين العرب في شرحهِ للمصابيح أنَّ مُدَّة ابتداء وحي الرسولﷺ إلى مُفارقته الدُّنيا كانت ثلاثًا وعشرين سنة، وكانت ستة أشهر منها يوحى إليهِ منامًا وهو نصف سنة، فكانت مُدَّة وحيهِ في النوم جُزءًا من جُملة ستة وأربعين جُزءًا من النبوة[2].

١٧، ١٨- ومنهم الفقيه حُسين، فإنه كان أُمَّة في علم السيمياء والكيمياء، وكذلك الشيخ جمال الدين عبد الله المغربي، وأمَّا اصطناعه الإكسير فشيء عجيب، ربما أنه كان لا يُحكى في ذلك، رحمه الله تعالى.

١٩- ومنهم الشيخ عبد الرحمن الفرَّا[3]، فإنه أُمَّة في علم الغالب والمغلوب.

وقد حفظتُ عنه ما استخرجه أرسطاليس للإسكندر، ويُعرف بحساب الإتساع، فكان الإسكندر إذا أراد مُحاربة من يريد مُحاربته أخرج إليه من يُريد من قواده مَن يُوجِب له الحساب الغلبة، فكان بذلك مؤيَّدًا منصورًا.

قال بطليموس الحكيم: إذا أردتَ أن تعرف الغالب من المغلوب من المُحاربين وطُلَّاب الدول والسلاطين في كل وقت وأوان، ومن هو المُستظهر منها بالحساب الذي هو في آخر الفهرسة مكتوب، فإذا حسبتَ اسم كل واحد منهما، فأسقط مهما حصل معك من الحساب تسعة تسعة حتى لا يبقى معك إلا تسعة أو دونها، فإن لم يبق من الإسمين إلا تسعة وتسعة، فأحكم لأصغرهما سنًا بالغلبة إذا كانا من جنس واحد، وأصحاب سيوف وأقلام إذا تساوى العددان أحكُم لصاحب السيف بالغلبة.

---

[1] ث: هذه.

[2] ابن شاهين: الإشارات، ص٢٥.

[3] لم أهتد لترجمته ولا ترجمة من سبقه.

وينبغي أن يُسقط الألف من إبراهيم وإسماعيل وهارون وسُليمان، والألف واللام من الحسن والحسين، وشبه ذلك، حتى يكون الاسم على هذا اللفظ من غير زيادة ولا نُقصان، وإن كان للرجُل اسمان، فاحسب له بأشهرهُما من اسم أو لقب أو كُنية، وفي الحرب باسم الملكين المُتقابلين أو من يقوم مقامهما من الأولياء، فقِس[١١٨أ] على هذا الفعل تجد في جدول الغالب غالبًا، وفي جدول المغلوب مغلوبًا، وليس يخلو جدول الأعداد من تسعة.

واعلم أنك لو حسبتَ كل مغلوب وغالب كانا من أول الزمان من ولد آدم عليه السلام إلى هذا الوقت، وقسمته بهذا الحساب لوجدت الغالب غالبًا والمغلوب مغلوبًا، وأنا أُبيّن لك ذلك من اسمين يتبيَّن بها صحة هذا الحساب، فاحسب وقِس عليه، فإنه لا يخل عليك شيء ما لم تغلط في الهجاء، فمن ذلك ما ذكرهُ الله تعالى في كتابه الكريم في قصة داوود عليه السلام وجالوت. الباقي من اسم داوود ستة، والباقي من جالوت ثمانية، فإذا نظرت في الجدول رأيتَ الستة تغلب الثمانية، وكذلك الباقي من اسم موسى ثمانية، والباقي من اسم فرعون واحد، الثمانية يغلب الواحد، فقس على هذا ما شئت تجدهُ صحيحًا واضحًا بعون الله تعالى ومشيئته.

واعلم أنه ما وُضِعَ هذا الحساب إلا على أصل صحيح من خواص الأعداد وطبائعها، المنسوبة إلى فيثاغورس الحكيم صاحب العلوم الأربع، الذي كشف بها أسرار الطبيعة وتراكيبها.

واعلم أنه لا يجوز أن يُنظر في هذا الكتاب إلا من وقت طلوع الشمس إلى وقت الزوال، فإذا زالت الشمس عن قُطب فلا يُنظر فيه بالجُملة.

الجُمَل: أ واحد **ب** اثنين **ت** أربعة **ث** خمسة **ج** ثلثة **ح** ثمانية **خ** ستة **د** أربعة **ذ** سبعة **ر** اثنين **ز** سبعة **س** ستة **ش** ثلاثة **ص** تسعة **ض** ثمانية **ط** سبعة **ظ** تسعة **ع** سبعة **غ** واحد **ف** ثمانية **ق** واحد **ك** اثنين **ل** ثلاثة **م** أربعة **ن** خمسة **هـ** خمسة **و** ستة **لا** أربعة **ي** واحد.

(الأحد)

أحد وتسعة: الأحد يغلب التسعة

أحد وثمانية: الثمانية يغلب الأحد.

أحد وسبعة: الأحد يغلب السبعة

أحد وستة: الستة يغلب الأحد

أحد وخمسة: الأحد يغلب الخمسة[١١٨ب]

أحد وأربعة: الأربعة يغلب الأحد

أحد وثلاثة: الأحد يغلب الثلاثة

أحد واثنين: الاثنين يغلب الأحد

أحد وأحد: الطالب يغلب المطلوب

(الإثنين)

اثنين وتسعة: التسعة يغلب الاثنين

اثنين وثمانية: الاثنين يغلب الثمانية

اثنين وسبعة: السبعة يغلب الاثنين

اثنين وستة: الاثنين يغلب الستة

اثنين وخمسة: الخمسة يغلب الاثنين

اثنين وأربعة: الاثنين يغلب الأربعة

اثنين وثلاثة: الثلاثة يغلب الاثنين

اثنين واثنين: المطلوب يغلب الطالب

اثنين وأحد: الاثنين يغلب الأحد

(الثلاثة)

ثلاثة وتسعة: الثلاثة تغلب التسعة

ثلاثة وثمانية: الثمانية يغلب الثلاثة

ثلاثة وسبعة: الثلاثة يغلب السبعة

ثلاثة وستة: الستة يغلب الثلثة

ثلاثة وخمسة: الثلاثة يغلب الخمسة

ثلاثه وأربعة: الأربعة يغلب الثلاثة

ثلاثة وثلاثة: الطالب يغلب المطلوب[١١٩أ]

ثلاثة واثنين: الثلاثة يغلب الاثنين

ثلاثة وأحد: الأحد يغلب الثلاثة

(الأربعة)

أربعة وتسعة: التسعة يغلب الأربعة

أربعة وثمانية:الأربعة تغلب الثمانية

أربعة وسبعة: السبعة تغلب الأربعة

أربعة وستة: الأربعة تغلب الستة

أربعة وخمسة: الخمسة تغلب الأربعة

أربعة وأربعة: المطلوب يغلب الطالب

أربعة وثلاثة: الأربعة تغلب الثلاثة

أربعة وأحد: الأربعة تغلب الأحد

(الخمسة)

خمسة وتسعة: الخمسة تغلب التسعة

خمسة وثمانية: الثمانية تغلب الخمسة

خمسة وسبعة: الخمسة تغلب السبعة

خمسة وستة: الستة تغلب الخمسة

خمسة وخمسة: الطالب يغلب المطلوب

خمسة وأربعة: الخمسة تغلب الأربعة

خمسة وثلاثة: الثلاثة تغلب الخمسة

خمسة واثنين: الخمسة تغلب الاثنين

خمسة وأحد: الأحد يغلب الخمسة[١١٩ب]

(الستة)

ستة وتسعة: التسعة تغلب الستة

ستة وثمانية: الستة تغلب الثمانية

ستة وسبعة: السبعة تغلب الستة

ستة وستة: المطلوب يغلب الطالب

ستة وخمسة: الستة تغلب الخمسة

ستة وأربعة: الأربعة تغلب الستة

ستة وثلاثة: الستة تغلب الثلاثة

ستة واثنين: الاثنين تغلب الستة

ستة وأحد: الستة تغلب الأحد

(السبعة)

سبعة وتسعة: السبعة تغلب التسعة

سبعة وثمانية: الثمانية تغلب السبعة

سبعة وسبعة: الطالب يغلب المطلوب

سبعة وستة: السبعة تغلب الستة

سبعة وخمسة: الخمسة تغلب السبعة

سبعة وأربعة: السبعة تغلب الأربعة

سبعة وثلاثة: الثلاثة تغلب السبعة

سبعة واثنين: السبعة تغلب الاثنين

سبعة وأحد: الأحد يغلب السبعة

(الثمانية)

ثمانية وتسعة: التسعة تغلب الثمانية[١٢٠أ]

ثمانية وثمانية: المطلوب يغلب الطالب

ثمانية وسبعة: الثمانية تغلب السبعة

ثمانية وستة: الستة تغلب الثمانية

ثمانية وخمسة: الثمانية تغلب الخمسة

ثمانية وأربعة: الأربعة تغلب الثمانية

ثمانية وثلاثة: الثمانية تغلب الثلاثة

ثمانية واثنين: الاثنين تغلب الثمانية

ثمانية وأحد: الثمانية تغلب الأحد

(التسعة)

تسعة وتسعة: الطالب يغلب المطلوب

تسعة وثمانية: التسعة تغلب الثمانية

تسعة وسبعة: السبعة تغلب التسعة

تسعة وستة: التسعة تغلب الستة

تسعة وخمسة: الخمسة تغلب التسعة

تسعة وأربعة: التسعة تغلب الأربعة

تسعة وثلاثة: الثلثة تغلب التسعة

تسعة واثنين: التسعة تغلب الاثنين

تسعة وأحد: الأحد يغلب التسعة

اِعلم أنَّ القاعدة في علم الغالب والمغلوب أنَّ كل عدد يغلب ما فوقه من جنسه وما تحته من غير جنسه، مثال ذلك في الأفراد: الأحد تغلب الثلاثة والخمسة والسبعة والتسعة، ولا يغلب من الأزواج شيئًا، والأزواج: الاثنين يغلب الأربعة والستة والثمانية والأحد[١٢٠ب] خاصة، وإذا تساوى العددان، وكانا أفرادًا، فالطالب يغلب المطلوب، وإن كانا أزواجًا فالمطلوب يغلب الطالب.

ثم إنني رأيتُ عندهُ قُرعة جعفرية، وقد جرَّبتُها مِرارًا، فأردتُ إيرادها في هذا الكتاب ليحصل للمُتفائلين منها الفائدة[1].

أحد واحد	أحد واثنين	أحد وثلاثة	أحد وأربعة
آدم عليه السلام	نوح عليه السلام	داوود عليه السلام	إبراهيم عليه السلام
أحد وخمسة	اثنين واثنين	اثنين وثلاثة	اثنين وأربعة
إسماعيل عليه السلام	يوسف عليه السلام	عيسى عليه السلام	موسى عليه السلام
اثنين وخمسة	ثلاثة وثلاثة	ثلاثة وأربعة	ثلاثة وخمسة
شُعيب عليه السلام	شيث عليه السلام	إسحاق عليه السلام	صالح عليه السلام
أربعة وأربعة	أربعة وخمسة	خمسة وخمسة	وآله وصحبه
دانيال عليه السلام	أيوب عليه السلام	مُحمد ﷺ	آخره

(آدم عليه السلام). قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾[2]. قال الشاعر:

قصـــيدة ترجـــو[3] بهـــا الفلاحـــا   وحاجـــة ترجـــو بهـــا النجاحـــا

أبشـــر فـــإنّي أجـــد الفلاحـــا   فيهـــا لعَمـــري واحـــد الصـــلاحا

أبشر أيُّها السائل بالنصر وقضاء الحوائج، فإنَّ الفأل بخير بالفلاح والنجاح.

(نوح عليه السلام). قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾[4].قال الشاعر:

يـــا صـــاح إن كُنْـــتَ تُريـــد القصـــدا   فـــي حاجـــةٍ ترقـــب فيهـــا وعـــدا

أبشـــر فقـــد وافـــاك نجـــم ســـعدا   مُبشِّـــرًا بكـــل نجـــمٍ ســـعدا

أبشر أيُّها السائل بالنجح لقصدك وقضاء حوائجك، فأسرع ولا تخف، إنَّ الله قد سهلها لك إن شاء الله تعالى.

(داوود عليه السلام). قـال الله تعـالى: ﴿وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَـمُ مَـا فِـي أَنْفُسِـكُمْ﴾[5] [١٢١أ]. قال الشاعر:

---

(١) تنبيه: إلى هنا تنتهي نُسخة برلين.
(٢) سورة الفتح، الآية ١.
(٣) ث: ترجوا.
(٤) سورة المدثر، الآية ١٢.
(٥) سورة البقرة، الآية ٢٣٥.

أراكَ فـــي أمـــرك فـــي مُختبـــل وأنـــت منـــه خـــائف علـــى وجـــل

فاســتعمل الرِّفــق ودع عنــك العَجَــل تنـــال مـــا تنالـــهُ يـــا ذا الرجُـــل

أيُّها السائل توقف عن هذا ولا تعجل، فإنَّ الله يكره العجلة، فإنها مذمومة، فاصبر تنال خيرًا، وتظفر بحاجتك إن شاء الله تعالى.

(إبراهيمعليه السلام). قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾[1]. قال الشاعر:

بشـــارةً جاءتـــكَ فـــي ولايـــة أو ســـبب ترجـــو بـــهِ كفايـــة

فســـوف منـــه تبلُـــغ النهايـــة وتنتهـــي فيـــهِ لأقصـــى الغايـــة

أرى لك يا صاحب الفأل أمرًا يتجدَّد، وأرى لك الدخول على السُّلطان، فالله يُعينك عليه.

(إسماعيلعليه السلام). قال الله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[2]. قال الشاعر:

قـــد لاح مـــا تطلُـــب بـــالتوفيق والفـــأل قـــد يُنـــال بـــالتحقيق

أبشِـــر بمـــا تهـــواهُ يـــا رفيقـــي بصـــحة الأقـــوال والتصـــديق

أيُّها السائل إعزم على هذا الأمر الذي عَوَّلتَ عليه، واشكر الله على الأمر الذي تطلبه، وجد فيه.

(يوسفعليه السلام). قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾[3]. قال الشاعر:

قـــد أوضـــح الفـــأل بـــذي النجـــوم أنـــكَ فـــي أمـــركَ ذا مـــذموم

فـــالرِّزقُ مـــا بـــين الـــورى محتـــوم وكـــل عبـــد رزقـــه مقســـوم

أيُّها السائل أرى لك رزقًا مقسومًا فأنت تنتظره، ولا تعجل فإنَّ العجلة من الشيطان، وتمهَّل لعلكَ تُرشد إن شاء الله تعالى.

(عيسىعليه السلام). قال الله تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾[4] [١٢١ب]. قال الشاعر:

---

[1] سورة الأنبياء، الآية ٨٨.

[2] سورة الأنفال، الآية ٦٦.

[3] سورة الأعراف، الآية ١٩٧.

[4] سورة الزمر، الآية ٢٠.

قــد جــاءك الفــأل بمــا ترتجــي   مِــن كــل خيــرٍ وعطــاءٍ جزيــل

فأبشــــر بعِـــزٍّ وبنيــل المُنــــى   فــي فــرح القلــب وعُمــرٍ طويــل

يا صاحب الفأل أرى أمرًا يتجدَّد لك، وأنت في ضيق منه، فسوف تُدركه إن شاء الله تعالى.

(موسى عليه السلام). قال الله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[1]. قال الشاعر:

أمـــركَ هـــذا لـــيس بالعَســير   إذ أنــتَ يــا ذا الفطــن النحريــر

فجِــدّ فــي الأمــر بــلا فتــور   تنــال فيــه أعظــم السُــرور

يا صاحب هذا الفأل سارع في هذه الحاجة، فإنَّ الله تعالى قد سهَّلها لك، فاشكر الله تعالى على قضاء حوائجك.

(شُعيب عليه السلام). قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[2].قال الشاعر:

الفــأل يُنبئــك عــن المنــازل   فكُــن شــكورًا حامــدًا يــا ســائلي

وأبشِــر بــرزقٍ قــد أتــاكَ عاجــل   مِــن الإلــه المَلِــك العــادلِ

أيُّها السائل أرى لكَ نَقلة من مكان إلى مكان، وأرى لك رزقًا مُتوجِّهًا، فاسأل الله تعالى في إيصالهِ سريعًا إن شاء الله تعالى.

(شيث عليه السلام). قال الله عز وجل: ﴿مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾[3]. اصبر أيها السائل عن هذا المطلوب، فإنَّ الرّزق مقسوم، والأجل محتوم، والله هو المقصود. قال الشاعر:

لا تعجلــنَّ فلــيس الــرِّزقُ بالعجــلِ   الـرِّزقُ فـي اللـوح مكتـوب مـع الأجـل

فلــو صَــبرنا لكــان الــرِّزق يطلُبنــا   وإنمــا خُلِــقَ الإنســان مِــن عَجَــل

أيُّها السائل الصبر محمود العواقب، وقد ذكره الله تعالى في كتابهِ الكريم في أماكن عديدة.

---

[1] سورة آل عمران، الآية ١٧٠.

[2] سورة النحل، الآية ١٢٨.

[3] سورة ص، الآية ٥٤.

(صالح عليه السلام). قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1] [١٢٢أ]. قال الشاعر:

بشارة عندي ستأتي سرعه يكون فيها فرحٌ ونفعه

وراحة مِن تَعبٍ إلى دِعَه ومَخرج مِن ضِيقةٍ إلى سِعَه

يا صاحب هذا الفأل أراك مُفتكرًا في أمرك، وقد عوَّلتَ على أن تنثني، فامض فيه ولا تخف، فإنك تظفر بحاجتك إن شاء الله تعالى.

(دانيال عليه السلام). قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[2]. قال الشاعر:

فألكَ قد أوضح في المقَالِ وفي صلاح الأمر والأحوالِ

مُبشِّرًا بسُرعة الإقبالِ في جُملة الأيام والليالي

أيُّها السائل أرى لك حاجة، وأنت تطلب قضاءها، فإنَّ أمركَ فيه صُعوبة، فاصبر عليه ولا تطلبه، فإنك تنال بصبرك خيرًا.

(إسحاق عليه السلام). قال الله عز وجل: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾[3]. قال الشاعر:

يا طالب الفأل بسَهم القُرعة أبشر بعِزٍّ وغِنَى ورِفعَه

وسطوة تحظى بها ومُتعة تحظى بها يا صاح بعد جُمعه

يا صاحب الفأل أرى لك قد تجدَّد لك أمر، وأنت مُعوّل عليه، فاطلُبه تجدهُ إن شاء الله تعالى.

(أيوب عليه السلام). قال الله تعالى: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾[4].قال الشاعر:

يا سائلي أبشر بعلو القَدر ونيل ما ترومهُ بالصَّبر

مُظفّرًا مُؤيَّدًا بالنصر وشانئوك في العَنا والحَصر

يا صاحب الفأل أرى لك الأمر الذي تجدَّد لك، وأنت مُعوِّل عليه، فإنك تُدركه إن شاء الله تعالى.

---

[1] سورة لقمان، الآية ٢٠.
[2] سورة لقمان، الآية ٢٠.
[3] سورة التوبة، الآية ٢١.
[4] سورة القصص، الآية ٣١.

(محمدﷺ). قال الله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1][١٢٢ب].

أبشر أيها السائل بإصراف همومك وغمومك، فعليك بالشُّكر لله تعالى إذ هداك وأصلح شأنك، فإنك تبلُغ في هذا نهاية مُرادك وغاية آمالك، فصَلِّ على نبيكﷺ. قال الشاعر:

فاشكُر لربِّ العَرش يا سائلي ولا تكُن في كل أمرٍ قلق
فرُبَّ نهرٍ خِلتَهُ ناشفًا وعن قليلٍ ماؤهُ يندفق

٢٠- ومنهم الشيخ بدر الدين حسن المصري[2]:

من تلاميذ الشيخ[3]، فإنه أُمَّة في علم الميقات، وما يَحدُث في الأشهر الرُّومِيَّة والقِبْطِيَّة، وما جرت به العوائد من الأشياء المُقترنة بالزمان، وزاد على شيخهِ بتعلُّقهِ على علم الحكمة، فلأجل ذلك قدَّمتُ ذكره، فإنه عالم بأشياء مُتنوعة.

وقد بيَّن لي أمورًا من كتاب "المجصطي"[4] لنصير الدين الطُّوسي، وله شُروع في علم المواليد وغير ذلك، فقال:

"فصول السنة أربع، وابتداء ذلك من "الخريف": وطبعه بارد يابس، طبع السوداء، ويوافق أصحاب الأمزجة الدموية، وله من الشهور الرُّومِيَّة ثلاثة:

الأول أيلول: فيه يعتدل الليل والنهار، وفيه يطيب الخوخ والرُّمَّان والسفرجل، ويُجمع الجوز والصُّنوبر، ويُقطع الحِنَّة، ويُعمل شراب الفواكه، ويُجمع حب الرَّند، وفي آخرهِ يُحصد الأُرز، وزيادة النيل المُبارك، ويبيض النعام، وتجيء الكراكي إلى الديار المصرية من العراق، ويُزرع القُرْط، ويُفرش المنثور، ويطيب الرطب، ويُسمَّى هذا الشهر بالقبطي "توت".

---

[1] سورة الأنبياء، الآية ١٠٣.

[2] لم أهتد لترجمته.

[3] يقصد الشيخ عبد الرحمن الفرا.

[4] كتاب "المجسطي" لكلاوديوس بطليموس، أمَّا كتاب الطوسي(ت:٦٧٢هـ) فاسمه "تحرير المجسطي"، وحدود علمي أنه مخطوط حتى اليوم لم يُنشر، وله عدة نسخ خطية.

والثاني من الخريف "تَشرين الأول"، ويُسمَّى بالقبطي "بابه": فيه يقل الحر، ويبرد الوقت، وتنتقل بالناس من لبس البياض إلى لبس الملون، والمطر في هذا الشهر هو الرسمي، وفيه يزرع أهل مصر، ويُعصر الزيت، وينقص النيل، وتضع البقر، وتقل الغرانيق، ويُستخرج دهن البَلسان، ويجمع البسباسة، ويطيب الموز، وتكثر الرياح، ويُستعمل الأدوية المُسهلة للأخلاط[١٢٣أ]، وتكثر الزراعات، ويشتغل الناس بالبذر، ويعقد الزعفران والبلوط والقصطل وحب الرُّمَّان، ويذهب الحر.

والثالث من الخريف "تَشرين الثاني"، ويُسمَّى بالقبطي "هاتور": في أوله يزرع أهل الشام، ويتم عقد الزعفران والبلُّوط والقصطل وحَب الريحان، ويذهب المنّ، ويلقط الزيتون، ويدخل الخشاش بطن الأرض، ويشتد البرد، وينزل الجليد، ويسقط ورق الأشجار، ويعلو البحر المالح يقوى موجه، ويتحرك فحول الغنم، ويطيب الرُّمَّان بالشام، وينقطع بقول الصيف كاليقطين والباذنجان وما أشبه ذلك.

الفصل الثاني من السنة "الشتاء": وطبعه بارد رطب، طبع البلغم، يوافق أصحاب الأمزجة الحارة اليابسة، وله من الشهور الرُّومِيَّة ثلاثة:

الأول "كانون الأول"، ويُسمَّى بالقبطي "كيهك": فيه تكون أقصر أيام السنة وأطول الليالي، وذلك في نصفه، وينور النهار، ويُزرع الخُشخاش، ويطيب استعمال الأدوية المُسهلة والفصد، ويُحمد أكل الأطعمة الحارة الدهنة الدسمة، ويُتقى فيه شُرب الماء بعد النوم، وفي ثاني عشرة تدخل الليالي السود وهي أربعين ليلة، وفي الخامس والعشرين منه مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وفيه يطيب أكل السمك.

والثاني من الشتاء "كانون الثاني"، ويُسمَّى بالقبطي "طُوبة": وفي الثاني والعشرين آخر الليالي السود، ويجري الماء في العود، ويخرج البخار من الأرض، ويُغرس النوى والأشجار، وتضرب أوتار الرُّمَّان والزيتون والكروم، ويُزرع البصل والمُنتخب للزريعة، وتُنقل صغار النخل، ويُكسر قصب السُّكَّر ويُعصر، وتتزاوج الأطيار، وتضع الغنم، وتهيج فحول الإبل، ويكثر الجزر.

والثالث من الشتاء "شباط"، ويُسمَّى بالقبطي "أمشير": فيه تهب اللواقح، وتُغرس الكروم والشجر، وتطلع الكماه والهليون، ويخرج النمل من بطن الأرض، وتولد الوحوش، ويحسن أكل الطير والفاكهة اليابسة والحلاوة والأترنج والقصب، وفي سبعة أيام منه تسقط الجمرة الأولى، ثم كل جمرة سبعة أيام، وهي ثلاث جمرات، وفي تسعة منه تخرج الأيام البلق، وفي خمسة وعشرين منه[١٢٣ب] أول الاعجاز، وفيه يطيب أكل الخراف.

الفصل الثالث من السنة "الربيع": وطبعه حار رطب، يوافق أصحاب الأمزجة السوداوية، وله من الأشهر الرُّومِيَّة ثلاثة:

الأول "آذار"، ويُسمَّى بالقبطي "برمهات": فيه يلتقيا الحرَّان: حر الأرض، وحر السماء، وفيه يخرج الجراد وكل دابة ليس لها عظم، وتفتح الحيات أعينها، ويكثر الرياح، ويصلح استعمال الدواء، ويطيب أكل: البيض، واللحوم الطرية والمالحة، واللبن، والسمن، والعسل، والحلاوة، وفيه يُعصر قصب السُّكَّر، ويزرع القصطل والعصفر والمقات.

والثاني من الربيع "نيسان"، ويُسمَّى بالقبطي "برمودة": فيه يتم زرع الأندلس لقوة بردها، ويُحصد الشعير بالديار المصرية، ويظهر الورد والبنفسج والسوسن، ويُعمل شراب الورد ومرتبه، وتضرب أوتار الياسمين، ويخرج أصول الشقاقل، ويُلقَّح النخل، ويُزرع الحِنَّة والأُرز، ويبيض الطاوس، وتُعزل أفراخ النخل، ويُجمع حَب البَلسان، ويكثر طير الماء، ويقل الأمطار، ويطيب النبق، وتكثر الزهور.

والثالث من الربيع "أيار"، ويُسمَّى بالقبطي "بشنس": فيه يعقد الفستق، ويكثر الورد والزنبق، وبكور التفاح والبرقوق والزيتون والبلُّوط مُعقد جميعًا، ويُزرع الدخن والأذرا[١] بأرض النُّوبة والحجاز، وفي آخره يرتفع الطاعون من كل أرض، ويَهِبّ الشمال، وتكون ابتداء زيادة النيل، ويطيب أكل الفواكه، ويُقلع الكتَّان والفول والحُمُّص والعدس.

الفصل الرابع من السنة "الصيف": وطبعه حار يابس، يوافق أصحاب الأمزجة البلغمية، وله من الشهور الرُّومِيَّة ثلاثة:

---

[١] لعلها: "الأذريون"، وهو نبات تُستخدم زهرته البرتقالية في العلاجات الطبية.

الأول "حُزيران"، ويُسمَّى بالقبطي "بؤونـة": فيـه أطـول أيـام السـنة وأقصـر ليالها، ويصلُح لعمل الدرياق، ويطيب فيه العسل، ويوجد باكور العنب والبطيخ وأفراخ اليمام، ويعقد الجوز، وتُعزل فحول الخيل، ويُجمع بزر قطونـا، وتنتقل بقية أهل المدن إلى لبس البياض، ويُكمل حصاد الزرع، وتكثر البقول والخيـار، ويُحسن أكلها، وكذلك أكل الفواكه.

والثـاني مـن الصـيف "تمـوز"، ويُسـمَّى بـالقبطي "أبيـب": فـي ثالـث عشـرة يدخل[١٢٤أ] أيام السَّموم وهي أربعون يومًا، وفيه تُدرس القمح، ويطيب التين، ويكثـر العنـب والفواكـه، ويجمـع الشـونيز وهـي حبـة السـوداء، وتظهـر أفـراخ الحجل، وكذلك جُملـة مـن أصـناف الطيـر، ويكثـر طيـر المـاء، ويمـوت الجـراد، وفي اليوم التاسع منه يُعرف ما يصلح في تلك السنة من الزرع وما يعطب، وما يزيد قيمته وما ينقص.

الثالث من الصيف "آب"، ويُسمَّى بالقبطي "مسرى": يطيب فيه أكل العنب، ويظهر بكور الرُّمَّان والخوخ، ويكثـر حيتـان البـوري، وتُـزرع البقـول الشـتوية، ويُكسـر النيـل، ويُجمـع السـماق وبـزر السـذاب، وفـي خمسـة عشـر منـه يطلـع سهيل[1]، ويبرد بطن الأرض، ويطيب استعمال اللبن والأشياء البـاردة، ويكمـل البطيخ الأخضر.

ثـم تكـون الأيـام المعروفـة عنـد القبط بالنسـيء إلـى يـوم النيـروز، وهـو أول "توت"، وهي المُداخلات بين الأشهر الرُّومِيَّة والقِبْطِيَّـة، فلأجل ذلك لـم يُطـابق حساب الرُّوم مـع حسـاب القبط، وكلاهمـا علـى الصـواب، فـإن الأشـهر العربيـة تدور، تارة يجيء رمضان في الصيف، وتارة يجيء في الخريف، وتـارة يجـيء في الشتاء، وتارة يجيء في الربيع.

وأمَّا البروج فعدتها اثني عشر، وهـي: حمل، ثـور، جـوزاء، سـرطان، أسد، سنبلة، ميزان، عقرب، قوس، جدي، دلو، حوت.

وأمَّا منـازل القمر فهم: رشـا، شـرطين، بطـين، ثريـا، دبـران، هقعـة، هنعـة، ذراع، نثرة، طرف، جبهة، خَرَتان، صرفة، عواء، سماك، غفر، زبانـا، إكليـل، قلب، شولة، نعايم، بلدة، ذابح، بلع، سعود، أخبية، مُقدَّم، مؤخَّر.

---

[1] هو ألمع نجم في مجموعة النجوم المكونة لكوكبة القاعدة.

وأمَّا الليل والنهار فهُما أربع وعشرون ساعة، كل ساعة خمس عشرة درجة، وكل درجة ستون دقيقة، والدقيقة قراءة الإخلاص، ونهاية طول النهار خمس عشرة ساعة، ونهاية قصر الليل تسع ساعات، ونهاية طوله خمس عشرة[1] ساعة، ونهاية قصر النهار تسع ساعات، ويختلف باختلاف عروض البلدان[١٢٤ب].

وأقول: في بيان عجيب لا يُضاهى[2] موضوع بكتاب "[الـ]ـعقد الفريد"[3]، يُنبئ عن غُرَّة كل شهر مجدول، لأنه قد تكون المطالع كاسية من ملابس الغيوم بما يحول بين الأهلة وبين الناظرين إليها. كان من فوائد العمل بهذا الجدول إزالة الأرساب، وسكون النفس عمَّا يُخامرها من الاضطراب، وكيفية العمل به:

أن يؤخذ سِنيّ الهجرة من أولها مع السنة التي يُراد معرفة أول شهورها ومواسمها، فيسقط ذلك كله مائتين وعشرة، فينظر في جدول الأعداد في بيوت العشرات، وأعلى الجدول فيه الآحاد من الواحد إلى العشرة، والعشرات من العشرة إلى مائتين وعشرة، فينظر المقدار الباقي بعد الإسقاط عشراته في العشرات وآحاده في الآحاد، فتوضع إصبع على البيت الذي فيه تلك العشرات، وإصبع على البيت الذي فيه ذلك العدد من الآحاد، ثم يمر الإصبع في السطر الذي بإزاء تلك العشرة عرضًا، وتنزل الإصبع في السطر الذي تحت ذلك العدد من الآحاد طولًا، فحيثُ التقت الإصبعان في بيت واحد يُنظر ما في ذلك البيت من الأسماء والصفات السُّلطانية فيحفظ، ثم ينظر في الجدول الثاني الموضوع للشهور، ويعتبر أعلاه، فينظر ذلك الاسم أو تلك الصفة المحفوظة أولًا، فإذا ظهر في أعلى فيوضع الإصبع عليه، ثم ينزل في السطر الذي تحته إلى مُحاذاة الشهر أو الموسم المطلوب معرفة أوله إن كان شهرًا أو معرفة يومه إن كان موسمًا، فما كان في محاذاته فهو المطلوب.

واعتبار ذلك أنه إذا أريد معرفة أول المُحرَّم سنة ستين وسبع مائة، فتؤخذ سنوات الهجرة كلها مع سنة ستين وسبع مائة، فتُسقِط كما ذكرناه مائتين وعشرة، فيسقط منها ستمائة وثلاثون، فيبقى بعد إسقاط ذلك مائة

---

[1] ث: "... فهما أربعة وعشرون ساعة...، ونهاية طول النهار خمسة عشر...، ونهاية طوله خمسة عشر".

[2] ث: يظاها.

[3] للوزير أبي سالم محمد بن طلحة القرشي النصيبي، المتوفى سنة٦٥٢هـ، نقل منه المؤلِّف كثير من نصوصه دون أن يُحيل عليه، وهذا الموضع هو أول موضع يذكره فيه.

وثلاثون[١٢٥أ]، فإذا وضعت إصبع على المائة وثلاثين، ووضعت إصبع على العشرة، فانزل بإصبعك في بيت العشرة إلى قبالة المائة وثلاثين تجد الاسم الكريم السُّلطاني نصرهُ الله تعالى، وهو المَلِك، فيُحفظ لا زال في حفظ الله تعالى وفي كنفه، ثم يُنظر في جدول الأشهر فيوجد الاسم الكريم المحفوظ في الوسط من السطر الأعلى منه، فيوضع الإصبع بإزائه، وينزل في مُحاذاة المُحرَّم فيوجد في مُحاذاته تحت الإصبع: اسم أوله وهو يوم الأربعاء،[و]أول رمضان من هذه السنة يوم الأحد، وأول شوال منها يوم الأربعاء، والوقفة يوم السبت[١].

وهكذا طريق العمل به دائمًا في جميع الشهور والمواسم ماضيًا ومُستقبلًا، والجدولان في باطن هذه الورقة: جدول أعداد السنين أولًا، جدول الشهور ثانيًا[١٢٥ب].

---

[١] انظر: ص٢٠٤-٢٠٥.

جدول أعداد السنين

واحدة	لة	هن	ثلثة	أربعة	خمسة	ستة	سبعة	ثمنية	تسعة	عشرا
لما حرفه	تصرهين	هثنين	خمسا	ثصر	حرزي	حسن	ثمه	خمسا	تصرهين	هثنين
عشرة	خمسا	ثصر	حرزي	حسن	ثمه	خمسا	تصرهين	هثنين	حسن	ثصر
عشرون	حرزي	حسن	ثمه	خمسا	تصرهين	هثنين	حسن	ثصر	حرزي	تصرهين
ثلاثون	ثمه	خمسا	تصرهين	هثنين	حسن	ثصر	حرزي	تصرهين	ثمه	خمسا
أربعون	تصرهين	هثنين	حسن	ثصر	حرزي	تصرهين	هثنين	خمسا	ثصر	هثنين
خمسون	حسن	ثصر	حرزي	تصرهين	ثمه	خمسا	ثصر	هثنين	حسن	ثصر
ستون	حرزي	تصرهين	ثمه	خمسا	ثصر	هثنين	حسن	ثمه	حرزي	تصرهين
سبعون	هثنين	خمسا	ثصر	هثنين	حسن	ثمه	حرزي	تصرهين	هثنين	خمسا
ثمانون	ثصر	هثنين	حسن	ثمه	حرزي	حسن	هثنين	خمسا	ثصر	هثنين
تسعون	حسن	ثمه	حرزي	تصرهين	هثنين	خمسا	ثصر	حرزي	حسن	ثمه
مائة	حرزي	تصرهين	هثنين	خمسا	ثصر	حرزي	حسن	ثمه	خمسا	تصرهين
مائة وعشرة	هثنين	خمسا	ثصر	حرزي	حسن	ثمه	خمسا	تصرهين	ثمه	خمسا
مائة وعشرون	ثصر	حرزي	حسن	ثصر	خمسا	تصرهين	هثنين	حسن	ثصر	حرزي
مائة وثلاثون	حسن	ثمه	خمسا	تصرهين	هثنين	حسن	ثصر	حرزي	تصرهين	ثمه
مائة وأربعون	خمسا	تصرهين	هثنين	حسن	ثصر	حرزي	تصرهين	ثمه	خمسا	تصرهين
مائة وخمسون	هثنين	حسن	ثمه	حرزي	تصرهين	ثمه	خمسا	تصرهين	هثنين	حسن
مائة وستون	ثصر	حرزي	تصرهين	ثمه	خمسا	ثصر	هثنين	حسن	ثمه	حرزي
مائة وسبعون	ثمه	تصرهين	خمسا	ثصر	هثنين	حسن	ثمه	حرزي	تصرهين	ثمه
مائة وثمانون	خمسا	ثصر	هثنين	حسن	ثمه	حرزي	تصرهين	هثنين	خمسا	ثصر
مائة وتسعون	هثنين	حسن	ثمه	حرزي	تصرهين	هثنين	خمسا	ثصر	حرزي	حسن
مئتان	حرزي	ثمه	حسن	هثنين	خمسا	ثصر	حرزي	حسن	ثمه	حرزي

[١٢٦أ]جدول الشهور

الأسماء / الشهور	خدمة	المولى	السُّلطان	الملك	الناصر	ناصر الدين	حسن
المُحرَّم	الأحد	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت
عاشوراء	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الإثنين
صفر	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الجمعة	السبت	الأحد	الإثنين
ربيع الأول	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الإثنين	الثلاثاء
ربيع الآخر	الجمعة	السبت	الأحد	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس
جمادي الأول	السبت	الأحد	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة
جمادي الآخر	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد
رجب	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الإثنين
شعبان	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء
النصف	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء
رمضان	الجمعة	السبت	الأحد	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس
شوال	الأحد	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت
ذو القعدة	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد
ذو الحجة	الأربعاء	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الإثنين	الثلاثاء
الوقفة	الخميس	الجمعة	السبت	الأحد	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء
عيد الأضحى	الجمعة	السبت	الأحد	الإثنين	الثلاثاء	الأربعاء	الخميس

٢١-[١٢٦ب] ومنهم: الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ[١].

أُمَّة في علم الخط، وعندي من خطِّهِ في درج بـالأقلام السبعة[٢]، وزاد على ذلك أقلام[٣].

الأول من هذه الأقلام المذكورة "قلم الطُّومار": كتب به بسملة شريفة.

وقلم الثُّلُث على طريقة الأستاذ علي بن هلال[٤] رحمه الله تعالى، كتب به كتاب[٥] جعفر المنصور إلى المهدي حين ولَّاهُ خُراسان.

"أمَّا بعد، فصُن عَقلك من العُجب، ووقارك من الكِبْر، وإعطاك من السَّرَف، وصَرامتك من العُنف، وحياءك من البَلادة، وعملك من التهاون، وقضاءك من العجلة، وعُقوبتك من الإفراط، وعفوك من تعطيل ما يجب من الحقوق، وصمتك من العِي، واستماعك من سوء الفهم، وصلواتك من الإضاعة، وعزماتك من اللجاجة، وآدابك من الملالة، وفرحاتك من البَطَر، وروعاتك من الاستسلام، وبطَراتك من الاغترار بالله عز وجل، والله يُوفِّقك".

وقلم المُحَقَّق: طريقته كتب به: "اللهم هَب لنا جزيل عطائك، والسعادة بلقائك، والفوز بجوارك، والمزيد من آلائك، واجعل لنا نورًا في حياتنا، ونورًا في مماتنا، ونورًا في قبرنا، ونورًا في حشرنا، ونورًا نتوسل به إليك، ونورًا نفوز به لديك، اللهم اجعل شُغل قلوبنا بذكر عظمتك، وفراغ أبداننا في شكر نعمتك، ونُطق ألسنتنا بوصف مننك، وقنا صولة السُّلطان، ووسوسة الشيطان، واكفنا مؤنة الاكتساب، وارزقنا بغير حساب يا أرحم الراحمين".

---

[١] هو عبد الرحمن بن يوسف، المعروف بابن الصائغ، وهي حرفة أبيه، تعلَّم الخط المنسوب وأتقن قلم النسخ، وكان له طريقة مُنتزعة من طريقتي ابن العفيف وغازي، وتصدَّر للتكتيب حتى صار شيخ الكُتَّاب، ونسخ بيده كثيرًا من المصاحف والكتب والقصائد، توفي سنة٨٤٥هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٤، ص١٦١-١٦٢.

[٢] عن هذه الأقلام. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٥١-١٣٢.

[٣] لمَّا ترجم عبد الباسط- ولد المؤلِّف- لابن الصائغ ذكر ما بينه وبين والده من الصُحبة، ثم تحدث عن الدرج الوارد في المتن، ووصف ما فيه من المحاسن. انظر: الروض الباسم، ج١، ص٣٣٤.

[٤] البغدادي، المعروف بالبوَّاب، توفي سنة٤١٣هـ. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص٣٤٢.

[٥] ث: كتب.

وقلم الريحان: طريقته كتب به من كلام الإمام علي كَرَّمَ الله وجهه وأرضاه: "كفاني عِزًّا أن تكون لي ربًّا، وكفاني فخرًا أن أكون لك عبدًا".

وقال كَرَّمَ الله وجهه: "الحِدَّة نوع من الجنون، لأنَّ صاحبه يندم، فإذا لم يندم فجنونه مُستحكم".

وقال- كَرَّمَ الله وجهه- في خُطبته: "اِعلموا أنكم في نَفَسٍ معدود، وأجَلٍ محدود، ولا بُدَّ للأجل أن يتناهى، وللنَّفَس أن يُحصى، وللسبب أن يُطوى، وإنَّ عليكم لحافظين كرامًا كاتبين. اللهم إنَّ حسناتي[١٢٧أ] من عطائك، وسيئاتي من قضائك، فجُد بما أعطيتَ عَلَيَّ ما قضيت، حتى يمحو ذلك بذلك. اللهم إنِّي لم أتِ ذنبًا جُرأة مِنِّي عليك، ولا استخفافًا بحقكَ عَلَيَّ، ولكن جرى بذلك قلمك، وسبق بهِ حُكمك، فإن تُعذِّب فلك الحُجَّة، وإن تعفو وتغفر فأنت الغفور الرحيم".

وقلم التواقيع: طريقته كتب به: "كُنْتُ علَّقتُ أحرفًا إلى حضرة سيدنا الصاحب الوزير- ثَبَّتَ الله قواعد مجده، وأنار كوكب سعده- على أن أصير بها الليلة على رسمي بالحضور إلى خدمته، والنظر إلى كريم مُشاهدة ميمون عِزَّته، فعاقني صُداع مُبرح عَرض لي في يومنا هذا، ما أفتح منه عيني، حَمَى الله ﷻ ساحته المكاره والأسواء، وجعل الله حَضرته في حِمَى من الأوصاب بمَنِّهِ وكرمهِ إن شاء الله تعالى".

وقلم الغُبار: طريقته كتب به من كلام أمير المؤمنين كَرَّمَ الله وجهه: "المعروف قروض والأيام دول، ومن توانى عن نفسهِ ضاع، ومن قاهر الحق قُهِر".

وقال عليه السلام: المعروف أفضل الكنوز، وأحصن الحصون، لا يُزهدنك كُفر من كفرك، فقد يَشكُرك عليه من لم يستمتع منه بشيء، وقد يُدرَك بشُكر الشاكر ما يضيع بالجحود الكافر".

وقلم النَّسخ: طريقته كتب به: "قال بعض الحُكماء: أفضل الأموال ما استرقَّ به الرجال، وأكبر الأوزار تزكية الأشرار، بادروا آجالكم بأعمالكم، بُعد الأحمق خير من قربه وسكوته خير من نُطقه، بذل الوجه إلى اللئام الموت الأكبر، بادر شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك، ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة أبدًا: العاقل من الأحمق، والبار من الفاجر، والكريم من اللئيم، وثلاثة توجب المحبة: التودُّد،

والتواضع، والسخاء، وجود الرجل تُحببه إلى أضداده، وبخله يُبغضه إلى أولاده، وجحود الإحسان يوجب الحرمان، حفظ اللسان وبذل الإحسان[١٢٧ب] من أفضل فضائل الإنسان، خير البر ما وصل إلى المحتاج، خالطوا الناس مُخالطة إن مِتُّم بكوا عليكم وإن غِبْتُم حَنُّوا إليكم، سبب الفرقة الاختلاف، شر إخوانك من أرضاك بالباطل، شيئان لا يُعرف فضلهما إلا من فقدهما: الشباب والعافية، شيئان لا يوازنهما عمل: حُسن اليقين والإحسان إلى المؤمنين".

وقلم الرقاع: طريقته كتب به: "قيل: لزم بعض أُدباء[1] ملوك العجم باب كسرى دهرًا فلم يؤذن له، فتلطَّف بالحاجب في إيصال رُقعة فيها أربعة أسطر:

"الأول: الضرورة والأمل أقدماني إليك، والثاني: القل والعدم لا صبر لصاحبهما عن الطلب، والثالث: إمَّا نَعم مُريحة أو لا مُريحة، والرابع: اِعلم أيُّها المَلِك أنَّ الرجوع إلى الأهل بلا قضاء حاجة شماتة الأعداء".

فوقَّع له على ظاهرها: "أمَّا الأمل والضرورة فسنُغنيك عنهما، وأمَّا القل والعدم فسنُغنيهما عنك، وأمَّا نعم فليس نعم كنعمنا، وأمَّا لا فلا نعرفها أبدًا، وأمَّا الرجوع إلى الأهل بلا قضاء حاجة شماتة الأعداء، فالشماتة بنا أعظم إذا رجع قاصدنا خائبًا"، وأمر له بما شاء من ذهب وفضة وخيل وإبل، وأخذ عليه عهدًا وميثاقًا متى نفد عطاؤنا تَعُد إلينا، وإن نفد اليوم تَعُد في غد".

وقلم التواقيع: مُسلسل طريقه، كتب به: "جَدَّدَ الله لمولانا الوزير غرس المُلك ذي الرئاستين- أطال الله بقاءه، وأدام على توالي الأيام عُلُوُّه وارتقاءه- من النِّعم الجَمَّة، والمِنَح التي تجلو أنوارها دُجى الليلة المُدلهِمَّة، ما يُبلج صدره الرحيب، ويُبهج خاطره الذي ببهجته يحلو الزمن ويطيب، ومُتَّعهُ في نفسهِ المُكرَّمة وعشيرته السادة المُعظَّمة بالسعادة التي تجده عليها الدهور، والسيادة التي تجري بدوامها الأفلاك وتدور، وفي هذا التعريض ما يُعني بي اقتداح زند مثله، ويشفى من داء العدم[١٢٨أ] الذي لا ينهض القوي بحمله".

---

[1] ث: أنباء.

وقلم الأشعار: طريقته كتب به هذه الأبيات:

أخجلتَ بالثغرِ ثنايا الأقاح   يا طَرَّة الليلِ ووجهَ الصَّباح
وعَجمتْ أعيُنكَ السِّحر مُذ   أعريت مِنهُنَّ صِفَاح فصاح
فيالها سُود مِراض غَدت   تَسُلّ للعُشَّاق بيضًا صِحَاح

وأقول: من جُملة تلاميذه:

- الشيخ يونس بن أسِنْ دمُر[١]: فإنه من عباد الله الصالحين، وكفّه الأيمن مطبوق لا يفتح، ويدهُ اليُسرى بها تعطيل، ومع ذلك التعطيل يكتب بها ما ذُكِرَ من الأقلام، حتى إنه يُقارب خطّه خط الشيخ، وهذا من أعجب العجائب، وقد كتبتُ عليه مُدَّة، ولي فيه اعتقاد، نفع الله به.

٢٣-٢٦: ومنهم الشيخ نور الدين[٢]، والمقريزي[٣] أُمَّة في علم التاريخ، والمقريزي[٤] مشهور، لكنه قليل الاجتماع على الناس.

وأمَّا نور الدين فهو مُختفي: تارة يكون بمصر، وتارة بالصعيد الأعلى، لا يجتمع إلا بمن يُحِبَّه، وقد اكتسبتُ منه أشياء أحببتُ ذكرها، وكذلك من: الشيخ شمس الدين الحلاوي[٥]، والشيخ نور الدين بن مُفلح[٦] رحمهم الله تعالى، فإنهم كانوا من أعزِّ أصحابي.

أقول: إنَّ الخاصة تنقسم على خمسة أقسام:

القسم الأول: العُلماء، وهُم الأدلاء على الله، فمن عمل بما عَلِم، وعلَّم وبيَّن بما تبين، فهو الذي يُدعى في ملكوت السموات "عظيمًا".

القسم الثاني: المُلوك، وهُم رُعاة خلق الله، فمن عدل في حُكمهِ كان من السبعة الذين يُظِلَّهُم الله تحت ظِلّه.

---

[١] لم أهتد لترجمته.
[٢] لم أهتد لترجمته.
[٣] ث: "المقليزي"، وهو تقي الدين المقريزي المتوفى سنة٨٤٥هـ.
[٤] ث: المقليزي.
[٥] لم أهتد لترجمته.
[٦] لم أهتد لترجمته.

القسم الثالث: الغُزاة، وهُم أنصار الله، فمن نصح في جهاده كان من الذين بايعوا الله تعالى على المُجاهدة، واشترى منهم أنفسهم بأن لهم الجَنَّة، وأكرِم بهذه المُعاقدة.

القسم الرابع: الزُّهَّاد، وهُم الطريق إلى الله تعالى، فمن تزهَّد لله في الدُّنيا عوضه الله تعالى.

وكان أبو مُسلم الخولاني[1]- رحمه الله- قد علَّق سوطًا في مسجد بيته، يخوِّف به نفسه، وكان يقول لنفسه: "توبي، فوالله لأزحفن بِكِ زحفًا، حتى يكون الكلل مِنْكِ لا مِنِّي"، فإذا دخلته الفَترة تناول سوطه[١٢٨ب]، وضرب به ساقه.

وكان صفوان بن سُليم[2]- رحمه الله تعالى- قد تعقدت ساقاه من طول القيام، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل القيامة غدًا ما وجد مزيدًا.

وقيل في المعنى أبيات وهي:

ألذَّ مِن التلذُّذ بالغواني إذا أقبلنَ في حُلَلِ الحِسَانِ
مُنيبٌ فرَّ مِن أهلٍ ومالٍ يسيحُ إلى مكان مِن مكانِ
ليخمُل ذكرهُ ويعيشُ فردًا ويظفرُ في العبادةِ بالأمانِ
تلذَّذه التلاوة أين ولىَّ وذكرٌ بالفؤادِ وباللسانِ
وعند الموت يأتيهِ بشير يُبشِّر بالنجاةِ مِن الهوانِ
فيُدرك ما أراد وما تمنّى مِن الدرجاتِ في غُرف الجَنانِ

القسم الخامس: التُّجَّار، وهُم أُمناء خلق الله تعالى إذا قاموا بالقسط، ولم يبخسوا الميزان كانوا من الممدوحين، ومن كان من هؤلاء المذكورين ولم يعمل بما اشتُرِطَ عليه أو خالف، فيكون قد ظلم نفسه وغيره، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ.

---

[1] هو عبد الله بن ثوب الداراني، سيد التابعين، قَدِم المدينة في خلافة أبي بكر، توفي سنة ٦٢هـ. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٧، ص٩٩-١٠٠.

[2] تابعي من أهل المدينة المنورة، مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف، فقيه وأحد رواة الحديث الثقات، توفي سنة ١٣٢هـ. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٦، ص٣١٧-٣١٨.

وممَّا أرويه عنهم أقول: كان دخل الليث بن سعد في كل يوم ألف دينار، وما وجب عليه ذكوة، لأنه كان يُنفقها على الضُّعفاء والفُقراء، وقِيلَ فيه أبيات مُطوَّلة من جُملتها: "وكيف يزكي المال من هو باذله"[1].

وأقول:

(نُبذة من الفوائد ممَّا اكتسبتها من العُلماء رضي الله عنهم)

[الأوائل]

أول أولاد آدم قابيل، وأول من خَطَّ بالقلم وخاط الثياب إدريس(عليه السلام)، وأول من تعلَّم بالعربية ورمى بالسِّهام إسماعيل(عليه السلام)، وأول من عمل القراطيس يوسف الصِّدِّيق(عليه السلام)، وأول من سرد الدروع داوود(عليه السلام)، وأول من عمل الصابون والحمَّام سُليمان(عليه السلام)، وقيل: "جمشيد"[2]، وأول من عمل الرقاق نمرود، وأول من صبغ السوداء فرعون، وأول من عمل الآجُرّ هامان، وأول من وضع علم النحو أبو الأسود الدؤلي، وأول من نقط المصاحف يحيى بن مَعْمَر.

[سُنَّة تقليم الأظافر]

وأقول في تقليم الأظافير:إنه سُنَّة مأمور بها، يبدأ بيده اليُمنى، فيبدأ بالخنصر ثم بالوسطى ثم بالإبهام ثم بالبنصر ثم بالسبابة، ثم في اليد اليسرى يبدأ بالإبهام ثم بالوسطى ثم بالخنصر ثم بالسبابة ثم بالبنصر، فإنه أمان من الرَّمَد[١٢٩أ].

[مجلس قراءة البُخاري بالقلعة]

أقول: وأوقات قراءة البُخاري هي أعظم الأوقات، يُقرأ بالقصر الشريف، فيجتمع لذلك قُضاة القُضاة أهل الحل والعقد، والعُلماء أئمة الدين، والقُضاة، والمُدرِّسون، وجماعة من الفُضلاء،والقُرَّاء، والمُحدِّثين، والسُّلطان، والأُمراء، وجماعة من الأعيان يستمعونه، وابتداء ذلك من مُستهل رجب الفرد، وختمه في السابع والعشرين من شهر رمضان المُعظَّم قدره، ويحصل مُباحثات في مسائل جمَّة، وعند نهاية ذلك يُخلع عليهم بتشاريف سيأتي بيانها في فصل ديوان

---

[1] أصل البيت: "يقولون معن لا زكاة لماله.. وكيف يزكي المال من هو باذله"، وهو من شعر قيل في كرم معن بن زائدة (ت:١٥٢هـ).

[2] من ملوك الفُرس القُدماء.

الخواص الشريفة، ويُنعم عليهم بصور مُقرَّرة بديوان الذخيرة الشريفة، وهو يوم مشهود، وهذا في غاية الأُبَّهة لإظهار شعائر الإسلام[١].

[مسائل فقهيَّة]

أقول: ومن المسائل الفقهيَّة[٢]:

إنسان يُصلِّي على سجادة، فلمَّا أحرم بالصلاة وأراد السجود نظر على موضع سُجوده من السجادة نجاسة، فأخذ طرف السجادة وسجد على موضع طاهر، هل صحت صلاته أم لا؟

إذا أُجيب فيها بالصحة أو بالباطل فهو خطأ، والصواب من الجواب أنه إن أخذ الطرف الطاهر من السجادة وغطَّى به النجاسة، وسجد عليه صحت صلاته، وإن أخذ طرف السجادة الذي عليه النجاسة، ورفعه عن موضع سجوده، وسجد على الأرض بطلت صلاته، لأنه حمل في صلاته نجاسة فبطلت.

وأيضًا مسألة: رجُلان دخلا مسجدًا وصلَّيا، واعتقد كل واحدٍ منهُما أنَّ صلاته وقعت جماعة مع صلاة صاحبه، ثم فرغا وانصرفا، فهل صحت صلاتهما لاعتقادهما أم لا؟

إن أُجيب بالإثبات أو بالنفي مُطلقًا كان خطأ، والصواب من الجواب: إن كان كل واحدٍ منهُما يعتقد حصول الجماعة مع صاحبه لكونهِ إمامًا وصاحبه مأمومًا فصلاتهما صحيحة لكل واحد، وإن كان كل واحد يعتقد أنه مأموم وصاحبه إمام فصلاتهما باطلة.

وأيضًا: رجل اشترى عينًا، وتلفت في يدهِ بعد القبض، ثم اطلع على عيب قديم، فهل له الرجوع بالأَرش أم لا؟

إن أُجيب فيها بالنفي أو بالإثبات مُطلقًا فهو خطأ، والصواب من الجواب: إنَّ العين المبيعة إن كانت سلعة غير دراهم أو دنانير فله الرجوع بالأَرش، وإن كانت دراهم أو دنانير في عقد[١٢٩ب] صرف بيعت بدراهم أو دنانير

---

(١) عن هذا المجلس. انظر: محمد جمال الشوربجي: مجلس قراءة صحيح البخاري في قلعة الجبل في العصر المملوكي، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، ع ١٠٦، يوليو ٢٠١٦م، ص٦٩٩-٧١٦.

(٢) هذه الفتاوى نقلها المؤلِّف من كتاب العقد الفريد للنصيبي، ص١٨٢، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٢.

وتقابضا، فإنه لا يجوز الرجوع بالأَرش لما فيه من الوقوع في الرِّبا، ولكن يُفسخ العقد بينهما، ويرد مثل التالف، ويسترجع ما سلمه إن كان باقيًا، أو بدله إن كان تالفًا.

وأيضًا: رجل تزوج امرأة بشرط أن لا يطأها ليلًا، فهل يصح النكاح بهذا الشرط أم لا؟

إن أُجيب فيها بالإثبات أو بالنفي مُطلقًا فهو خطأ، والصواب من الجواب: إنَّ الشرط إن كان من جانب الزوجة بطل النِّكاح، وإن كان من جانب الزوج لا يبطُل فهو حقه.

وأيضًا: رجُل وجب له القصاص على رجُل في نفسه، فأحضره ليقتله قصاصًا، فهل يجوز له أن يعفو عن قتله أم لا؟

إن أُجيب فيها بالاثبات أو النفي مُطلقًا فهو خطأ، والصواب من الجواب: إنَّ القاتل إن كان عبدًا لرجُل فقتل عبدًا آخر لسيده قتلا أوجب عليه القصاص، فلسيده أن يقتله قصاصًا، ولا يجوز أن يعفو عنه على المال لتعذره، أو إن كان رجُلًا قد قطع عضوًا من رجُل، والعضو مُقابَل بالدِّية الكاملة كالذكر والأنف واليدين وما أشبه ذلك، فاقتصَّ المقطوع منه ذلك من القاطع، ثم بعد ذلك سرى القطع إلى نفس المجني عليه فصار القطع قتلًا، فقد وجب القصاص في نفس الجاني، فللولي أن يقتله قصاصًا، ولو أراد أن يعفو عنه على مال لم يجر، فإنَّ أَرش العضو يدخل في دِيَة النفس، فيجب دِيَةٌ واحدة، وقد أخذ المَجني عليه عضوًا مُقابلًا بدِيَة النفس، فلا يجب له شيء آخر بعدها، وإن كان القاتل غير ذلك فله أن يعفو على مال.

[عِلَل اجتماع القُضاة وغيرهم بالسُّلطان وترتيب مجالسهم]

وأقول: يجتمع قُضاة القُضاة أهل الحل والعقد، والعُلماء أئمة الدين، والقُضاة، ومشايخ الحديث، والمُدرِّسون[1] في غُرَّة كل شهر يُباركون للسُّلطان بالشهر، وكذلك في المواسم.

وإذا طرأ مُهِم، أو عقد[2] لمجالس يكون: جلوس قاضي القُضاة الشافعية رأس الميمنة، وقاضي القُضاة الحنفية رأس الميسرة، وقاضي القُضاة المالكية

---

(1) ث: المدرسين.

(2) ث: عقدا.

يجلس تحت قاضي القُضاة الشافعية، وقاضي القُضاة الحنابلة يجلس تحت قاضي القُضاة الحنفية، وبقيَّة العُلماء والقُضاة يجلسون يمينًا ويسارًا[١٣٠أ] تحت قُضاة القُضاة على حسب منازلهم.

[نُوَّاب القُضاة بالديار المصرية]

وبمصر والقاهرة ما ينيف عن أربعين قاضي نُوَّاب قُضاة القُضاة المذكورين، تقدَّم نُبذة من الكلام عليه، وأنَّ كل قاض منهم يُضاهي قاضي قُضاة مملكة من الممالك، ولكلٍّ منهم موقِّعين ونقيب ورُسُل، وإذا طرأ مُهم أو عُقد مجلس عند أحد المُلوك الأعيان الحُكَّام بالديار المصرية، فيستدعي بجماعة من أعيان هذه القُضاة لإبرام الأمور وإيضاح مُشكلاتها:

كشمس الدين محمد بن الأمانة[١] الشافعي، والقاضي نور الدين بن أقْبُرُس الحنفي[٢]، والقاضي مُحب الدين محمد بن عُبيد الله الأردويلي الحنفي[٣]، وأخوه القاضي شهاب الدين أحمد[٤]، والقاضي شمس الدين محمد بن محمد بن يحيى بن المُخلطة المالكي[٥]، والقاضي شهاب الدين بن تمراز الحنفي[٦]، والقاضي شهاب الدين بن التقي المالكي[٧]، والقاضي عز الدين الحنبلي.

وكل من سبق حُكمه فلا ينقض، ولا يُعترض عليه إذا كان حقًّا بمُقتضى مذهبه.

وثَمَّ مِن القُضاة الأفاضل من يُرحل إليه، وما ذكرتُ هؤلاء من دونهم خاصة إلا لكونهم أصحابي، وحفظتُ عنهم مسائلًا جَمَّة.

---

(١) ث: "أمانة"، وهو محمد بن أحمد بن عبد العزيز الأبياري الشافعي، ويُعرف بابن الأمانة، توفي سنة ٨٣٩هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٣١٨-٣٢١.

(٢) لعل الوارد في المتن وهم من المؤلِّف، فالقاضي هو علاء الدين علي بن محمد بن أقبرس الشافعي، ويُعرف بابن أقبرس، تولى كثير من الوظائف ونيابة القضاء بعدة مدن بأقاليم مصر، توفي سنة ٨٦٢هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٣) هو محمد بن عبيد الله بن عوض بن محمد الأردبيلي الشرواني القاهري الحنفي، توفي سنة٨١٩. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٨، ص١٣٩.

(٤) توفي سنة٨٤٤هـ. انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص٣٧٥-٣٧٦.

(٥) توفي سنة٨٥٨هـ.انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٧-٢٨.

(٦) لم أعثر على ترجمته.

(٧) هو أحمد بن محمد بن أحمد الدميري القاهري، توفي سنة٨٤٣هـ.انظر: السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٧٨-٨٠.

وفضائل العُلماء والقُضاة كثيرة لا تُحصى، ومزاياهم عديدة لا يُدرك أمرها ولا يُستقصى، وإنما هذه نُبذة من بعض صفاتهم لا يبلغ عُشر معشارها، ولا يقدرواصف يصف جُزءًا من ألف جزء من مقدارها، وليس وضعنا هذا المُصنَّف لهذا المعنى، وإنما المُراد به تبيين بعض أحوالهم في مقامهم الأسنى.

[فائدة شرعيَّة]

ثم إنني أردت ختم هذا الباب بفائدة شرعية عن مشايخنا- رضي الله عنهم- عن أبي هريرةﷺ في صحيح البُخاري أنه قال: قال رسول اللهﷺ: {من قال لا إله إلا الله وحدهُ لا شريك له له المُلك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرَّة كانت له عدل عشر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي، ولم يأتي بأفضل ممَّا جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك}[1].

[1] كتاب بدء الخلق، حديث رقم ٣٢٩٣.

الفهرس

المحقق في سطور

الاسم : محمد جمال حامد نعمة الله الشوربجي.

- تاريخ الميلاد: ١٣/ ١٢/ ١٩٨٦م
- **البريد الاليكتروني:** dr_m_gamal8828@yahoo.com
- حاصل على درجة الدكتوراه في تاريخ العصور الوسطى من كلية الآداب بجامعة المنوفية ٢٠١٥م، له العديد من الكتب والبحوث، ومن كتبه في مجال النشر التراثي:

- هدية العبد القاصر إلى الملك الناصر لعبد الصمد بن يحيى الصالحي (ت: بعد ٩١٧هـ) "تحقيق"، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٧م.
- ابن الصيرفي (ت: ٩٠٠هـ) "حياته وآثاره التاريخية"، ويليه تتمة كتابه نُزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان (تتمّة حوادث سنة ٨٤٩هـ وسنة ٨٥٠هـ)، وذيل على "إنباء الغُمر" لابن حجر (تتمة وفيات سنة ٨٥٠هـ)، دار نور حوران للنشر، دمشق، ط٢، ٢٠٢١م.
- المُنتقى من مُسوَّدة تاريخ حلب لزين الدين عُمر بن عبد الوهاب العُرضِي الحلبي (ت: ١٠٢٤هـ)، حوادث سنوات (٩٨١-٩٨٦هـ) لمُنتقٍي شامي مجهول، ويليه المُلتقط من مُعجم العُرضِي، تحقيق، دار نور حوران للنشر، دمشق، ٢٠٢٠م.
- ابن زُنْبُل الرَّمَّال "شهاب الدين أحمد بن علي زُنْبُل المحلِّي" (٩١٠- بعد ٩٧٥هـ) حياته وتراثه الفكري، دار نور حوران للنشر، دمشق، ٢٠٢٠م.
- عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان، حوادث (٨٠٧-٨١٤هـ) لبدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ)، تحقيق، سلسلة التراث الحضاري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٢١م.
- أَحْكَام النُقود وغَيرِهَا مِن المُوزونَاتْ والمِكْيَلات" لعبد الرؤوف المُناوي(ت:١٠٣١هـ)، تحقيق مُشاركة، سلسلة التراث الحضاري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٢١م.
- سيرة السلطان الظاهر جقمق للعيني (ت: ٨٥٥هـ)، و"الدُّرَّة المُضيَّة في المآثر الأشرفيَّة" لابن القصبي (ت: ٨٩٥هـ)، تحقيق، دار نور حوران للنشر، دمشق، ٢٠٢١م.
- سيرة السُلطان الأشرف قايتباي "قطعة من كتاب بهجة السالك والمسلوك في تاريخ الخلفاء والسلاطين الملوك" لناصر الدين الجعفري، حوادث سنوات (٨٧٢-٨٨٥هـ)، تحقيق، دار نور حوران للنشر، دمشق، ٢٠٢١م.

- "تعاليق على بعض تراجِم الضوء اللامع" مُستخرجة من كتاب "البدر الطالع من الضوء اللامع" لابن عبد السلام المنوفي (ت: ٩٢٧هـ)، جمع وتحقيق، دار نور حوران للنشر، دمشق، ٢٠٢١م.
- تاريخ مصر المحروسة (٩٢٨-٩٧٥هـ) لابن زنبل الرَّمَّال، ويليه تتمة تاريخ مصر المحروسة (٩٤٥-٩٧٥هـ) له، جمع وتحقيق، نور حوران للنشر، دمشق، ٢٠٢١م.
- "القول الجلي وحاكمها الباشاه علي"، و"قمع الواشين في ذم البراشين" لنور الدين ابن الجزار الشافعي (ت: بعد٩٨٩هـ)، تحقيق، نور حوران للنشر، دمشق، ٢٠٢١م.
- "تعاليق على الخطط المقريزية" من كتاب قطف الأزهار من الخطط والآثار" لأبي السرور البكري (ت: بعد١٠٥٨هـ)، تحقيق، مركز التاريخ العربي للنشر، إسطنبول، ٢٠٢٢م.
- "ثَبَتُ العَجَمِي" لشهاب الدين العجمي (ت: ١٠٨٦هـ)، تحقيق، دار الأمل، الإسكندرية، ٢٠٢٢م.
- "القولُ المُختارْ في ذكرِ الرِّجال الأخيارْ" لفايد بن مُبارك الأبياري (ت: بعد ١٠٩٤هـ)، تحقيق، دار الإحسان، القاهرة، ٢٠٢٢م.

صدر من سلسلة التراث الحضاري

١- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، لابن ظهيرة.
٢- منامات الوهراني، للوهراني.
٣- رسالة آداب السفرة، للسمناني.
٤- الأدوار في الموسيقى، للأرموي.
٥- جالينوس: فرق الطب للمتعلمين، نقل (أبي زيد حنين بن إسحاق العبادي المتطبب).
٦- الجواهر وصفاتها، ليحيى بن ماسويه.
٧- التحفة السنية، لابن الجيعان.
٨- كاتب الشونة، جمعها وكتبها/ أحمد بن الحاج أبو علي.
٩- هذه رسالة جليلة في توجيه النصب في بعض كلمات نحو:- فضلًا وخلافًا ولغة وأيضًا وهلم جرا لابن هشام المصري، تحقيق د./ إيمان حسين السيد حسين، دراسة/ محمد حسين السيد حسين.
١٠- كتاب الأنساب/ للحمداني، جمع ودراسة وتحقيق د. أسامة السعدوني جميل.
١١- رسالة ثامسطيوس إلى يوليان الملك في السياسة وتدبير المملكة، تحقيق وشرح: دكتور محمد سليم سالم.
١٢- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تأليف: أبي الوليد بن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨م).
١٣- كتاب الجبر والمقابلة، لمحمد بن موسى الخوارزمي، قام بتقديمه والتعليق عليه: علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي أحمد.

١٤- من نصوص كتاب المتين للمؤرخ القرطبي الكبير أبي مروان بن حيان، جمعها من مطبوع ومخطوطات الذخيرة لابن بسام ودرسها، وحققها وقارنها بنصوص المصادر الأخرى، العربي منها والأوروبي د. عبد الله محمد جمال الدين.

١٥- كتاب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لمحمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المشهور بابن بطوطة، تقديم ودراسة: د. يسري أحمد زيدان.

١٦- رسالة في توجيه قراءة ابن محيصن في الإستبرق، لعبد القادر البغدادي - تحقيق ودراسة: د. محمد جمعة الدِّربيّ.

١٧- الأنوار والمراقب، الجزء الأول، نسخةُ من المخطوط ليون نيموي، تحقيق: د. حسين عبد البديع حسين، مراجعة ودراسة: د. أحمد محمود هويدي.

١٨- جامع التواريخ، ترجمة عن الفارسية لمقدمة رشيد الدين لجامع التواريخ وتاريخ هولاكو، ترجمة: محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبد المعطي الصياد، مراجعة: يحيى الخشاب.

١٩- عيون الحكمة، تصنيف الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا، تحقيق: د. إلهام مصطفى محمد، مراجعة: أ.د. مصطفى لبيب.

٢٠- الشكوك على بطليموس، للحسن بن الهيثم، تحقيق: د. عبد الحميد صبرة، د. نبيل الشهابي، تصدير: د. إبراهيم مدكور. دراسة: د. أحمد فؤاد باشا.

٢١- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ المحمودي"، لبدر الدين العيني، حققه وقدم له: فهيم محمد شلتوت، راجعه: د. محمد مصطفى زيادة، دراسة اقتصادية: د. أسامة السعدوني جميل.

٢٢-كتاب مَا لا يَسْتَغْنِي عَنْهُ الإِنْسَانُ مِنْ مُلَحِ اللِّسَانِ، تأليفُ: أبي الحسنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُمَرَ بنِ حسنِ الرُّبَاطِ بنِ علي بن أبي بكرٍ الْبِقَاعِيِّ الشَّافِعِيِّ، (٨٠٩هـ - ٨٨٥هـ) (١٤٠٦م - ١٤٨٠م)، دراسةُ وتحقيقُ: مُحَمَّد حُسَيْن السَّيِّد حُسَيْن.

٢٣-كتاب التبصر بالتجارة، في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة، والأعلاق النفيسة، والجواهر الثمينة. تأليف: أبي عثمان بن بحر الجاحظ البصري، إعداد: إكرامي عشري.

٢٤-ابن باجة، تعليقات في كتاب باري أرمينياس، ومن كتاب العبارة لأبي نصر الفارابي. تحقيق: د. محمد سليم سالم، دراسة: د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور.

٢٥-كتاب أخبار سيبويه المصري، تأليف: الحسن بن زولاق، نشره لأول مرة محمد إبراهيم سعد وحسين الديب (سنة ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م)، دراسة: د. نهلة أنيس محمد مصطفى.

٢٦-علم الساعات والعمل بها، تأليف: رضوان بن محمد الساعاتي مع مجموع في الميكانيك الإسلامي، تحقيق: محمد أحمد دهمان، تقديم العلامة: د. شاكر الفحام، توطئة: سلوى بكر.

٢٧-مؤنس الوحدة، ضياء الدين بن الأثير الجزري، (٥٥٨ - ٦٣٧هـ)، دراسة وتحقيق: أحمد مهدلي.

٢٨-كتاب جالينوس إلى غلوقن في التأتي لشفاء الأمراض، مقالتان شرح وتلخيص: حنين بن إسحاق المتطبب، تحقيق وتعليق: د. محمد سليم سالم.

٢٩-أَحْكَام النُقود وغَيرهَا مِن الموزونَاتِ والمِكْيَلات، وهو الكتاب السابع من كتاب تيسير الوقوف على غوامض أحكام الوقوف، تأليف: زين الدين عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي، ت: ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م، تحقيق: د. محمد جمال الشوربجي، د. أسامة السعدوني جميل، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.

٣٠-عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تأليف: بدر الدين محمود بن أحمد العيني، تحقيق: د. محمد جمال حامد الشوربجي.

٣١-كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، تأليف: أحمد بن يوسف التيفاشي، حققه وعلق عليه وشرحه: د. محمد يوسف حسن، د. محمود بسيوني خفاجي.

٣٢-المُفضَّل على المُفصَّل (المُشْتَرك)، تأليف: محمد بن حسام الهرويّ، المتوفى بعد سنة (٧٥١ هـ)، تحقيق: مهتدي فتحي عبد الصمد.

٣٣-المسائل لأبي علي يحيى بن غالب بن محمد البغدادي المنجم المعروف بالخياط ، تلميذ المنجم اليهودي ماشاء الله بن أثري، توفي بين عامي (٢١٠ - ٢٣٠هـ) (٨٢٥- ٨٤٥م)، المقالات على الأحكام البسيطة مما ذكره الحكماء ورسالة في دلائل القمر، تحقيق: د. نهى عبدالرازق الحفناوي.

٣٤- الأمانات والاعتقادات، تأليف: سعيد بن يوسف، المعروف بسعديا الفيومي، تحقيق: أ.د. شريف حامد سالم، مراجعة ودراسة: أ.د. أحمد محمود هويدي.

٣٥- العيون وعلاجها عند قدماء المصريين نقلًا عن قراطيسهم، ترجمة الفقير: أحمد بك كمال، دراسة: محمد سيد كمال.

٣٦-الفاشُوشُ في حُكْمِ قَراقُوشَ، للأسعد ابن مَمَّاتي، ت (٦٠٦هـ - ١٢٠٩م)، وما جمعه جلال الدين السيوطي، ت (٩١١هـ - ١٥٠٥م).

٣٧-رسالةٌ في عِلْم الكِتابَةِ والأخْبارِ لمصنَّفٍ مصْريٍّ مَجهُولٍ منْ العَصرِ العُثْمَاني، تحقيق ودراسة: د.أحمد جمعة عبد الحميد، د. حسن علي عبيد، د. يحيى زكريا سرور.

٣٨-تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب، تأليف: محمد بن خلف بن المَرْزُبان، ت (٣٠٩هـ)، تحقيق ودراسة: د. محمد زكريا يوسف، د. السيد أحمد إبراهيم.

٣٩-كتاب كامل الصناعتين البيطرة والزردقة، تأليف: أبي بكر بن بدر الدين المنذر البيطار، (٧٠٩هـ - ٧٤١هـ)، (١٣٠٩م - ١٣٤٠م)، بخزانة الملك الجليل السلطان الأعظم الملك الناصر، محمد بن قلاوون، تحقيق: الطحاوي سعود الطحاوي.

٤٠-الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل، تصنيف: أبي العز بن إسماعيل الجزري، تحقيق: الدكتور/ أحمد يوسف الحسن، دراسة علمية: أ.د. حافظ شمس الدين، الفنان المهندس/ أحمد الجنايني.

٤١-تاريخ الرَّهاوي المجهول، المتوفى بعد عام (عام ٦٣٥هـ - ١٢٣٧م)، عَرّبه عن السريانية ووضع حواشيه الأب ألبيرأبونا، دراسة: د. محمد عبد الخالق عبد المولى.

٤٢-مبَاهِج الإخوانِ ومنَاهِج الخِلَّانِ في حَوادِثِ الدُّهُورِ والأزمَانِ (يحوي تاريخ مِصْر وتَراجِم أعيانها)، للمُؤرِخ المصري: شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن، المعروف بابن العجمي (ت: بعد ١٠٤٥هـ / ١٦٣٦م)، الجزء الأول - القسم الأول، حوادث وتراجِم سنوات (٩٢٣- ١٠١٢هـ / ١٥١٧- ١٦٠٤م)، دراسة وتحقيق: د. محمد جمال حامد الشوربجي.

٤٣-مبَاهِج الإخوانِ ومنَاهِج الخِلَّانِ في حَوادِثِ الدُّهُورِ والأزمَانِ (يحوي تاريخ مِصْر وتَراجِم أعيانها)، للمُؤرِخ المصري: شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن، المعروف بابن العجمي (ت: بعد ١٠٤٥هـ / ١٦٣٦م)، الجزء الأول - القسم الثاني، حوادث وتراجِم سنوات (١٠١٣- ١٠١٦هـ / ١٦٠٥- ١٦٠٨م)، دراسة وتحقيق: د. محمد جمال حامد الشوربجي.

٤٤-مبَاهِج الإخوانِ ومنَاهِج الخِلَّانِ في حَوادِثِ الدُّهُورِ والأزمَانِ (يحوي تاريخ مِصْر وتَراجِم أعيانها)، للمُؤرِخ المصري: شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن، المعروف بابن العجمي (ت: بعد ١٠٤٥هـ / ١٦٣٦م)، الجزء الثاني، حوادث وتراجِم سنوات (١٠١٧- ١٠١٩هـ/ ١٦٠٩- ١٦١١م)، دراسة وتحقيق: د. محمد جمال حامد الشوربجي.

٤٥-الجُمَاهِرُ في مَعرِفَةِ الجَوَاهِرِ، تأليف: أبي الريحان محمد بن أحمد البَيرُوني الخوارزمي (٣٦٢هـ - ٤٤٠هـ / ٩٧٣م - ١٠٤٨م)، دراسة وتحقيق: أ.د. طارق نازل.

٤٦-من أعمال الحميدي الأندلسي، أبو عبد الله محمد بن فتُّوح الأزدي الحميدي ت (٤٨٨هـ - ١٠٩٥م)، ١- كتاب الذهب المسبوك في وعظ الملوك، تحقيق: محمد حسين السيد حسين، دراسة: د. عادل يحيى عبد المنعم، ٢- كتاب جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق: لجنة إحياء التراث، دراسة: د. عادل يحيى عبد المنعم.

٤٧-فُنُونُ المَنُونِ في الوَبَاءِ وَالطَّاعُونِ، تأليف: جَمَالُ الدِّينِ يُوسُفُ بنِ أَحْمَدَ بنِ عَبْدِ الهَادِي، (ابن المِبْرد)، (ت: ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م)، تحقيق ودراسة: د. عثمان علي عطا، د. عيد فتحي عبد اللطيف.
٤٨-زُبدة كَشْفِ الممَالِكْ وبَيَانِ الطُّرُقِ وَالْمَسَالِكْ، تأليف الأمير: غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري الحنفي، ت (٨٧٣هـ /١٤٦٨م)، الجزء الأول، دراسة وتحقيق: د. محمد جمال حامد الشوربجي.



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب